

4017
-517

نارخ الحركات القومية

وتطور نظم الحكم

فمصر

عبد الرحمن الراجي بك

الجزء الاول

٢٥

حو الطبع محوط

الطبعة الاولى — ١٣٤٧ هـ — ١٩٢٩

مطبعة النهضة شارع عبد الباقى بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاتحة كل خير وقاية

مقدمة

— ١ —

لكل أمة صفحة من الحياة القومية تحوى تاريخ الجلود التى بدلتها والآلام التى عانتها فى سبيل حريتها واستقلالها
تلك الصفحة أول ما تعنى كل أمة بتدوينه ، ففيها ذكريات لجهاد الماضى ، وعبر
لجهد الحاضر ، وعظات لجهد المستقبل ، فيها بيان لنصيب الأجيال المتعاقبة فى
أداء الأمانة القومية ، تلك الأمانة المقدسة ، وديعة السلف للخلف ، ووصية
الآباء للأبناء

وهذا كتاب دونت فيه تاريخ الحركة القومية المصرية ، أضع بين أيدي القراء
الجزء الأول منه ، راجياً أن أتبعه بالأجزاء الباقية ، لأحقق أملاً تعلقته به نفسى ،
وأتم عملاً شرعت فيه منذ سنين

— ٢ —

كان فى نيتى من سنوات عدة أن أضع تاريخاً لعقيد الوطن العظيم المغفور له
« مصطفى كامل » على مسال كتاب « بول دُشَازِل » عن « جُمُيُنَا » ، خدمةً للقضية
الوطنية ، وأداءً لواجب الوفاء نحو من تلتئمى عنه مبادئ الوطنية الأولى

أعددت مواد الكتاب وكتبت بعض فصوله ، لكن تاريخ مصطفى كامل باشا استتبع الكلام في مبدأ ظهور الحركة القومية بمصر ، والتطورات التي تعاقبت عليها ، فاستوقفتي هذا البحث ، وأخذت أعالج إدماجه في الكتاب كفصل من فصوله فلم أستطع ، لتشعب الموضوع وانفساح مداه ، ورأيت الإيجاز فيه لا يشفي غليلاً ولا يؤدي الى الغاية التي أنشدها من وضع الكتاب ، فتغيرت وجهة نظري في العمل ، وتناقت نفسي الى دراسة أدوار الحركة القومية من بدء ظهورها الى اليوم ، فعزمت على تغيير برنامج الكتاب ، ووضعت له تبويبا يجعل تاريخ مصطفى كامل باتساً جزءاً من أجزائه

إن مصطفى كامل يمثل دوراً من أدوار الحركة القومية ، سبقته أدوار وتلتها أخرى ، ولا تكون دراسة الحركة القومية وافية إذا اقتصرنا على عصر واحد من عصورها ، بل يجب أن يتناولها البحث بأجمعها ، من أجل ذلك عزمت على أن أقرن دراسة هذا العصر بالعصور التي خلت من قبله ، والأدوار التي تلت من بعده ، فاتمما هي سلسلة متصلة الحلقات من جهاد الأجيال المتعاقبة لتحقيق آمال مصر وإدراك مطمحها الأسمى

اعتزمت إذن أن أكتب عن تاريخ الحركة القومية في مصر ، فترامت شقة البحث ، وتشعبت أمامي مسالك العمل ، وطويت أوراقى الأولى ، وشرعت أبحث مواضيع الكتاب من جديد ، فأخذت في الرجوع الى الأدوار التي تقدمت عصر مصطفى كامل لأقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية ، رجعت الى الحركة العراقية ، فإذا بها ترجع أسبابها ومقدماتها الى حركة الاستياء من نظام الحكم القديم والى الحركة الفكرية والسياسية التي ظهرت على عهد اسماعيل ، وهذه الحركة الاخيرة لم تظهر فجأة ولم تكن الأولى في تاريخ مصر القومى ، بل هي تطور حديد للروح

القومية التي بدأت تظهر في البلاد أواخر القرن الثامن عشر ، فالى هذا العهد يجب أن يرجع مبدأ الحركة القومية المصرية ، وأول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، فإن هذه المقاومة كانت أول شرارة أشعلت جذوة الروح القومية في نفوس المصريين ، وهي أول صفحة من صفحات الجهاد الاهلى في تاريخ مصر الحديث

— ٤ —

بدأ العامل القومى يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ذلك حين نهضت الامة لمقاومة الاحتلال الفرنسى بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتخلص من احتلال الفرنسيين ، وظل العامل القومى محتفظاً بقوة بعد جلاء الجيش الفرنسى ، فلم يستطع الترك ، ولا المماليك ، ولا الانجليز ، أن يهزموه ، أو يقهروه ، أو يبعده عن الميدان ، وكان من نتائجها بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم على الوالى التركى ، ثم المناداة بمحمد على والياً مختاراً على مصر ، ثم إخفاق الحملة البريطانية التي جردتها انجلترا لتحقيق أطماعها في وادى النيل ، وهزيمتها في (رشيد) و (الحماد)

فالحركة القومية المصرية يرجع ظهورها إلى مائة وثلاثين سنة ، من ذلك الحين ولدت وظهرت ، ثم أخذت في النمو والتطور شأن الكائن الحى ، وتماقبت عليها الأدوار المختلفة ، فحيناً كانت تقوى ، وآونة تضعف ، وطوراً تشتد وتنشط ، وتارة تخمد وتفتقر ، على أنها طوال هذه السنين سائرة في الجملة إلى الأمام ، ولئن أصابتها أطوار تراجع ، من ضعف أو فتنة ، فانها لا تلبث أن تعود إلى النشاط والتقدم ، مجددة قواها ، منتفعة من التجارب ، طامحة إلى المثل الأعلى

يرجع بدء الحركة القومية إذن إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ،
ولإثبات هذه الحقيقة ودراستها على ضوء الوقائع التاريخية وبحث مقدماتها وتأثيرها
قد خصصت الجزء من الأول والثاني من الكتاب ، فنهما تتألف الحلقة الأولى من
سلسلة الحركة القومية

وتمت بحث آخر استتبعه تاريخ الحركة القومية وهو دراسة نُظُم الحكم التي تخللت
أدوارها ، ذلك أن سياسة الحكم وأساليبه كانت في مختلف العصور والبلدان من
الأسباب الرئيسية لظهور الانقلابات والحركات القومية ، كما أن لهذه الحركات أثراً
فعالاً في تطور نظام الحكم ، بحيث نجد بينهما اتصالاً طبيعياً يجعل الاشتراك في
بعضهما أمراً لا مندوحة عنه ، لذلك جعلت دراسة نُظُم الحكم في مصر وتطورها
قسماً من أقسام الكتاب وأودأت إليها في عنوانه

على هذا النحو شرعت في بحث أقسام الكتاب ومواضيعه ، ومهدت له بدراسة
الحركات القومية في أوروبا وأمريكا للوقوف على ما بها من حقائق وعظات ، وما بينها
وبين حركتنا القومية من ملاسبات ومشابهات ، ووضعت سنة ١٩٢٢ كتاباً (١) في
تاريخ النهضة القومية في بعض البلدان كمقدمة لدراسة الحركة القومية في مصر

ما هي الجهود التي بذتها الأمة في سبيل تحرير مصر من النير الاجنبي وفك
قيود الاستبداد عنق تقرير حقوق الشعب السياسية ؟ ما هي الجهود التي بذلتها
والآلام التي احتملتها في سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة ؟ ما هي الحوادث التي
ارتبطت بهذه الجهود أو وقعت خلالها وناصرتها أو عرقتها ؟ ما هي الأدوار التي

(١) « الجمعيات الوطنية ، صحيفة من تاريخ النهضة القومية »

تطورت اليها الحركة القومية من بدء ظهورها إلى اليوم ؟ ما هي نظم الحكم التي تعاقبت على البلاد في خلال تلك الأدوار وما مبلغ أثرها في تطور الحركة القومية ؟ هذا هو موضوع الكتاب وتلك هي المسائل التي بحثتها جهد المستطاع على هدى الحقائق التاريخية

وبعد ، فلست مدعياً في هذا الكتاب أنني وفيت الموضوع حقه وكفايته من الدرس والبحث ، فإني مقر بأن هذا التاريخ بعيد الأفق واسع المدى يحتاج إلى دراسة مستطيلة في مباحث مستفيضة ومؤلفات عديدة ، وحسبك أن تلقى نظرة على ما لا يحصى من الكتب التي ظهرت ولا تزال تظهر إلى اليوم في تاريخ الانقلابات والحركات القومية في مختلف البلدان ترى أن كتاباً واحداً لا يمكن أن يفي بتدوين صفحات الجهاد القومي

والآن أقدم لمواطني الأعراء الجزء الأول من الكتاب ، وأرجو من القارئ أن يتجاوز عما به من زلات القلم وهفوات الكتابة ، والله يعصمنا من الشطط والهوى ويلهمنا الصدق والاخلاص في خدمة الوطن العزيز

عبد الرحمن السرافمي

أول يناير سنة ١٩٢٩

أهداء الكتاب

إلى أخي العزيز المرحوم أمين بك الرافعي ، من قَدَّتهُ أحوجَ ما أكون إلى حبه وعطفه ، إلى ذكره المجيدة ، إلى رُوحه الطاهرة أهدى هذا الكتاب

أهديك يا أخي العزيز كتابي وقد حالَ الحَوْلُ وانقضى العام على انتقالك إلى الرفيق الأعلى ، ولم كنت أرجو أن أهديه وأنت مني قريبٌ ، في عالم الدنيا ، أما وقد فرق الموت بيني وبينك فَلَسْتُ تَمُبِّلُ رُوحَكَ الطاهرة هدية أخيك الحزين

اللهم بارئ تلك النفس العالية ، ومرسلها من نورك كوكباً إنسانياً ، ومُعِيدَهَا إلى جوارك كوكباً أزلياً ، أَدْخِلْ عَلَيْهَا رَوْحاً من عندك ، وسلاماً مني ،
يا قريبَ الدُّعاءِ

عبد الرحمن الرافعي

٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨

الفصل الاول

نظام الحكم في عهد المماليك

يبدأ كتابنا بظهور الروح القومية المصرية في أواخر القرن الثامن عشر وتطور نظام الحكم من ذلك الحين ، على أن من الواجب أن نقول كلمة عن نظام الحكم في مصر قبل ذلك العصر ، أى في عهد البكوات المماليك ، (١) لتكون تلك الكلمة بمثابة تمهيد لبيان التطور الذى طرأ من بعد على ذلك النظام دخلت مصر في حوزة الحكم العثماني ابتداء من سنة ١٥١٧ (٩٢٣هـ) باستيلاء السلطان سليم على البلاد وزوال سلطنة المماليك الشراكسة منها ، فاستتبع الفتح العثماني وضع نظام جديد للحكم في مصر وهو النظام الذى رزحت تحته البلاد نحو ثلاثة قرون متعاقبة من سنة ١٥١٧ إلى سنة ١٧٩٨

من هو الواضع لهذا النظام

ان الفكرة السائدة في هذا الصدد أن واضع هذا النظام هو السلطان سليم ، وهذه الفكرة تراها مبسوبة في معظم كتب التاريخ ، وفي رحلات الافرنج الذين ساحوا في مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر ودونوا ما شاهدوه عن نظام الحكومة المصرية . لكن فريقاً من علماء الحملة الفرنسية الذين درسوا هذا النظام أثناء اقامتهم بمصر يذهبون الى أن السلطان سليمان هو الواضع له ، فالسيو فورييه Fourier سكرتير المجمع العلمى المصرى فى عهد نابليون يقول أن السلطان « سليمان » هو الواضع لنظام

(١) عبرنا عنهم بالبكوات المماليك تمييزاً لهم عن السلاطين المماليك الذين نألفت منهم الدولتان البحرية ، والبرجية (الشراكسة)

الحكم التي عرفت في مصر من عهد الفتح العثماني وان السلطان « سليم » لم يكن رجلا من رجال النظم والقوانين بل رجل حرب وكفاح، ولم يطل مقامه في مصر طويلا حتى يضع نظام الحكم فيها ، وأن السلطان سليمان الذي سن للدولة العثمانية نظمها وقوانينها حتى لقب باتقانوني هو أيضا الواضع لنظم الحكم في مصر ، لكن شهرة السلطان سليم في الحرب وكون الفتح العثماني تم على يده ودخوله في مصر ظافراً كل ذلك جعل الناس يذهبون اليه هذه النظم تسامحاً وتجاوزاً (١). وقد أيد هذا الرأي كل من المسيو لانكري Lanciet (٢) والمسيو استيف Estève (٣) في دراستهما لتلك النظم (٤)

ويقول استيف ان السلطان (سليم) لم يكدر يشرع في وضع نظام الادارة المصرية حتى عاجلته منيته

هذا هو رأى علماء الحملة الفرنسية . ولا يمكننا أن نقبل هذا الرأي على اطلاقه . بل يجب أن نرجع الى الوقائع التاريخية لتبين مبلغه من الصحة . وهنا يجب أن نرجع الى المصادر العربية وبخاصة التي شهد أصحابها وقائع الفتح العثماني أو عاشوا في عهد الحكم التركي وأهم هذه المصادر تاريخ ابن اياس الذي أدرك الفتح العثماني ومخطوطات ابن أبي السرور البكري الذي عاش في عهد الحكم التركي وكتب عنه لغاية سنة ١٠٥٥ هجرية (١٦٤٥ ميلادية)

نخلاصة ما ذكره ابن اياس في تاريخه (٥) ان مدة اقامة السلطان سليم بمصر

(١) انظر كتاب تخطيط مصر Description de l'Egypte وهو مجموعة مباحث علماء الحملة الفرنسية الجزء الاول

(٢) من مهندسي الحملة الفرنسية (٣) مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية في عهد الحملة الفرنسية

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء الحادي عشر « ادارة مصر وحكومتها وضرائبها في عهد البكوات المماليك » بقلم لانكري والجزء الثاني عشر « النظام المالي لمصر » بقلم المسيو استيف

(٥) الجزء الثالث من تاريخ مصر لابن اياس المعروف ببداية الزهور في وقائع الدهور

ثمانية أشهر الا أياما قلائل ، وأنه لم يستمر في الامر في مصر عين وزيره يونس باشا نائباً عنه ، وكان يلقب بنائب السلطنة ، وظل في هذا المنصب فترة من الزمن مدة اقامة سليم في مصر . لكن السلطان (سليم) قبل أن يغادر الديار المصرية بداله أن يعزل يونس باشا من نيابة السلطنة ويوسدها الى «خير بك» . وخير بك هذا هو أحد أمراء السلطان الغورى وكان نائبه في حلب لما وقعت الحرب ، فخرج على سيده ، وانضم الى السلطان سليم وكان من عوامل انتصاره على الغورى ، فكافاه سليم على خيائه بتوليته نائباً عن السلطنة في مصر وكان يلقب من عهد الغورى بملك الأمراء فلازمه هذا اللقب بعد تعيينه نائب السلطنة . ويقول ابن اياس ان السلطان (سليم) لما رحل من مصر ترك بها من عسكره بالقاهرة نحو خمسة آلاف فارس ومن الرماة بالبنادق نحو خمسمائة رام . وعين من أمراء جنده خير الدين باشا قائداً للحامية العسكرية وجعله نائب القلعة يقيم بها ولا ينزل الى المدينة . وكان الامر والنهى لخير بك وسكن القلعة . لكن جنود الحامية ثاروا عليه غير مرة وكادوا يفتكون به . وذكر ابن اياس الفتن التي قامت بين الفريقين والتي شغلت جزءاً كبيراً من نيابة خير بك ومنها يتبين ان التنازع بين نائب السلطنة (الوالى) ورؤساء الجند قد ظهرت بوادره في أوائل العصر العثمانى . وهذا ما كان يرمى اليه السلطان سليم من ايجاد سلطتين متنازعتين ليضمن بقاء الفوضى في البلاد ويطمئن على تبعيتها للسلطنة العثمانية

وذكر ابن أبى السرور البكرى « ان السلطان (سليم) اختار من أمراء الجراكسة أربعين أميراً وجعل لكل منهم أربعين عثمانياً وأمر أن لا يكتبوا في سفر ولا سواء غير حراسة الجسور وهم الذين يقال لهم الآن أمراء الجراكسة » (١)

يؤخذ من ذلك ان السلطان «سليم» قد وضع فعلاً قاعدة النظام السياسى للحكومة ، وهى ايجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاها الاخرى . الأولى

(١) الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة لابن أبى السرور البكرى

سلطة نائب السلطان (الوالى) والثانية سلطة رؤساء الجند . ووضع أيضاً نواة السلطة الثالثة وهى سلطة البكوات المماليك الذين رجع اليهم حكم مديريات القطر المصرى . فمن الحق اذن أن نقول بان السلطان (سليم) هو واضع نظام الحكم السياسى فى مصر من عهد الفتح العثمانى . أما النظم المالية والقضائية فهى فى مجموعها من وضع السلطان سليمان لانها احتاجت زمناً طويلاً حتى استقرت قواعدها . ولم يكن لدى السلطان سليم من الوقت ما يجعله يقرر هذه النظم

نظام الحكم السياسى

والآن فلنتكلم تفصيلاً عن السلطات الثلاث التى كانت أساساً لنظام الحكم السياسى من عهد الفتح العثمانى

الوالى — فالسلطة الاولى هى سلطة الوالى العثمانى . ويلقب بالباشا ومقره القلعة . وهو نائب السلطان فى حكم البلاد . كان يمثله ويبلغ اوامره لرجال الحكومة ويراقب تنفيذها ، وله الرئاسة على عمالها ، على ان سلطته محدودة مقيدة . ذلك أن السلطان (سليم) خشى لبعد مصر عن مركز السلطنة أن يطمح ولايتها الى الاستقلال بها والخروج على حكومة الاستانة ، فجعل مدة الوالى سنة واحدة تنتهى ولايته بنهايتها مالم يصدر فرمان بتجديدها لسنة أخرى

رؤساء الجند — والسلطة الثانية هى سلطة رؤساء الجند وهم قواد الفرق التى غادرها فى مصر بعد احتلالها . كانت الحامية العثمانية التى تركها السلطان سليم تتألف فى بدء الفتح العثمانى من نحو اثنى عشر ألفاً وظيفتهم حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه وكانوا موزعين بين القاهرة وامهات مدن القطر ومنتظمين فى ست فرق تسمى كل فرقة « وجاق » لكل وجاق اسم خاص . واليك بيان أسمائها

وجاق « المتفرقة » المؤلف من خيرة حرس السلطان ، ووجاق الانكشارية . ويسمون بانستحفظان (المستحفظين) لما عهد اليهم فى حفظ الامن ، ووجاق العزب ، ووجاق الشاويشبة ، ووجاق الهجانة ، ووجاق التفكجية ، وأضاف اليهم السلطان سليمان

وجاقا سابعا وهو وجاق الشراكة

وكان لكل فرقة ضباط يسمون « الوجاقية » نسبة الى وجاق . وهذه الكلمة سبرد ذكرها كثيراً في فصول الكتاب . فكبيرهم يسمى « الاغا » أى رئيس الفرقة . ونائبه ويسمى الكخيا أو الكتخدا . واقدم الضباط ويسمى « باش اختيار » والدقتردار وهو مدير الشؤون المالية ، والخازندار أى أمين الخزانة ، والروزنامجي أى حافظ السجلات

ومن اجتماع أولئك الضباط أو « الوجاقية » يتألف مجلس شورى الباشا المسمى (بالديوان)

ولهذا الديوان سلطة كبيرة فى إدارة الحكومة ، لان الباشا (الوالى) لا يستطيع أن يبرم أمراً الا بموافقة أعضائه ، واذا وقع خلاف بينه وبينهم يؤجل البت فيه الى أن يرفع الى الاستانة ، ولهم أن يطلبوا عزله ، فكانت سلطة ضباط الفرق بمثابة رقابة واشراف على سلطة الوالى

ولما مات السلطان السلطان سليم انشأ السلطان سليمان بدل مجلس شورى الباشا ديوانين الاول الديوان الكبير ، والثاني الديوان الصغير فالديوان الكبير مؤلف من رؤساء الفرق (أغاواتها) ودقترداريها وروزنامجيتها وأمير الحج وقاضى مصر ورؤساء المشايخ والاشراف ورؤساء المذاهب الاربعة . ولهذا الديوان سلطة البت فى شؤون الحكومة الرئيسية ، وله نقض أوامر الوالى ، ولا ينعقد الا نادراً بأمر الوالى

والديوان الصغير ، أو الديوان فقط ، ويتألف من كتخدا (نائب) الباشا والدقتردار . والروزنامجي ومندوب عن كل وجاق ، والاغا (الرئيس) وكبار الضباط من وجاق المتفرقة ووجاق الشايشية وينعقد كل يوم فى قصر الوالى وينظر فيما يحتاج اليه البلاد . وكان الباشا يبلغ أمره للديوان الكبير والديوان الصغير بوساطة كتخدائه (نائبه) وعليه تنفيذ قرارات الديوانين وكان يحضر جلساتها من وراء ستار دون أن يشترك فى مداولاتهما

وقد صار وحاك الانكشارية مع الزمن أهم الوجاقات فكان رئيسه المسمى

(اغاة الانكشارية) بمثابة القائد العام للحامية العسكرية (١) ومما يجدر ملاحظته أن الوجاقات بعد ان استقرت في البلاد انتظم فيها كثير من المصريين ودخلوا في عدادها فصار لها صبغة محلية وبخاصة بعد ان انصرفت تركيا في عهد تقهرها عن ارسال الجنود الى مصر، فسد المصريون على توالي السنين الفراغ الذي حدث في صفوف الحامية العثمانية ، ومن بقي منها استوطنوا مصر واندجبت سلالاتهم في أهلها ، ويلاحظ أيضاً ان عدد الوجاقات قد تناقص مع الزمن أو اندمج بعضها في بعض . فقد كتب المسيردي مايلييه De Maillet قنصل فرنسا في مصر في أواخر القرن السابع عشر (٢) وأوائل الثامن عشر بياناً عن الوجاقات التي شاهدها في ذلك العصر ، ووصفها كما رآها ، فقال انها خمس وجاقات وهي :

١ — وجاق المتفرقة ، وذلك أعرقها أصولاً ، وان كان أقلها أهمية وعدده من ألف الى ألفين من الفرسان وهو مؤلف من حرس الباشا وبعض البكوات وبعض سراة التجار الذين يناصرون الباشا وينتمون اليه . ومن بعض الأجناد الذين انفصلوا عن

(١) كلمة « انكشارية » مأخوذة من الكلمة التركية « يكي جري » أي الجند الجديد . والكاف التركية تنطق نونا . والجيم المعطشة تنطق شيناً . وابن ابي السرور البكري يكتبها « ينكجيرية » وكذلك الجبرتي . ويقول ابن ابي السرور في كتابه « الروضة المانوسة » في أخبار مصر المحروسة « عن أصل كلمة « اغاة الينكجيرية » ان السلطان سليم لما خرج من مصر « قرر من أمرائه شخصاً يقال له خير الدين باشا جعله نائب القلعة يقيم بها ولا ينزل المدينة وهو الآن في زماننا يسمى « اغاة الينكجيرية » وكتاب الروضة المانوسة تنهي حوادثه سنة ١٠٥٥ هجرية (توافق ١٦٤٥ ميلادية) ففي هذا الزمن اذن كان رئيس وجاق الانكشارية أو « اغاة الينكجيرية » هو قائد عموم الجند في مصر ثم صار أيضاً مع الزمن بمثابة محافظ القاهرة

(٢) في كتابه وصف مصر — رسائل المسيردي مايلييه De Maillet قنصل فرنسا في مصر سنة ١٦٩٢

الوجاقات الأخرى . ومعظم أفراد هذا الوجداق ليسوا من الجنود المدربين على القتال

٢ — وجاق العزب وهو من المشاة وعدده يتراوح من ثلاثة الى أربعة آلاف وهو دائم التنافس مع وجاق الانكشارية

٣ — وجاق الأسباهية وهم الفرسان وعددهم نحو ثلاثة آلاف وهذا الوجداق مستقل عن الباشا

٤ — وجاق الشاويشية وهو مؤلف من المشاة وعدده لا يتجاوز خمسمائة ويتبعهم كتيبتان من الجنود لا يتجاوز عددهم خمسمائة أيضاً ، منهم بعض النساء اللاتي مات أزواجهن في الخدمة العسكرية

٥ — وجاق الانكشارية وهم مستقلون عن الوالى ولهم فى القلعة معسكر منفصل عن قصره ، ولهذا الوجداق استقلال حتى عن السلطان ، وله نفوذ كبير وسلطته واسعة . وله أملاك فى مصر وينخرط فى سلكه كثير من التجار والأعيان ، وله عليهم اقاوات وعوائد يدفعونها له . ونظامه قريب الشبه بنظام طائفة « فرسان مالطه » (١)

ويقول الرحالة فانسليب (٢) Vansleb الذى جاء مصر سنة ١٦٧٢ ان الوجاقات السبع لم يبق منها الا خمس وعدد أسماءها بما لا يخرج عن رواية دى مايليه De Maillet وان وجاق الأسباهية يشمل (الهجانة) والتفكجية والشراكسة

الماليك — أوجد السلطان سليم بجانب سلطة الوالى ورؤساء الجند سلطة ثالثة تحفظ الموازنة بين الاثنين وهى سلطة الامراء الماليك الذين قدموا طاعتهم للسلطان فعينهم حكاما للمديريات ويسمى الجبرنى « الامراء المصرية »

كانت البلاد مقسمة الى مديريات أو (أقاليم) تسمى كل مديرية « أقالما » أو

(١) انظر الكلام عن « فرسان مالطه » فى الفصل الثانى

(٢) رحلة فانسليب فى مصر سنة ١٦٧٢-١٦٧٣

«سنجقية» يحكم كلا منها حاكم يقال له «سنجق» أو بك يعينه ديوان مصر من بين أمراء المماليك

ان المماليك الذين أقرهم السلطان سليم حكاما لمديريات مصر هم بقايا الدولتين اللتين كان اليهما الحكم في مصر على التعاقب نيفاً و٢٦٧ سنة ، فالاولى هي دولة المماليك البحرية ، وأصلهم من سكان أواسط آسيا وشمالها الذين كان التتار يغزون بلادهم فيقعون أسرى في أيديهم أو يفرون من بلادهم فيتفرقون في الاقطار ويباعون في أسواق الرقيق ، وكان الملك الصالح نجم الدين الايوبى أحد سلاطين الدولة الايوبية قد استكثر منهم وجعلهم خاصة جنده وحاشيته واتخذ منهم أمراء دولته وأسكنهم جزيرة الروضة بالنيل وبنى لهم قلعة وقصوراً بالقرب من المقياس وكان النيل يسمى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم اتساعه ، ولذلك سمي هؤلاء المماليك البحرية ، وهم الذين حكموا مصر من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٣٨٢

والثانية هي دولة المماليك البرجية ، وأصلهم من بلاد الشركس والقوقاز وسبب تسميتهم البرجية ان المنصور قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية عهد اليهم حماية القلاع والحصون وأسكنهم في الابراج فسموا البرجية ويسمى بعضهم بعض المؤرخين ملوك الشراكسة نسبة الى أصلهم وهم الذين تولوا سلطنة مصر من سنة ١٣٨٢ الى سنة ١٥١٧ واقترضت دولتهم بالفتح العثماني

فالمماليك من بقايا هاتين الدولتين هم الذين أقرهم السلطان سليم على حكم مديريات القطر المصري وجعل منهم السلطان سليمان ٢٤ بيكا أو سنجقاً تتألف منهم لادارة المحاية للبلاد . فمنهم حكام المديريات « السناجق » ^(١) ومنهم بعض كبار موظفي الحكومة وهم « الكخيا » ^(٢) أى نائب الوالى . و « الدقردار » ووظيفته ادارة

(١) سموا سناجق لانهم عند رفعهم الى هذه المرتبة كانوا يتسلمون بيرقا أو سنجقا شارة البكوة

(٢) الكخيا محرفة عن كلمة كتخدا ومعناها الوكيل أو النائب

الشؤون المالية وضبط الخرج والدخل ويبيده سجلات ملكية الاراضى وهذه السجلات حجة الملكية وانتقالها . وكانت وظيفته تشبه وظيفة وزير المالية

والروزنامجى ووظيفته ادارة الخراج (١) وضبط حساباته .

وأمر الحج ووظيفته مراقبة الحجاج وتوزيع الصدقات والهدايا التى ترسل سنويا الى الحرمين الشريفين

والخازندار (أمين الخزانة) وظيفته حمل الخراج سنويا الى الاستانة .

والقبودانات الثلاثة قباطين ثغور دمياط والسويس والاسكندرية وكانت هذه الثغور على جانب عظيم من الاهمية لانها بمثابة أبواب مصر

ومنهم البكوات الخمس حكام مديريات جرجا والغربية والشرقية والمنوفية والبحيرة أما مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم فكان حكامها يسمون الكشاف (٢) وهم وكلاء السكوات فى حكم المديريات، والكشاف وان كانوا أقل مرتبة من «السناجق» الا أن سلطتهم واحدة

وكان لكل مديرية ديوان خاص بها مؤلف من الشوربجية وغيرهم من الوجاقلية (ضباط الفرق) يستشيرهم البيك أو الكاشف ، ولكن العمل جرى على غير ذلك ، فلم يكن تمت دواوين ولا استشارة

(١) ضرائب الاطيان أو أموال الميري

(٢) كلمة كاشف مأخوذة من فعل كشف لان الاصل فى وظيفة الكشاف أن يكشفوا أحوال المديريات ولما اتسعت سلطتهم وصار اليهم الحكم وأخذوا المديريات التزاما بقى الاسم القديم ملازما لهم وصار الكاشف يحكم المديرية أو جزء منها باسم البيك

فالكاشف هو بمثابة (المدير) اليوم اذا كان يحكم المديرية كلها وبمباشرة وكيل المديرية أو مأمور المركز اذا كان يحكم جزءا منها

وكان تعيين الكتخدا وقباطين ثغور دمياط والسويس والاسكندرية يصدر به رأساً مرسوم من السلطان أما باقى البكوات والسناجق فيعينهم الديوان بتصديق الوالى نيابة عن السلطان . واذا خلا مركز أحد البكوات عين بدله من بين الكشاف والظاهر ان عدد البكوات كان ينقص فى بعض الازمنة عن ٢٤ بيكا فقد ذكر الرحلة فانسليب Vansleb الذى ساح فى مصر سنة ١٦٧٢ ان عدد البكوات كانوا بمصر فى ذلك العهد ١٦ بيكا ، ويقول المسيو سونينى Sonnini الذى ساح فى مصر سنة ١٧٧٧ ان عددهم نقص فى القرن الثامن عشر (١) ويقول الجبرتى ان السناجق صاروا ٢٤ سنة ١١٣٥ هجرية (١٧٢٣ ميلادية) وانهم كانوا قبل ذلك اثنين وعشرين سنجقاً (٢)

تطور هذا النظام وانفراد المالك بالحكم

لم يستمر نظام الحكم السياسى كما وضعت قواعده من عهد الفتح العثمانى ، ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم فى إدارة الحكومة ، بل تركت البلاد تتقسمها أهواء رؤساء الجند والولاة ، وانتهز المالك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين فاخذوا يعملون على الانفراد بالحكومة. فنظام الحكم السياسى فى مصر قد تطور مع الزمن ، وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث إلى تغلب سلطة البكوات المالك

حدث هذا التطور فى النصف الثانى من القرن السابع عشر . فاستأثر المالك بالنفوذ والحكم ، وساعدهم على ذلك ما صارت اليه السلطنة العثمانية من الضعف فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شؤونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها. وزاد فى نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم فضعف شأنهم وتراجع نفوذهم فى حين ان المالك احتفظوا بعصبيتهم بما استكثروا من الجند

(١) رحلة فى مصر العليا والوجه البحرى سنة ١٧٧٧ بقلم سونينى

(٢) الجبرتى الجزء الاول

والاتباع الذين كانوا يشترونهم من بلاد الشركس والقوقاز والكرج، واستمالوا الى جانبهم أفراد الحامية العسكرية اذ كان رجال « الوجاقات » قد استوطنوا مصر واستقروا بها واندمجوا في أهلها واقتنوا الاملاك وتأنثلوا فيها ، فضعف ارتباطهم بعاصمة السلطنة العثمانية . وكانت ادارة الحكومة المدنية والمالية بيد المماليك وإلهم توزيع الأعطية والأرزاق على الجنود . فصار هؤلاء تبعاً لهم بحكم الروابط المادية ثم صار رؤساء الوجاقات وأغلب ضباطها من المماليك ، فانحصرت السلطة العسكرية والمدنية في أيديهم . واتصل ضباط الوجاقات وأفرادها بالمماليك بأواصر المصاهرة ولحمة القربى فأصبحوا ضمن حزبهم . ومن أهلهم وعشيرتهم وأتباعهم، بعد ان كانوا معدين لحربهم واحضاعهم . فتلاشت سلطة الولاة العثمانيين وعظم نفوذ البكوات المماليك واسترجعوا مع الزمن سلطة الحكم التي كانت للسلطين البحرية والشرافكة . وصار لرئيس المماليك الذي يختارونه زعيماً لهم ويلقبونه « شيخ البلد » النفوذ الذي لا يعارض والكلمة التي لا ترد . وصارت « مشيخة البلد » بمثابة امارة مصر . وعيىث المماليك بالولاة وأخذوا يعزلون من لا يرضون عنه . فاذا اجتمعوا على عزله أنفذوا اليه رسولا اسمه « أوده باشى »^(١) (من ضباط الوجاقات) يذهب اليه حاملا قرار الديوان بعزله فيدخل الى مجلسه ويحييه بكل احترام ثم يثنى طرف السجادة التي يجلس عليها الباشا و يعلن اليه قرار العزل بقوله « إنزل يا باشا » فتكون هذه الكلمة بمثابة أمر الخلع . وينزل الباشا من القلعة ويصبح كاحد الافراد لا حول له ولا طول . وصارت القلعة فى خلال القرن الثامن عشر بمثابة السجن للباشوات الذين كانت تعينهم تركيا ولاة لمصر . وأصبح الديوان مؤلفاً من الاربعة والعشرين بيكا الذين كانوا زعماء المماليك . وعيىث المماليك أيضاً بالجزية فكانوا لا يدفعون منها إلا ما يروق لهم دفعه ويقتطعون منها ما يشاءون بحجة الانفاق على مصالح البلد

(١) اسمه عند العامة « ابو طبق » لأنه كان يلبس فوق رأسه لبادة سوداء

كالقبعة ولها حافة تشبه الطبق

قال الرحالة فانسليب Vansleb يصف ما شاهده في مصر سنة ١٦٧٢ من انتشار المماليك بالحكم :
« ان كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا يخالف لهم أمراً ،
وكانوا يملكون عزله »

وقال المستشرق مارسل Marcel « انحصر تاريخ مصر من منتصف القرن السابع عشر الى آخره في تعاقب الباشوات على ولايتها فتولاها ٢٢ والياً لم يكن لهم شأن يذكر في حكومتها . فكان الواحد منهم يشترى منصب الولاية من ديوان الاستانة ويبقى شاغلاً هذا المنصب عاماً أو عامين ولا يستقر هذه المدة في منصبه الا اذا ترك الامور للبكوات المماليك الذين كان منهم شيخ البلد وهو الحاكم الفعلي للبلاد . ويظل الباشا في منصبه ليعمل له الاجمع المال واستصفاؤه من أهله بمختلف وسائل النهب الى أن يغادر منصبه وهو في الغالب لا يخرج منه الا مسجوناً أو مطروداً أو منفيّاً أو مقتولاً »

موظفو الحكومة في عهد المماليك

تتمثل السلطة الفعلية للحكومة في « شيخ البلد » فهو كبير المماليك ورئيس الحكومة المحلية ، والباشا (الوالى) بجانبه لا حول له ولا قوة ، ويليه في الأهمية أمير الحج ، ويليهما « الدقردار » أو مدير الشؤون المالية ، فالروزنامجى وهو مدير ادارة الخراج ، فكتخدا الباشا وهو وكيل الوالى وكاتم أسراره ، ويلى هؤلاء البكوات حكام المديريات وأولهم حاكم جرجا وتمتد سلطته من المنيا لاسوان ، فباقي موطنى الحكومة الممتازين كانخزندار ، و مترحم الديوان

وأمين الضربخانه (دار الضرب التى تسك فيها النقود)

وأغاوات (رؤساء) الوجاقات . والمعمارجى باشا . ووظيفته مباشرة بناء العمارات التابعة للحكومة وترميم القلاع

والقافله باشى ووظيفته التفتيش على القوافل القادمة الى مصر أو الصادرة عنها

وأمين الاحتساب أو المحتسب ووظيفته مراقبة الأسواق والتفتيش على الباعة والتجار لمنع وقوع الغش في المعاملات
وأمين العنابر وهو مدير المخازن التابعة للحكومة التي تخزن فيها الغلال من الضرائب التي تؤخذ نوعا
وسردار جرجا وهو نائب البك حاكم جرجا
وقومندانات (أعاوات) القلاع
وولاية الشرطة الثلاثة في القاهرة ومصر القديمة ووظيفتهم ادارة قوة الدرك وهي
تشبه وظيفة حكامار البوليس ويسمى الواحد منهم « الوالى »
وأفندية الروزنامة أى كتاب ادارة الخراج

سياسة على بك الكبير

يتبين مما تقدم ان إدارة الحكومة العسكرية والمدنية كانت فى يد المماليك من أواخر القرن السابع عشر، وقد ساعدتهم على الاستئثار بالحكم تفهقر السلطنة العثمانية وانصرافها الى محاربة النمسا والروسيا خلال القرن الثامن عشر فطمحت نفوسهم الى التخلص من تركيا والاستقلال بمصر. وظهرت هذه السياسة جهره فى عهد على بك الملقب بالكبير. وهو مملوك وصل بقوة أشياعه واتباعه الى مشيخة البلاد سنة ١٧٦٣ وطمحت نفسه الى الاستقلال بمصر. فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ حاهر بنخلع يده من طاعة الدولة واعلن استقلال مصر، وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ (١١٨٣ هـ) ، وعزل الوالى التركى ومنع ورود الولاة العثمانيين ، وضرب النقود باسمه^(١) ودانت له مصر بحريها وقبليها ، وكان من مماليكه واتباعه أحمد (باشا) الجزائر ومحمد بك أبو الذهب واسماعيل بك وحسن بك الجداوى وابراهيم بك ومراد

(١) يلاحظ على نقود على بك الكبير انه منقوش عليها سنة ١١٨٣ هـ جرية
وهى السنة التى جاهر فيها باستقلاله عن تركيا

بك وغيرهم ممن كانت لهم الادوار الكبيرة على مسرح الحوادث كما سيأتى ذكره فى
فصول الكتاب

وكان على بك طموح النفس واسع المطامع . فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة
العرب ونادى به شريف مكة (سلطان مصر وخالقان البحرين) وأوفد محمدا بك أبا
الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها . لكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتى اقلب
على على بك واتفق مع الباب العالى وعاد الى مصر ليستأثر بالحكم فيها . وقامت الحرب
بينه وبين سيده وانتهت بقتل على بك سنة ١٧٧٣ . وعادت مصر ولاية عثمانية
وخلصت امارتها لمحمد بك أبى الذهب واستقر (شيخا للبلد) وكافأته تركيا بفرمان
تثبيته فى مشيخة البلد وتوليته حكم مصر . وصار له الامر والنهى فى البلاد ورجعت
تركيا الى ارسال الولاة كما كان الامر قديماً

غير أن الوالى كان محجوراً عليه . سلوبا حوله وقوته ومحمد بك أبو الذهب يخنار
الوالى الذى يرتضيه ، والامراء وقواد الجند وأعيان الدولة كافة مما اليكه وأتباعه الى أن
مات سنة ١٧٧٥ (١١٨٩ هجرية) خلفه فى مشيخة البلد ابراهيم بك وقاسمه السلطة
مراد بك ، ثم وقعت فتنة بين المماليك تولى على انرها اسماعيل بك مشيخة البلد لكنه
لم يلبث فيها الا قليلا ثم خلعه ابراهيم بك ومراد بك وعادا الى اقتسام سلطة الحكم
ثانية وكان ابراهيم بك شيخاً للبلد فكانت له الرئاسة . ثم حاولت تركيا أن تسترجع
سلطتها فى مصر فجدت سنة ١٧٨٦ حملة عسكرية بقيادة اقبودان حسن باشا
الجزائرى انتهت بفرار ابراهيم بك ومراد بك الى الصعيد . وعاد اسماعيل بك الى
مشيخة البلد . لكن نشوب الحرب بين الروسيا وتركيا صرفها عن الاستمرار
فى محاربتهم . ورجع حسن باشا الى الاستانة ثم مات اسماعيل بك بالطاعون سنة
١٧٩١ (١٢٠٥ هـ) وعادت السلطة الى ابراهيم بك ومراد بك وتلاشى بجانبهما
نفوذ الوالى واستقر ابراهيم بك شيخا للبلد الى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨
وخلاصة ما تقدم ان مصر فى خلال العصر العثمانى كانت ولاية عثمانية تتنازع

الحكم فيها السلطات الثلاث التي تكلمنا عنها ، ثم آل الحكم فيها في أواخر القرن السابع عشر الى البكوات المماليك ، فصارت من جهة نظام الحكم السياسى أقرب ما تكون شبهاً بالملكيات المستقلة التابعة الآن للإمبراطورية البريطانية والمعروفة بالدومنيون ، مع الفرق العظيم الذى يمتاز به المستعمرات الانجليزية بأنها تتمتع بحكم دستورى قائم على قاعدة سلطة الأمة . فلحاكم الانجليزى فى المستعمرات المستقلة ليس له نفوذ أكبر مما كان للوالى العثمانى فى مصر ، لكن سلطة الحكم فى تلك المستعمرات مستقرة على نظام نيابى يجعل للشعب الأمر والنهي فى شؤون البلاد الداخلية . أما مصر فكان زمام حكومتها إلى طائفة المماليك وفى أيديهم ، وليس للشعب عليهم من نفوذ أو سلطان

مظاهر الحكم فى ذلك العصر

كما وصفها شهودها

بيننا فيما تقدم القواعد العامة لنظام الحكم فى مصر . والآن نضع أمام القارئ صورة لبعض مظاهر ذلك الحكم نقلاً عن شاهدها ووصفوها من شهود العيان كيف يعين الولاية

قال المسيودى ماييه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٧٩٢ (١) « ان مصر يحكمها أحد الباشوات يعينه السلطان ، ومدة ولايته سنة واحدة ويجوز تجديدها ، وجرت العادة أن تدوم ولايته ثلاث سنوات ، واستمر بعض الباشوات فى الولاية اربع سنوات والبعض لم يبق بها الا سنة أو سنتين . وولاية مصر من أهم ولايات السلطنة العثمانية ، ولذلك لا يحصل عليها الباشوات الا فى مقابل أتاوة من المال ، والباشا يدفع على الأقل من أربعمائة الى خمسمائة الف ريال قبل أن يصل الى القاهرة ، ولا يوفق الباشا الى تجديد مدة ولايته سنة أخرى دون أن يرسل

(١) فى كتابه وصف مصر

للاستانة هدايا تربو على مائة الف ريال . وعلى الباشا أن يرسل الخراج السنوى الى الاستانة وقدره ستمائة الف ريال، وعليه أن يرسل هدايا من السكر والبن والارز والشراب والحلوى والغلال لا تقل قيمتها عن ستمائة الف ريال عدا نفقات قافلة الحج ونفقات الجنود فى مصر

وفى مقابل هذه النفقات يتصرف الباشا فى الايرادات التى تخص السلطان فى مصر ويحصل منها كل سنة بعد سد نفقات الجند على أكثر من اثنى عشر مليون فرنك . والى الباشا تؤول تركت المتوفين بلا عقب ، ويكثر دخله من هذه الناحية اذا وقع وباء فى البلاد »

وصف استقبال الوالى

ترى فى الجبرتى وصف استقبال الولاة فى القرن الثامن عشر ومحصل ما ذكر ان الوالى كان يصل عن طريق النيل من رشيد أو الاسكندرية ويرسو فى بولاق فتذهب اليه الملاقة لاستقباله ثم يصعد الى القلعة فى موكب حافل ، وتضرب له المدافع عند قدومه . ولم يصف الجبرتى هذا الاحتفال تفصيلا لأن حضور الولاة واستقبالهم كان أمراً عادياً ومألوفاً فى ذلك العصر ، لكن كتاب الافرنج عنوا بوصفه وصفاً دقيقاً فى رحلاتهم

ذكر الرحالة الفرنسى سافارى^(١) Savary ما شاهده فى استقبال الوالى فى المدة التى قضاها فى مصر من سنة ١٧٧٧ الى نهاية سنة ١٧٧٩ قال :

« عند ما يصل الباشا الجديد الى الاسكندرية يبلغ الدوان نبأ وصوله ، فيرسل شيخ البلد (رئيس المليك) وفداً من أذكى البكوات لاستقباله والحفاوة به ، فيقدمون له الهدايا ويظهرون له الطاعة ، وفى خلال ذلك يتحسونه ويستطلعون نياته وأسراره مما يتسقطونه من أقواله وأقوال حاشيته ، ويتعرفون الامور التى جاء بها من

(١) فى كتابه (رسائل عن مصر)

الاستانة . فاذا رأوا انه لا يوافق أهواءهم أرسلوا بذلك رسولا الى شيخ البلد في القاهرة فيعقد الديوان ويبلغ الباشا أنهم لا يريدونه ، ثم يرسل الى الباب العالي بان الباشا الجديد جاء بنيات عدائية تؤول الى حدوث الفتنة بين رعاياه المخلصين اذا هو أطلق له منصبه ، ويطلبون استدعاءه فلا يرفض الباب العالي لهم طلباً . أما اذا آتس الرسل من الباشا أن لا خيفة منه فانهم يدعونه الى القاهرة ، فيركبه الوفد سفينة نعمة وينحدرون في معيته تحيط به المراكب المزينة بالاعلام وفيها الطبول والزمور ، فيتقدم الباشا هذا الاسطول مستقلا سفينة تختال في سيرها ، وما صادفهم في النيل من مراكب انحدر معهم وماج في حشيتهم ، الى أن يصلوا الى الحلى (بيولاقي) وهناك ترسو المراكب وينفذ شيخ البلد بعض السناجق لاستقبال الباشا في الميناء أو يستقبله بنفسه ، فيهنئه أمراء الممالك بالقدوم ويقدم له أغا الانكشارية (محافظ المدينة) مفاتيح القلعة ويدعوه الى الإقامة فيها . قال : وقد شاهدت بعيني وصول الباشا ودخوله المدينة في موكبه وزينته ، رأيت الموكب تتقدمه فصائل من الجنود المشاة يسرون صفين وموسيقاهم أمامهم وأعلامهم تخفق فوق رؤوسهم ، يليهم الفرسان وعددهم من خمسة آلاف الى ستة آلاف فارس يسرون بنظام حسن ويحملون الرماح الطويلة تزينهم ملابسهم الفضفاضة اللامعة وشواربهم الكبيرة ، فكان لهم منظر حربي يبعث الروعة في النفوس ، ويلي هؤلاء « البكوات » مرتدين الملابس البديعة وحولهم حاشيتهم من المالك يمتطون صهوات الجياد العربية الاصيلية وعليها غواش موشاة بالذهب والفضة . رأيت أعنة خيول الامراء مرصعة باللؤلؤ والاحجار الكريمة وعلى خيولهم السروج تتلألأ من الذهب ، وكل بيك يسير في موكب على هذه الصفة ، فكانت مواكبهم مجمعة غاية في الرونق والفخامة يزينا جمال الفرسان وشكل ملابسهم وحسن استوائهم على متون جيادهم ، يليهم الباشا يسير الهوينا وتتقدمه كوكبة من مائتي فارس وفرقة من الموسيقى وأمامه أربعة من الجياد يقودها أربعة من السواس وعليها غواشيتها

موشاة بالذهب مرصعة بالاحجار الكريمة . وكان الباشا ممتطياً جواداً كريماً وقد وضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة يتوهج سناها في أشعة الشمس . رأيت في هذا الموكب صورة من مظاهر الأبهة الشرقية التي كانت تحيط بملوك آسيا وسلاطينها عند ما يبرزون للجاهير ، وبدأ الموكب في الساعة الثامنة صباحاً واستمر الى الظهر ، وفي اليوم التالي جمع الباشا الديوان بالقلعة ودعا البكوات الى حضوره وجلس هو على منصة قد نصت له امام شباك ، فكأته السلطان على عرشه ، وتلا كخياه (وكيله) كتاب الباب العالي فطأطأ السناجق (البكوات) احتراماً لولى الأمر وأمره وتعهدوا بتنفيذ ما لا يعارض امتيازاتهم

وبعد انقضاء الديوان أهدى الباشا الى شيخ البلد كرك ممور فاخراً ، وجواداً مطهماً ، وخلع على كل بيك قباءاً (قفطاناً) ، وذلك تمت حفلة تنصيب الباشا

سلطة الوالى

قال المسيو سافارى يصف مدى سلطة الباشا بعد الاحتفال الفخم الذى دخل به المدينة :

« ان منصب الباشا هو فى الواقع نوع من أنواع النفى ، فهو لا يستطيع أن يخرج من القلعة إلا بأذن من شيخ البلد . وهو سجين يرى نفسه قد أحيط بمظاهر الابهة . ومن خلال هذه المظاهر يشعر بثقل القيود التى يرسف فيها . فهو لا يد له فى شؤون الحكومة ، ومرتبته محدود بما يدخل من رسوم جمرك السويس والمتاجر التى ترد من البحر الاحمر . على أن البكوات يبدلون له اكثر من ذلك ، فالباشا الحاذق يستطيع بمهارته ودسائسه ان يستجلب عطف الحزب الغالب من المالك فيدر عليه أخلاف الثروة ، والباشا منيع آخر للمال فأن المالك الذين يعينهم الديوان سناجق يدفعون الى الباشا اتاوة لاقرار هذا التعيين ، واليه يؤول ميراث الملاك الذين يموتون بلا عقب ، وبهذه الطريقة يستطيع الباشا أن يستقر فى مركزه ويمجد منه الغنى فى سنوات قليلة ، لكنه فى حاجة الى الحذر الشديد فى كل ما يأتى وما يدع ، لان أصغر هفوة تورده موارد الحنف

وقد يحدث أحياناً أنه مع حنره ودهائه ينقلب عليه قصده وذلك إذا طنى بعض السناجق على الحزب الغالب من البكوات الذى ينتمى إليه الباشا فيسلبه السلطة ويرتفع إلى مشيخة البلد، ومن ثم لا يكون إلا أن يطرد الباشا فيخرج منها منثوراً مدحوراً »

عزل الوالى

ذكر المسيو سافارى طريقة عزل الوالى ، وهي طريقة فى غاية السهولة والفوضى ، « يجتمع الديوان المؤلف من البكوات المماليك فإذا رأى عزل الوالى أنفذ إليه رسولا يلبس رداءً أسود (ويسمى الاوده باشى) ، فيحمل قرار العزل ويذهب إلى قاعة الاستقبال حيث يوجد الوالى فيدخل عليه ويطأطئ احتراماً له ثم يلبس طرف السجادة ويطويها ويقول منادياً للوالى : انزل يا باشا (وقد ذكرها سافارى بنطقها العربى) ثم يخرج من المجلس ، فعند ما تسك هذه الكلمة سمع الباشا يعلم أنه أصبح معزولاً ويبدأ فى حزم أمتعته والتوجه إلى بولاق فى مدة لا تتجاوز أربعاً وعشرين ساعة على أن ينتظر ما يؤمر به من الاستانة ، وفى حالة العزل لا يمس شخص الوالى المعزول بسوء ، ولكن يحدث أحياناً إذا كان للبكوات شكاوى على الوالى أن يحاسبوه حساباً شديداً عما وقع فى حوزته مدة ولايته من الاموال والهدايا ، وكثيراً ما يقتسمون ما جمعه قبل عزله ، وبعد أن يعزل الوالى يعين الديوان (قائمقاماً) يتولى هذا المنصب إلى أن يصل الباشا الجديد ، وهلم جرا »

انعقاد الديوان

قال المسيو دى مايليه De Maillet قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٦٩٢ يصف انعقاد الديوان فى عصره : « ان مصر على قهدها سلاطينها قد استبقت شيئاً من الابهة التى كانت من مميزات السلطنة ، وقد شاهدت مراراً انعقاد الديوان بالقلعة ، وهذا الديوان ينعقد مرتين كل اسبوع (الاحد والثلاثاء) فى يوم انعقاده يغص الفناء الذى بين يدى قاعة الديوان - وتبلغ مساحته نصف حديقة التويلرى بباريس - بالفرسان

من اتباع البكوات وكبار الضباط راكبين جيادهم العربية المطهية على سروج مغطاة بالذهب مموهة بالفضة مرصعة بالأحجار الكريمة . وإن أبهة هذا المنظر لتبعث الإعجاب في النفس . وقد سمعت في مصر أن السلطان (سليم) منع انعقاد الديوان في القاعة التي كان يجلس بها سلاطين مصر قبل الفتح العثماني ، وذلك رجاء أن يقلل من أبهته والواقع أن الديوان لا ينعقد الآن في قاعة سلاطين مصر ، ومع ذلك فديوان القاهرة أكثر أبهة من ديوان الاستانة وقد أتيحت لي أن أشهد انعقاد الديوان بالقلعة في جلسة غير اعتيادية ، وهو مالا يتيسر لأحد القناصل إلا نادراً . فدعيت إلى حضور الديوان لأسأل عن شكاوى بعض التجار الأفرنج الذين صودرت متاجرهم في جبرك الاسكندرية فشكوا أمرهم إلى السلطان فأمر بالفحص والتحقيق وطلب من قاضي العسكر (قاضي قضاة مصر) أن يقضي في الشكاوى . وقد رأيت بقاعة الديوان نحو أربعة آلاف شخص مجتمعين . وبعد تلاوة أمر السلطان وبيان الباشا صاحب هذا الجمع بأن السلطان قد خدع وانه من الواجب رفع الحقيقة إليه ، فهلع التجار الأفرنج والتراجم الذين حضروا الديوان من تعسف القوم وعدوانهم وارتعدت فرائصهم وظنوا أنه قضى عليهم . لكن الباشا كان حريصاً أن لا يمس أحد منا بسوء وكان متفقاً معي قبل الديوان على أن يكون الغرض من هذا كله تبرير مركزه أمام السلطان . وانتهى الاجتماع بحسم الخلاف على طريقة رضيناها ورضوا عنها .

نظام الملكية والضرائب

لم يكن النظام المالي في مصر خيراً من النظام السياسي ، فقد اعتبر السلطان سليم نفسه مالكا لأراضي مصر وسار على هذا الاعتبار ابنه السلطان سليمان ، وبهذه النظرية كان صاحب الأرض لا يملك رقبته بل حق الانتفاع بها ، فإذا مات آلت أملاكه إلى الحكومة ، غير أن لورثته ردها إلى حوزتهم لقاء مبلغ معين تقدره أهواء الولاية ، على أن مزاعم السلاطين في تملكهم رقبة الأراضي ما لبثت أن تلاشت مع الزمن تلقاء نفوذ المالك فكانوا ينصرفون في الأراضي على ما شاؤوا ويسيطون

أيديهم على ما يروق لهم منها ، فصار معظم أراضي مصر مقسمة بينهم وآلت اليهم بهذه الوسيلة ملكية ثلثي ما يزرع من الاراضى أو نحو ذلك أما الباقي فوزع بين الفلاحين والملمزمين والاقواق

أنواع الملاك

ولفلاحون يملكون الندر اليسير من الاراضى ينتفعون بها ويسوارثونها ولم أن يتصرفوا فيها ، لكن ملكيتهم لها معلقة على دفع الضرائب والاقاوات المفروضة عليها ، وهذه الضرائب والاقاوات تدفع للملمزمين . والملمزمون هم الملاك الذين يأخذون القرى « التزاماً » ويتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه على أن يتكفلوا للحكومة بدفع نصيبها من الضرائب

نظام الالتزام

وأصل نظام الالتزام أنه لما فسدت إدارة الحكومة انصرف الناس عن الزراعة وتعطلت الاعمال وهبطت قيمة الاراضى فنكسر الخراج وفلت الجبايه ، فعمد الحكام إلى طريقة (الالتزام) وهى تضمين الضرائب لأناس يدولون جمعها عن الحكومة ويشاركونها فيما يغلونه من الاهالين ، وكانت الحكومة تعرض حباية الخراج بالمزايدة لمن يصممه من ذوى النفوذ . فمن يقع عليه المراد سمي « ملتزم » ويلتزم بصريية بلد أو عدة بلاد عن سنة أو أزيد ، ويدفع للحكومة سلفاً مال سنة والالتزام يقرر إما بالمزايدة كما تقدم وإما بالاتفاق على الثمن بين الملتزم وإدارة (روزنامة) بالنيابة عن الحكومة ، فإذا تمت الصفقة أعطاه كبير المليك اسمى قديم البلد عهداً بذلك يسمى « تقسيطاً » أى عقد الالتزام ويصحبه أمر يسمى (د. ب. ك) وهو خطاب من الحكومة إلى أهل البلد الداخلى فى التزام ملتزم تعرض عليه أن يطيعوه ويؤدوا له الخراج ، ثم يكن له الحق أن يحضر بين أصحاب الارض على المال الذى يحله للحكومة . وفى بعض بلاد مصر خاصة

الالتزم فبعد ان كان يعطى لسنة أو عدة سنوات جعلوا يعطونه للمتزمين مدى الحياة فلا ترجع البلاد إلى الحكومه إلا بعد وفاة المتلزم بها .
وإذا مات المتلزم فلورثته أن يستبقوا البلاد في أيديهم إذا دفعوا الاتاوة للحكومة والإصارت حقاً لميت المال ، وتوصل بعض المتزمين إلى إبقاء الالتزام إرثاً لذريتهم بما دفعوا للحكومة من هذه الاتاوة .

والمتلزمين سلطة مطلقة على الفلاحين فكانوا يعسفونهم ويسوونهم الظلم والجور ويفرضون على أملاكهم ما شاءت أهواؤهم من ضرائب واناوات ، ولهم أن يبيعوا حق الالتزام لغيرهم من المتزمين ، وإذا مات أحد الفلاحين بلا عقب آل ما يملكه إلى المتلزم

ولهذا المتلزم أن ينتزع الأرض من يد الفلاح ويعطيها لفلاح آخر إذا ضاقت يده أو قصر في دفع الضرائب ، ولما كانت الضرائب والاتاوات تجري على أهواء المتزمين فملكية الفلاحين كانت تحت رحمة هؤلاء ، وهناك نوع آخر من الأملاك يعرف بأطيان (الوسية) وجمعها « أواسى » وهى الأراضى التى تعطىها الحكومة للمتزمين منحة لمساعدتهم على واجبات الالتزام ونفقاته من الصرف على المساجد والمدارس وإيواء المساكين والموظفين وضيقاتهم فى دائرة التزامهم ، وهذه الأطيان معفاة من كل ضريبة وعلى فلاحى الجهة أن يعملوا فيها سخرة المتلزم بلا أجر ولا جزاء

وعدا أطيان الأواسى توجد أطيان أخرى معفاة من الضرائب وهى أراضى الرزق جمع (رزقة) وهى التى كان ينعم بها السلاطين على بعض الناس يتصرفون فيها كيف شاءوا وهذه الأراضى معفاة من الضرائب ولذلك تسمى « أرض رزقة بلا مال » وكانت إدارة ابروزنامه تعطى المنعم عليه مثل هذه الأراضى « تقسيطاً » أو سند التملك بخوله ملكها ملكاً مطلقاً والتصرف فيها

ويقول المسيو استيف^(١) أن السلطان « سليم » لما فتح مصر وجد أطيان

الرزقة مخصصة لجهات البر فابقاها كما هي ولم يعطها للمتزمين وظلت في أيدي مالكيها يتبين مما تقدم أن نظام الملكية العقارية بالمعنى الصحيح لم يكن معروفا في ذلك العصر، فملكية الفلاحين عرضة لان تنزع منهم في كل وقت، وملكية المتزمين كانت تحت رحمة البكوات المماليك بحيث كانت تنزع منهم اذا تصدى لهم من هم أوسع نفوذا وأعظم ناصراً وأقوى سلطاناً . ونظام الالتزام يشبه أن يكون كنظام الاقطاعات الذي رزحت أوروبا تحت نيره القرون المتوالية

أما الوقف فيشمل الاملاك المحبوسة أصلاً على المساجد وأعمال البر والخير، وقد انتشر الوقف في العصر العثماني لانه كان الوسيلة التي يأمن بها الملاك على أملاكهم من عسف المماليك ، فعمدوا الى الوقف بحسونه على جهة من جهات البر والاحسان ويجعلون لابنائهم أو من يوصون اليهم من ذى نسب أو صلة أو خدمة حق الانتفاع بالارض بعد وفاتهم فيجد الموقوف عليهم من ريعها غلة ثابتة لا تمتد اليها مطامع المماليك بالسلب والاغتصاب

هذه هي أنواع ملكية الاطيان في ذلك العصر فلنبحث الآن عن أنواع الضرائب المفروضة عليها

الضرائب

كانت الاراضى مشغلة بالضرائب والاتاوات ومعظمها واقع على كاهل الفلاحين، والمقرر أصلاً من الضرائب ثلاثة أنواع

الاولى ضريبة الخراج وتسمى المال الميري أو الميري فقط وهي المخصصة أصلاً لاسلطان والثانية ضريبة الكشوفية وهي مخصصة للبك أو الكاشف حاكم المديرية

والثالثة الفائض أو فائض الالتزام وهو ما يستولى عليه المتزمون بعد وفاء الميري

والكشوفية . ومجموع هذه الضرائب الثلاث يسمى « المال الحر » وهو المقرر أصلاً

على الاطيان أو الضرائب القانونية ، يدفعها الفلاحون للمتزمين وهؤلاء يدفعون الميري والكشوفية وما بقى فهو لهم

لكن الملتزمين لم يكتفوا بهذه الضرائب بل فرضوا على أطيان الفلاحين اتاوات أخرى ضربتها أهواؤهم ومطامعهم ، فمنها « المضاف » و « البراني » ، والمضاف على نوعين المضاف القديم والمضاف المستجد ، والبراني على نوعين البراني القديم والبراني الجديد . وهذه الضرائب يقدرها الملتزمون بحساب الظروف والاهواء

والمتميزين سلطة مطلقة في القرى الداخلة في التزامهم ولكل منهم فيها وكيل يسمى « قائم مقام » ينوب عنهم ، وهم الذين يعينون فيها مشايخ البلاد وهؤلاء هم وسطاء الملتزمين في جباية الضرائب من الفلاحين ، أما البكوات المالك وكبار الملتزمين فلهم مع مشايخ البلاد وكلاء يسمون « المباشرين » تمتد سلطتهم على عدة قرى ومقاطعات ، وقد اختص الاقباط بهذه الوظائف وتحت سلطتهم الصيارف والكتبة والمساحون في القرى وكل أولئك يعينون بمعرتهم وارشادهم وبأيديهم سجلات الضرائب

الكشوفية والميرى

كان البكوات المالك يتداولون حكم المديرية ، والعادة أن يبقى البك في المديرية لمدة سنة ، ووظيفتهم حفظ الامن وحسم المنازعات التي تنشأ بين القرى وحماية الفلاحين من سطوة العربان وحماية الملتزمين في محصيل الضرائب ليدفعوا لهم نصيبهم منها ، ولكل بيك عدة كشاف أو وكلاء في حكم المديرية أوجزء منها ، والبيك يقضى في المديرية التي يحكمها ثلاثة أو أربعة أشهر ثم يعود الى القاهرة خوفاً أن تؤدي غيبته الى دس الدسائس من زملائه ومنافسيه من المالك ، وفي أثناء اقامته بالقاهرة يقوم عنه بالامر كشافه الذين يجوبون أنحاء المديرية لتحصيل الضرائب وضبط الامن ومعهم القوة الكافية من الجنود فالكشوفية هي نصيب البيك وكشافه من الضرائب على الاطيان ، يدفع معظمها الفلاحون ويدفع الملتزمون جزءاً منها ، أما الميرى فهو مخصص أصلاً للسلطان وله ادارة مستقلة بتحصيله وضبط حسابه تعرف بالروزنامة يرأسها « الروزنامجي » الذي يعينه الباشا (الوالي) بناء على طلب الديوان ، وبعد تعيينه يصبح بحكم وظيفته عضواً بالديوان ، وتحت يديه جماعة من الكتبة يسمون « الافنديه » أو أفندية الروزنامه

ومن بينهم يعين الروزنامجي ، فوظيفة الروزنامجي هي ادارة الخراج أو أموال الميرى ، وهي تقرب ان تكون كوظيفة مدير الاموال المقررة في العصر الحاضر ، وفي يد الافندية سجلات الاراضى التى تدفع الميرى لمعرفة مقدار ما هو مفروض عليها وما يحصل منها وما يصرف على تحصيلها ومقدار ما يخلص بعد ذلك . والروزنامجي مسؤول عن حساب الميرى وعليه تقديم هذا الحساب كل سنة للوالى (الباشا) وللدقردار (مدير الشؤون المالية) ولشيخ البلد (زعيم المالك) وبعد ان يخلص صافى الميرى من حساب النفقات المختلفة يرسل الى الاستانة ، وهذا الصافى هو المعروف بالخزنة وهو من حق السلطان وبجمله الى الاستانة أحد البكوات المالك ويسمى « خزنة دار » اى امين الخزنة وحرفت الى « خازندار » . وقد تناقص صافى الميرى بعد استئثار المالك بحكم البلاد حتى انه فى بعض السنين لا يكاد يبقى منه شىء يذكر ، ذلك ان الميرى تؤخذ منه الاموال الآتية : (اولاً) نفقات الباشا والبكوات وجامكية العسكر اى عطاء الجنود والوجاقلية ونفقات المؤن والذخائر وواتب افندية الروزنامة ومعاشات الارامل والايتام والمكفوفين

(ثانياً) ما يخرج للحرمين الشريفين

(ثالثاً) نفقات الحمل وامير الحج

(رابعاً) المصاريف الاخرى التى لا تدخل فى حساب كاصلاح الترع وتطهيرها وترميم القلاع (ولم يكن يصرف فى ذلك شىء) والانفاق على الازهر وصيانة المساجد والاضرحة وارزاق المشايخ ومصاريف مقياس النيل وحفلة وفاة النيل وغير ذلك . وكانت تدبر كل هذه الاوضاع الحساية بحيث لا يبقى من الميرى الا النذر اليسير يرسل الى الاستانة . وانقطع فعلاً ارسال الخزنة فى عهد على بك الكبير ثم استؤنف ارسالها بطريقة غير منتظمة فى عهد مراد بك وابراهيم بك . وكان صافى ما يرسل سنوياً الى الاستانة فى عهدهما يبلغ ٢٦٤٠٥٥٠ فرنك (١) أى نحو ١٠٠٥٨٠ جنبها

(١) احصاء المسيو استيف مدير الشؤون المالية فى أواخر عهد الحملة الفرنسية .

الضرائب الاخرى

ومقدار دخل الحكومة

كانت البيوت والمنازل معفاة من الضرائب لان الخراج فى الاصل مقرر على الاطيان . على ان الحكومة فرضت الضرائب غير العقارية والمكوس والاتاوات على الصناعات والمأكولات والمتاجر بما فى ذلك رسوم الجمارك وعلى الوكائل والسفن والقوافل وكذلك على الرؤوس وعلى الوظائف الرئيسية

وقد أحصى المسيو استيف دخل الحكومة السنوى فى اواخر عهد المالك بمبلغ ١٠٦ ر ١٩٩ ر ٣١ فرنك اى ٤٦٧ ر ٣٠٣ ر ١ جنيه تقريبا ، وقدره الجنرال رينيه Reynier احد قواد الحملة الفرنسية فى كتابه^(١) بمبلغ يتراوح بين ٣٥ الى ٤٠ مليون فرنك فى السنة . ومن ذلك يتبين انه مع اسراف حكومة المالك فى المظالم وارهاق الاهلين بمختلف الاتاوات والضرائب فان مقدار دخل الحكومة يدل على ما كانت عليه حالة البلاد الاقتصادية والمالية من التأخر والفاقة . على انه من الواجب ان نعجل باقول بأن حالة البلاد الاقتصادية والمالية قد ازدادت سواء فى عهد الحملة الفرنسية ، وقد بسطنا الكلام فى هذا الصدد بالفصل السادس من الجزء الثانى من هذا الكتاب

النظام القضائى

بقى النظام القضائى فترة من الزمن كما كان قبل الفتح العثمانى ، فكان يتولى القضاء قضاة أربعة من المذاهب الاربعة يسمى كل منهم «قاضى القضاة» . الحنفى . والمالسى . والشافعى . والحنبل . ولم يغير السلطان سليم شيئاً من هذا النظام وانما عين قاضياً

(١) مصر بعد واقعة عين شمس

عثمانياً جعله « أميناً على قضاء مصر » (١)

ولكل من أولئك القضاة الاربعة أن يعين نوابه في القضاء . ذكر ابن اياس ان ملك الامراء خير بك اتفق عدد نواب القضاء فرسم لقاضي القضاء الشافعي بخمسة من النواب وقاضي القضاء الحنفي باربعة وقاضي القضاء المالكي بثلاثة وقاضي القضاء الحنبلي باثنين من غير زيادة على ذلك (٢)

ولما تولى السلطان سليمان أبطل نظام قضاء القضاء الاربعة وأمر بتنصيب قاض تركي من درجة « قاضي عسكر » يسمى « قاضي مصر » يرسلونه من الاستانة وهو بمثابة قاضي القضاء

قال ابن أبي السرور البكري « ان أول من ولي قضاء مصر من « قضاء العسكر » مصطفى افندي الرومي (التركي) وانه استولى على قضاء مصر سنة ٩٢٩ هجرية في المحرم منها بعد ان أرسل السلطان سليمان أمره الشريف لحاكم الديار المصرية بإبطال القضاء الاربعة ، فنفذ أمره الشريف وجاء مصطفى افندي الى مصر وجعل له نوابا من الثلاثة المذاهب مالكي وشافعي وحنبلي » (٣)

(١) قال ابن أياس (الجزء الثالث) في حوادث سنة ٩٢٤ هجرية (١٥١٨ ميلادية انه لما تزايدت مظالم الجنود الاتراك في القاهرة « دخل جماعة من الناس الى القاضي الذي جعله ابن عثمان في المدرسة الصالحية أميناً على قضاء مصر . فشكوا له من أفعال العثمانيه وما يفعلونه بالناس . فلما سمع هذا الكلام ركب وتوجه الى بيت الامير قايتباي الدوادار وارصكه وطلع به الى القلعه وأخبروا ملك الامراء خير بك بهذه الاحوال التي تصدر من العثمانية » وقال ما خلاصته ان خير بك وعد القاضي والامير قايتباي بالفحص والتحقيق

(٢) ابن أياس الجزء الثالث

(٣) كتاب الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة لابن أبي السرور البكري . وفي ابن أياس ان أول قاضي عسكر عينه السلطان سليمان هو القاضي جلبي وذلك سنة ٩٢٨ هجرية ، وروايته كما ترى تختلف ورواية ابن أبي السرور

واستمر قضاء العسكر يهبطون من الاستانة في عهد الحكم التركي ، ولم ينزع المالك الحكومة العثمانية في هذه الناحية من السلطة ولم يتعرضوا لها لانهم لم يخشوا بأسا من قضاء الاستانة ولم يكن هؤلاء ينافسونهم النفوذ والجاه كما كان يفعل الولاة ، فتركهم المالك وشأنهم . وكانت مراسيم التعيين تصدر من الاستانة لقاضي القضاء ولعدد من القضاة يشبه أن يكونوا رؤساء محاكم يبلغون خمسة وثلاثين قاضيا (١) ومراسيم التعيين لا تصدر الا في مقابل اتاوة من المال يدفعها طلاب مناصب القضاء لحكومة الاستانة ، وبعض هؤلاء القضاة كانوا زمنا ما أتركا ، فكانوا يستعينون بالتراجمة ، ولذلك عمت الفوضى في ادارة القضاء ، على ان مناصب القضاء خلا منصب قاضي القضاء قد آلت مع الزمن الى القضاة المصريين ، ذلك ان القضاة الاتراك الذين تصدر لهم مراسيم التعيين كانوا يتنازلون عن هذه المناصب لمن يطلبها من المصريين تلقاء جعل من المال . ثم صارت مراسيم التعيين تصدر رأسا للقضاة المصريين كانت مناصب القضاء تباع وتشترى وتعرض في سوق المساومة فترسو على من يدفع الثمن الأعلى ، ولا يمكن ان يصل النظام القضائي في بلد من البلدان الى مثل هذا الدرك من التدهور ، فلا جرم كانت وظيفة القضاء في ذلك العصر موضع الزاية في نظر الجمهور والعلماء

وكان قاضي القضاء في الغالب تركيا لا يعرف العربية فكان يتخذ ترجمانا يترجم له الاوراق وينقل أقوال الخصوم ، والترجمان على ذلك هو صاحب الحول والطول ، ومدة القاضي سنة واحدة أو سنتان متى جاء اجلها تعين حكومة الاستانة قاضيا آخر او تمدد مدة القاضي القديم . ويجوز ان تمتد مدة قاضي القضاء بنزول القاضي الجديد

البكري في تاريخ التعيين واسم القاضي . علي أتنا زجع رواية ابن أبي السرور لان كتابه خاص بالبحث في اسماء واخبار ولاة مصر وقضااتها في عهد الحكم العثماني (لغاية سنة ١٠٥٤ هجرية)

(١) تخطيط مصر الجزء الثاني عشر

له عن مدته يبيعه اياها بالثمن عن تراض بينهما ، وبهذه المساومة يجوز ان تمتد مدة قاضى القضاة الى اربع او خمس سنوات متعاقبة ، وله ان يعين من دونه من النواب ولن يصدر له امر التعيين ان ينزل عنه لغيره . وغنى عن البيان ان هذا النظام كان مصدرا للجور وأكل اموال الناس بالباطل ، ذلك ان القضاة الذين يشترى مناصبهم انما ينظرون اليها كوسيلة لا بتراز الاموال . فالفرق كبير جدا بين مكانة القضاة فى ذلك العصر ومكانتهم قبل الفتح العثمانى فان قضاة القضاة الاربعة كانوا موضع اجلال السلاطين كما انهم كانوا على جانب عظيم من العلم والتقوى (١) . اما فى عهد الحكم التركى فقد وصل النظام القضائى الى درجة لا نظير لها من الانحطاط ، لذلك كان كبار العلماء يتورعون عن تقلد مناصب القضاء ، اعتبر ذلك فى تراجم العلماء المعدودين الذين ذكروهم الجبرقى فى وفياته ، فانك لا ترى من بينهم عالما معدودا تولى منصب القضاء فى مصر ، وهذا وحده دليل كاف على انحطاط منزلة القضاء فى عهد الحكم التركى

ويحكم قاضى القضاة فى الخصومات التى تعرض عليه فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة ، وله ان يعين نوابا فى خطط القاهرة فكان بها تسعة نواب وببولاق نائب وبمصر القديمة نائب ، وهؤلاء النواب يحكمون بين الناس بالنيابة عن قاضى القضاة ويشترى منه مناصبهم بالمال واذا تغير قاضى القضاة أمكنهم ان ينالوا اذنا باقرارهم على مناصبهم لقاء جعل يدفعونه للقاضى الجديد

ولم يكن للتقاضى رسوم معلومة ولا مرتب محدود . بل كان كل قاض يتقاضى فى كل دعوى ما يقدره من الاجر بحسبها وكما يقدر ، يدخل فى ذلك اجور الكتبة او التراجمة ، واذا كان قاضى القضاة متورعا فانه لا يطلب اجرا معلوما بل يكتفى بما يعرضه ارباب القضايا وبذلك ينال احترام الناس ومحبتهم ، وكان القضاة لقلة بضاعتهم من العلم يرجعون الى فتاوى العلماء للفصل فى القضايا فكانت هذه الفتاوى تقدم كستندات فى الدعوى ، ولفتاوى العلماء قيمة فى تقض الاحكام بعد صدورها ، ومن ذلك جاءت كثرة الفتاوى فى ذلك العصر

(١) كانوا فى الاغلب هم أئمة مذاهبهم علما وفقها واجتهادا وبصرا بالحكم

وكان القضاة بمصر متعددي المذاهب فمنهم الحنفى والشافعى والمالسى والحنبلى وكل قاض يحكم بحسب احكام مذهبه وبحسب القول الذى يختاره من اقوال المذهب، ولا ريب ان تعدد مذاهب القضاة وتعدد الاقوال فى كل مذهب من اسباب الفوضى فى الاحكام والمعاملات ، ذلك ان المتقاضين لم يكونوا يعرفون مصير دعاوهم امام مختلف المحاكم وبخاصة مع ما جرى عليه العمل من ان للمدعى الخيار فى أن يذهب الى أى قاض أراد جريا على بعض الاقوال . فكان المدعى يختار القاضى الذى يعرف عن مذهبه أو القول الذى يأخذ به من أقوال هذا المذهب ما يؤيد دعواه . وهذا النظام من شأنه أن يززع الثقة فى المعاملات، وقد ظل تعدد مذاهب القضاة فى مصر الى أن تخصص القضاء بمذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه وذلك فى عهد محمد على باشا ذكر الجبرتى طرفا من شكوى الناس من فساد النظام القضائى ، وكلامه وان كان منصرفا الى أوائل عصر محمد على إلا أنه يتضمن وصف هذا النظام فى عهد البكوات المماليك ، وكيف كانت وظائف القضاء تباع وتشترى ، وكيف زادت الحالة سوءا لما عادت السلطة للاتراك بعد اقراض حكم المماليك وانتهاء عصر الحملة الفرنسية . واليك ما ذكره الجبرتى ننقله لما فيه من تفصيل لبعض ما أجملناه وتوضيح للنظام القضائى فى عصر الحكم التركى كما وصفه شاهد عيان . قال

« فى يوم الخميس (٢٠ ربيع الثانى سنة ١٢٣١) (١) حصلت جمعية بيت البكري وحضر المشايخ وخلافهم وذلك بأمر باطى من صاحب الدولة (محمد على باشا) وتذاكروا ما يفعله قاضى العسكر من الجور والطمع فى أخذ أموال الناس والمحاصيل وذلك ان القضاة الذين يأتون من باب السلطنة كانت لهم عوائد وقوانين قديمة لا يتعدونها فى أيام الامراء المصريين (المماليك) فلما استولى هؤلاء الاروام (الاتراك) على الممالك والقاضى منهم فحش أمرهم وزاد طمعهم وابتدعوا بدعا وابتكروا حيلة لسلب أموال الناس والايتام والارامل . وكما ورد قاض ورأى ما ابتكره الذى كان قبله

(١) يوافق ٢٠ مارس سنة ١٨١٦

أحدث هو الآخر أشياء يمتاز بها عن سلفه حتى فحش الامر وتعدى ذلك لقضايا أكابر الدولة وكتخدا بيك بل والباشا (محمد علي) وصارت ذريعة وأمرأ محتملاً لا يحتشمون منه ولا يراعون خليلاً ولا كبيراً ولا جليلاً

« وكان المعتاد القديم انه اذا ورد القاضى فى أول السنة التوتية التزم بالقسمة بعض المميزين من رجال المحكمة بقدر معلوم يقوم بدفعه للقاضى • وكذلك تقرير الوظائف كانت بالفراغ أو المحلول ، وله شهريات على باقى الحاكم الخارجة كالمصالحية و باب سعادة والخرق (باب الخلق) و باب الشرعية و باب زويله و باب الفتوح و طيلون و قناطر السباع و بولاق و مصر القديمة ونحو ذلك ، وله عوائد واطلاقات وغلل من الميري . وليس له غير ذلك إلا معلوم الامضاء وهو خمسة أنصاف فضة • فاذا احتاج الناس فى قضاياهم وموارثهم أحضروا شاهداً من المحكمة القريبة منهم فيقضى فيها ما يقضيه ، ويعطونه أجرته • وهو يكتب التوثيق أو حجة المبايعه أو التوريث • ويجمع العدة من الاوراق فى كل جمعة أو شهر ثم يمضيها من القاضى ويدفع له معلوم الامضاء لا غير • وأما القضايا لمثل العلماء والامراء فبالمساحة والاكرام (١)

« وكان القضاة يخشون صولة الفقهاء وقت كونهم يصدعون بالحق ولا يداهنون فيه ، فلما تغيرت الاحوال وتحكمت الاتراك وقضاتها ابتدعوا بدعاً شتى ، منها ابطال نواب المحاكم و ابطال القضاة الثلاثة خلاف مذهب الحنفى وأن تكون جميع الدعاوى بين يديه ويدي نائبه • وبعد الانفصال يأمرهم بالذهاب الى كتخداه (نائبه) ليدفع المحصول فيطلب منهم المقادير الخارجة عن المعقول • وذلك خلاف الرشوات الخفية • والمصالحات

(١) معنى ما تقدم أن دخل قاضى القضاة يتألف من الموارد الآتية : ١ - ما يدفعه له كل سنة موظفو المحكمة ٢ - جعل شهرى يدفعه له قضاة أخطاء العاصمة ٣ - ما تؤديه له الحكومة من العوائد والغلل ٤ - رسوم الامضاء ٥ - الهدايا الاختيارية التى يقدمها له الاعيان والعلماء « بالمساحة والاكرام » بعد الفصل فى قضاياهم

السرية . وأضاف التقرير والقسمه لنفسه (١) . ولا يلتزم بها أحد من الشهود كما كان في السابق . وإذا دعى بعض الشهود لكتابة توثيق أو مبايعه أو تركه فلا يذهب الا بعد أن يأذن له القاضي ويصحبه بجوخدار (وكيل) ليباشر القضية ، وله نصيب أيضاً . وزاد طمع هؤلاء الجخدارية حتي لا يرضون بالقليل كما كانوا في أول الامر وتخلف منهم أشخاص بمصر عن محاديمهم وصاروا عند المتولى لما افتتح لهم هذا الباب

« وإذا ضبطت تركه من التركات وبلغت مقداراً أخرجوا للقاضي العشر من ذلك ومعلوم الكاتب والجوخدار والرسول ، ثم التجهيز والتكفين والمصرف والديون وما بقي بعد ذلك يقسم بين الورثة . فيتفق ان الوارث واليتيم لا يبقى له شيء »
« ويأخذ (القاضي) من أرباب الديون عشر ديونهم أيضاً ويأخذ من محاليل وظائف التقارير معلوم سنتين أو ثلاثة (٢) وقد كان يصالح عليها بأدنى شيء والاكراماً .

« وابتدع بعضهم الفحص عن وظائف القباينة والموازين وطلب تقاريرهم القديمة ومن أين تلقوها . وتعلل عاينهم بعدم صلاحية المقرر وفيها ما هو باسم النساء وليسوا أهلاً لذلك . وجمع من هذا النوع مقداراً عظيماً من المال ثم محاسبات نظار الاوقاف والعزل والتولية فيهم والمصالحات على ذلك . وقرر على نصارى الاقباط والاروام قدراً عظيماً في كل سنة بحجة المحاسبة على الديور والكنائس

« وما هو زائد الشناعة ايضاً أنه اذا ادعى مبطل على انسان دعوى لأصل لها بأن قال ادعي عليه بكذا وكذا من مال وغيره كتب المقيد (كاتب المحكة) ذلك القول حقاً كان أو باطلاً معقولا أو غير معقول . ثم يظهر بطلان الدعوي أو صحة

(١) اي اضاف لنفسه الرسوم التي تدفع على ذمة اثبات الوراثة وقسمه المواريت .

(٢) معناه ان القاضي كان يأخذ من الموظفين الجدد معلوم سنتين أو ثلاثة

بعضها فيطالب الخصم (المدعي عليه) بمحصول (رسوم) القدر الذي ادعاه المدعي وسطره الكاتب يدفعه المدعي عليه للقاضي (١) على دور النصف الواحد أو يجبس عليه حق يوفيه . وذلك خلاف ما يؤخذ من الخصم الآخر ، وحصل نظير ذلك لبعض من هو ملتجئ لكتخدا بك (نائب محمد علي باشا) فحبس على المحصول فأرسل الكتخدا يترجى في اطلاقه والمصالحة عن بعضه . فأبي ، فعند ذلك حنق الكتخدا بيك وأرسل من أعوانه من استخرجه من الحبس

« ومن الزيادات في نفقة الطنبور كتابة الاعلامات . وهو انه اذا حضر عند القاضي دعوى بقاصد من عند الكتخدا أو الباشا (محمد علي) ليقضى فيها وقضى فيها لاحد الخصمين طلب المقضى له اعلاماً بذلك الى الكتخدا أو الباشا يرجع به مع القاصد قتيلاً واثباتاً ، فعند ذلك لا يكتب له ذلك الاعلام الا بما عسى لا يرضيه إلا ان يسلم من جلده طاقاً أو طاقين . وقد حكمت عليه الضرورة . وتابع الباشا أو الكتخدا ملازم له ويستعجله ويساعد كتخدا القاضي عليه ويسليه على ذلك الظفر والنصرة على الخصم . مع ان الفرنسيين الذين كانوا لا يتدينون بدين لما قلدوا الشيخ احمد العريشي القضاء بين المسلمين في المحكمة حددوا له حداً في أخذ المحاصيل لا يتعداه بأن يأخذ على المائة اثنين فقط له منها جزء والكتاب جزء .

« فلما زاد الحال وتعدى الى أهل الدولة رتبوا هذه الجمعية ، فلما تكاملوا بمجلس بيت البكرى كتبوا عرضاً محضراً ذكروا فيه بعض هذه الاحداثات والتمسوا من ولى الامر رفعها ويرجون من المراحم أن يجرى القاضي ويسلك في الناس طريقاً من احدى الطرق الثلاث : اما الطريقة التي كان عليها القضاة في زمن الامراء المصريين . واما

(١) أي ان المدعي عليه اذا حكم لصالحه يلزم مع ذلك بدفع رسوم الدعوى وهذا يخالف القاعدة المشهورة ان المدعي اذا حكم برفض دعواه يلزم هو بمصاريفها ولا يلزم المدعي عليه بشيء منها .

الطريقة التي كانت في زمن الفرنساوية . أو الطريقة التي كانت أيام مجي الوزير (١) وهي الاقرب والاوفق وقد اخترناها ورضيناها بالنسبة لما هم عليه الآن من الجور ، ونعموا العرض محضراً وأطلعوا عليه الباشا فأرسله الى القاضي فامتلل للامر وسجل بالسجل على مضمض منه ولم تسمه المخالفة (٢)

نتائج نظام الحكم

في حالة مصر السياسية والعمرانية

كان لنظام الحكم الذي رزحت تحته البلاد من عهد الفتح العثماني أسوأ الاثر في حالتها السياسية والعمرانية ، فقد زال عنها الاستقلال الذي كان مصدر عزها وعظمتها ، وصارت مسرحاً للقتل والمشادة بين السلطات الثلاث التي تنازعت الحكم فيها ، فحال ذلك دون قيام حكومة ثابتة مستقرة ترفع من شأن مصر وتقيم العدل وتحفظ الامن بين ربوعها وتعنى بمراقبتها ، فلا غرو ان اقترن نظام الحكم بعد الفتح العثماني بتأخر البلاد وتقهقرها وتناقص عدد سكانها ، ولو قارنت بين حالتها في ذلك العهد وحالتها من قبل حينما كانت مملكة مستقلة في عهد الدول الفاطمية والايوية والبحرية والبرجية لرأيت ان البلاد قد رجعت القهقري خطوات واسعة

في الحالة الاقتصادية

قد أهمل الولاة العثمانيون والبكوات المماليك أمر الري وتوزيع المياه واقامة القناطر والجسور وحفظ الامن فجفت الترع ، وتلفت الاراضي ، وتعطلت الزراعة

(١) يوسف باشا ضيا الذي جاء عند جلاء الفرنسيين

(٢) الجبرتي الجزء الرابع

وقد الأمن ، وذهبت ثروة البلاد وهاجر الكثير من سكان القطر الى البلاد المجاورة

واضحلت الصناعات والفنون التي كانت تزدهر بها مصر في سالف العصور ، بدأت في الاضمحلال عقب الفتح العثماني مباشرة بسبب اضطراب الاحوال وكثرة الفتن وقد الأمن واسراف الجنود العثمانية في السلب والنهب ، أضف الى ذلك ان السلطان (سليم) بعد ان استقر له الامر في القاهرة جمع رؤساء الصناعات المتخصصين في الفن والصناعة وقلهم الى الاستانة لينشروا فيها صناعاتهم وفنونهم ، فكان ذلك سبباً في نضوب معين الصناعة والفن في البلاد . وتلاشت صناعات كانت عامرة . وفي ذلك يقول ابن اياس :

« ان السلطان سليم خرج من مصر ومعه الف جبل محملة من الذهب والفضة فضلاً عن التحف والسلاح وأعمدة الرخام والصيني والنحاس ، وأخذ من مصر من كل شيء أحسنه ، وذلك عدا ما غنمه وزراؤه من الاموال الجزيلة ، وكذلك عسكره فاقمهم غنموا من النهب مالا يحصى ، وبطل من مصر نحو خمسين صنعة (١) »

وجاء الولاة والحكام الماليك الذين تركت لهم ادارة البلاد فكان حكمهم آفة على الصناعة والتجارة . وكانت مصادرتهم لاموال التجار من أهم أسباب ركود الحركة التجارية فاخذت رؤوس الاموال من أيدي الاهالي وغلب عليهم الفقر وصار الشعب الى حالة محزنة من الضنك والفاقة

في الحالة الصحية

وفتكت بهم الامراض والابوثة التي كانت تتعيف البلاد ونحتاج مئات الآلاف من الناس وتأخذهم أخذاً وبيلا ، كل ذلك والحكام يصرفهم الجهل عن

مقاومتها (١) وليس في البلاد طب ولا أطباء والناس مبروكون لرحمة المنجمين والخلاقين

في العلوم والآداب

وقفاً الجهل في البلاد ورزح الشعب تحت نير العبودية وظلام الجهالة ، وحرمت البلاد من معاهد العلم والتعليم ، ولم يبق بها سوى الجامع الأزهر الذي كان قائماً قبل عصر البكوات المماليك وبعض المدارس للتحفة بالمساجد . فكان الأزهر هو المعهد الوحيد الذي تدرس فيه العلوم ، ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم في مصر ، وكان بالقاهرة وبعض البنادر والثغور كتاتيب ينفق عليها من أموال الصدقات والأوقاف ، لكنها كانت قليلة النفع ضعيفة الأثر في تسديد ظلام الجهالة في البلاد .

وذوت العلوم والآداب في مصر بعد أن كانت زاهية زاهرة ، فقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والبرجية (الشراكسة) حافظة مكانتها التي كانت لها من قبل ، واليه يرجع الفضل في اتقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق .

(١) في سنة ١٠٢٨ هـ أصيبت مصر بطاعون جارف في زمن الوزير جعفر باشا لبث أربعة أشهر مات فيه ستمائة ألف نفس . وفي سنة ١٠٣٥ هـ أصيبت البلاد بوباء مات فيه ٣٠٠ ألف نفس . وفي سنة ١٠٥٠ (١٦٤١ ميلادية) في زمن مقصود باشا حصل طاعون لم يسمع بمثله وخرب بهذا الطاعون ٢٣٠ بلدة من الوجه البحري كما قال ابن أبي السرور البكري . وحدث طاعون آخر في شياخة ذي الفقار بك سنة ١١٤٢ (١٧٢٩ ميلادية) وطاعون في شياخة عثمان بك ، وفي سنة ١٢٠٥ (١٧٩١ ميلادية) أصيبت البلاد بطاعون فظيع سماه أهل مصر طاعون اسماعيل لانه وقع في عهد مشيخته كان يموت به في القاهرة زيادة عن ألف نفس في اليوم ومات به اسماعيل بك ومعظم مماليكه وتغيرت الحكام في اليوم الواحد ثلاث مرات لموتهم ومات به من سكان القاهرة نحو ستين ألفاً

فكانت مصر ملجأً للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا
وخراسان، وبقيت لغة حكومتها عربية في عهد تينك الدولتين، واستظلت العالم
والآداب بحماية الملوك والسلاطين في مصر، ونبع فيها طائفة من فطاحل الشعراء
والادباء والعلماء، كالבוصري صاحب البردة، والسراج الوراق، وابن نباتة المصري،
والقلقشندي صاحب صبح الأعشى، والابشيحي صاحب المستطرف، وابن منظور
صاحب لسان العرب، وابن هشام النحوي العظيم الذي يقال فيه انه أنحى من
سيبويه، وابن عبد الظاهر، والنواجي^(١) صاحب حلبة الكيت، والقسطلاني
المحدث المشهور، وشمس الدين السخاوي صاحب الضوء اللامع، وابن خلكان
المؤرخ المشهور صاحب وفيات الاعيان، والصفدي صاحب الوافي، وابن حجر المؤرخ
امام الحفاظ والمحدثين في زمانه، والعيني المؤرخ والمحدث، وابن وصيف شاه، وابن
دقاق، والمقريزي صاحب الخطط، والمسكين بن العميد، وابو الفداء^(٢) المؤرخ
الجغرافي المشهور صاحب تقويم البلدان، والذهبي، والنويري صاحب نهاية الأرب
في فنون الادب، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الابصار في ممالك الامصار،
وابن عقيل، وابن تقي بردي صاحب النجوم الزاهرة، وجلال الدين السيوطي صاحب
التأليف الشهيرة في التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ والادب واللغة وهو آخر من ظهر
في ذلك العصر من كبار العلماء بمصر، والدميري صاحب حياة الحيوان، وابن
اياس المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني

وقد استضافت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة في الشرق .
كلامام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون
أما في عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اصبحت الآداب العربية

(١) نسبة الى نواج إحدى قرى مديرية الغربية

(٢) هو الملك المؤيد صاحب حماه، ويلاحظ ان الدولة المصرية كانت في ذلك

العصر تضم سوريا الى أملاكها

وجدت القرائح وركبت حركة العلم ، ولا غرابة في ذلك فان القاهرة صارت مركز ولاية تابعة للاستانة بعد أن كانت عاصمة دولة مستقلة بل عاصمة العالم العربي كله ، وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة لغاية انتهاء دولة السلاطين البرجية ، وتقهقرت البلاد وساءت ادارتها فأثرت هذه الاسباب مجتمعة في حالة العلوم والآداب وآلت الى الاضمحلال والنواء ، واندثرت المدارس التي كانت زاهرة في عهد الفاطميين والايوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والبرجية ، وتبددت خزائن الكتب التي يرجع انشاؤها الى عهد الفاطميين ولم يبق منها الا بعض المكاتب الملحقة بالمساجد كمكتبة الازهر التي كان بها الى عهد الحملة الفرنسية نحو ٣٣٠٠٠ مجلد

قال المرحوم علي باشا مبارك يصف اهمال شأن المدارس في مصر مدة ثلاث قرون متوالية .

« من ابتداء القرن التاسع الى القرن الثاني عشر (١) يعنى مدة ثلاثة قرون قد أهمل أمر المدارس وامتدت أيدي الاطماع الى أوقافها ، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فاخذوا في مفارقتها ، وصار ذلك يزيد في كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى اقطع التدريس فيها بالكلية ، وبيعت كتبها وانتهبت ، ثم أخنت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات الى عمارتها ومرمتها ، فامتدت أيدي الناس والظلمة الى بيع رخاها وأبوابها وشبابيكها حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمباني الجليلة الى زاوية صغيرة تراها مغلقة في أغلب الايام وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشاً أو غير ذلك ، وفيه عاقبة الامور (٢) »

هذه صورة لما آلت اليه العلوم والآداب من الاضمحلال والنواء في عهد الحكم

(١) وهذه المدة يقع معظمها في عهد الحكم العثماني

(٢) المخطط التوفيقية الجزء الاول

العثماني ، من أجل ذلك قلنا نبغ من عهد الفتح التركي شاعر أو عالم أو أديب ، ولا تكاد تعد في هذا العصر سوى شهاب الدين الخفاجي . والسيد محمد مرتضى الزبيدي العالم اللغوي المشهور صاحب تاج العروس في شرح جواهر القاموس ، وأصله من اليمن واستوطن مصر وتوفي بها . وعبد الوهاب الشعراني صاحب الطبقات وغيرها من المصنفات الكثيرة ، وابن أبي السرور البكري الصديق صاحب الروضة المأنوسة ، والصبان ، وعبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور . ولو تأملت في تراجم من ذكرهم الجبرتي في كتابه من علماء ذلك العصر لما رأيت منهم من يصح اعتباره عالماً نابهاً في الفلسفة أو العلوم والآداب ، واقتصر التدريس في الأزهر على العلوم الفقهية واللسانية وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التي كان يدرسها أسلافهم والتي كانت تزدهر بها جامعات بغداد وقرطبة في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، واعتزل الأزهر النهضة العلمية الأوروبية الحديثة فبعثت الشقة بينه وبين التقدم العلمي القديم والحديث ، واقتصر المؤلفون من علمائه على النقل ووضع الشروح والحواشي والتقارير والتعليقات ونحوها مما لا يمكن أن يكون أساساً لنهضة علمية صحيحة ، وأنحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامة وكان المجيدون من الكتاب والادباء لا يتوخون في كتابتهم إلا تنميق العبارات بالسجع الركيك والمحسنات البديعية كالجناس والتورية ، واضمحلت روح البلاغة ، ولم يبق في متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبي زيد الهلالي وعنترة والزناتي خليفه وما إلى ذلك ، وتضاءلت مكانة الشعر والأدب لدرجة أن كلمة « شاعر » كانت تطلق على جماعة يجلسون في القهوات ويلقون على مسامع الجماهير قصص أبي زيد والظاهر بيبرس وينشدونها على نغمات الربابة

هذا التقهقر هو نتيجة حكم الولاة الاتراك والبكوات المماليك ، ومن الواجب أن نفرق بين عهد البكوات المماليك وعهد السلاطين المماليك من الدولتين البحرية والبرجية ، فإن عهد هؤلاء كان عهد عمران وحضارة ، وعلى

ما كان يتخلله من المظالم فقد كان كثير من السلاطين ذوي علم وأدب وثقافة لقرب عهدهم بعصر الحضارة الاسلامية .

أما حكم البكوات المماليك فكان عصر تأخر وجمالة ، وكانوا هم والولاة الاتراك علة ما أصاب البلاد من التقهقر ، ومن الخطأ أن يظن بعض المؤرخين أن البكوات المماليك ظلوا على توالى السنين سلالة الدولتين البحرية والبرجية ، فان المعروف أن أفواج المماليك كانت ترد الى مصر من بلاد الشركس والقوقاز ، فالصلة التي كانت تربط المماليك بالدولتين البحرية والبرجية عند الفتح العثماني قد انقطعت مع الزمن ، أضف الى ذلك أن المماليك كان معروفًا عنهم العقم وقلة النسل ، وكانت ذريتهم تنقرض ونسلهم ينقطع في جيل أو جيلين فكأنوا يسدون النقص الذي يبدو في صفوفهم بشراء أفواج الارقاء من أسواق الرقيق . واذا تأملت في تراجم البكوات المماليك الذين ذكروهم الجبرتي في تاريخه تجد أنهم ليسوا من سلالة الدولتين البحرية والبرجية بل هم مجلوبون من أسواق الرقيق ، وليس فيهم أحد لم يكن أصله مملوكا اشتراه أحد المماليك

والآن وقد انتهينا من الكلام على نتائج نظام الحكم في ذلك العصر، فلننتقل الى وصف الحالة في مصر عند مجيء الحملة الفرنسية

الحالة الاجتماعية والاقتصادية في مصر

عند مجيء الحملة الفرنسية

من الواجب أن ندرس الهيئة الاجتماعية التي كانت تتألف منها الامة المصرية في أواخر القرن الثامن عشر ، لان في هذه الهيئة نبتت الفكرة الاولى للروح القومية في مصر عند اصطدامها بالحملة الفرنسية

يبلغ عدد سكان مصر في ذلك الحين ثلاثة ملايين ، ينقسمون الى حكام ومحكومين . فالمحكومون هم الشعب المصري والحكام هم فئة المماليك الذين استبدوا بحكم

إلى بلاد وكان عدد القتلة منهم يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف مملوك^(١) ما بين مقدمين وامراء وكشاف وضباط وجاقات واجناد واتباع . وكان عددهم لا يزيد بالتناسل لانهم قليلا والنسل كما قدمنا ، فكانوا يتممون قصصهم ويحفظون عددهم وعصبيتهم بالارقاء يشترونهم فتيانا وفتيات من الشركس الذين كانوا يباعون في أسواق الرقيق بالاستانة فيعتنون بتربيتهم وكثيرا ما يعتقونهم فيصبحون أحرارا ولكنهم يحفظون عهد اسيادهم ويكونون من حزبهم وعصبيتهم ، فمن هؤلاء الممالك أحرارا أو أرقاء يتكون جيش الممالك في مصر .

أما الشعب المصري فهو سلالة الفراعنة والعرب ، امتزج به الدم المصري القديم بالدم العربي ، وكان يتألف من عدة طبقات اجتماعية نذكر حالة كل منها

العلماء

فأولاها طبقة العلماء ورجال الشرع ، وكان لهم في ذلك العهد تأثير عظيم في نفوس الامة وقيادة افكارها ، ولهم الزعامة الادبية والسياسية بين الجماهير ، واليه يرجع تدبير الحركات التي ظهرت على مسرح الحوادث السياسية في مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر كما تراه مبسوطا في فصول الكتاب

الملاك والتجار

وطبقة الملاك والتجار ، وهي تشمل الحضريين سكان المدن والاقليم ذوى الثروات المتوسطة ، وفيهم عدد قليل من أغنياء الملاك والتجار ، ويلحق بهذه الطبقة بعض « الوجاقلية » أى ضباط الفرق وكذلك « الافندية » كتاب الدواوين وغيرهم من سلالة العثمانيين الذين استوطنوا البلاد واقتنوا بها البيوت والاملاك وصاهروا أهلها

(١) تجد تفصيلا وافيا عن عدد الممالك في الفصل السابع

وناسبهم فاندمجوا مع الزمن في الشعب المصري وصاروا في عداد افراده ، وبعد كثير من العلماء من طبقة الملاك بما كانوا يملكون من الهور والاراضى ، ومن الملاك طبقة الاعيان في البنادر والاقليم ، وفيهم فئة من كبار الاعيان عرفوا بسعة الثروة وبسطة الجاه وهم سلالة البيوت المصرية القديمة الذين احتفظوا بعصبيتهم بما استكثروا من الاتباع والاشياع والارقاء وما اقتنوه من الاملاك والضياع الواسعة التي كانت تعد بالقرى ، وسيرد أسماء بعضهم في خلال فصول الكتاب ، وكانت لهم سطوة يرهبا الحكام الماليك فكانوا يتقونهم ويحاملونهم بالمدارة ويتركون لهم في مناطقهم شبه استقلال ذاتي

أما التجار فكانوا يشغلون حيزا كبيرا في المجتمع المصري، وكانوا أغنى طبقات الشعب، ذلك ان الزراعة كانوا أكثر استهدافا لمظالم الحكام وفداحة الضرائب التي تحرمهم ثمرة كدهم وتجعلهم في حالة فقر مستمر، والصناع كانوا عادة من الطبقات الفقيرة، لكن شأن التجار غير هذا الشأن فكانوا الى حد ما أحسن حالا وأرقى مستوى من الطبقات الاخرى ، ووصل بعضهم الى درجة عظيمة من الثراء والجاه وابتنوا القصور والوكالات ، واتسعت تجارتهم الخارجية ، وكانوا يستمدون ثروتهم من نشاطهم ومن مركز مصر التجاري ، فغير خاف أن مركز مصر الجغرافي يجعل منها الملتقى الطبيعي للقارات الثلاث أفريقيا وآسيا وأوروبا ، وكانت متاجر الهند لا تصل الى أوروبا إلا معرّجة بمصر ، فنالت مصر من هذه الوجهة مركزا تجاريا ممتازا وصارت تجارة الشرق بيدها ، وربحت منها المكاسب الطائلة ، لكنها بدأت تفقد هذا المركز الممتاز من يوم أن تم للرحالة البرتغالي فاسكو دي جاما الطواف حول القارة الافريقية واجتياز طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند (سنة ١٤٩٧ — ١٤٩٨) فقد أخذت تجارة الهند تتحول من مصر الى طريق المحيط الاطلنطي فبدأت منزلة مصر التجارية تضئحل من أوائل القرن السادس عشر . وزاد في اضمحلالها زوال الاستقلال عنها بدخولها في حوزة الحكم العثماني سنة ١٥١٧ ، وضياع أسطولها الذي كان لها في عهد السلطنة المصرية ، وتهقرها في عهد الولاة العثمانيين

والبكوات الممالك . على أنها وإن أصابها ما أصابها من التقهر والاضمحلال كانت في ذلك العهد سوقا للمتاجر الواردة إليها من الشرق والغرب ، فكانت نرقاً إليها السفن قادمة من أوروبا وسوريا والافاضول وثغور البحر الاحمر ، وتصل إليها قوافل التجارة من السودان والحبشة وبطن افريقية ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس . وكذلك كانت تصل إليها القوافل والسفن من فلسطين وسوريا وبلاد العرب . فكانت بكل ذلك ملتقى التجارة من سائر الاقطار ، تجميعها القوافل من السودان ودارفور حاملة العاج والتبر والصنع العربي وريش النعام والتمر الهندي والجلود والرقيق والكحل وقرن الخريت والشب والنطرون ، وتنقل حاملة منسوجات مصر وحاصلاتها وحاصلات البلاد الاخرى التي تستوردها ، وكذلك تجميع القوافل من فزان وبلاد المغرب حاملة الاصواف والشيلاان البيضاء والطرايش والاحذية (البغ) والاردية الصوفية المعروفة (بالبرانس) واعطية الصوف المعروفة بالاحرمة ، وزيت الزيتون ، والعسل والشمع والسمن . وتجلب من الهند ومن بلاد السلطنة العثمانية (الافاضول وسوريا واليمن والحجاز) الحرير والبن والبهار وأنواع الطيب والعطور والتوابل والابازير والعقاقير والتبغ والخشب والصابون والزيت والشيلاان الكشمير والفواكه . وتستورد من أوروبا الاجواخ والقطيفة والحرير والساتان والورق والجواهر والحلى والحديد والنحاس والخشب والرخام والزجاج والمرايا والخزف والصيني والاسلحة وغير ذلك . كما كانت تصدر الى أوروبا الارز والفلال وبعض المنسوجات القطنية التي كانت تصنع في القاهرة والمحلة الكبرى ورشيد . وتصدر إليها كذلك الحاصلات والبضائع التي كانت ترد إليها من افريقيا وآسيا وأهم هذه الاصناف البن الذي كان يرد لها من اليمن

قال الميسوجيرار Girard وكيل ادارة الري في عهد الحملة الفرنسية يصف مركز مصر التجاري في أواخر القرن الثامن عشر :

« ان الحاصلات التي تنتجها أنحاء القطر المصري تتبادلها المدن والقرى فتأخذ منها حدة كفايتها ، وما فضل منها يصدر من مصر مع ما تلتججه الصناعة المصرية الى

الاقطار الافريقية وبعض البلاد الاوروبية ، فيباع فيها بضمنه أو بعوض منه بضائع من التجارة أو عروضها ، وقد كان لمركز مصر فضل كبير في جعلها ملتقى ومستودعا للتجارة الخارجية »

وقد اجتذب هذا المركز التجارى عدداً من الجاليات الاجنبية سواهم من الایطالین وبخاصة سكان البندقية (فينسيا) والفرنسيين والاروام وكانوا يقيمون في القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط

ثم كان لمصر جمارك في ثغورها التجارية وهي القاهرة ، ومصر القديمة ، وبولاق ، والقصير ، والسويس ، ودمياط ، ورشيد ، والاسكندرية ، فاما جمرک القصير فكان متروكا لحكام الجهات القبلية ، وأما جمارك باقى الثغور فكانت مقسمة بين مراد بك وابراهيم بك ، فاخص مراد بك بجمارك القاهرة وبولاق ومصر القديمة . ورشيد . ودمياط ، والاسكندرية ، واخص ابراهيم بك بجمرك السويس وكان أكثر حركة وايراداً لان اليه ترد معظم بضائع الهند وبلاد العرب ، وكان ايراده وحده يعدل ايراد جمارك القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية جميعاً ، وكان ابراهيم بك يقيم من اتباعه عمالا يحصلون مكوس الجمرک بخلاف مراد بك فإنه أعطى جمارك الثغور التي كانت في قسمته لاربعة « ملزمين » وجعل على كل منهم خراجاً معيناً يؤدي اليه في أوقاته وينالون هم ايراد الجمارك لانفسهم وينكفلون بمصاريف ادارتها كرتبات الكتبة والعمال ، وكان ايراد جمارك القطر المصرى وقتئذ نحو ثلاثة ملايين فرنك (١) (١٢٠٠٠٠٠ جنيه) تحتسب فيها المصاريف وأرباح الملزمين

طبقة المزارعين « الفلاحين »

ومنهم يتكون الشطر الاكبر من الامة ، وكانوا في حالة يرثى لها من الجهل والفاقة وكانت الزراعة في تهقر وتأخر بسبب حرمان البلاد من منشآت للرى والصرف

(١) كما يقدرها المسيو استيف في كتاب تخطيط مصر الجزء الثاني عشر

تضمن استخدام مياه النيل وتوزيعها ، ولحرمان البلاد من حكومة عادلة توطد الأمن وتصون حقوق الافراد . كانت الزراعات المعروفة في مصر هي الحبوب وما اليها كالقمح والارز والذرة والشعير والفول والعدس والحمص ، والترمس ، والحلبة والحناء ، والزعفران ، والبرسيم ، والنبيلة ، والقنب (التيل) والسكتان ، والبصل ، والسسم ، والسلجم ، والقرطم ، والعصفر ، والخضر ، والفواكه والثمار كالبليح على اختلاف أنواعه والعنب والبطيخ والشمام والضميرى والموز والمان والتين والبرقال والليمون . وكان البليح — ولم يزل — أكثر فواكه مصر وفرة

وكان القطن يزرع في بعض جهات الوجه البحري والصعيد، ذكر المسيو (جيرار) Girard في رسالة له عن حالة الزراعة في مصر عهدئذ أنه شاهد زراعة القطن في الدلتا والوجه القبلى ، فقطن الوجه القبلى كان يزرع ويبقى قائماً على سوقه مدة تتراوح بين ثمانى وعشر سنوات ، ففي السنوات الثلاث الاولى يزرع بين شجيرات بعض الخضر وبخاصة البامية ، وفي السنوات السبع الباقية تبقى شجيرات القطن قائمة وحدها ، وقال عن قطن الدلتا انه كان يزرع سنوياً وكان يروى ثلاث مرات في السنة في خلال خمسة أشهر. وقال ان محصول الفدان بجهة ممنود يغل قنطاراً ونصفاً أو قنطارين كل قنطار ١٢٠ رطلاً وان ثمن القنطار ١٦ ريالاً

وقال ان قطن الوجه القبلى كان ينسج في مصانع الاقمشة في القطر المصري (١) وذكر طريقة حليج القطن فقال انها غاية في البساطة يتخذ لها اسطوانتان تدوران حول محورها متقابلتين، وهذه المشاهدات رآها جيرار في خلال رحلاته في الوجه البحري والقبلى سنة ١٧٩٩ وسنة ١٨٠٠ وأوائل سنة ١٨٠١

وغنى عن البيان ان هذا القطن كان من صنف رديء ، أما القطن الحديث فلم تدخل زراعته في مصر الا في عهد محمد على الكبير حوالى سنة ١٨٢٠ وكذلك كان يزرع قصب السكر ولكن بمقادير قليلة ذكر المسيو

جبرار في رسالته المتقدمة ان زراعة القصب كانت كثيرة النفقات لا يقبل عليها إلا قليل من الزراع وكانت منحصرة تقريباً في مديرية جرجا بجبات فرشوط (١) واخيم وفيها مصانع للسكر، وكان يزرع أيضاً في مديرية اطفح بمقادير كثيرة ويزرع القليل منه في بعض بلاد الوجه البحري ولكنه لا يصنع منه السكر بل يباع كفاكهة، وكانت مصر تصدر السكر لبعض بلاد السلطنة العثمانية، ويزرع التبغ في بعض جهات الصعيد، ويزرع الورد بكيات وافرة في الفيوم ومنه يستقطر ماء الورد في مدينة الفيوم والقاهرة

الصناع والصناعات

لم تكن البلاد تعرف الصناعات الكبرى، واقتصرت الشأن فيها على الصناعات الصغرى، وكان الصناع والعمال ينتظمون في طوائف تشبه نقابات الصناع الحالية لكل حرفة طائفة يرأسها شيخ يسمى (شيخ الطائفة) واليه النظر في شؤونها، ولمشاخ الطوائف الصناعية نواب أو وكلاء يعرفون بالنقباء يختارهم إما حكام المدن التي يقيمون بها وإما السلطة العليا في القاهرة، فكلما أرادت الحكومة النظر في نظام تلك الطوائف أو تحصيل ما تفرضه عليها من الغرض خاطبت في ذلك مشيختها فيتولون توزيع الغرم المطلوب على أفراد الطائفة، وكان لنظام الطوائف بعض المزايا في ترقية شؤون الصناعة والصناع وتعليم المبتدئين منهم أسرار الصنعة، فكان لكل صناعة مدة تمرين يتدرب العمال خلالها على العمل فيها فإذا أراد الصبي المتعلم أن يصير «معلماً» أو «أوسطى» بعد حذقه الصنعة التي اختارها ذهب الى شيخ الطائفة مصحوباً بعمله ويشهد له المعلم بأنه أتم الصنعة ومهر فيها وعندئذ ينادى به الشيخ عضواً من أعضاء الطائفة وكانت الصناعات الصغرى منتشرة ومتفرعة الى فروع عدة (٢)

(١) فرشوط التابعة الآن لمديرية قنا

(٢) رجعنا في هذا التقسيم (مع شيء من التصرف) الى بحث للسيو

جومار الذي شاهد صناعات مصر في ذلك العصر

فمنها الصناعات والمهن المتعلقة بالمواد الغذائية، كطحن القمح والذرة وخبزها ، وضرب الارز وتبييضه وطحن اللبن واستفراخ البيض واستخراج السكر من القصب واعتصار الزيت من السهم ومن بذر الكتان ومن القرطم والسلجم، وحرقة القصابة (الجزارة)، وتدميس الفول (المدمس) واستخراج الخل من البلح أو الزبيب، واستقطار ماء الورد والعرقى ، واشتياار العسل من خلايا النحل ، وصناعة الفطير والحلوى والمربات

والصناعات الخاصة بالملبس، وهي غزل القطن والكتان والصوف، كان يغزله الرجال والنساء بالمغازل اليدوية وينسجون منه الاقمشة الكتانية والصوفية والقطنية التي تكفى حاجة البلاد ، ونسج الاقمشة الحريرية وقد اشتهرت به مدن القاهرة والمحلة الكبرى ودمياط (واحتفظت بهذه الشهرة الى اليوم) وصناعة الفرو (الكرك) وصناعة اللباد ومنه كانت تصنع الطرايش واللبد (جمع لبدة) ، وصناعة البسط المعروفة بالاكلة (جمع كليم) ، وقلوع المراكب ، ثم صناعة الاقمشة وقصرها وتبييضها، والتطريز، وكانت صناعته على جانب من الاتقان وكان المطرزون المصريون موضع اعجاب الافرنج ولا سيما تطريزهم الحرير والجوخ والموسلين وتطريز الجلود بأسلاك الذهب والفضة .

وكذلك العقادون قد برعوا في صناعة القبطان (الكردون) والشراريب من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة ، ودباغة الجلود ، وصناعة الاحذية وسروج الخيل وكل ما يحتاجه دواب الركوب ، وصناعة خياطة الملابس للرجال والنساء

والصناعات المتعلقة بالعمارات كضرب الطوب ونحت الاحجار وصنع الجير والجبس والمصيص ، والبناء ، وقطع البلاط ، وتركيبه ، وصناعة أواني الزجاج ، وتنجيد الاثاث وصناعة الفخار والخزف . وصنع الشمع ، والسبح (جمع سبحة) . وعمل أحجار الشبكات التي يدخن فيها وأنايبها ، وصناعة الحصيد ، والمكاتل (القنف والفلقات) والنجارة ، وبناء السفن ، وصناعة البارود والجلل ، وصنع

الاسلحة واصلاحها ، وصناعة النحاس وتبييضه ، والحداذة والخراطة ، وكانت هذه الصناعة رائجة في ذلك العصر راجا عظيما وبخاصة في استخدام قطع الاخشاب المحروطة في عمل النوافذ والابواب والمشريات ، وكان الخراطون أحذق صناع القطر المصري ، وصناعتهم من أكثر الصناعات المصرية تقدماً ، ونبغ الكثير منهم في خراط (الكهرمان) والعاج والتعفن في اتقان أنابيب الشبكات التي كانت الوسيلة الوحيدة لتدخين التبغ

، ومن الصناعات الاخرى الصياغة وتركيب الاحجار الكريمة ، وسك النقود ، ويدخل في عداد الصناعات السقاؤون وكان عددهم كبيراً جداً في ذلك العهد لانهم يحملون ماء النيل الى جميع السكان في القاهرة والبنادر ، والمكارون ، والجمالون ، والنوتية في النيل

المسلمون والاقباط

كان المسلمون والاقباط يشتركون على السواء في احتمال ظلم الحكام وسوء الادارة، وشارك الاقباط اخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة ، وتخصص الاقباط في الاعمال الحسابة والمالية فعهد اليهم البكوات الماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الاطيان والمحاصلات ، فكانت لهم في هذه الناحية من ادارة الحكومة سلطة مطلقة لا ينازعهم فيها منازع ، ذلك ان بأيدي الصيارفة سجلات الاطيان والضرائب في القرى واليهم تقدير ما على كل ذى مال من الضريبة ومعرفة الاطيان المزروعة والبور أى ما يؤخذ عنها الخراج وما لا يؤخذ ، وبيان من دفع من الفلاحين ومن لم يدفع ، وكانت سلطتهم في هذا المجال مطلقة لارقابة عليها ، وما يثبتونه في دفاترهم حجة لا جدال فيها ، ورؤساؤهم يسمون «المباشرين» وهم أصحاب النفوذ والسلطة عليهم ، وكان هؤلاء المباشرون هم وكلاء المالك وكبار

الملتزمين وقواما عليهم في ادارة أملاكهم وتحصيل الضرائب من الاطيان الداخلة في التزامهم ، فكان لهم نفوذ كبير في ادارة الحكومة وسلطة لا منازع فيها في القري، ورئيسهم يسمى « كبير المباشرين » وله نفوذ عظيم يستمد من اتساع أعمال وظيفته وتفرعها في الاقاليم وسلطته على من تحت يده من المباشرين والصيارفة والكتبة والمساحين . ووصل بعضهم الى أرفع مراتب النفوذ والجاه ، كالعلم رزق والمعلم ابراهيم الجوهري وأخيه جرجس الجوهري ، فالعلم رزق كان كاتب سر على بك الكبير ومدير حسابات الحكومة في عهده وكان بمثابة مستشاره ومرجعه في شؤون الدولة فكان له من النفوذ والسلطة ما لم يتوافر لاحد من رجال الحكومة ، وقد خلفه في نفوذه المعلم ابراهيم الجوهري . ذكره الجبرتي في وفيات سنة ١٢٠٩ هجرية (١٧٩٥ ميلادية) فقال عنه انه « رئيس الكتبة الاقباط بمصر وانه أدرك في الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه » ، قال وأول ظهوره من أيام المعلم رزق كاتب على بك الكبير ، ولما مات على بك والمعلم رزق ظهر أمر المترجم ونما ذكره في أيام محمد بك ابى الذهب ، فلما انقضت أيام محمد بك وترأس ابراهيم بك قلده جميع الامور ، فكان هو المشار اليه في الكليات والجزئيات ، حتى دفتر الروزنامة والمبرى وجميع الايراد والمنصرف ، وجميع الكتبة والصيارف تحت يده وإشارته ، وكان من دهاقين العالم ودهاتهم لا يعزب عن ذهنه شيء من دقائق الامور »

وذكر الجبرتي ايضا في وفيات سنة ١٢٢٥ هجرية (١٨١٠ - ١٨١١ ميلادية)

ترجمة المعلم جرجس الجوهري فقال « مات المعلم جرجس الجوهري كبير المباشرين بالديار المصرية ، وهو اخو المعلم ابراهيم الجوهري ، ولما مات أخوه في زمن رئاسة الامراء المصرية (المماليك) تعين مكانه في الرئاسة على المباشرين والكتبة ، وبيده حل الامور وربطها في جميع الاقاليم المصرية ، نافذ الكلمة وافر الحرمة ، وتقدم في أيام الفرنسيين فكان رئيس الرؤساء ، وكذلك عند مجيء الوزير (يوسف باتا) والعثمانيين وقدموه وأجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والרגائب حتى كانوا يسمونه جرجس افندى

ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو (١) بجانب شريف افتدى الدقتردار (مدير الشؤون المالية) ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره ، ويراعون جانبه ويشاورونه في الامور ، وكان عظيم النفس ، ويعطي العطايا ويفرق على جميع الاعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والارز والكساوى والبن ، ويعطي ويهب ، وبني عدة بيوت بحارة الوندك والازبكية وأنشأ داراً كبيرة وهي التي يسكنها الدقتردار الآن ويعمل فيها الباشا (محمد على باشا) وابنه (ابراهيم باشا) الآن الدواوين عند قنطرة الدكة ، وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم « هذا وقد بقى المعلم جرجس الجوهري حافظاً مكاتته الى أيام محمد على باشا حيث ظهر المعلم غالى وتغرب الى محمد على فجعله في مكانه وتوفى جرجس الجوهري سنة ١٨١١

التقسيمات الادارية

كانت مصر مقسمة من الوجهة الادارية الى ست عشرة مديرية تسمى كل منها « اقلياً » أو سنجقية تسعة منها في الوجه البحري وهي البحيرة ، ورشيد ، والغربية ، والمنوفية ، والمنصورة ، ودمياط ، والشرقية ، والقليوبية ، والجيزة ، والباقي في مصر الوسطى ومصر العليا وهي اطفيح ، وبني سويف ، والفيوم ، والمنيا ، واسيوط ، وجرجا ، وقنا

وهذا التقسيم هو الذي كان معمولاً به في أواخر عهد البكوات المماليك ، وكانت منفلوط واسنا زمتا ما كل منهما اقلياً قائماً بذاته

كلمة عن القاهرة وامهات مدن مصر

كانت القاهرة ولم تزل اكبر مدن القطر المصري وعاصمته ومقر حكومته ، وكانت حدود العمران فيها تنتهي شمالاً من الحسينية الى باب الحديد ، وجنوباً من القلعة الى

(١) والى مصر وسيأتي الكلام عنه في الفصل الخامس عشر من الجزء الثاني

باب عرب اليسار الى باب السيدة عائشة الى جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب
للبنغال فباب السيدة زينب^(١)، وشرقاً من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فالحسينية،
وغرباً من باب الحديد الى الازبكية فباب اللوق فباب الشيخ ربحان فباب الناصرية
فباب السيدة زينب، وكان موقع المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل
وبينها وبينه مزارع

وإذا أردت ان تعرف الفرق بين عمرانها في ذلك العصر وحدوده في العصر
الحاضر فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة في العصرين، فجامع الظاهر مثلاً وهو
الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مباني القاهرة، وكان
باب الحديد نهاية حدود مباني القاهرة من الشمال الغربي، والازبكية والمباني التي
حولها نهاية العمران غرباً، والطريق بينها وبين بولاق مقفرة خالية من العمران، لذلك
كانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة، كما كانت مصر القديمة ايضاً، وكانت الطريق
بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها الا مزارع وحدائق، ولم
يكن على شاطئ النيل سوى بعض مباني قليلة كقصر ابراهيم بك (قصر العيني)
تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الارناؤوطي وعن شماله بيت لمصطفى بك

وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال، ومصر القديمة مرفأها من الجنوب .
فبولاق هي فرضة تجارة الوجه البحري ومصر القديمة فرضة تجارة الوجه القبلي، وكانت
بولاق مرفأاً لجرك القاهرة، وصفها المسيو جومار أحد مهندسي الحملة الفرنسية في رسالته
عن تخطيط القاهرة، ومما لفت نظره فيها كثرة وكائنها التجارية ووفرة الغلال التي كانت
تكس على ساحل النيل دون حراسة وبغير ان توضع في مخازن، قال المسيو جومار ان
الثقة بين الناس في مصر كانت على أتم ما يكون بحيث لم يكن ثمة خوف من أن تمتد
يد الى تلك الغلال^(٢)، وهذا يدل على أن الصدق والامانة كانا في من فضائل
الخلق المصري

(١) على مقربة من مسجد السيدة زينب رضي الله عنها

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

وكانت شوارع القاهرة ضيقة كثيرة التعاريج واطولها هو الموصل بين باب الحسينية الى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستماية وأربعة عشر متراً ، ولم يكن بها سوى أربعة ميادين وهي ميدان قراميدان تحت القلعة ، وميدان الرميلة المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه باب قراميدان ، وميدان بركة الفيل ، وميدان الازبكية ، ويسمى بركة الازبكية ، وعُفَّت الميادين والرحاب والمتنزهات التي تكلم عنها المقريري في خططه كما درست قصور الخلفاء والسلاطين وما شيدوه من العماثر والمناظر والدواوين والمدارس ودور الكتب وغيرها من معالم الحضارة والعمران

وكان ميدان الازبكية (أو بركة الازبكية كما كانوا يسمونها) أجمل الميادين الاربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الامراء والاعيان ، وفي أيام الفيضان يمتلئ بمياه النيل فيصير لجة من الماء يتنزه فيها الناس بالزوارق في النهار والليل ، وفي المساء توقد المصابيح من البيوت المنطلة عليه فيكون منظر الميدان من أبهج المناظر ولا سيما في الليالي القمرية ، وقد نقل الجبرتي في كتابه ما قاله الشيخ حسن العطار أحد أدباء ذلك العصر في وصف ميدان الازبكية قال :

« وأما بركة الازبكية فهي مسكن الامراء وموطن الرؤساء ، قد أحدقت بها البساتين الوافرة الظلال ، العديمة المثال ، قرى الخضرة في خلال تلك القصور المبيضة ، كثياب سندس خضر على أثواب من فضة ، يوقد بها كثير من السرج والشموع ، فالانس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجماها يدخل على القلب السرور ، وينهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور »

فهذا الوصف يعطيك فكرة عما كانت عليه الازبكية في ذلك العصر وانها كانت كما هي الآن مثابة الحظوظ والمسرات

وكان بالقاهرة كثير من الابنية المتخربة ولا غرو فقد تناقص عمراتها في خلال حكم الولاة الاتراك والبكوات المماليك ، واستمر الهدم والتخريب في عهد الحملة الفرنسية كما سيجيء بيانه ، وكانت مقسمة الى اثمان وأخطاط كل خط يحتوى

على شوارع والشوارع بها دروب وحارات وعطفات ، وأغلب الحارات والعطفات غير نافذة الا الى الدرب ، فكانت المدينة أشبه بعمدة قرى مجتمعة ، والدروب والعطفات والحارات عليها (بوابات) كل بوابة تغلق عند العشاء وينام خلفها بواب يؤجر من أهلها ، ولا يتأخر أحد بعد العشاء وراء الحارة الا لضرورة ، ولم يكن للحكام أية فكرة فى العناية بأمر النظافة والصحة العامة فساعت حالة المدينة من هذه الجهة وساعت فيها الامراض

وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر فى خلال العصور فإن عظمتها القديمة قد تغلبت على عوامل الفناء وسوء الادارة ، فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبة بعد الاستانة ، وكان بها كثير من المساجد والعماير الجميلة وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات ، وبها كثير من الاسواق التجارية الكبيرة والخانات والمحازن (الوكائل) التى تجلب اليها البضائع من مختلف الاقطار

و يبلغ عدد سكان القاهرة فى ذلك العصر حوالى ٣٠٠٠٠٠ نسمة ، وهذا الاحصاء مأخوذ عن تقدير الافرنج الذين كانوا يسكنون العاصمة قبيل الحملة الفرنسية وفيه بيان الطبقات التى يتألف منها هذا العدد كما يلى (١)

١٢٠٠٠	جهاديه ومماليك
٦٠٠٠	ملاك وفيهم العلماء
٤٠٠٠	تجار الجملة
٢٥٠٠٠	صناع ورؤساء حرف
٥٠٠٠	صغار التجار
٢٠٠٠	قهوجية وكان بالقاهرة ١٢٠٠ قهوة وفى بولاق ١٠٠ وفى مصر القديمة ٥٠

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر

سقاءون وخدم وأتباع وسراري وجواري	٣٠٠٠٠
عمال وجمالون	١٥٠٠٠
نساء	١٢٦٠٠٠
أطفال ذكور وإناث	٧٥٠٠٠
المجموع	٣٠٠٠٠٠

ويقول المسيو جومار Jomard (١) أن في هذا العدد شيئاً من المبالغة لأنه لم يكن مبنياً على احصاء فعلي ، ويقدر هو عدد سكان العاصمة بـ ٢٦٣٠٠٠٠ نسمة (٢) ويقدرهم الكولونيل جاكوتان Jacotin (٣) بـ ٢٥٣٢١٠ نسمة ، وكان أهم المدن بعد العاصمة الاسكندرية وعدد سكانها ٨٠٠٠ نسمة ، ورشيد ١٣٠٠٠ نسمة ، ودمياط ٢٠٠٠٠ ، والمحلة الكبرى ١٧٥٠٠ وممنود ٥٠٠٠ والمنصورة ٧٥٠٠ ، وقلوب ٤٥٠٠ ، وبلبيس ٣٠٠٠ ، ومنوف ٤٠٠٠ ، وطنطا ١٠٠٠٠ ، وأسيوط ١٢٠٠٠ ، وجرجا ٧٠٠٠ ، وبنى سويف ٥٠٠٠ ، ومدينة الفيوم ٥٠٠٠ ، وأطفيح ٤٠٠٠ ، والجيزة ٣٠٠٠ ، وقنا ٥٠٠٠ ، وادفو ٢٠٠٠ .

وهذا التعداد مأخوذ معظمه عن احصاء مهندس الحملة الفرنسية

(١) أحد مهندسي الحملة الفرنسية . انظر ترجمته في الفصل الرابع

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

(٣) من مهندسي الحملة الفرنسية . انظر ترجمته في الفصل الرابع

الفصل الثانى

تطور نظام الحكم

فى عهد الحملة الفرنسية

تبدلت الحال غير الحال فى عهد الحملة الفرنسية وطراً على نظام الحكم فى مصر
تغييرات ذات خطر وشأن كان لها نتائج بعيدة المدى فى حالة البلاد السياسية
والاجتماعية .

قبل أن نتكلم عن هذه التغييرات يجمل بنا أن نقول كلمة عن الحملة الفرنسية
ووقائعها لنقرن الاسباب بمسبباتها، ونصل النتائج بمقدماتها .

أسباب الحملة الفرنسية

الحملة الفرنسية هى دور من أدوار التنارع الذى قام بين فرنسا وانجلترا على
الفتح والاستعمار ، ذلك التنارع الذى يرجع عهده الى القرن السابع عشر ، واستمر
خلال القرن الثامن عشر ، ثم اتخذ طوراً جديداً بعد الاقلاب العظيم المعروف
بالثورة الفرنسية .

ان الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم فى فرنسا وكان من نتائجها سقوط
الملكية وعلان الجمهورية سنة ١٧٩٢

تألبت الدول الملكية فى أوروبا على الجمهورية الفرنسية واثمرت بها للقضاء على
الثورة وقتلها فى مهدها قبل أن يطغى قيارها ، ولما دخلت انجلترا فى الميدان كانت
هى روح التحالف وقوام تلك المؤامرة ، واستمرت الحرب سجالات بين الفريقين الى
سنة ١٧٩٥ فلما جاءت سنة ١٧٩٦ زحفت الجنود الفرنسية على شمال ايطاليا بقيادة

نابليون بونابارت (١) فظهرت عبقرية ذلك القائد العظيم في ميادين القتال بما أحرزه

(١) ولد نابليون بونابارت في مدينة اجا كسيو Ajaccio عاصمة جزيرة قرشقه (كورسكا) في ١٥ اغسطس سنة ١٧٩٦ واسم ابيه كارلو ماريادي بونابارته Carlo Maria di Buonaparte وهو من اسرة اصلها ايطالى ، وكانت جزيرة كورسكا تابعة لجمهورية جنوى واستولت عليها فرنسا سنة ١٧٦٨ اى قبل ولادة نابليون بسنة ، فهو ايطالى الاصل فرنسى المولد ، والجبرتى يسميه (بونابارته) ، وهذه التسمية تنطبق كما ترى على المطق الايطالى لاسمه واسم والده ، وقد عرف في مصر بهذا الاسم ، ولم يذكره الجبرتى باسم نابليون قط ، لانه الى ذلك العهد كان يعرف بالجنرال بونابارت . ولم يذب عليه اسم نابليون الا من يوم ان نوذي به امبراطوراً سنة ١٨٠٤ ثم صار هذا الاسم علماً له في التاريخ

تلقى نابليون دروسه الاولى في مدرسة اجا كسيو ثم التحق بمدرسة بريين Brienne الحربية بفرنسا ، وكانت مخايل الذكاء والنبوغ تبدو عليه في صباه ثم دخل مدرسة باريس الحربية سنة ١٧٨٤ وانتظم في سلك المدفعية وجاز الامتحان سنة ١٧٨٥ والتحق بالجيش ، ولما شبت الثورة الفرنسية انضم اليها وبعد ان اعلنت فرنسا الحرب على النمسا ثم على انجلترا وهولانده واسبانيا تخرج مركز فرنسا واحاط بها الاعداء من كل جانب ، واحتل الانجليز سنة ١٧٩٣ طولون ميناء فرنسا البحرية على البحر الابيض المتوسط فظهر نبوغ نابليون الحربى في حصار طولون وكان له الفضل في استرجاعها ، وعهدت اليه الحكومة بمهمة الدفاع عن الجمعية الوطنية واتحاد فتنة الخارجين عليها سنة ١٧٩٥ فآخذ الفتنة وانقذ الجمعية الوطنية ، ثم عينته الحكومة قائداً للجيش الفرنسى في حرب ايطاليا سنة ١٧٩٦ فظهرت فيها عبقريته الحربية ، وبعد انتهاء الحملة على ايطاليا اعقبها الحملة على مصر كما ترى في سياق الكلام ، وبعد ان عاد نابليون من مصر سنة ١٧٩٩ قلب نظام الحكم في فرنسا ونوذي به قنصلا اول ثم امبراطوراً سنة ١٨٠٤ ، وساق جيوشه على اوربا فغلبها على امرها الى ان

من الانتصارات الساحقة على الجيوش النمساوية في « حروب ايطاليا » ، تجلت مواهبه الحربية وبهر القواد القدماء بخططه الحديثة وابتكاراته العظيمة ، وذاع صيته في الآفاق بما ناله من الفوز في وقائع عديدة أهمها واقعة منتنوت Montenotte (ابريل سنة ١٧٩٦) ، ولودي Lodi (مايو) ، وكاستجليون Castiglione (أغسطس) ، وأركول Arcole (١٥ - ١٧ نوفمبر) وريفولي Rivoli (١٤ يناير سنة ١٧٩٧) (١) وفتح مملكة البيمونت ، Biemont واكتسح سهول لومبارديا ، ودانت له ايطاليا وظل يتابع انتصاراته حتى تهدد فينا عاصمة النمسا ، فاضطرت الى طلب الصلح وعقدت وياه هدنة ليوبن في ١٨ ابريل سنة ١٧٩٧ وأملى عليها شروط الصلح في كامبوفورميو Compo Formio (١٧ اكتوبر سنة ١٧٩٧) فخرجت فرنسا من الحرب وقد تملكّت بلاد البلجيك وماينس Mavence ، وامتدت حدودها الى نهر الزين وبسطت نفوذها في ربوع ايطاليا ، وامتدت سلطتها الى شواطئ بحر الادرياتيك واستولت على الجزائر الايونية Ioniennes ، وأصبح لها المقام الاسمي في القارة الاوروبية ، كل ذلك بفضل الانتصارات التي أحرزها نابليون وهو بعد لم يتجاوز الثامنة والعشرين

فازت فرنسا على الحلفاء في القارة الاوروبية ، لكن انجلترا التي كانت أقوى الحلفاء شكيمة وأشدّهم مراساً بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار بمأمن

اخذ نجمه في الافول وانتهت حروبه بهزيمته في واقعة واترلو سنة ١٨١٥ ووقوعه اسيراً في يد الانجليز ، فنقوه الى سنت هيلين وبقي في هذه الجزيرة النائية بالاقيانوس يعاني غصص النفي وإدبار الدهر الى ان مات بها سنة ١٨٢١

(١) امر نابليون من الجيوش النمساوية في تلك الوقائع ١٥٠.٠٠٠ اسير وغنم منهم ١٧٠ راية و ٥٥٠ مدفعاً من مدافع الحصار و ٦٠٠ مدفع من مدافع الميدان ، عدا السفن الحربية التي استولى عليها

من ضربات نابليون وانتصاراته ، ففكر في ميدان حرب يهر فيه انجلترا ، فوجد ان مصر هي ذلك الميدان

اتجهت أطماع نابليون الى فتح مصر عقب انتصاراته في حروب ايطاليا ، وحدثته نفسه أن يعد المعدات ويمهد الطريق لانهاء حملة كبيرة تخترق البحر الابيض المتوسط وتحتل مصر فتتخذها قاعدة عسكرية تصل منها الى الاملاك الانجليزية في الهند ، وهو مشروع بعيد المدى كثير العقبات يكاد يكون أقرب الى الاماني والاحلام ، ولا غرو فان انتصارات نابليون في ايطاليا قد مكنت له في الارض وطيرت ذكره في الخافقين وجعلته يطمح الى انتصارات أعظم وفتوحات أكبر ، فأتجهت آماله الى الشرق موطن الفتوحات العظيمة ، ولعل مقامه في ايطاليا موطن يوليوس قيصر ، وعلى مقربة من مقدونية موطن الاسكندر قد أوحى اليه أن يقلد قيصر الروماني والاسكندر المقدوني في فتوحاتهما الواسعة . فاختار مصر ليحعلها ميداناً لانتصارات جديدة واجتذبت عظمة مصر القديمة ، فخيل له أن يشيد على ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يجيش في صدره من الآمال الكبار ويصل منها الى ضرب انجلترا عدوة فرنسا اللدود في ذلك الحين ، فالحملة الفرنسية كما ترى هي دور من أدوار التنازع بين فرنسا وانجلترا

اختمرت الفكرة في ذهن نابليون وهو بعد في ايطاليا ، وأخذ يكد فكره ويعد الوسائل لتحقيق مشروعه العظيم ، فوجه عنايته الى كل ما يمهد له سبيل الحملة على مصر ، فرأى أن يضمن لفرنسا السيادة على البحر الابيض المتوسط ليتخذ سبيلاً الى مصر ويجعله «بحيرة فرنسية» كما يقول في مذكراته ، وتحقيقاً لهذه الغاية استولى على اسطول جمهورية البندقية وضمه الى اسطول فرنسا واستولى على انكونا وسيطر على جنوا . واحتل كورفو والجزر الاخرى من الجزائر الايونية ليتخذها قاعدة بحرية لفرنسا في البحر الابيض ، وطمح الى الاستيلاء على جزيرة مالطة للغرض نفسه ،

وأفصى الى حكومة الديركتوار (١) وهو بعد في ايطاليا بمشروعه في الحملة على مصر
فكتب اليها من ميلان بتاريخ ١٦ أغسطس سنة ١٧٩٧ أى قبل عقد صلح
كامبوفورميو بشهرين و بعد احتلاله الجزائر الايونيه يقول :

« ان المواقع التى نحتلها على شواطئ البحر الابيض المتوسط تجعل لنا السيادة على
هذا البحر ، والآن يجب علينا أن نرقب تطورات السلطنة العثمانية التى أخذت تنهار
دعائمها من كل جانب ، فعلىنا إما أن تؤيدها ونمنع انحلالها ، أو نأخذ ما نستطيع من
اسلابها ، ويمكننا أن نحرم انجلترا مزايا سيادتها فى الاقيانوس الاعظم ، فاذا كانت
نازعتنا طريق رأس الرجاء الصالح فى مفاوضات « ليل » فلنتجاوز عنه ولنحتل مصر
فسيكون لنا فيها الطريق المفضى الى الهند ويسهل علينا أن نفشى بها مستعمرة من
أجل مستعمرات العالم ، واذا أردنا أن نهاجم انجلترا فلنهاجمها فى مصر »

وكتب الى المسيو تاليران Talleyrand وزير الخارجية الفرنسية رسالة

بهذا المعنى

وكان يفوه فى بعض المواطن بتصریحات تم عما يجيش فى صدره من المشروعات
والآمال ، قال يخاطب جنوده فى باسانو (٢) Bassano يوم ١٠ مارس سنة ١٧٩٧
« ان أعلام فرنسا تحقق لأول مرة على ضفاف الادرياتيک على مقربة من
مقدونية القديمة التى نبت فيها الاسكندر واتجه منها الى الشرق ، وان مهمة كبيرة
تنتظرکم فلم تنته بعد مأموريتکم ، وان علیکم أن تعاقبوا سكان تلك الجزيرة الخبيثاء
(یعنى الانجليز) الذين لم تصبهم حروب القارة بسوء وظلوا يهزأون لمصائبها »

(١) يطلق اسم حكومة الديركتوار (الادارة) على الحكومة التى تأسست فى فرنسا
على نظام دستور سنة ١٧٩٥ وتجد تفصيل هذا النظام فى كتابنا (الجمعية الوطنية)
ص ٨٠ وقد بقيت قائمة الى ان اسقطها نابليون بعد عودته من مصر سنة ١٧٩٩

وحل محلها نظام القنصلية حيث صار نابليون فيها القنصل الاول

(٢) بلدة فى ولاية البندقية (فنيسيا) على نهر البرنتا

وقال في سبتمبر سنة ١٧٩٧ مخاطباً رجال أسطول الاميرال برويس Brueys

« أيها الرفقاء . عند ما تنتهى من اخضاع القارة سنجتمع بكم لنحصل على حرية البحار ، وبدونكم لا نستطيع أن نحمل مجد فرنسا إلا في مكان ضيق من القارة ، أما بكم فسنجتاز البحار وننشر عظمة الوطن في البلاد النائية »

ففي ايطاليا اذن فكر نابليون في مشروع الحملة على مصر ، واختمرت الفكرة في ذهنه قبل أن يعود الى فرنسا ، وكانت موضع دراسته وأبحاثه ومطالعاته ، ففي أثناء مفاوضات الصلح التي انتهت بمعاهدة كامبوفورميو كان يستحضر من مكتبة ميلان جميع الكتب الخاصة بالشرق ، ويكب على مطالعة كل ماله علاقة بالديار المصرية في دور كتب ميلان وبولوني وقلورانس

وقد لوحظ على معظم تلك الكتب بعد ردها ان بها اشارات وملاحظات بقلم نابليون على ماورد فيها خاصاً بمصر ، واستقدم كذلك من فرنسا بعض وثائق وزارة البحرية الخاصة بمصر وأخذ يراجعها ويدرسها ، وكان في خلال المفاوضات شديد الاهتمام بان يصل الى اعتراف النمسا بتملك فرنسا للجزائر الايونية تحقيقاً لبرنامجها ، ونجح في مسعاه واعترفت النمسا في المعاهدة بان هذه الجزائر أصبحت ملكاً لفرنسا

فكرة الحملة الفرنسية في خلال العصور

رجع نابليون الى باريس عقب امضاء معاهدة الصلح ، واحتفلت فرنسا باستقبال قائدها العظيم وأخذ يتابع فكرة الحملة على مصر ، وأكب على محفوظات وزارة الخارجية والبحرية يطالع الوثائق الخاصة بالقطر المصري والاغارة عليه .

ان فكرة الحملة الفرنسية على مصر لم تنبت في رأس نابليون وحده بل كانت

تتردد في الاذهان في مختلف العصور

في عهد لويس التاسع

ففي القرن الثالث عشر تملكّت هذه الفكرة مشاعر لويس التاسع ملك فرنسا مدفوعاً إليها بعامل الدين ، وجرد فعلاً جيشاً جراراً بقصد الاغارة على مصر في حملة عرفت في التاريخ بالحرب الصليبية السابعة ونزل لويس التاسع الى دمياط سنة ١٢٤٩ في نحو خمسين ألفاً من المقاتلة، فملكها ثم زحف على المنصورة واشتبك مع جيش المسلمين في معركة كبيرة عرفت بواقعة المنصورة (سنة ١٢٥٠) انتهت بهزيمة الفرنسيين وقتل منهم نحو ٣٠ ألفاً وغرق كثير منهم في النيل وأسر ملكهم لويس التاسع وسجن بالمنصورة في دار ابن لقمان التي لا تزال باقية الى الآن ، ثم اقتدى لويس نفسه وبقية جنوده بمبلغ عشرة ملايين فرنك وخرج من دمياط مهزوما وانتهت تلك الحملة بالخيبة والفشل

في عهد لويس الرابع عشر

ثم تجددت الفكرة في القرن السابع عشر إذ نصّح الفيلسوف الالماني الشهير ليبنتز Leibniz الى الملك لويس الرابع عشر أن يغزو مصر، ذلك ان فرنسا كانت في ذلك الحين على أهبة الزحف على هولاندا بسبب ما بينهما من التنافس على السيادة ، فقدم ليبنتز الى لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ تقريراً يرغب اليه العدو عن الزحف على هولاندا ويشير عليه بالزحف على مصر بحجة ان امتلاك فرنسا للقطر المصري يؤدي الى استحواذها على متاجر الهند وبذلك يتوصل لويس السابع عشر الى هزيمة الهولانديين الذين كانوا يصرفون زمام التجارة الهندية في ذلك العصر

قال ليبنتز في تقريره الى لويس الرابع عشر (١) « انكم لا تهزمون الهولنديين

(١) بقي هذا التقرير محفوظاً في مكتبة هانوفر الى سنة ١٨٠٣ حيث عثر عليه الجنرال مورتيه قائد جنود الاحتلال في هانوفر فبعث به الى نابليون حيث كان (قنصلاً أول)

في عقر دارهم ، فانكم لا تستطيعون تخطي السدود التي تحيط ببلادهم ، واذا أعلنتم عليهم الحرب فان أوروبا تنضم الى جانبهم ، لكن مصر هي الميدان الذي تضربونهم فيه فهناك تجدون الطريق الحقيقي لتجارة الهند ، وهناك تستطيعون امتلاك زمام تلك التجارة وانتزاعها من يد الهولنديين وتضمنون بسط سلطان فرنسا وسيادتها في بلاد المشرق الى ما شاء الله ، وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثناءها ، وهناك لا تخسرون عطف أوروبا بل تجدونها مجمعة على الاعجاب بكم »

ولم يكد لينتريقدم تقريره حتى كانت الجيوش الفرنسية قد أغارت على الحدود الهولندية ، على ان لويس الرابع عشر لم يفتنه التفكير في الحملة على مصر ، لكنه رغب عنها لما رآه وقتئذ من ان الزحف عليها يقصد فرنسا صداقة تركيا أو على الاقل حيدتها ويحملها على الانضمام الى الدول الاوروبية المعادية لها ، وكانت تركيا في ذلك العصر لم تزال مرهوبة الجانب بحسب لصدقتها وعداوتها حساب كبير

في عهد لويس الخامس عشر والسادس عشر

وفي خلال القرن الثامن عشر طافت الفكرة بأذهان بعض رجال الدولة في فرنسا وترددت في تقاريرهم ومذكراتهم ، ذلك حين أخذت الدولة العثمانية في الاضمحلال وطمعت روسيا والنمسا في أملاكها ففكروا في أن تشترك فرنسا في اقتسام أسلاب تركيا وأن تكون مصر نصيبها من ولايات السلطنة العثمانية

ففي عهد لويس الخامس عشر كان الدوق دي شوازل De Choiseul كبير وزراءه من أنصار فكرة احتلال فرنسا لمصر ، لكنه في الوقت نفسه كان متبعاً خطة فرنسا القديمة في المسألة الشرقية وهي مصادقة تركيا وموالاتها ، فكان يطمع في أن تحتل فرنسا مصر عن طريق المفاوضة مع تركيا والاتفاق معها ولم يكن يرى غضاضة على تركيا في هذا التنازل لان الحكومة العثمانية لم يبق لها في مصر سلطة فعلية في ذلك الحين

كتب المسيو تاليران Talleyrand في هذا الصدد يقول « ان الدوق دي شوازل

الذى يعد بين رجال السياسة فى القرن الثامن عشر أبعدهم نظراً وأقوام فكراً كان يسمى سنة ١٧٦٩ (١) فى أن تتنازل تركيا لفرنسا بطريق المفاوضات السياسة عن مصر لتستعيز بها من مستعمراتها فى أمريكا وتجد فى حاصلاتها وتجارها ما يغنيها عن تلك المستعمرات (٢) « لكن الفكرة لم تخرج الى حيز التنفيذ ولم يفتح شوازل تركيا يوماً فى هذا الصدد ، وظل المشروع أملاً بهجس فى صدره إلى أن سقطت وزارته سنة ١٧٧٠

ثم تجددت الفكرة فى عهد لويس السادس عشر (٣) ، ذلك حين كان سفير فرنسا فى الاستانة الكونت سان بريست Saint Priest من أشد انصار الفكرة فكتب عنها عدة مذكرات الى وزارة الخارجية الفرنسية

وكان التنافس التجارى بين فرنسا وانجلترا قد بدأ يتجه الى الديار المصرية لمحاولة كل منهما احتكار متاجر الهند عن طريق مصر والاستغناء بها طن طريق راس الرجاء الصالح ، فلفت هذا التنافس انظار فريق من رجال السياسة وأخذوا يبحثون عن الوسائل الفعالة لتوطيد مركز فرنسا التجارى فى مصر ، وقد ظهر رجلان اتجهت مساعيها الى تحقيق فكرة الدوق دى شوازل وهما الكونت سان بريست والبارون دي توت De Tott

تولى سان بريست سفارة فرنسا فى الاستانة سنة ١٧٦٨ وأقام بها نحو ستة عشر عاماً (٤) يرقب شؤون السلطنة العثمانية ويشهد أعراض اضمحلالها ويتنبأ بقرب تفككها واقتسام أسلابها ، فهو بحكم مركزه السياسى كان كثير الاهتمام بمصير مصر

(١) اي عقب نشوب الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨

(٢) تقرير تاليران الذى تلاه بالجمع العلمى الفرنسى سنة ١٧٩٧ عن انزاي

الى تعود على فرنسا من مستعمرات جديدة

(٣) تولى عقب وفاة لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٤

(٤) انتهت سفارته سنة ١٧٨٤

وتطور الاحوال فيها ، فكتب الى حكومته غير مرة يرغب اليها احتلالها ، أما البارون دي توت فهو نبيل من سلالة اسرة من المجر استوطن فرنسا وأخلص لها فأوفدته الى تركيا ولما عاد منها سنة ١٧٧٦ قدم تقريراً الى الحكومة الفرنسية بسط فيه رأيه في حالة تركيا وانتهى الى انه لا سبيل إلى الحيلولة دون تفككها ونصح الى الحكومة الفرنسية أن تحتل مصر لتوطيد تجارة فرنسا في الشرق

كان من نتائج هذه الفكرة أن أوفدت الحكومة الفرنسية البارون دي توت الى ثغور السلطنة العثمانية بقصد التفتيش على مراكز التجارة الفرنسية فيها والغرض الحقيقي هو درس سواحل مصر ومواقعها ومشروع احتلالها

بدأ توت رحلته سنة ١٧٧٧ (١) وكان يرافقه ضابط في البحرية يدعى سونيني له كتاب عن مصر (٢) ولما عاد من رحلته قدم الى الحكومة تقريراً بين فيه مزايا مشروع احتلال مصر وسهولة انفاذه

لكن الحكومة الفرنسية انصرفت عن هذا المشروع لدخولها في الحرب المعروفة بحرب استقلال امريكا سنة ١٧٧٨ فطوى المشروع مؤقتاً وظلت فرنسا ترقب تطور المسألة الشرقية دون أن تقدم فيها على عمل يتهدد كيان السلطنة العثمانية ولما انتهت سفارة سان بريست وعاد من الاستانة قدم تقريراً جديداً الى حكومته عاد فيه الى تأييد فكرته القديمة وهي احتلال مصر ونصح حكومته بان تحقق هذه الفكرة قائلاً انها تكسب فرنسا مركزاً ممتازاً في العالم وكذلك قدم المسيو مور « Mure » الذى كان قنصل فرنسا في

(١) نجد وصف رحلته في مصر في الجزء الرابع من كتابه المسمى «مذكرات

البارون دي توت عن الترك والتتار»

Memoires du Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares

(٢) سياحة في مصر العليا والوجه البحري للمسيو سونيني Sonnini

سنة ١٧٧٧

الاسكندرية تقريراً الى وزارة الخارجية سنة ١٧٨٣ تقبلاً فيه بقرب تفكك السلطنة العثمانية ونصح بضرورة احتلال مصر فجاء مؤيداً لتقارير دي سان بريست والبارون دي توت ، على أن الكونت فرجين Vergennes وزير خارجية فرنسا في ذلك العهد لم يوافق على الفكرة وكان يعتقد أن السلطنة العثمانية لم تكن وشيكة الانحلال بالسرعة التي يوصى اليها سان بريست في تقاريره ، فضلاً عن انه كان مؤيداً لسياسة فرنسا القديمة نحو تركيا وهي سياسة الصداقة والود ، ولذلك أعرض عن فكرة الاشتراك في اقتسام تركيا وعلى العكس عارض فيها وأخذ في مساعدة تركيا على الاحتفاظ بكيانها وأوفد اليها بعثة من الضباط والمهندسين لتقوية جيشها واسطولها وثغورها . على أن وزارة الخارجية الفرنسية أخذت تعنى بتنشيط تجارة فرنسا في مصر والشرق وسعت لدى حكومة الاستانة من جهة ولدى البكوات الماليك من جهة اخرى لحماية المتاجر الفرنسية في مصر ووقايتها من عبث الحكام الماليك ، وسعت كذلك لضمان مرور متاجرها من أوروبا والهند عن طريق مصر ، لكن تصرفات الحكام الماليك حيال التجار من سائر الاجناس وفرضهم الاتاوات المختلفة على متاجرهم جعل التجار الفرنسيين يشكون الى حكومتهم سوء معاملتهم .

وقفت الحكومة الفرنسية وقفة المبرود حيال مصر والمسألة الشرقية وبخاصة بعد أن تولى الكونت مونت موران Montmorin وزارة الخارجية ، ذلك حين بدأت أحوال الحكومة الملكية تضطرب لارتباك شؤونها المالية وظهور أعراض الثورة الفرنسية فانصرفت عن نية الفتح والاستعمار

ولما قامت الثورة وسقطت الملكية انصرفت حكومة الثورة اضطراراً الى الدفاع عن كيان فرنسا في وجه الدول الملكية المتحالفة واتحاد القن الداخلية ، على أن التجار الفرنسيين في مصر ما فتئوا يرفعون شكاواهم الى حكومتهم الجديدة من سوء معاملة الحكام الماليك ويطلبون اليها العناية بشأنهم ، فأصغت الى شكاوهم وعيذت الميسوشارل مجالون Magallon قنصلاً عاماً لفرنسا في مصر سنة ١٧٩٣ ، والمسيو

مجالون هذا تاجر فرنسى من سكان مرسيليا رحل الى مصر وأقام بها نيفاً وثلاثين سنة مشغلاً بالتجارة فاكسب خبرة واسعة فى الشؤون المصرية ، وكان من انصار احتلال فرنسا لمصر ، فلما عينته الحكومة الفرنسية قنصلاً عاماً لها أخذ يرسل الى وزارة الخارجية التقارير والمذكرات أبان فيها عبث الحكام المالك بمصالح التجار الفرنسيين فى مصر وصرح بان هذا العبث لا يمكن أن يزول إلا إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوة حيالهم ، ورغب الى حكومته أن تعمل على احتلال مصر ونوه بما تناله فرنسا من المزايا السياسية والاقتصادية من استثمار مواردها ومد سلطانها الى البحر الاحمر وتهديد انجلترا فى الهند

هد مجالون بتقاريره الافكار لمشروع الحملة الفرنسية ، وذهب الى فرنسا سنة ١٧٩٧ وأخذ يدعو رجال الدولة الى تحقيق هذا المشروع وبين لهم سهولة انفاذه وقدم لوزارة الخارجية تقريراً حديداً فى هذا الصدد ، وكان المسيو تاليران Talleyrand السياسى الشهير قد تولى وزارة الخارجية الفرنسية فاقنع بآراء مجالون وأخذ يدافع عنها ، والتقى فى هذه الفكرة مع نابليون بونابارت ، وقدم عنها تقريراً الى حكومة الديركتوار استند فيه الى تقرير المسيو مجالون ونصح فيه الى الحكومة انفاذ الحملة من هذه الخلاصة الوجيزة يتبين كيف تطورت فكرة الحملة الفرنسية على مصر فى خلال العصور الى أن نفذت على يد نابليون بونابارت

نابليون وانفاذ الحملة

وموقف انجلترا

فاتح نابليون حكومة الديركتوار فى انفاذ الحملة على مصر ودافع عنها وأوضح لها المزايا التى تعود منها على فرنسا ، وكانت حكومة الديركتوار تفضل غزو انجلترا فى جزيرتها ، وقد قررت فعلاً تأليف جيش أسمته « جيش انجلترا » واختارت نابليون لقيادته ، وكانت رغبة عن الحملة على مصر لعدة أسباب ، منها أن هذه الحملة ستكون عرضة للاضطدام بالاسطول الانجليزى فى طريقها الى مصر وانها ستثير غضب الحكومة

العثمانية وتفقد فرنسا صداقة تركيا القديمة ، وتحمل روسيا على التدخل في المسألة الشرقية ، كما أنها تبعد عن فرنسا جيشاً من خيرة جيوشها قد تكون في حاجة اليه اذا تجدد القتال بينها وبين أعدائها في القارة الاوروبية

لكن نابليون كان معارضاً في مشروع غزو انجلترا مقتنعاً باستحالة نجاحه لعظم استعداد الانجليز في الدفاع عن جزيرتهم وحشدهم الاساطيل في البحار المجاورة لها ، وكان يرى ان انصراف انجلترا الى رد غزوة فرنسا يصرفها عن جمع قواتها في البحر الابيض المتوسط ، وبذلك تستطيع العمارة الفرنسية أن تسلك سبيلها الى سواحل مصر ، وكانت وجهة نظره أن الحملة الفرنسية اذا دهمت مصر سهل عليها فتحها وانشاء مستعرة فيها في مدة لا تتجاوز بضعة أشهر وان فرنسا تنجى مزايا كبيرة من توطيد قدمها في مصر لانها بطبيعة موقعها الجغرافي مركز الاتصال بين الشرق والغرب وملقى المتاجر التي تتبادلها القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقية ، وانه بانشاء قناة تصل مياه البحر الاحمر بالبحر الابيض يمكن السفن الفرنسية أن تصل الى البحر الاحمر وتهاجم أملاك الانجليز في الهند ، وعلي كل حال تستطيع فرنسا أن تنشئ في مصر مستعمرة ترسل اليها متاجرها ومصنوعاتها وتتحول اليها تجارة الهند والشرق وتكون طريقاً لها إلى أوروبا بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح ، فتصبح مصر مستودعاً لمتاجر العالم ، وتعوض فرنسا ما فقدته من المستعمرات وتكون في الوقت نفسه قاعدة لضرب انجلترا في الهند وبسط سيادة فرنسا في البحر الابيض المتوسط ، وقد أشاد نابليون في حججه للحكومة بعظمة مصر القديمة وقال أنها أخصب بلاد العالم وأنها كانت اهراء الغلال للعالم القديم ، وفي الامكان ترقية زراعتها وغرس الحاصلات الامريكية بها واعادة منزلتها القديمة اذا وجدت بها حكومة حديثة وادارة صالحة ، وفي مذكرات نابليون التي أملاها في منفاه بسانت هيلين أنه حين عزم على انفاذ مشروع الحملة على انقصر المصري كان يقصد انشاء دولة شرقية كبيرة وينوى بعد توطيد مركزه في مصر أن يغزو الهند وكان يقدر لوصوله اليها شهر مارس سنة ١٨٠٠

اقتنعت حكومة الدبركتوار بحجج نابليون ، وكانت شخصيته وانتصاراته في

إيطاليا أكبر مؤيد له في وجهة نظره ، وأخيراً قررت الحكومة في ٥ مارس سنة ١٧٩٨ انفاذ الحملة، وتكتمت أمر المشروع حتى لا يتسرب خبره الى الحكومة الانجليزية ، وتمت معدات الحملة دون أن يعلم أحد في فرنسا وجهتها الا نابليون ورؤساء حكومة الديركتوار والمسيو تاليران وزير الشؤون الخارجية، وتولى المسيو مرلين Merlin الذي كان رئيساً للديركتوار كتابة العهود والقرارات بخط يده ، وكتبت القرارات بعبارات عامة لا يفهم منها غرض الحملة ، ويؤخذ من ظاهرها أن الغرض منها تحصين شواطئ فرنسا على البحر الابيض المتوسط

ومع ذلك بقيت هذه القرارات في طي الكتمان ، وظل المشروع سراً مكتوماً حتى عن القواد الذين اختارهم نابليون لمراقبته ، وبالغت الحكومة في كتمان وجهة الحملة حتى انها أطلقت على الجيش الذي أعدته لها اسم « الجناح الايسر لجيش إنجلترا » لتوهم الحكومة الانجليزية أنها مصممة على غزوها في جزيرتها

ولما أوشكت معدات الحملة أن تتم أصدرت حكومة الديركتوار قرارها بتاريخ ١٢ ابريل سنة ١٧٩٨ بتسمية الجيش المعد لها « جيش الشرق » واسندت قيادته الى الجنرال نابليون بونابارت وأصدرت في اليوم نفسه قراراً عهدت اليه فيه بالحملة على مصر ، وبينت في مقدمة القرار اسباب الحملة بقولها « ان حكومة الديركتوار لما رأت من أن البكوات المالكين الذين استولوا على حكومة مصر قد اتصلوا بالانجليز بأمن الروابط وجعلوا أنفسهم تحت مطلق تصرفهم، وانهم يرتكبون الاعمال العدائية والمظالم الفظيعة ضد الفرنسيين ويضطهدونهم وينهبون أموالهم ويعتدون على أرواحهم، ولما كان من واجب الحكومة أن تقتص من أعداء الجمهورية ايما وجدوا، واذا كانت الطريقة المنطوية على الغدر التي استولت بها إنجلترا على رأس الرجاء الصالح قد جعلت وصول السفن الفرنسية الى الهند محفوفا بالمصاعب في الطريق المعتادة، فمن المهم فتح

طريق جديدة لقوات الجمهورية للوصول الى الهند » (١)

هذه خلاصة ما ذكرته حكومة الديركتوار في اسباب الحملة، ومنه يتبين أن التنازع بين إنجلترا وفرنسا هو المحرك الاول للحملة الفرنسية وأن الغرض النهائي منها كان الوصول الى الهند، وعهدت الحكومة في قرارها الى نابليون « بتسيير القوات البرية والبحرية التي تحت قيادته الى مصر والاستيلاء عليها، وطرد الانجليز من جميع البلاد الشرقية التي يستطيع الوصول اليها، وهدم المراكز التجارية التي لهم في البحر الاحمر، وعهدت اليه حفر برزخ السويس واتخاذ كل الوسائل اللازمة ليضمن للجمهورية الفرنسية امتلاك البحر الاحمر » (٢) وقررت الحكومة عدم نشر هذا القرار أو طبعه حتى يبقى في طي السكتان وظل نابليون بونابارت يصدر أوامره الخاصة بالحملة على مصر باسم بونابارت القائد العام (لجيش إنجلترا)

ظنت إنجلترا ان فرنسا عقدت عزمها على غزوها في جزيرتها وأنها أعدت لهذا الغرض اسطولها في الاقيانوس وان استعداداتها في ثغور البحر الابيض المتوسط كان الغرض منها امداد ذلك الاسطول عن طريق بوغاز جبل طارق، فعهدت الى الاميرال اللورد سان فنسان Saint Vincent مراقبة بوغاز جبل طارق وتعقب اسطول فرنسا في الاقيانوس ومواصلة حصار اسطول اسبانيا في قادس وعهد اللورد سان فنسان الى الاميرال نلسن Nelson بأن يتجول في البحر الابيض المتوسط لمراقبة حركات الاسطول الفرنسي به

ففكرة إنجلترا كانت اذن متجهة في ذلك الحين الى توقع الحملة على جزيرتها

معدات الحملة

ووقائعها الاولى

أخذ نابليون عقب قرار الحكومة يعد معدات الحملة ويبذل في سبيل ذلك

ما أوتي من المقدرة وقوة التنظيم ، فاختار معظم جنوده من « جيش إيطاليا » الذي خاض به المعارك وأحرز به الانتصارات العظيمة وضم اليهم بعض كتائب من جيش الرين ، وبلغ عدد من تألفت منهم الحملة ٣٦٠٠٠ مقاتل (١) ، ووقع اختيار نابليون على صفوة القواد الذين ظهرت كفايتهم وخبرتهم وتجلت مواهبهم في حروب إيطاليا وحروب الرين أمثال برتييه Berthier وكافريللى Caffarelli ، وكليبر Kleber ، ورينييه Reynier ، وديزيه Dessix ، ودوجا Dugua وفوبوا Vaubois

(١) جاء في تقرير وزير الحربية الفرنسية الى حكومة الدركتوار المؤرخ ٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨ احصاء دقيق لجيش الحملة بعد اقلاعه يؤيد الاحصاء الذي ذكرناه ، ومنه يتبين أن عدده ٣٦٠٠٠ مقاتلا ، وهذا التقرير نشره القومندان دي لاجونكير في كتابه (حملة مصر) نقلا عن وثائق وزارة الحربية الفرنسية ، ويؤيده كذلك احصاء المسيو مارتان Martin أحد مهندسي الحملة وشاهد عيان لوقائعها فقد ذكر في كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية في مصر) ان جيش الحملة كان مؤلفا من ٣٦٠٠٠ مقاتل ، وهذا العدد يختلف عن احصاء نابليون في مذكراته التي أملاها على الجرال برتران في سانت هيلين فنابليون يقول أن عدد جيش الحملة هو ٣٢٠٠٠ مقاتل ، وفي اعتقادنا أن احصاء نابليون في مذكراته لا يمكن أن يكون موضع الدقة لان المعروف أن نابليون أملى مذكراته عن مصر في سانت هيلين بعد أكثر من ستة عشر عاما من وقوع الحوادث التي كتب عنها مذكراته ، ولم يكن تحت يده الوثائق التي يمكن الرجوع اليها في ضبط الارقام ، هذا فضلا عن أن نابليون كان يميل في بعض المواطن الى ذكر احصاءات عن جيشه أقل من العدد الحقيقي ، وربما كان الدافع له على ذلك التباهي بكفاءة جيشه وبعبقريته الحربية ، وقد ذكر المسيو مارتان في كتابه أن نابليون في تقريره الى حكومة الدركتوار عن واقعة شبراخيت يقول أنه كان يقاتل قوات أكثر منه عدداً مع أن الواقع كما يقول مارتان أن قوى المماليك كانت أقل عددا من الجيش الفرنسي

وبون Bon ، ولان Lannes ، ومورا Mural ، وبليار Beliard واختار الجنرال كافاريللى Caffarelli رئيساً لفرقة المهندسين ، والجنرال دومارتن Dommartin لقيادة المدفعية ، والجنرال برتويه Berthier الذى كان رئيساً لأركان حرب الجيش الفرنسى بإيطاليا رئيساً لأركان حرب الحملة ، وعهد بالادارة الصحية للحملة الى الطبيبين الشهيرين لارى Larrey كبير الجراحين وديجننت Desgenette كبير أطباء الحملة ، وعهد الى القوميسير سوسى Sucy بإدارة مهمات الجيش ، والى القوميسير لروا Le Roy بإدارة مهمات البحرية ، وجهاز الحملة بمطبعة عربية وأخرى فرنسية وأخرى يونانية

واصطحب معه طائفة من علماء فرنسا ونوابها فى الرياضة والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والادب والكيمياء والاقتصاد السياسى والآثار والمعادن وطبقات الارض والحيوان والنباتات وفن المعمار وهندسة الزى والقناطر والجسور والميكانيكا ، وطائفة من رجال الفنون من المصورين والرسمين والموسيقين والنقاشين والمثالين ، فبلغ عدد هؤلاء ١٤٦ عضواً ما بين عالم وأديب ومهندس ومثال تتألف منهم لجنة العلوم والفنون^(١) التى كان لها شأن يذكر فى تاريخ الحملة كما سيجىء بيانه ، وجهزم بمجموعة كاملة من الآلات الطبيعية والرياضية ، وكان من بينهم جماعة من أقطاب العلوم ممن شار اليهم بالبنان فى فرنسا أمثال مونج Monge العالم الرياضى ، وبرتويه Berthollet العالم الكيمياى . وهما اللذان عهد اليهما نابليون اختيار أعضاء البعثة ، وفورييه ، ودلوميو ، وجوفروا سان هيلير ، وغيرهم ممن سنأتى على ذكرهم وتكلم عن أشخاصهم عند الكلام على المجمع العلمى^(٢)

(١) نشرنا فى قسم الوثائق فروع هذه اللجنة وأسماء أعضاء كل فرع منها

(٢) انظر الفصل الرابع

قال المسيو تيمرس (١) « إن نوابغ فرنسا في الحروب والعلوم والفنون قد صحبوا نابليون في الحملة وجذبته اليها ثقتهم في قائدها القتي العظيم وركبوا البحر دون أن يعرفوا الى أى جهة يقصدون »

اجتمعت العمارة الفرنسية المعدة لنقل الحملة في « طولون » وفي ثغور « جنوا » و « أجا كسيو » و « سيفيتافكيا » وعددها نحو ثلثمائة سفينة بحرسها أسطول الفيس أميرال برويس Brueys المؤلف من ٥٥ سفينة حربية (٢)

أقلعت العمارة من طولون يوم ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ وانضم اليها باقى السفن القادمة من جنوا وأجا كسيو وسفيتافكيا ، وجرت كلها تمخرع باب البحر ورست بجزيرة مالطه يوم ٩ يونيو وكانت هذه الجزيرة يحكمها من عهد شارل كان طائفة من الرهبان يعرفون بفرسان القديس حنا الاورشليمي ثم عرفوا بعد ذلك (بفرسان مالطه) ، وكان موقعها على جانب كبير من الاهمية الحربية ، فاحتلها نابليون بعد دفاع ضعيف واحتل حصونها ومعقلها ونظم حكومتها وترك بها قوة من ثلاثة آلاف جندي بقيادة الجنرال فوبوا Vaubois لتوطيد سلطة فرنسا في الجزيرة والدفاع عنها اذا ما أراد الانجليز احتلالها ، وقد استعاض نابليون من هذه القوة بجزء من الجنود المالطيين الذين ضمهم الى جيشه وساروا معه الى مصر وألف منهم (الكتيبة المالطية) وكان عددهم نحو الالفين

-
- (١) في كتابه تاريخ الثورة الفرنسية الجزء العاشر
(٢) منها ١٣ بارجة كبيرة احداها السفينة « اوريان » (الشرق) وسلاحها ١٢٠ مدفعاً وهي سفينة الاميرال التي أقلته وأقلت نابليون القائد العام وأركان حربه وياورانه وبعض العلماء ، والاثناعشرة بارجة الاخرى يتراوح سلاح كل منها بين ٨٠ و ٧٤ مدفعاً ، وخمس فرقاطات كبيرة سلاح كل منها أربعون مدفعاً ، وثلاث أخرى سلاح كل منها ٣٦ مدفعاً ، وسفینتان أخريان من نوع البريق ، وسفینتان كبيرتان ، وست فرقاطات غير مسلحة ، والباقي من المراكب الخفيفة المسلحة بالمدافع

أقلعت العمارة من مياه مالطة يوم ١٩ يونيه ووصلت تجاه الاسكندرية يوم أول يوليه (١٧ محرم سنة ١٢١٣) أى بعد شهر ونصف من اقلاعها من طولون



أخذ جنود الحملة ينزلون غرب لاسكندرية ليلة ٢ يوليه سنة ١٧٩٨ (١٨ محرم سنة ١٢١٣) وزحفوا على المدينة فاحتلوها فى ذلك اليوم، وبعد ان ثبت نابليون قدمه فى الاسكندرية أخذ يزحف على القاهرة بطريق دمنهور

كان أمام الجيش الفرنسى طريقان يسلكهما من الاسكندرية الى القاهرة يلتقيان فى الرحمانية على النيل ، الاول من الاسكندرية الى رشيد براً على ساحل البحر ومن رشيد الى القاهرة على شاطئ النيل ، والثانى من الاسكندرية الى الرحمانية بطريق دمنهور محترقا جهات كانت فى ذلك العهد صحراء قاحلة ثم من الرحمانية الى القاهرة على البر الغربى للنيل ، وكان الطريق الاخير أقصر من الاول (١) وان كان أكثر مشقة فأثره نابليون ليصل الى القاهرة بأسرع ما يمكن، فأمر جنوده بالزحف بطريق دمنهور وفى الوقت نفسه كلف الجنرال دوجا بان يحتل رشيد ويتقدم الى الرحمانية ليلتقى هناك بالجيش القادم من طريق دمنهور

وفى مساء ٣ يوليه سنة ١٧٩٨ — غداة نزول الجنود بالاسكندرية — بدأت طلائع الجيش تتحرك نحو «البيضاء» (٢)، وتبعتها بقية الفرق المعدة للزحف على القاهرة، فغادرت الاسكندرية فى الايام التالية قاصدة دمنهور ومر الجيش بالبيضاء

(١) الطريق الاول يسير من الاسكندرية الى رشيد ماراً بأبوقير وكانت بحيرة «أبوقير» تتصل بالبحر ببوغاز اسمه المعديّة لا بد أن تحتازه الجنود فى سيرها فكان هذا البوغاز يعطل سير الجنود

(٢) البيضاء بلدة صغيرة تابعة الآن لمركز كفر الدوار على الشاطئ الغربى لدرعة المحمودية ، وتنطق «البيضا»

والعكريشه (١) والكريون (٢) وبركة غطاس (٣) محاذيا للترعة المعروفة وقتئذ بـمخليج الاسكندرية (ترعة المحمودية الآن) والتي كانت في ذلك الوقت جافة لان النيل لم يكن يمدّها بمائه إلا في زمن الفيضان ، فلاقى الجنود عناء كبيرا من القىظ والعطش ، ولم يكن في تلك الجهات من الماء سوى مياه الآبار ومع ذلك فقد غور الاهالى معظم الآبار التي في الطريق وأتلفوها

تلاقت الفرق في دمنهور يوم ٧ يولييه ، وفي الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم تحرك نابليون وأركان حربه من الاسكندرية فبلغ دمنهور في صباح اليوم التالي ، ثم غادر الجيش دمنهور ليلة ١٠ يولييه قاصداً الى الرحمانية ، فبلغها يوم ١٠ واحتلها في ذلك اليوم .

أما الجنرال دوجا فقد سار من الاسكندرية الى رشيد فاحتلها يوم ٦ يولييه ثم سار منها الى الرحمانية وانضم بفرقته الى باقى قوات الجيش
التقى مراد بك بالجيش الفرنسى بالقرب من شبراخيت يوم ١٣ يولييه سنة ١٧٩٨ (٢٩ محرم سنة ١٢١٣) فهزمه نابليون واضطره الى التقهقر ، فالتقى مراد راجعاً الى القاهرة استعداداً للمعركة الفاصلة فالتقى الجيشان في «امبابه» ، وهناك على مقربة من الاهرام هزم جيش مراد بك في معركة فاصلة كان فيها القضاء على قوة البلاد الحربية وهي المعركة المعروفة عند المصريين بواقعة امبابه وعند الفرنسيين بواقعة الاهرام (٤)
(٢١ يولييه سنة ١٧٩٨ — ٧ صفر سنة ١٢١٣)

(١) و (٢) و (٣) العكريشه والكريون من بلاد مركز كفر الدوار الآن وبركة غطاس بمركز أبو حمص

(٤) ان تسمية الواقعة بواقعة امبابه أقرب الى الحقيقة لانها وقعت حول قرية امبابه ولكن الفرنسيين أسموها واقعة الاهرام تفخيماً لها وتخليداً لاسمها في التاريخ ، وقد ورد اسمها في يوميات الجنرال كليبر بأنها واقعة « امبابه » أو « الاهرام » ولكن الاسم الذي صار علماً لها في التاريخ هو معركة الاهرام ، ولذلك سميناها باسمها التاريخي

فرُّ مراد بك بالبقية الباقية من فلول جيشه المهزوم الى الجيزة ، أما ابراهيم بك الذي كان مرابطاً بالبر الشرقي من النيل فانه لما رأى الهزيمة قد حلت بصاحبه غادر القاهرة ومعه من تبعه من مماليك ومصريين ويبلغ عددهم نحو الف وخمسمائة واصطحب معه أبا بكر باشا الوالى التركى وانسحبوا جميعاً قاصدين بلبيس ، وخلت العاصمة من قوة الدفاع ، وصارت وجهاً لوجه امام الجيش الفرنسى

سياسة نابليون ازاء الشعب

وقاعدة الحكم التى وضعها فى منشوره

لم تكن مهمة نابليون فى مصر حرية فحسب ، بل كان مفروضاً عليه أن يواجه أمة شرقية ذات حضارة قديمة تختلف اختلافاً كبيراً عن الشعوب الاوروبية التى عرفها وخالطها ودرس عاداتها وطباعها وأخلاقها
كان مطلوباً منه أن يواجه الامة المصرية ، يحكمها البكوات المماليك الذين استبدوا بادارة شؤونها السنين الطوال ، وعلى رأس حكومتها وال عثمانى يمثل تبعية البلاد الاسمية لسلطان تركيا دون أن يكون له نفوذ فعلى بجانب سلطة المماليك ، فكان من المفروض على نابليون أن يرسم لنفسه سياسة يتبعها حيال هذه العناصر المشتبكة فى أرض الفراعنة

ان الغرض الذى كان يرمى اليه هو توطيد سلطة فرنسا على ضفاف النيل ، وتحقيقاً لهذا الغرض رأى أن خير سياسة يتبعها ازاء مصر أن يجامل تركيا بقدر المستطاع وأن يجتذب اليه قلوب الشعب ويتجنب الى الاهالى بافهامهم انه انما جاء لمحاربة طائفة المماليك الغرباء عن البلاد الذين يستنزفون ثروة مصر ويظلمون أهلها ، وأنه يرمى الى إنشاء «حكومة أهلية» يكون النفوذ فيها للمصريين ، هذه هى الخطة السياسية التى رسمها نابليون وجعلها أساساً لمشروعه العظيم وهو تأسيس دولة عربية فى مصر تساعد على تحقيق آماله وأطماعه فى الشرق والغرب

ظهرت هذه الخطة في منشوراته وبياناته الأولى للمصريين ومفاوضاته لزعمائهم ومسلكه حيالهم وفي النظم الحكومية التي أسسها في مصر
أمر نابليون عند ما احتل الاسكندرية بإذاعة أول منشوره باللغة العربية الى أهل البلاد ، أوضح فيه أغراضه من الحملة الفرنسية وضمنه نداء الى الشعب يدعوهم فيه الى الاطمئنان على مصيرهم ، ويعدم بأن تكون حكومة البلاد في أيديهم
كتب نابليون هذا المنشور يوم ٢٧ يونيه سنة ١٧٩٨ على ظهر البارجة (أوريان) أى قبل أن ترسو العماره بعدة أيام ، وصاغه في قلبه العربي جماعة المستشرقين والتراجمة الذين أحضرهم معه وبخاصة الميسوفاتور والمسيو مارسل ، وطبع على ظهر البارجة بالمطبعة العربية التي جاء بها ، وقد أمر بطبع المنشور قبل رسو العماره ، فكان أول وثيقة عربية طبعت على هذه المطبعة ، وأمر قبل مغادرته الاسكندرية أن تنقل المطبعة العربية والمطبعتان اليونانية والفرنسية من البارجة (أوريان) الى منزل قنصل البندقية بالاسكندرية ، وأن تهيأ هذه المطابع بحيث تكون معدة للعمل في ثمان وأربعين ساعة وأن يطبع على المطبعة العربية أربعة آلاف نسخة من المنشور عدا ما طبع منه على ظهر البارجة (أوريان) ، وأمر كذلك بالافراج عن البحارة الترك والعرب والمغاربة الذين فك أسارهم في مالطة (١) وأحضرهم معه على ظهر العماره الفرنسية وسمح

(١) هم البحارة المسلمون الذين كانت تأسرهم سفن مالطة في جولاتها في البحر الابيض ويعتبر فرسان مالطة أن أسرهم واجب ديني ، وكانوا يقضون عليهم بالسجن على ظهر السفن الحربية ويجبرونهم على الاشغال الشاقة فيقضون بقية عمرهم في هذا الشقاء ، فلما احتل نابليون مالطة أمر باطلاق سراح هؤلاء الاسرى وكان عددهم نحو السبعماية وأحضرهم معه الى الاسكندرية وسمح لهم بالذهاب أنى شاؤوا فحفظوا للفرنسيين هذا الجليل ، وكان غرض نابليون من اطلاق سراحهم أن يظهر للبلاد الاسلامية مبلغ عطفه على المسلمين
واليك ما كتبه الجبرتي عن أولئك الاسرى وعن منشور نابليون الي

لهم بالذهاب أنى شاؤا ومع كل منهم عدد من المنشورات لتفريقها في أنحاء البلاد
ان تاريخ هذا المنشور هو ٢ يولييه سنة ١٧٩٨ الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣
و ١٤ مسيدور من السنة السادسة للجمهورية الفرنسية ، أى ان نابليون بادر باذاعة
هذا المنشور يوم احتل ثغر الاسكندرية، وكان المنشور معداً ومطبوعاً على المطبعة
العربية قبل رسو العمارة الفرنسية ، وهذا يدل على مبلغ اهتمامه بتبليغ المصريين
مقاصده من الحملة ورغبته في اكتساب قلوبهم
واليك صورة المنشور تنقله هنا كما هو وارد في الجبرني مع مقارنته بالاصل
الفرنسي

منشور نابليون الى المصريين

« بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه ، من
طرق الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية (١) ، السر عسكر الكبير أمير
الجيش الفرنساوية بونايرت ، يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد

المصريين » كانت الفرنسييس حين حلوهم بالاسكندرية كتبوا مرسوما وطبعوه
وأرسلوا منه نسخا الى البلاد التي يقدمون عليها تطمينا لها ، ووصل هذا
المكتوب مع جملة من الاسارى الذين وجدوهم بمالطة وحضروا صحتهم ، وحضر
منهم جملة الى بولاق ، وذلك قبل وصول الفرنسييس بيوم أو يومين ، ومعهم
منه عدة نسخ ، ومنهم مفاربة وفيهم جواسيس وهم على شكهم من كفار مالطة
ويعرفون باللغات »

(١) هذه العبارة ليست واردة في الاصل الفرنسي ، وانما وردت في النسخة
العربية التي وزعت في البلاد والواردة في الجبرني ، ولعلها عنوان للنسخة العربية
للمنشور ، أما الاصل الفرنسي فبتدأ بالعبارة الآتية « المعسكر العام بالاسكندرية
في ١٤ مسيدور من السنة السادسة الموافق ١٨ محرم سنة ١٢١٣ هجرية ، بونايرت

السناجق^(١) الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة
الفرنساوية ، ويظهرون تجارها بأنواع الايذاء والتعدي ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم
وأخرنا ، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة الممالك المجلوين من بلاد الالبازة^(٢)
والجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الاحسن الذي لا يوجد في كرة الارض كلها ،
فاما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون
قد قيل لكم اني ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح
فلا تصدقوه ، وقولوا للمقترين اني ما قدمت اليكم الا لخلص حقكم من يد الظالمين
واني أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا
أيضاً لهم أن جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم
هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين الممالك والعقل والفضائل تضارب ، فهاذا
يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن
فيها من الجوارى الحسان واخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فان كانت الارض المصرية

عضو المجمع العلمي الاهلي والقائد العام « وكلمة التسوية يقصد منها المساواة ،
ومعروف ان الحرية والمساواة شعار للجمهورية الفرنسية ، والسر عسكر كلمة تركية
معناها رئيس العسكر أو القائد العام ، والمنشور كما يراه القارىء مملوء بالاغلاط
والعبارات العربية الركيكة ، أما أصله الفرنسي فبليغ وهو منشور في مراسلات
نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٢٣ ، ولم نشأ أن نعربه عن الاصل لان الصيغة
العربية التي نشرت في البلاد والواردة من الجبرتي أصبحت وثيقة تاريخية يجب
المحافظة عليها فنقلناها كما هي

(١) حكام المديرية جمع سناجق ، راجع الفصل الاول .

(٢) الالبازة من شعوب القوقاز وفي الاصل الفرنسي للمنشور « المجلوبوز
من جورجيا والقوقاز » وجورجيا من بلاد القوقاز واقعة بين البحر الاسود
وبحر قزوين

التزاما للمالك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعد لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور^(١) وبذلك يصلح حال الامة كلها ، وسابقا كان في الاراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان^(٢) الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من الممالك

أيها المشايخ والقضاة والائمة والجريجية وأعيان البلد، قولوا لامتكم أن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون^(٣) واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روميه الكبرى وخربوا فيها كرمى البابا^(٤) الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردها منها الكوالريه^(٥) الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الاوقات صاروا محبين مخلصين

(١) في الاصل الفرنسي « سيتولون الحكم » Juoverneront

(٢) الترع

(٣) في الاصل الفرنسي « محبون للمسلمين المخلصين »

Que nous sommes amis des vrais musulmans

(٤) يشير الى الحملة الفرنسية التي زحفت على روما أثناء حرب ايطاليا وطردت

البابا من روما

(٥) الكوالريه أو الكفاليريه مأخوذة من الكلمة الفرنسية Chevaliers

وهم طائفة دينية كانت تعرف بفرسان القديس حنا الاورشليمي وقد تولوا حكم مالطة من عهد شارل كان ، وصار اسمهم « فرسان مالطة » فلما رست العمارة الفرنسية بمالطة في طريقها الى مصر احتلها الفرنسيون وابقى حكم فرسان مالطة واستولى الفرنسيون على ما بالجزيرة من استحكامات ومهمات وذخائر وتحف ثمينة ومجوهرات مما كان يهدى الى الطائفة من أنحاء العالم وقد احضر نابليون معه الى مصر الكثير من هذه النفائس لينتفع بثمنها

لحضرة السلطان العثماني واعداء أعدائه أدام الله ملكه (١) ومع ذلك ان الممالك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممثلين لامره فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم

طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين ، فاذا عرفونا بالاكثر سارعوا الينا بكل قلب ، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على الممالك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر

المادة الاولى جميع القرى الواقعة فى دائرة قرية بثلاث ساعات (٢) عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسرعسكر من عندها وكلاء كما يعرف المشار اليه انهم أطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحلى واحمر

المادة الثانية كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار

المادة الثالثة كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضاً تنصب صنجاك السلطان

العثماني محبنا دام بقاءه

المادة الرابعة — المشايخ (٣) فى كل بلد يختصمون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك

التي تتبع الممالك وعليهم الاجتهاد التام لتلا يضيع أدنى شئ منها

المادة الخامسة — الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون

وظائفهم ، وعلى كل أحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئناً ، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله

(١) ترجمة الاصل الفرنسى هكذا : ألسنا نحن الذين كنا على الدوام فى

خلال العصور أصدقاء السلطان العثماني أدام الله ملكه

(٢) فى الاصل الفرنسى ثلاثة فراسخ

(٣) المقصود هنا مشايخ البلاد وكانوا بمثابة العمدة الآن

سبحانه وتعالى لا تقضاء دولة المماليك ، قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثماني ، أدام الله اجلال العسكر الفرنسي ، لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية . تحريراً بمعسكر اسكندرية في ١٣ (١) شهر مسيدور من اقامة الجمهور الفرنسي يعني في آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية



هذا هو المنشور الذي أذاعه نابليون في مصر وأوضح فيه السياسة التي عزم على اتباعها ، فهو أولاً أراد أن يفهم المصريين انه انما جاء ليحارب المماليك دون سواهم عقاباً لهم على معاملتهم الفرنسيين بالاذلال والاحتقار واعتدائهم على التجار واساءتهم الى أهل البلاد بالمظالم التي يرتكبونها ، وأظهر من جهة أخرى انه يحترم شعور الاهالي ويحترم الاسلام ونبيه الكريم والقرآن العظيم ، وأشاد بعظمة مصر القديمة ونوره بما كان لها في العصور الماضية من حضارة وعمران ، كل ذلك ليستميل اليه قلوب المصريين ووضع في منشوره أساس حكومة أهلية يدير شؤونها « العلماء والفضلاء وبذلك تصلح حال الامة كلها »

ان فكرة انشاء حكومة أهلية من المصريين هي أظهر ما في المنشور من الوعود التي أراد أن يجتذب بها قلوب المصريين ، والواقع ان نابليون في هذا المنشور قد استثار الروح القومية المصرية ، ولم يسبق لفاتح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها ويوجه خطابه الى المصريين ويعدهم بان يكونوا أصحاب الحل والعقد في البلاد .

على انه لا يفوتنا القول بان منشور نابليون مع ما فيه من الوعود والعبارات الجميلة قد حوى مبدأ التهديد والوعيد وانذار المصريين باستهدافهم لاشد أنواع الاذى

(١) الواقع انه ١٤ مسيدور وربما كان رقم ١٣ خطأ من الجبرتي في النقل ، وحقيقة التاريخ الهجري ١٨ محرم

اذا هم لم يدعونا للحكم الفرنسي ، لان انذار القرى باحراقها بالنار اذا هي خرجت على الجنود الفرنسية أمر لا يتفق والقواعد الانسانية في معاملة الشعوب ، ولم نر في منشورات نابليون للايطاليين أثناء حروب ايطاليا تهديداً من هذا النوع ، وسيرى القارىء في خلال الفصول القادمة ان الفرنسيين قد استعملوا طريقة احراق القرى في كثير من المواطن ، فكان ذلك تنفيذاً لما حواه منشور نابليون من التهديد والوعيد ، ولنا أن نفهم من هذا ان نابليون كان ينظر الى الامة المصرية بغير العين التي ينظر بها الى الامم الاوروبية ، وانه مع رغبته في اظهار الود نحو المصريين فانه أعقب هذه الرغبة بتهديدهم بهذا الانذار الرهيب ، وهذا وحده كاف ليصرفهم عن الاطمئنان لوعود نابليون . وقد أورد ريبو في كتابه (١) منشور نابليون وحذف منه هذه المادة وأشار اليها اشارة مبهمه ، ولعله تعدد حذفها ليكتم عن القارىء مبلغ ما فيها من القسوة والخروج على قواعد الحضارة والانسانية

المفاوضات بين نابليون وزعماء الشعب

غداة معركة الاهرام

قام المصريون بقسطهم في الدفاع عن البلاد كما تراه مفصلاً في الفصل الخامس والفصول التي تليه ، لكنهم غلبوا على أمرهم وأصبحت القاهرة بعد واقعة الاهرام مفتحة الابواب امام الجيش المغير ، فساد فيها الذعر وعم أهلها الفزع والاضطراب لتوقعهم المكاره واحتمال العنت والاذي عند دخول الفرنسيين المدينة ، وكان رؤساء الممالك قد فروا تاركين العاصمة بلا دفاع ، فأخذ علماؤها وأعيانها يفكرون في الخطة التي يتبعونها حيال هذه الكارثة لتخفيف مصاب التسليم بالامر الواقع ، شأن كل مدينة كبيرة هزم الجيش المدافع عنها

ففي صباح يوم الاحد ٢٢ يولييه سنة ١٧٩٨ (غداة معركة الاهرام) اجتمع في

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الثالث

الازهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا في الامر ، وكان الجيش الفرنسي لم يزل بالبر الغربي للنيل ولم يدخل المدينة بعد ، فاتفق رأيهم على أن يبعثوا برسالة الى الفرنسيين يستفهمون فيها عن قصدهم وينتظرون ما يكون جوابهم ، فقام رسولان يحملان الرسالة الى معسكر الجيش الفرنسي بالجيزة (١) ثم عادا فاخبرا انهما قابلا القائد العام وأعطياه الرسالة وقراها عليه ترجمانه ، فقال على لسان الترجمان « وأين عظامكم ومشايخكم ولم تأخروا عن الحضور الينا لترتب لهم ما يكون فيه الراحة » وطأنهم وبش في وجوههم فقالوا نريد أمانا منكم ، فقال أرسلنا لكم كتابا سابقاً (٢) ، فطلبوا وثيقة أخرى لاجل اطمئنان الناس فكتبوا لهم رسالة أخرى هذا مضمونها كما جاء في الجبرتي :

« من معسكر الجيزة خطابا لاهل مصر ، اننا أرسلنا لكم في السابق كتابا فيه الكفاية ، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد ازالة الممالك الذين يستعملون

(١) اتخذ نابليون قصر مراد بك في الجيزة معسكراً للقيادة العامة يصدر منه الاوامر الى أن انتقل الى القاهرة يوم ٢٤ يولييه سنة ١٧٩٨

(٢) يقصد المنشور الذي أذاعه في الاسكندرية ووصلت منه عدة نسخ الى القاهرة قبل معركة الاهرام ، ولعله يقصد كذلك بيانا آخر نشره عقب معركة الاهرام لم يرد ذكره في الجبرتي وقد ورد نصه في مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨١٨

« من معسكر الجيزة في ٤ ترميدور (٢٢ يولييه) الى أهل القاهرة :

« انى مسرور من سلوككم وقد أحسنتم صنعا بعدم مقاومتي ، انى جئت لا بادة جيش الممالك وحماية التجارة وأهالي البلاد الاصليين ، فليطمئن الخائفون وليرجع القارون الى بيوتهم ، وليستمر الاهالي على اقامة الشعائر الدينية كالاعتاد ، اطمئنوا على مائلاتكم وبيوتكم وأملاككم واطمئنوا على دينكم الذي أحترمه ، ولما كان من غرضي أن لا يختل الامن وأن يسود النظم فسيتألف (ديوان) من سبعة أعضاء يجتمعون في الازهر يتصل منهم اثنان بقومندان الموقع ويتخصص أربعة بالمحافظة على الراحة والنظام وتدير شؤون البوليس »

لفرنساوية بالنل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ، ولما حضرنا الى البر الغربي خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسروا بعضهم ونحن في طلبهم حتى لا يبقى أحد منهم بالقطر المصري ، وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين وفي مساكنهم مرتاحين »

ثم قالوا للرسولين « لا بد أن يحضر الينا المشايخ والشوربجية لترتب لهم ديواناً ننتخبه من سبعة أشخاص من العقلاء يدبرون الامور » ورجع الرسولان بهذا الجواب الى القاهرة فاطمان الناس وركب وفد مؤلف من الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي (من العلماء) الى الجيزة فتلقاهم نابليون بالترحاب وسألهم « هل أنتم كبار المشايخ » فلجاوبوه ان المشايخ الكبار قد غادروا المدينة خوفاً من الاحتلال فكلفهم بأن يكتبوا لهم بالحضور لتأسيس الديوان « لاجل راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة » ، فاستكتبوه عدة مكاتبات بالحضور والامان ، ثم عادوا من معسكر الجيزة بعد العشاء وحضروا الى مصر واطمان برجوعهم الناس وكانوا في وجل وخوف لغيابهم ، وأرسلوا الامان الى المشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي والمشايخ ومن انضم اليهم من الفارين من ناحية المطرية ، أما السيد عمر مكرم قبيب الاشراف فانه لم يحضر وهاجر الى سوريا صحبة أبي بكر باشا الوالي وابراهيم بك

هذه خلاصة ما رواه الجبرتي عن مفاوضة نابليون لزعماء الشعب غداة معركة الاهرام ، ويجدر بنا أن نذكر رواية المراجع الفرنسية عن هذه المفاوضات ونقارن بينها وبين رواية الجبرتي

يقول ريبو^(١) أن مراد بك أمر قبل واقعة الاهرام باعتقال التجار الفرنسيين في القاهرة وكان ينوي قتلهم لولا تدخل الميسوروسكي Rosetti قنصل النمسا فاكتمل باعتقالهم^(٢) وفي غداة واقعة الاهرام قابل الميسورودوف Baudeuf أحد التجار الفرنسيين

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) يقول الجبرتي في هذا الصدد « طلب الامراء (الماليك) التجار من

في القاهرة مصطفى بك (نائب الوالى) ومعه جماعة من التجار الاجانب وطلبوا منه أن يتوجه لمقابلة نابليون بالجيزة وعرضوا وساطتهم لديه، وجاء ترجمان من المعسكر الفرنسى، فصار مصطفى بك مصحوباً بوفد وقابل نابليون وعرض عليه تسليم المدينة في مقابل عهد منه بحماية الارواح والأموال وطمأنينة السكان ، فصارحه نابليون بأن أول أغراضه المحافظة على سعادة الشعب المصرى واحترام شعائره الدينية وأمواله، وانتهت بالمقابلة وكانت على صفاء، وبعد انتهائها سار الجنرال ديبيوى Dupuy على رأس طليعة من الجنود لاحتلال المدينة ، وفي اليوم التالى (٢٣ يوليه) دخل الجيش المدينة على أثر تلك الطليعة ، وفي أثناء عبور الجنود النيل استدعى نابليون بعض علماء الجامع الازهر وأغا الانكشارية (المحافظ) لمقابلته بمعسكره بالجيزة وناولهم منشوره إلى سكان القاهرة . فهذه الرواية تختلف في بعض وقائعها عن رواية الجبرتي وان كانت تتفق في جوهرها ، على أن رواية الجبرتي في هذا الصدد أدعى للثقة لانها رواية شاهد عيان لحوادث ذلك العصر كان يدون معظم مشاهداته في حينها ، أما رواية ريبو فقد دونت عقب وقوع تلك الحوادث بمدة طويلة ، وليس يخلو هذا التدوين من خطأ أو تحريف ، وقد رجعنا الى مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران في منفاه لسانت هيلين فوجدناه يروى عن هذه المفاوضة أن ترجماناً من قبله ذهب غداة معركة الاهرام لمقابلة علماء الازهر ومشايخه، وأن هؤلاء تولوا زمام الحكومة بعد المعركة واجتمعوا ليتشاوروا فاتفقوا رأياً على التسليم ، فذهب وفد من المشايخ على رأسه كخيا الباشا (نائمه) وقالوا نابليون بالجيزة ، وهذه الرواية كما ترى أقرب الى رواية الجبرتي ولا تنافيا ، والنسب يفهم من هارب الروايتين أن نابليون أرسل ترجمانه لمقابلة العلماء باعتصارهم زعماء الشعب ، ولمقابلة الوالى باعتباره نائب السلطان (وكان نابليون كثير الاهتمام باستبقاء علاقات الود مع سلطان تركيا) فقابل الترجمان العلماء الذين كانوا

الافرنج فحبسوا بعضهم بالقلعة وبعضهم بأماكن الامراء وصاروا يفتشون في محلات الافرنج على الاسلحة وغيرها »

بالأزهر ، ولم يقابل الوالى لانه ارتحل عقب معركة الاهرام إلى سور يا صحبة ابراهيم بك
رئيس الممالك ، ولا بد أن يكون الترجان قابل مصطفى بك (نائب الوالى) فذهب
الرسولان اللذان أشار اليهما الجبرتى ولما عادا وسمع العلماء حديثهما مع نابليون ارسلوا
وفداً منهم لمقابلته فقابلوه وجرى بينهم الحديث الذى رواه الجبرتى
وترى من خلال المناقشة التى دارت بين نابليون والمشايخ أن أول ما فكر فيه
هو تأسيس (الديوان) من كبار العلماء والاعيان « لتدبير الامور والنظر فى راحة
الرعية واجراء الشريعة » اى انه فلو ضهم فى فكرة تأسيس حكومة أهلية يكون العنصر
السائد فيها من المصريين
فلنبحث اذن تفصيلا فى نظم الحكومة التى أسسها نابليون تنفيذاً لهذه الفكرة
وما استتبعها من تأسيس الهيئات واللجان الاخرى

الفصل الثالث

نُظُم الحكم التي أسسها نابليون في مصر

ديوان القاهرة — دواوين الاقاليم — الديوان العام — المجمع العلمي

١

ديوان القاهرة

انتقل نابليون من معسكره بالجيزة وعبر النيل ودخل القاهرة يوم ٢٤ يولييه سنة ١٧٩٨ (١) مصحوبا بضباطه وأركان حربه ، ونزل بقصر محمد بك الأتفي بالازبكية وشرع في تأسيس الديوان

تأليف الديوان

يؤخذ من رواية الجبرتي في تأسيس الديوان أنه بعد أن استقر نابليون في القاهرة أمر باستدعاء المشايخ والوج قلية عند قمامقام صاري عسكر « فلما استقر بهم

(١) ذكر « ريبو » في كتب التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية أن دخول نابليون القاهرة كان يوم ٢٥ يولييه . والصحيح ما ذكره القومندان دي لاجونكير في كتابه (حملة مصر) أن دخوله كان يوم ٢٤ يولييه ، وهي الرواية التي اعتمدها ، لأنها مؤيدة بالوثائق الرسمية ، وذلك أن نابليون أرسل عقب دخوله القاهرة الى حكومة الديركتوار تقريراً عن واقعتي شبراخيت والاهرام ، وتاريخ هذا التقرير ٢٤ يولييه كما هو ثابت في مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقه رقم ٢٨٣٤ ، وكذلك الامر الذي أصدره باعداد المستشفيات والوارد في مراسلاته (وثيقة رقم ٢٨٣٥) صدر في القاهرة بتاريخ ٢٤ يولييه ، فالوثائق الرسمية تدل على ان نابليون دخل القاهرة يوم ٢٤ يولييه لا ٢٥ ، والجبرتي يقول ان نابليون عدى الى القاهرة يوم الثلاثاء ١٠ صفر سنة ١٢١٣ وهذا يوافق ٢٤ يولييه سنة ١٧٩٨ ، فرواية الجبرتي كما ترى صحيحه تؤيدها الوثائق الاصلية

الجالوس حاطبهم وتشاوروا معهم في انتخاب عشرة من المشايخ للديوان وفصل الحكومات ، فوقم الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ خليل البكرى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ محمد المهدي ، والشيخ موسى السرمى ، والشيخ مصطفى الدمنهورى ، والشيخ احمد العريشى ، والشيخ يوسف الشبرخيتى ، والشيخ محمد الدواخلى »

ومفهوم رواية الجبرتى أن المشايخ والوجاقلية هم الذين اختاروا أعضاء الديوان ، أى ان هذا الديوان تألف بطريقة تشبه طريقة الانتخاب ذى الدرجتين ، وهو يمثل في تأليفه المصريين الأصليين من أهالى البلاد ، وان عدد أعضاء الديوان عشرة ، لكن اذا رجعنا الى النص الفرنسى للأمر الذى أصدره نابليون بتأليف الديوان (١) نجده يختلف ورواية الجبرتى في بعض القسط ومنها عدد الاعضاء وبيان أسمائهم وهذا نص الأمر نثبته هنا مقابلة بينه وبين ما ذكره الجبرتى

« معسكر القاهرة في ٧ تميدور من السنة السادسة للجمهورية (٢٥ يولي

سنة ١٧٩٨)

« بوناپارت عضو المجمع العلمى الأهل (٢) والقائد العام للجيش يأمر بما يأتى :

(أولاً) تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة أعضاء

(ثانياً) يتألف هذا الديوان من المشايخ . السادات ، والشرقاوى ، والصاوى

والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرمى ، والسيد عمر نقب الاشراف »

ومحمد الامير . وعليهم أن يجتمعوا اليوم في الساعة الخامسة مساءً في منزل كحيا

الشاويشية ، وعليهم أن ينتخبوا من بينهم رئيساً لهم وأن يختاروا سكرتيراً (كاتم سر)

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٣٧

(٢) يريد المجمع العلمى الفرنسى الذى كان نابليون عضواً به منذ ديسمبر سنة

١٧٩٧ ، وكان يفتخر بمضويته فيه كما راه من تقديم عضويته بالمجمع على مرتبة القائد العام في أوامره

من غير الاعضاء ، ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية .
ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الاغوات (رؤساء الجند) لادارة البوليس ،
وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الاسواق وتموين المدينة ، ولجنة من ثلاثة
آخريّن يكلفون بمهمة دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها الى فرسخين منها
(ثالثاً) يجتمع الديوان كل يوم من الظهر ويبقى ثلاثة أعضاء على الدوام بدار

المجلس

(رابعاً) يقام على باب الديوان حرس فرنسي وآخر تركي
(خامساً) على الجنرال برتييه Berthier (رئيس أركان الحرب) وقومندان
المدينة (الجنرال ديبوي) أن يكونا في الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لاجراء
ما يلزم لاعضائه ولكي يأخذوا عليهم عهداً ألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش ،
فهذا الأمر كما تري ينص على أن الديوان مؤلف من تسعة أعضاء لا من عشرة
كما رواه الجبرتي ، وأن هؤلاء الاعضاء هم السادات ، والشرقاوى ، والصاوي ،
والبكري ، والفيومي ، والعريشي ، والسرسى ، والسيد عمر مكرم ققيب الاشراف ،
ومحمد الامير ، فهناك اذن اختلاف بين رواية الجبرتي وأمر نابليون في عدد الاعضاء
وفي أسماؤهم ، فان في أمر نابليون ثلاثة لم يرد ذكرهم في رواية الجبرتي وهم السادات ،
والسيد عمر مكرم ققيب الاشراف ، والشيخ محمد الامير ، ونعتقد ان السبب في
ذلك أن هؤلاء الثلاثة قد اختارهم المشايخ والوجاقية يوم اجتماعهم وأصدر نابليون
أمره باقرارهم أعضاء للديوان ، لكنهم لم يقبلوا العضوية إما لرفضهم الاشتراك في مهزلة
الحكم مع الفرنسيين أو لأي سبب آخر ، ولذلك لم نرد أسماؤهم في رواية الجبرتي ،
يؤيد ذلك أن السيد عمر مكرم كان من بين الاشخاص الذين لم يرضوا البقاء في
القاهرة عند دخول الفرنسيين فيها فانه خرج منها والتقى بابراهيم بك وأبي بكر باشا
الوالى وارتحل معهما الى بلبيس ثم الى سوريا ، ولم يعد الا بعد احتلال الفرنسيين ياقا
كما سيجيء بيانه في الفصل الثاني من الجزء الثاني ، والظاهر أنه وقع الاختيار عليه
ليكون عضواً بالديوان دون أن يعلم نابليون بنيته في الرحيل الى سوريا ، فلما تحقق

رحيله خلا محله في العضوية كما خلا محل السادات والامير، فتعين بدل هؤلاء الثلاثة الدمنهوري، والشبراخيتي، والدواخلي الذين وردت أسماؤهم في رواية الجبرتي، والمعروف عن الشيخ السادات أنه لم يكن عضواً في هذا الديوان ولا في الديوان الذي تألف في أواخر ديسمبر سنة ١٧٩٨، مع ان السادات كان من كبار العلماء في ذلك الحين وكان له من النفوذ والجاه ما لم يكن لأحد من أعضاء الديوان، فيظهر لنا أنه لم يقبل عضوية الديوان مع صدور أمر نابليون باعتماد عضويته، ولعله تورع عن قبول هذه العضوية لأنها لا تتناسب مع مقامه في البلاد، على أنه كان مع ذلك موضع احترام نابليون، اعتبر ذلك فيما أمر به من تعيينه على رأس لجنة عهد إليها فحص شكاوى الافراد من مصادرة أموالهم، وهذه اللجنة مؤلفة من الشيخ السادات وللسيوروستي قنصل النمسا والجنرال جونو^(١) وقد زاره نابليون في بيته وكان يحترمه احتراماً عظيماً، وذكر الجبرتي عن موقفه حيال الفرنسيين « أنه لما قدمت الفرنسية الى الديار المصرية لم يتعرضوا له في شيء وراعوا جانبه وأفرجوا عن تعلقاته، وقبلوا شفاعته وتردد اليه كبيرهم وأعاضهم^(٢) »

على ان نابليون مع احترامه له لم يطمئن يوماً اليه، وقد اتهمه بزعامة ثورة القاهرة كما سيجيء بيانه في موضعه^(٣) ثم اضطهده الفرنسيون اضطهاداً شديداً في عهد كليبر ثم في عهد منو كما تراه مفصلاً في الفصل التاسع من الجزء الثاني، فالسادات اذن مع انتخابه عضواً بالديوان لم يقبل هذه العضوية أنفة وتورعاً

بقي أن نعرف السبب فيما ذكره الجبرتي أن عدد أعضاء الديوان عشرة مع ان أمر التأسيس ينص أنهم تسعة، وأن منهم المهدي مع انه لم يذكر في الامر، ويظهر

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٩٣، وليس في المراجع الفرنسية ما يدل على أن هذه اللجنة انعقدت أو عملت عملاً، ولعل السادات لم يقبل أيضاً عضوية تلك اللجنة

(٢) الجبرتي الجزء الثالث

(٣) انظر الفصل الثالث عشر

ان الجبرتي ذكر الشيخ محمد المهدي باعتباره عضواً من الاعضاء فصاروا على روايته عشرة أعضاء ، وهذا خطأ في رواية الجبرتي ، والصحيح انهم تسعة أعضاء لا عشرة ، أما الشيخ المهدي فلم يكن عضواً بالديوان وانما كان سكرتيراً له ، وكان أمر نابليون يقضي بأن يعين الاعضاء سكرتيراً للديوان « من غير الاعضاء » فوق الاختيار على الشيخ محمد المهدي ، فهو لم يكن من الاعضاء التسعة ، وعذر الجبرتي في هذا الخطأ ان الشيخ المهدي وان لم يكن عضواً بالديوان الا أنه كان له من النفوذ في الديوان وفي غير الديوان أكثر مما كان للاعضاء فقد ذكر الجبرتي عن نفوذه في ذلك العصر أن الفرنسيين أحبه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار اليه في دولتهم مدة اقامتهم بمصر وعلي يده تقضى عندهم حوائج الناس وقضاياهم ، وكانت أوامره نافذة عند ولاية أعمالهم حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر ، ولما رتبوا الديوان كان هو المشار اليه فيه والموظفون في الديوان من دونه واذا ركب حفاً به ومشوا حوله وبين يديه وفي أيديهم العصي يوسعون له الطريق (١) ، فالمهدي كان اذن السكرتير العام المعين للديوان ، ومن ذلك كانت له الرياسة على موظفي الديوان « واذا ركب بمشون حوله » كما يقول الجبرتي ، لكنه لم يكن عضواً به

ولا يفوتنا هنا ان نذكر ان المهدي صار بعد ذلك عضواً في الديوان الذي تأسس في ديسمبر سنة ١٧٩٨ على نظام آخر كما سيأتي بيانه في الفصل الاول من الجزء الثاني

اختصاص الديوان

قضى أمر نابليون « بإسناد حكومة القاهرة الى الديوان » أي أن السلطة المدنية للحكومة كانت من اختصاصه بوجه عام ، لكن لا يعزب عن الذهن أنه لم تكن له سلطة قطعية في أي من الامور ، بل كان المرجع الاعلى للسلطة العسكرية الممثلة في جيش نابليون .

ويقضي الامر الصادر بتأسيس الديوان ان للاعضاء حق اختيار رئيس من

بينهم وتعيين سكرتير (كاتم السر) من غير الأعضاء ، وسكرتيرين مترجمين اثنين يعرفان الفرنسية والعربية ، والديوان صوت مسموع في تعيين كبار الموظفين ، فقد ذكر الجبرتي انهم عينوا محمد المسلماني أغات مستحفظان ^(١) (محافظ المدينة) وعلى أغا الشعراوي والي « رئيس » ، الشرطة وحسن محرم « امين احتساب » وذلك بإشارة أعضاء الديوان ، وقال الجبرتي ان الفرنسيين كانوا معارضين في تقليد هذه المناصب لاولئك الاشخاص لانهم من جنس المماليك ، لكن أعضاء الديوان أقنعوهم بان هؤلاء المذكورين من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم ، وبان السوق لا يخافون الا منهم ، فاقنع الفرنسيون بهذه الحجة ، ويقول « ريبو ^(٢) » ان هذا التعيين كان بنصيحة المسيو ماحالون Magallon قنصل فرنسا في مصر والمسيو فانتور Venture كبير ترجمة نابليون وبودوف Baudeuf التاجر الفرنسي بالقاهرة ، ومعنى ذلك انهم وافقوا أعضاء الديوان على رأيهم وأيدوه لدى نابليون

ويقضي الامر بان من حق الديوان تعيين اثنين من الاغاوات (رؤساء الجند) لإدارة البوليس ، وتعيين لجنة من ثلاثة اشخاص يتولون الاشراف على الاسواق وملاحظة تموين المدينة ، وهي وظيفة المحتسب القديمة ، ولجنة أخرى تتولى دفن الموتى في القاهرة وما حولها ، وصادر نابليون أمراً آخر في ٢٨ يولييه سنة ١٧٩٨ ^(٣) بان يعين الديوان « اغا » (رئيسا) للانكشارية لكل من بولاق ومصر القديمة يكونان تابعين لاغا القاهرة ، وان يعين « اغا » (رئيسا) يتولى ادارة الشرطة في النيل وأمر بان يكون هذا الاغا تحت رئاسة الكونتراميرال يري Perrée الذي عهد اليه بشؤون الملاحة النهرية

فتعيين رؤساء الموظفين يدخل اذن في خصائص الديوان ، على أن هؤلاء الموظفين كانوا تابعين للرؤساء الفرنسيين ومجردين من كل سلطة

(١) وكان يسمى « الاغا » فقط

(٢) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٣) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٦٧

وقد احتفظ الفرنسيون بتعيين بعض كبار الموظفين دون استشارة الديوان ،
فعهد نابليون الى المسيو بوسليج ادارة الشؤون المالية للحكومة ، ويقول عنه الجبرتي
(مدير الحدود) ويعبر عنه بالروزنامجي أي مدير الروزنامه ، وعينوا برتلي الرومي (١)
كتخدأ مستحفظان (وكيل المحافظ) ، وقسموا القاهرة وبولاق ومصر القديمة الى
عشرة اخطاط عينوا لكل خط حاكما (قومندان) فرنسياً
ويقول الجبرتي انهم عينوا أحد الافرنج أمين البحرين (مدير الجمارك) وآخر
« أغا الرسالة » أي مدير البريد ، وفي مراسلات نابليون (٢) ان نابليون عهد الى المسيو موسي
مدير مهمات الجيش ان ينظم مكاتب البريد في القاهرة والاسكندرية ورشيد ودמיاط
والرحمانية والمنصورة ومنوف والمحلة الكبرى ، على أن يتولى إدارة البريد مدير يتصل بالجيش ،
وجاء في تقويم الجمهورية الفرنسية عن السنة الثامنة (١٨٠٠) ان مدير البريد في مصر
وقتئذ هو المسيو مونتيكو Monticault

نظام الديوان

يجتمع الديوان ظهر كل يوم ويبقى من الاعضاء ثلاثة على الدوام في دار المجلس
ويقوم على حراسة الديوان حرس فرنسي وآخر تركي
وقد ابلغ نابليون نص الامر القاضي بتأسيس الديوان الى الجنرال برتليه
Berthier رئيس أركان حرب الجيش الفرنسي وأصدر اليه التعليمات الآتية :
« يجب أن تعنى أولا بأن تستكتب أعضاء الديوان رسالة الى أمير الحج
بالحضور بالحجاج في أمان ، وأن يكتبوا الى زعماء العرب بالاخلاد الى السكينة
والكف عن محاربة الفرنسيين وان يصدروا منشورا الى الشعب يدعونه الى الطمانينة
ويبينون له مقاصدنا الحسنة نحو الالهالي »

واصدر امره في ٢٧ يولييه بتعيين الادجودان جنرال بوفوازان Beauvoisins

(١) سيأتي الكلام عنه في الفصل الثالث عشر

(٢) الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٣٩ و ٢٩٤٠

قوميسيرا لدى الديوان وعهد اليه حضور جلساته على الدوام وأن يرفع اليه عقب كل جلسة كل ما يدور فيها ، وكان نابليون حريصاً على تتبع مداولات الديوان حتى في اثناء تغيبه عن العاصمة ، فإنه لما ارتحل عن القاهرة لتعقب جيش ابراهيم بك ببليبس أصدر أمره الى الجنرال ديزيه Desaix بأن ينوب عنه في شؤون القيادة وكلفه بأن يتلقى من بوفوازان تقارير يومية عن جلسات الديوان^(١) ولما أوفد نابليون بوفوازان في مهمة لدى الجزار عيّن بدله الميسو تاليان Tallien قوميسيرا لدى الديوان (٣١ اغسطس سنة ١٧٩٨) ، ويؤخذ من أمر نابليون القاضي بهذا التعيين أن مهمة القوميسير هي التجسس على الاعضاء فإن نابليون يقول في أمره^(٢) « على الستويان^(٣) تاليان أن يحضر جميع جلسات الديوان وأن يسعى في معرفة أخلاق أعضائه ومبلغ الثقة التي يمكننا أن نوليهم اياها ، وعليه أن يبلغني كل يوم بالشكاوى التي ترفع الى الديوان والمسائل التي بحث فيها والطلبات التي يبدىها »

هذه هي الاوامر والعهود الخاصة بتأسيس الديوان وبيان اختصاصاته ، ومنها يتبين أن سلطته لم تكن تتعدى مدينة القاهرة وأن هذه السلطة لم تكن الاستشارية ومقيدة بتعهد الاعضاء أن لا يعملوا شيئاً ما ضد مصلحة الجيش فضلاً عن أنهم كانوا يعملون ويتداولون بعين من الفرنسيين تحت المراقبة المستمرة وقد جعل مقر الديوان بيت قائد اغا بالاز بكية قرب الرويعي^(٤) وسكن به رئيس الديوان ، وتداول المجلس في جلسته الاولى في الوسائل اللازمة لاعادة الامن والنظام الى المدينة

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٩٢

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٠٧

(٣) كلمة ستويان مأخوذة من الفرنسية Citoyen ومعناها « مواطن » وهي

من مصطلحات الثورة الفرنسية ، وتؤدي معنى كلمة « ميسو » الحالية

(٤) يبتديء شارع الرويعي من أول شارع البكرية وينتهي لشارع وجه

البركة ، وجامع الرويعي نأوله ، ويقول العلامة على باشا مبارك في الخطط التوفيقية

دواوين الاقاليم

عم نابليون نظام الديوان في مديريات القطر المصرى فأصدر في ٢٧ يولييه سنة ١٧٩٨ الامر الاتى (١) :

أولاً — يتألف فى كل مديرية من مديريات القطر المصرى ديوان من سبعة أعضاء يسهرون على مصالح المديرية ويعرضون عليه كل الشكاوى التى تصل اليهم ويمنعون اعتداء القرى بعضها على بعض ، وعليهم مراقبة الاشخاص السيئ السيرة ومعاقبتهم والاستعانة على ذلك بالقوات التى تحت أمره القواد الفرنسيين ، وارشاد الاهالى الى ما تقتضيه مصلحتهم

ثانياً — يعين فى كل مديرية أغا (رئيس) الانكشارية يتصل دائماً بالقومندان الفرنسى ، ويكون تحت امرته قوة مسلحة من ستين رجلا من الاهالى يحافظ بهم على النظام والامن والسكينة

ثالثاً — يعين فى كل مديرية «مباشر» لجباية أموال الميرى والضرائب وإيراد أملاك الممالك التى صارت ملكا للجمهورية ويكون تحت رئاسته العمال الذين يحتاجهم العمل

رابعاً — يعين بجانب هذا المباشر وكيل فرنسى للمخابرة مع مدير المالية ومراقبة تنفيذ الاوامر التى يصدرها وتكون من اختصاص الادارة المالية وأرسل نابليون صورة هذا الامر الى قواد الجيش الفرنسى الذين تولوا حكم المديريات فى عهد الحملة الفرنسية

عن جامع الرويعي أنه بالقرب من جامع البكري انشاء السيد أحمد اثرويعي رئيس تجار مصر فى القرن التاسع ، وأما قائد أغا فهو من مماليك محمد بك أبي الذهب وكان أغات مستحفظان (محافظ القاهرة) سنة ١١٩٨ هجرية

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٥٨



الديوان العام

أراد نابليون أن يستنير بآراء أعيان العاصمة والاقليم في المسائل التي تفرعت عن النظام الجديد ، ففي ٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ دعاهم الى الاجتماع في جمعية عامة تمثل أعيان البلاد ليستشيرها في النظام النهائي للدواوين التي أسسها وفي ادارة الحكومة ووضع نظامها الادارى والمالى والقضائى ، وحدد لانعقاد هذه الجمعية بالقاهرة يوم أول اكتوبر ثم عدل الميعاد الى ١٥ اكتوبر وصحيت هذه الجمعية « الديوان العام » تميز لها عن ديوان القاهرة

توخى نابليون اختيار هؤلاء الاعيان من « الاشخاص الذين لهم نفوذ بين الاهالى ومن الذين امتازوا بمركزهم العلمى وكفايتهم وطريقة استقبالهم للفرنسيين » (١) احتوت هذه الجمعية العامة مندوبين من القاهرة ومن الاسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، والبحيرة ، والغربية ، والمنصورة ، والشرقية ، والمنوفية ، والقليوبية ، والجزيرة ، واطفيح ، وبنى سويف ، والفيوم ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وكان مندوبو كل مديرية مؤلفين من ثلاثة من العلماء ، وثلاثة من التجار ، وثلاثة من الاهالى (مشايخ البلاد ورؤساء العربان) وكان مندوبو القاهرة في الديوان العام ثلاثة أمثال كل مديرية ولكل من الشرقية والمنوفية الضعف

رسالة نابليون في الغرض من الديوان

أصدر نابليون أمره الى العالمين Monge وبرتوليه Berthollet عضوى المجمع العلمى بالاشتراك فى جلسات « الديوان العام » على أن يكون لها صفة « قوميسيرين » لحضور المناقشات وعرض مشروعات الحكومة على الاعضاء ، وتلقيا منه تعليماته فى رسالة قال فيها (٢)

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٢٣٨

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٤٢٣

« ان الغرض من عقد « الديوان العام » هو تمديد الاعيان المصريين نُظُم المجالس الشورية والحكم ، فقولوا لهم إني دعوتهم لاستشارتهم وتلقى آرائهم فيما يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية ، وما يفكرون في عمله اذا كان لهم حق الفتح الذي حزنه في ميدان القتال

« اطلبوا من الديوان العام أن يبدى رأيه في المسائل الآتية :

أولاً — ما هو أصلح نظام لتأليف مجالس « الديوان » في المديرية وما هو المرتب الذي يجب تحديده للاعضاء

ثانياً — ما هو النظام الذي يجب وضعه للقضاء المدني والجنائي

ثالثاً — ما هو التشريع الذي يكفل ضبط الموارث وعمو أنواع الشكاوى والاجفاف الموجودة في النظام الحالي

رابعاً — ما هي الاصلاحات والاقتراحات التي يراها الديوان لاثبات ملكية

العقارات وفرض الضرائب

« ويجب أن تفهموا الاعضاء باننا لا قصد إلا توفير السعادة والرفاهية للبلاد التي

تشكو من سوء نظام الضرائب الحالي كما تشكو من طريقة تحصيلها ، وعليكم أن تضعوا للديوان نظامه الداخلي كما يأتي ، أن ينتخب الاعضاء رئيساً له ، ونائب رئيس ، وسكرتيرين مترجمين اثنين ، وثلاثة مراقبين ، وأن يكون ذلك بطريقة الاقتراع وبكل مظاهر الانتخاب ، وعليكم أن تتبعضوا المناقشات وتدونها أسماء الاعضاء الذين يمتازون عن زملائهم في الديوان سواء بنفوذهم أو بكفائتهم »

من هذه الرسالة نعرف بيان المسائل الاربع التي عرضها نابليون على الديوان

العام لاختار رأيه فيها ، وقد رجعنا الى الجبرتي فوجدناه قد أوجز كثيراً في الكلام

عن الديوان العام ومداولاته ولذلك اعتمدنا على المراجع الفرنسية لانها في هذا الصدد

أوفى وأدق بياناً ، قال الجبرتي في بيان المسائل الاربع المطروحة عليه « وما تكامل

الجمع شرع القاضي ملطى في قراءة المنشور ، وتعداد ما به من الشروط مسطور ، وذكر

من ذلك أشياء منها أمر المحاكم والقضايا الشرعية ، وحجج العقارات ، وأمر المواريث ، وتناقشوا في ذلك حصة من الزمن ، وكتب هذه الاربعة أشياء أرباب ديوان الخاصة (أعضاء الديوان) يدبرون رأيهم في ذلك وينظرون المناسب والاحسن وما فيه الراحة لهم وللرعية ثم يعرضون مادبروه يوم الخميس «

اجتماع الديوان العام وقراراته

في أوائل شهر اكتوبر سنة ١٧٩٨ حضر الى القاهرة نواب الاقاليم الذين دعوا الى حضور الديوان العام ، ففي يوم الجمعة ٥ اكتوبر سنة ١٧٩٨ (٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢١٣) نبه عليهم وعلى نواب القاهرة من المشايخ والاعيان والتجار بالحضور الى الديوان العام في اليوم التالي (السبت) بدار محكمة القضايا ببیت مرزوق بك بحارة عابدين ، لكن الديوان لم ينعقد بهذا المكان وأعيد التنبيه على الاعضاء بالاجتماع بدار ديوان القاهرة وهو بيت قائد أغا بالازبكية

ذهب الاعضاء الى دار الديوان وحضر الاجتماع المسيو مونج والمسيو برتوليه منتدبين من قبل نابليون لافتتاح الديوان والاتصال بالاعضاء وعرض أفكار الحكومة ومشروعاتها عليهم لاختد رأيهم فيها

خطبة الافتتاح

ولما استقر بالاعضاء المقام شرع القاضي ماطي رئيس محكمة القضايا في قراءة (فرمان الشروط) وقام كبير المندوبين (مونج) وناول الترجمان خطبة الافتتاح وتليت مترجمة الى اللغة العربية ، ننقل هنا خلاصتها كما وردت في الجبرتي لان هذه الخلاصة هي التي تليت بالديوان

«ان قطر مصر هو المركز الوحيد^(١) ، وانه أخصب البلاد ، وكان يجلب اليه

(١) ترجمة الاصل الفرنسي ... « ان مصر بلاد لا نظير لها » وفي الترجمة الواردة في الجبرتي بعض عبارات ركيكة أبقيناها لانها وثيقة تاريخية يجب المحافظة عليها

المتاجر من البلاد البعيدة ، وان العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الاول ، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الامم في تملكه ، فملكه أهل بابل وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن ، إلا أن دولة الترك شددت في خرابه لانها اذا حصلت الثمرة قطعت عروقها ، فلذلك لم يبقوا بأيدي الناس الا القدر اليسير وصار الناس لاجل ذلك مختلفين تحت حجاب الفقر وقاية لانفسهم من سوء ظلمهم ، ثم ان طائفة الفرنساوية بعد ما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمر الحروب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه واداحة أهلها من قلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة ، فقدموا وحصل لهم النصر ، ومع ذلك لم يتعرضوا لاحد من الناس ولم يعاملوا الناس بقسوة ، وان غرضهم تنظيم أمور مصر واجراء خلجانها التي دثرت ، فيصير لها طريقان طريق الى البحر الاسود (١) وطريق الى البحر الاحمر فيزداد خصبها وريعها ، ومنع القوى من ظلم الضعيف ، وغير ذلك استجلابا لخواطر أهلها وابقاء للذكر الحسن ، فالمناسب من أهلها ترك الشعب واخلص المودة ، وان هذه الطوائف المحضرة من الاقاليم يترقب على حضورها أمور جليلة لانهم أهل خبرة وعقل ، فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها فينتج لصارى عسكر (نابليون) من ذلك ما يليق صنعته « (٢)

هذا هو الخطاب الذي افتتح به « الديوان العام » ، والمتأمل فيه يرى نابليون يشيد بعظمة مصر القديمة ومركزها الممتاز في العالم ويعترف بان مصر كانت معلمة الأم وحاملة لواء الحضارة والعرفان ، وجميل أن يصدر هذا الاعتراف من قائد دانت له الممالك وخضعت له الرقاب ، على ان هذه اللهجة من شأنها أن تبعث في نفوس سامعيها من أعضاء الديوان روح العزة القومية فتحدو بهم الى التطلع لاحياء عظمة مصر القديمة وتصرفهم عن الاذعان لحكم الفرنسيين وغير الفرنسيين ، والواقع ان مصر لم تدعن للحملة الفرنسية كما سيراه القارىء فيما يلي

(١) كذا في الجبرتي ، والصحيح البحر الابيض كما جاء في الاصل الفرنسي

(٢) الجبرتي الجزء الثالث

وفي خطاب نابليون اشارة الى طمع الدول في مصر ، وتصريح بما اقترن به الحكم التركي في مصر من الظلم والخراب ، وهذا الوصف لا يخالف الحقيقة في شيء ، ولكن الامر الذي يلفت النظر ان نابليون في خطابه هذا قد خالف خطته القديمة في مجاملة تركيا والتظاهر بالموودة للسلطان العثماني فجاهر لأول مرة في خطاب رسمي علني بعدائه لتركيا ، والسبب في تغيير خطته بالنسبة لتلك الدولة أنها اتحدت مع إنجلترا والروسيا لمحاربة فرنسا واخراج جنودها من مصر وأعلن الباب العالي الحرب على فرنسا في سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فلم ير نابليون بداً من أن يجاهر بعدائه للاتراك ويصارع المصريين بالطعن في تركيا ويذكرهم بما اتصف به حكمها من الظلم والجهل والغباوة ليصرفهم عن التعلق بها ، على أن المصريين كانوا يرون ان تركيا تعمل وقتئذ بمساعدة حلفائها على اجلاء الفرنسيين من مصر ، وجلاؤهم عنها يؤدي الى ترك البلاد لاهلها ، وقد حققت الايام صحة هذا النظر لان محمد علي لم يحقق استقلال مصر الا بعد طرد الفرنسيين ثم الانجليز من البلاد

رأسه الديوان العام

كتب الجبرتي ما يأتي في وصف انتخاب رئيس الديوان العام فنقله لانه كمحضر جلسة أو مضبطة لما دار بشأن انتخاب الرئيس « قال الترجمان ، نريد منكم يا مشايخ ان تختاروا شخصا منكم يكون كبيرا ورئيساً عليكم ممثلين أمره وإشارته ، فقال بعض الحاضرين « الشيخ الشرقاوي » فقال نونو (لا لا) وانما ذلك يكون بالقرعة ، فعملوا قرعة بأوراق فطلع الأكر على الشيخ الشرقاوي ، فقال حينئذ يكون الشيخ عبد الله الشرقاوي هو الرئيس ، فما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس فأذنوا لهم في الذهاب »

فانتخاب الرئيس كان اذن بالاقتراع السري كما يحصل في المجالس النيابية ، ومن كلام الجبرتي يتبين أن طريقة الاقتراع السري لم تكن مألوفة للأعضاء ، وانهم أرادوا انتخاب الشرقاوي رئيساً بالتصويت العلني ولكن الترجمان نبههم الى أن

يكون الانتخاب سريعاً ، ومن أظرف ما في أسلوب الجبرتي أنه ذكر ما دار بالجلسة حرفياً حتى كلمة (نو نو) وهذا يدل على دقته في الوصف والرواية

قرارات الديوان

من الواجب أن نعرف أن الديوان العام لم تكن له سلطة قطعية في الأمور التي عرضت عليه، بل كان الغرض من انعقاده استشارته والوقوف على آراء أعضائه
ان خطاب افتتاح الديوان مفهوم منه أن عمل الأعضاء مقصور على الإجابة عما يسألون عنه من النظم المراد وضعها ويكون لنا بليون القول الفصل فيما « يليق صنعه »
وعلى هذه القاعدة انعقد الديوان

ومن جهة أخرى فقد كانت المسائل التي تعرض على الديوان تدرس في الوقت نفسه في لجنة ألفها نابليون برأسه وبعضوية مدير مهمات الجيش (١) ومدير الشؤون المالية (٢) وكبير المباشرين (٣) وأمر بأن تنعقد هذه اللجنة يومياً وتقرر القرارات النهائية فيما يتداول فيه « الديوان »

قرارات الديوان كانت أشبه « برغبات » تعرض على اللجنة التي ألفها نابليون ولهذا اللجنة القول الفصل

(المسألة الأولى) — نظام مجالس الديوان

لم يقل الجبرتي شيئاً عما قرره الديوان في المسألة الأولى وهي (ما هو أصلح نظام لتأليف مجالس « الديوان » في المديرية)

(١) الميسو سوسي Sucy (٢) الميسو بوسليج
(٣) هو المعلم جرجس الجوهري الذي كان كبير المباشرين في عهد المماليك فأبقاه نابليون في منصبه ، وتمجد في مراسلات نابليون الجزء الرابع أمر نابليون بتعيينه كبيراً للمباشرين (وثيقة رقم ٢٨٩٥)

ويقول دى لا جونكيير (١) أن رأي الديوان العام في هذا النظام أن يكون لكل من الاسكندرية ودمياط ورشيد « ديوان » مؤلف من ١٢ الى ١٥ عضواً وذلك نظراً لأهمية هذه الثغور ، أما باقي المديريات فيكون بكل منها ديوانان أو ثلاثة أو أربعة « دواوين » ينعقد كل ديوان في بندر من البنادر المهمة فيها ، ويوفد كل ديوان ثلاثة مندوبين لتمثيله في الديوان العام بالقاهرة

وقد عرض هذا الرأي على نابليون فعدل فيه بعض التعديل وقرر بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ أن يكون نظام الديوان كما يأتي :

أن يكون الديوان العام مؤلفاً من ٢٥ عضواً منهم تسعة عن القاهرة وواحد عن كل مديرية من المديريات الست عشرة التي كان يتألف منها القطر المصري ، ويكون للديوان اثنان من السكرتيرين المترجمين واثنان من الحجاب و ١٠ من الحراس ، ويكون ثلث أعضاء الديوان العام من مشايخ البلاد وثلاثهم من التجار والثلث من العلماء ، ويجتمع كلما دعاه القائد العام الى الاجتماع ، ويختار من بينه تسعة أعضاء يتألف منهم الديوان الخصوصي الذي يجتمع باستمرار في القاهرة (٢) ، ويكون في كل مديرية ديوان مؤلف من تسعة أعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية عمومية مؤلفة في كل مديرية من العلماء والائمة ومشايخ البلاد وأكابر وأعيان التجار والصناع ، وهؤلاء يعينهم قومندان المديرية ، ويكون لديوان القاهرة الرئاسة على دواوين المديريات ، ولكل ديوان في مديريته الرئاسة والاشراف على القضاة ومشايخ البلاد

(١) كتاب حملة مصر . الجزء الثالث

(٢) لم ينفذ هذا التعديل لقيام ثورة القاهرة وابطال الديوان كما تراه

في الفصل الثالث عشر من هذا الجزء ، ولما أعيد الديوان في شهر ديسمبر سنة ١٧٩٨ أدخل نابليون في نظامه تعديلاً آخر كما تراه في الفصل الاول من الجزء الثاني

(المسألة الثانية) — النظام القضائي المدني والجنائي

رأى الديوان أن يبقى نظام القضاء على ما كان عليه وأن لا يتغير شيء من ترتيب المحاكم ونظامها ، لكنه طلب أن تحدد رسوم التقاضي التي تدفع للقضاة وموظفي المحاكم ، وطلب أيضا أن يكون تعيين القضاة في كل مديرية من حقوق « الدواوين » المؤلفة بها

هذا ماورد في المراجع الفرنسية ، واليك ما قاله الجبرتي في هذا الصدد :

« واستهل شهر جمادى الاولى يوم الخميس الموعود سنة ١٢١٣ (١) واجتمعوا بالديوان ومعهم ما لخصوه واستأصلوه في الجملة ، فأما أمر المحاكم والقضايا فالاولى ابقاؤها على ترتيبها ونظامها ، وعرفوهم عن كيفية ذلك ، ومثل ذلك ما عليه أمر محاكم البلاد ، فاستحسنوا ذلك الا أنهم قالوا يحتاج ضبط المحاصيل وتقريرها الى أمر لا يتعداه القضاة ولا نوابهم ، فقرروا ذلك وهو انه اذا كان عشرة آلاف فما دونها يكون على كل الف ثلاثون نصفاً ، واذا كان المبلغ مائة يكون على الالف خمسة عشر ، فأن زاد على ذلك فعشرة ، واتفقوا على تقرير القضاة والنواب على ذلك »

(المسألة الثالثة) — التشريع الخاص بالمواريث

تباحث الديوان العام في نظام التوريث ، فستل العلماء من الاعضاء عن قسمة المواريث ، فقالوا انها تقسم بحسب القواعد الشرعية في تقسيم الميراث ، فسألهم القاضي ملطي عن مصدر تلك القواعد ، فقالوا من القرآن الكريم وتلوا بعض آيات المواريث ، فقال المندوبان الفرنسيان ان لهم في تقسيم المواريث قواعد أخرى ، ويظهر أن الجدل في هذه المسألة قد طال ، فتداخل ميخائيل كحيل أحد أعضاء الديوان وأيد وجهة نظر العلماء وقال نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمون ، فطلب المندوبان الفرنسيان أن يكتب العلماء قواعد تقسيم المواريث طبقاً لاحكام الشريعة

الغراء ومراجعتها من الآيات، فوعدوا بتقديم هذا البيان بجلسة أخرى ، وفعلا قدموه بالجلسة التالية ، وفيه فروض القسمة الشرعية وحصص الورثة والآيات المتعلقة بذلك فأقرهم نابليون على نظام التوريث الشرعي

ويقول الجبرتي في هذا الصدد « في يوم الأحد ٤ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ — ١٣ أكتوبر سنة ١٧٩٨ — اجتمعوا بالديوان وأخذوا فيما هم فيه ، فذكروا أمر المواريث فقال ملطي يا مشايخ اخبرونا عما تصنعونه في قسمة المواريث ، فأخبروه بفروض المواريث الشرعية ، فقال ومن أين لكم ذلك ، فقالوا من القرآن ، وتلوا عليه بعض آيات المواريث فقال الافرنج نحن عندنا لانورث الولد ونورث البنت ، ونفعل كذا وكذا بحسب تحسين عقولهم لان الولد أقدر على الكسب من البنت ، فقال ميخائيل كحيل الشامي ، وهو من أهل الديوان أيضاً ، نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمون ثم التمسوا من المشايخ أن يكتبوا لهم كيفية القسمة ودليلاً ، فسايروهم ووعدوهم بذلك وانفضوا ، وفي يوم الاثنين عملاهم ديواناً وكتبوا لهم كيفية قسمة المواريث وفروض القسمة الشرعية وقصص الورثة والآيات القرآنية المتعلقة بذلك فاستحسنوا ذلك »

المسألة الرابعة — تسجيل عقود الملكية والضرائب العقارية

كان نابليون قبل أن ينعقد الديوان العام قد فكر في ابتكار الوسائل والنظم لزيادة ما يجبي من الاهالي من الاموال والضرائب المختلفة ، ومن هذه الوسائل أنه وضع نظاماً جديداً لاثبات الملكية على قاعدة تسجيل مستندات التملك في مقابل رسوم تدفع للتسجيل ، وقد مهد لهذا النظام بانشاء محاكم جديدة تسمى « المحاكم التجارية » ويسمى الجبرتي « محكمة القضايا » أو « محكمة النظام »

صدر أمر نابليون في ١٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بانشاء هذه المحاكم في كل من القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد ، وتختص بالفصل في المنازعات التجارية والمدنية ، ويختار أعضاؤها من التجار على اختلاف جنسياتهم يعينهم القائد العام لمدة ثلاث

سنوات ، وقد ألفت محكمة القاهرة من ستة أعضاء من تجار المسلمين ومستمن الاقباط
برئاسة القاضي القبطي ملطي ، وحدد الامر رسوم التقاضي باثنين في المائة من قيمة
المنازعات التي تطرح أمام المحاكم

وأصدر نابليون أمراً آخر في ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ بإنشاء ادارة لتسجيل
مستندات التملك (١) ، وأمر بأن يقدم جميع ملاك العقارات حجج تملكهم القديمة
والجديدة لتسجيلها في مقابل رسوم ٢ في المائة من قيمة العقارات يدفعها الملاك أجمعون.
واليك خلاصة الامر « ينشأ في عاصمة كل مديرية مكتب لتسجيل جميع
سندات التملك والعقود ويدفع عن التسجيل رسم نسبي طبقاً للأنحة الرسوم، (٢) ولا
يعترف بالملكية الا للعقود والسندات المسجلة ، وإذا لم تسجل تصدر الملكية لجانب
الجمهورية ، وعلى جميع الملاك أن يسجلوا سندات ملكيتهم في مدى ثلاثين يوماً من
نشر هذا الامر (٣) ، وإذا لم يتم التسجيل في هذه المدة يدفع الملاك ضعف الرسم
المقرر للتسجيل ، وإذا انقضى شهر آخر ولم يقع التسجيل تصدر الملكية لجانب
الجمهورية (الفرنسية) ، ومن الآن فصاعداً يجب تسجيل عقود البيع والبدل والتنازل
والهبة في مدى عشرة أيام من تحرير العقد والا يعتبر باطلا ، وكذلك يجب تسجيل
الوصايا في مدة ثلاثة أشهر على الأكثر من وفاة الموصي ، وتسجيل عقود التخارج
والقسمة بين الورثة في مدة عشرة أيام من تاريخ تحريرها ، ويحصل التسجيل بقيد
ملخص العقود في دفتر تعدها ادارة التسجيلات لهذا الغرض »

ضج الاهالي من هذه الرسوم لانها كانت أشبه بضريبة جديدة لم يكونوا

(١) سميت هذه الادارة « مصلحة التسجيلات وادارة أملاك الحكومة »
وجعل مقرها في بيت مرزوق بك بعبادين وأعلن عنها في جريدة (كورديه
دليجيت) بالعدد الصادر في ٢٥ فاندماير من السنة السادسة للجمهورية (٧
١ أكتوبر سنة ١٧٩٨)

(٢) قدر الرسم في الأنحة باثنين في المائة عن معظم المعاملات

(٣) بالنسبة لسكان القاهرة وشهرين بالنسبة لسكان الاقاليم

يدفعونها من قبل ، والواقع أن نابليون كان يرى من وضع هذا النظام الى ابتكار وسيلة جديدة لجمع المال من الاهالى

وفرض كذلك ضرائب سنوية على جميع أصحاب الحرف والصنائع فسخط الصناع وأصحاب الحرف من هذه الغرامات

واليك ماقاله الجبرتي عن محكمة القضايا ونظام التسجيل

« وفيه شرعوا في ترتيب ديوان آخر سموه محكمة القضايا ، وكتبوا في شأن ذلك طوماراً (منشوراً) وشرطوا فيه شروطاً ورتبوا فيه ستة أنفار من القبط وستة أنفار من تجار المسلمين ، وجعلوا قاضيه الكبير ملطى القبطى الذى كان كاتباً عند أيوب بك الدقردار ، وفوضوا اليهم القضايا في أمور التجار والعامة والمواريث والدعاوى ، وجعلوا لذلك الديوان (المحكمة) قواعد وأركاناً من البدع السيئة ، وكتبوا نسخاً في مفارق الطرق ورؤوس العطف وأبواب المساجد ، وشرطوا ضمنه شروطاً ، ومن ضمن تلك الشروط شروط أخرى بتعبيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين الترا كيب العربية ، وعصاه التحايل على أخذ الاموال كقولهم بأن أصحاب الاملاك يأتون بحججهم وتمسكاتهم (مستنداتهم) الشاهدة لهم بالتملك ، فاذا أحضروها وبينوا وجه تملكهم لها إما بالبيع او الانتقال لهم بالارث لا يكتفى بذلك ، بل يؤمر بالكشف عليها في السجلات ، ويدفع على ذلك الكشف دراهم بقدر عينوه ، فان وجد تمسكه مقيداً بالسجل طلب منه بعد ذلك الثبوت ، ويدفع على ذلك الاشهاد بعد ثبوته وقبوله قدر آخر ، يأخذ بذلك تصحيحاً ، ويكتب له بعد ذلك تمكين ، وينظر بعد ذلك في قيمته ، ويدفع على كل مائة اثنين ، فان لم يكن له حجة أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد فانها تضبط لديوان الجمهور (الجمهورية) وتصير من حقوقهم (١) »

ولا شك أن مثل هذا النظام يؤدي بالناس في ذلك العهد الى العنت والارهاق

وكثيراً ما يفضى الى ضياع الملكية ومصادرتها لجانب الحكومة ، لان الملكية قد تنشأ عن الميراث وقد يتعذر إحضار الشهود عليها فتصادر وتسلب من صاحبها ، ولم يسمع في أى نظام من نظم التسجيلات العقارية أن يسرى على العقود القديمة ، لان القوانين لا تسرى على الماضى ، وليس مما تسيغه العدالة اعتبار أن عدم اثبات الملكية بالطرق التى يفرضها النظام الجديد يؤدي إلى مصادرتها وضما للحكومة ، فالغرض من وضع هذا النظام هو كما يقول الجبرتي « التخيل على أخذ الاموال »

وضع نابليون هذا النظام قبل انعقاد الديوان العام ، فلما اجتمع الديوان للمباحثة فيه أبدى الاعضاء استياءهم منه واعترض المشايخ على إكراه جميع الملاك على تقديم مستندات تملكهم القديمة لتسجيلها ، وقالوا اذا كان الغرض وضع ضريبة على الاملاك فلتفرض على العقارات نفسها ، وقد وافقهم نابليون على اعتراضهم ، وكانت موافقته بنصيحة المسيو بوسليج Poussielgue مدير الشؤون المالية ، فانه أشار على نابليون في تقرير قدمه في هذا الصدد باجابه الديوان الى طلبه وأوضح في تقريره بانه يتعذر تسجيل مستندات التملك القديمة عن البيوت والمنازل لان معظمها بناها ملاكها وليس بأيديهم حجج بها ، ولان اجراء التحقيق عن مصدر الملكية لكل منزل عمل شاق لا يمكن أن يؤدي الى نتيجة ، ولا يمكن أن يتم في الثلاثين يوماً المحددة لتقديم الحجج وتسجيلها ، وقد ذكر في تقريره ان عدد منازل القاهرة وبولاق ومصر القديمة في ذلك الحين زهاء مائة الف منزل وعدد الملاك من خمسين الى ستين الف مالك ، واستنتج في تقريره استحالة تنفيذ مشروع التسجيل ، فاستعاض الفرنسيون عن هذا المشروع بفرض ضريبة على العقارات ذاتها

وخلاصة هذه الضريبة انهم قسموا المباني الى أنواع وكل نوع الى درجات لكل نوع ضريبة تقدر بحسب درجاته كما تراه في البيان الآتي (١)

(١) نقلنا هذا البيان عن الامر الذي أصدره نابليون في ١٦ اكتوبر سنة

١٧٩٨ والمنشور في جريدة كورييه دليجيت

الوكائل	الدرجة الاولى	الدرجة الثانية	الدرجة الثالثة
الوكائل	١٨ ريال	٩ ريالات	٤ ريالات
الحمامات	١٥ »	١٠ »	٥ »
معاصر الزيت	٨ »	٤ »	١ »
معاصر السمسم	٣ »	١ »	١ »
طواحين الغلال	٢ »	١ »	٠ »
الاحواش	٢ »	١ »	٠ »
الحوانيت	٢ »	١ »	$\frac{1}{4}$ »
القهوات	٢ »	١ »	$\frac{1}{4}$ »
الجباسات	٢ »	١ »	٠ »
البيوت والغرف	٨ »	٤ »	٢ »

وقرروا على بيوت الدرجة الرابعة ربع ريال

ويقضى الامر بان تدفع الضريبة في السنة على قسطين وبأن يعين مدير الشؤون المالية المهندسين لتقسيم المباني والعمارات الى الدرجات التي تناسبها ، وبان تعمم هذه الضريبة في الاسكندرية ورشيد وفوه ودمياط مع انقاصها في هذه المدن الى النصف ، وعدا ذلك تؤخذ رسوم تتراوح بين ٢ و ٥ في المائة عن العقود الجديدة في المبيعات وعقود نقل الملكية والتنازل عنها والتصرفات والايجارات والمداينات والمهبات وعقود الزواج ، ورسوم اخرى محددة عن التوكيلات وجوازات السفر وشهادات الميلاد واثبات الوفيات والتركات والاشهادات وغير ذلك ، أصدر نابليون أمره بهذه الضرائب الجديدة دون أن ينتظر رأى الديوان فيها وصدر الامر والديوان منعقد في جلسته الاخيرة

واليك ما قاله الجبرتي في هذا الصدد « وفي يوم السبت ١٠ جمادى الاولى (٢٠ اكتوبر سنة ١٧٩٨) عملوا (عقدوا) الديوان واحضروا قائمة مقررات الاملاك والعقار ، فجعلوا على الاعلى (الدرجة الاولى) ثمانية (ريالات) فرانسه ، والاطول

سته ، والادنى ثلاثة ، وما كان أجرته اقل من ريال فى الشهر فهو معافى ، واما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين واربعين (ريالا) بحسب الخسة والرواج والاتساع ، وكتبوا بذلك مناشير على عاداتهم والصقوها بالمفارق والطرق ، وارسلوا منها نسخا للاعيان ، وعينوا المهندسين ومعهم اشخاص لتمييز الاعلى من الادنى، وشرعوا فى الضبط والاحصاء وطاقوا ببعض الجهات لتحري القوائم وضبط اسماء اربابها »

ورواية الجبرتى فيما يتعلق بقيمة الضرائب تختلف كما ترى عن نص الأمر الذى اصدره نابليون فى صدها ، ولعل سبب الاختلاف ان المنشورات التى اصدرها الفرنسيون بهذه الضرائب والصقوها بالمفارق والطرق واطلع عليها الجبرتى قد حوت من الضرائب اكثر مما فرضه نابليون فى أمره

وظاهر من رواية الجبرتى انه لم تحصل مناقشة فى الديوان بشأن هذه الضريبة وقيمتها لان الفرنسيين كانوا مصممين على فرضها فلم يسمعوا بمناقشة فيها ووضعوا الديوان امام الامر الواقع

كان تقرير هذه الضرائب الفادحة من أهم الاسباب التى نفرت المصريين من حكم الفرنسيين، لان هذه الضرائب على فداحتها قد عمت الاغنياء والفقراء ، ولم يكن أصحاب الدكاكين والحوانيت يدفعون ضريبة عقارية فى عهد المالك فعظم استيائهم واشتد سخطهم وهم أغلبية السكان ، وتجاوز الاستياء الى الاغنياء لأن الضرائب الجديدة أثقلت العبء على الملاك وفرضت عليهم أموالا لم يكونوا يفرمونها فى عهد المالك ، فكانت فداحة تلك الضرائب من أكبر العوامل التى أدت الى ثورة القاهرة انفض الديوان العام يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٧٩٨ (١٠ جمادى الاولى سنة ١٢١٣) دون ان يستطيع تخفيف فداحة الضرائب التى استحدثها الفرنسيون ، لذلك لم يكد ينفذ حتى شبت نار الثورة فى القاهرة كما تراه فى الفصل الثالث عشر والآن وقد انتهينا من الكلام عن الديوان العام فلنتكلم عن المجمع العلمى وقد أفردنا له الفصل الآتى

الفصل الرابع

المجمع العلمي

معهد للعلوم ومجلس استشارى للحكومة

أسس نابليون بجانب الديوان مجلساً له صبغة علمية وله علاقة بإدارة الحكومة وهو (المجمع العلمي المصرى) Institut d'Egypte اختار لعضويته خلاصة أعضاء « بعثة العلوم والفنون » التى صحبها معه الى مصر وتكلمنا عنها فى الفصل الثانى (ص ٧٩)

تضم هذه البعثة علماء الحملة الفرنسية ورجال الفن فيها ، وقد كانوا منتظمين فروعاً بحسب العلوم والأعمال التى انقطعوا لها أو توفروا عليها ، وإلى القارىء بيان هذه الفروع : الرياضه والهندسة ، الفلك ، الميكانيكا ، الكيمياء ، طبقات الأرض والمعادن ، النباتات ، حياة الحيوان ، الطب والجراحة ، الصيدلة ، الاقتصاد السياسى ، الآثار القديمة ، هندسة المعمار ، التصوير ، الرسم ، هندسة الرى والطرق والجسور ، الهندسة الجغرافية ، الهندسة البحرية والميكانيكية ، النقش ، الحفر ، الأدب ، الموسيقى ، طلبة مدرسة الهندسة العالية ، الترجمة ، الطباعة العربية والفرنسية فلما جاء أعضاء البعثة الى الاسكندرية صحبة الحملة بقوا فيها بلا عمل حتى انتهت الحركات الحربية ودخل نابليون القاهرة ، فاعتزم بعد موقعة الاهرام الاتفاق بمواهب أولئك العلماء والفنيين وتمكينهم من العمل فى النواحي التى تخصصوا لها ، فاستدعاهم الى القاهرة وفكر فى انشاء «المجمع العلمى المصرى» على مثال المجمع العلمى الفرنسى الذى كان هو عضواً فيه^(١) ، وانتخبه من نوابغ البعثة وضم اليهم نخبة من كبار القواد والضباط ممن لهم باع فى العلوم

(١) أنشئ المجمع العلمى الفرنسى سنة ١٧٩٥ وانتخب نابليون عضواً به

فى ديسمبر سنة ١٧٩٧

عزم نابليون على انشاء هذا المجمع عقب انتهائه من مطاردة ابرهيم بك الى سوريا وعقب وصول نبأ كارثة العمارة الفرنسية في موقعة «أبوقير» ، وعهد الى سبعة من أقطاب لجنة العلوم والفنون وقواد الجيش اختيار أعضائه وهؤلاء السبعة هم العلماء مونج Monge وبرتوليه Berthollet وجوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire وكوستاز Costaz والطبيب ديجنت Desgenettes والجنرالين كافريللي Caffarelli وأندريوسي Andreossi

ثم أصدر أمره بانشاء هذا المجمع في ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٨ (١) وضمنه الغرض من انشائه وبيان اختصاصاته ، وهذا الامر يتألف من ست وعشرين مادة تتلخص فيما يلي :

الغرض من المجمع — يتألف في مدينة القاهرة مجمع للعلوم والفنون الغرض منه (١) تقدم العلوم والمعارف في مصر (٢) دراسة المسائل والابحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشر هذه الابحاث (٣) ابداء رأيه للحكومة في المسائل التي تستشير فيها

أقسام المجمع — يتألف المجمع من أربعة أقسام : قسم الرياضيات ، وقسم الطبيعيات ، وقسم الاقتصاد السياسي ، وقسم الآداب والفنون . ويتألف كل قسم من اثني عشر عضواً

انعقاد المجمع — يجتمع المجلس مرتين في الشهر ، ويجوز لقواد الجيش الفرنسي وضباطه أن يحضروا جلساته

مكتب المجمع — ينتخب المجلس بين اعضاءه هيئة مكتب المجلس وتتألف من الرئيس ، ونائب الرئيس ، ويعاد انتخابهما كل ثلاثة اشهر ، وسكرتير دائم ، ومدير يعاد انتخابه كل سنة ، وأمين دائم لمكتب المجلس ومترجم عربي ويجوز أن يكون من الاعضاء

ابحاث المجمع — ينشر المجلس مجموعة أبحاثه كل ثلاثة أشهر، وتشمل هذه المجموعة مذكرات أعضائه وتقارير اللجان التي يؤلفها لدرس المسائل التي تعرضها عليه الحكومة

يقرر المجلس اعطاء جائزتين كل سنتين الاولى لأهم بحث خاص بتقديم الحضارة والمدنية في مصر ، والثانية لأهم بحث خاص بتقديم الصناعة ، وتتألف لتوزيع الجائزتين لجنة تنتخب بالاقتراع مؤلفة من خمسة أعضاء يدرسون الابحاث المقدمة في المسابقة ويقررون البحث الذي يستحق الجائزة ، وتطبع الابحاث التي اجيزت في مجموعة المجلس وكذلك الابحاث التي لم تنل الجائزة متى رأت اللجنة انها جديرة بالنشر

أعضاء المجمع العلمي

قلنا أن نابليون اختار لعضوية المجمع العلمي خلاصة أعضاء بعثة العلوم والفنون الذين صاحبهم معه حين مجيئه الى مصر، وانتظم هو معهم في سلك المجمع ، فصار مؤلفاً من ستة وثلاثين عضواً موزعين على أربعة أقسام

قسم الرياضات — مونج Monge ، نابليون بونابارت ، فورييه Fourier ، كوستاز Costaz ، نوي Nouet ، كينو Quesnot ، لوبير Le Père ، جيرار Girard ،

لروا Le Roy ، الجنرال اندريوسي Andreossi ، ساي Say ، مالوس Malus

قسم الطبيعيات — برتوليه Berthollet ، دولوميو Dolomieu ، كوني

Conté ، جوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire ، ديكوتيل Descotils ،

سافيني Savigny ، ديوبا Dubois ، ديجينت Desgenettes ، شامبي Champy ،

دليل Delile

قسم الاقتصاد السياسي — الجنرال كافاريلي Caffarelli ، جلوتيه Gloutier ،

سوسي Sucy مدير مهمات الجيش ، سولكوسكي Sulkowsky ، تاليان Tallien ،

بوسليج Poussielgue

قسم الآداب والفنون — برسفال دجرا تميزون Perseval De Grandmaison
عضو الاكاديمية الفرنسية ، فانتور Venture ، نوري Norry ، دوترتير Duterre ،
فيفان دينون Vivant Denon ، ريجل Rigel ، ردوتي Redouté ، القسيس رقائيل
دموناخيس Raphael de Monachis

وقد تغير بعض اعضاء المجمع العلمي وحل محلهم غيرهم ، وهذه هي التغيرات التي
حدثت مدة وجود نابليون في مصر

قسم الرياضيات — عين المهندس لانكري Lancet بدلا من ساي الذي قتل
في الحملة على سوريا

قسم الطبيعيات — عين الدكتور لاري Larrey رئيس الجراحين بدلا من
ديبوا واضيف عضو جديد وهو بوشان Beauchamps

قسم الاقتصاد السياسي — عين كورانسز Corrancez بدلا من الجنرال
كافاريلي الذي قتل في حصار عكا ، وبورين Bourrienne سكرتير نابليون الخاص
بدلا من سومي

قسم الآداب والفنون — عين المهندس المعماري لوير Lepère بدلا من نوري ،
وعين ريبول Ripault أمين مكتبة المجمع بدلا من فانتور ، واضيف اليهم الرسام
ريجو Rigo

دار المجمع العلمي

اختار نابليون قصر حسن كاشف شركس بالناصرية مقراً للمجمع العلمي ، وألحق به
القصور المجاورة له التي ابتناها المماليك وخصصها لسكن اعضاء المجمع وبعثة العلوم
والفنون كقصر قاسم بك (١) ، وبيت ابراهيم كتخدا السناري ، وبيت أمير الحج
المعروف بأبي يوسف

(١) مكان قصر قاسم بك الآن عمارة الاوقاف الكائنة بشارع الكومي ، جاء

كانت سراى حسن كاشف من أجمل قصور الممالك بالقاهرة (ومكانها الآن المدرسة السنية بالناصرية) ، وصفها الجبرتي خلال كلامه عن حسن كاشف فقال « انه عمر الدار العظيمة بالناصرية وصرف عليها أموالاً عظيمة ، وقبل بياضها وصل الفرنسيين الى الديار المصرية فسكنها الفلكيون والمديرون وأهل الحكمة والمهندسون (اعضاء المجمع العلمي) فلذلك صينت من الخراب كما وقع لغيرها من الدور لكون عسكرهم لم يسكنوا بها » وذكرها المسيو جوفروا سان هيلير أحد كبار أعضاء المجمع العلمي في رسائله المنشورة بكتابه (رسائل من مصر) ، وظاهر مما كتبه عنها انها كانت غاية في الفخامة ، فقد كتب بتاريخ ٣٠ اغسطس سنة ١٧٩٨ رسالة الى العلامة كوفيه Cuvier يقول فيها

« عدت من المجمع العلمي بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البكوات (قصر حسن كاشف وقصر قاسم بك) ويبتين من بيوت الاغنياء ، وهذه الدور المتجاورة يسكنها العلماء والفنيون ، وفيها من أسباب الفخامة ما لا يقل عن اللوفر ، وانا لنجد فيها من أسباب الراحة أكثر مما في اللوفر ، وبجوارها حديقة فسيحة يبلغ مساحتها نحو ٣٥ فدانا جيدة الفراس ، وقد خصصناها للزراعة والنبات ، أما قاعة جلسات المجمع فانها مزدانة بأجمل ما في قصور الممالك من الاثاث »

وباسم حسن كاشف سميت الحارة المعروفة الآن بحارة حسن الكاشف الواقعة بجوار المدرسة السنية ، وتنتهي هذه الحارة قريباً من دار ابراهيم كتخدا السناري^(١) التي خصصها اعضاء المجمع العلمي للرسم والتصوير والباقية الى اليوم ، وسميت الحارة التي بها هذه الدار حارة مونغ Monge تخليداً لاسم المسيو مونغ الذي كان رئيساً للمجمع العلمي في عهد بوناپارت

في كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر أن بيت قاسم بك كان يسكنه أعضاء لجنة العلوم والفنون وانه مجاور لقصر حسن كاشف الذي كان مقراً للمجمع العلمي (١) هو وكيل مراد بك ولذلك سمي (كتخدا) وسناري نسبة الى سنار بتشديد النون وهي بلدة بالسودان على النيل الازرق

وقد انشأ المسيو جلياردو بك سنة ١٩١٧ في دار ابراهيم كتخدا السنارى متحفاً أسماه (متحف بونابارت) وبقي هذا البيت الى الآن كما بناء صاحبه ابراهيم كتخدا السنارى وهو مثال قائم لبيوت الممالك ، وقد أدخلته لجنة حفظ الآثار العربية ضمن الآثار التى تعنى بها وتحافظ عليها ، وصرحت للمسيو جلياردو بك بأن ينشئ به متحفه وهو يحوى كثيراً من الصور والخرائط والطرف والآثار والكتب والمستندات والوثائق والمخطوطات عن عهد الحملة الفرنسية فى مصر ، وقد زرت هذا المتحف غير مرة واطلعت على ما جمعه فيه من النفائس وأذن لى بأن أقبل بعض الصور التى يزين بها متحفه وبعض الوثائق التى جمعها (١)

طائفة من أعضاء المجمع العلمى

ولجنة العلوم والفنون

نذكر هنا طرفاً من حياة بعض من اشتهروا أو ترددت أسماؤهم فى فصول الكتاب من أعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون ليكون لدينا فكرة عامة عن أشخاصهم

علماء الرياضيات والمهندسون

مونج

سنة ١٧٤٦ - ١٨١٨

هو جاسبار مونج Gaspard Monge أكبر علماء الرياضيات بفرنسا فى ذلك العصر ، وله فيها شهرة عالمية ، وهو مؤسس الهندسة الوصفية وأحد مؤسسى مدرسة الهندسة بفرنسا وأحد أساتذتها المشهورين ، وعضو بالمجمع العلمى بفرنسا ، تقلد زمناً وزارة الحربية فى عهد الجمعية التشريعية ، وقد تلقى عليه نابليون علوم الطبيعة

(١) توفى المسيو جلياردو بك سنة ١٩٢٧

في مدرسة باريس الحربية ، وكان موضع احترامه واجلاله ، ووقع عليه الاختيار لرئاسة المجمع العلمي بمصر ، وكان هو روح أبحاث المجمع العلمية ، ولما عاد الى فرنسا رجع الى التدريس في مدرسة الهندسة وبذل جهداً كبيراً في جمع أبحاث علماء الحملة الفرنسية ، وعينه نابليون في عهد الامبراطورية عضواً بمجلس الشيوخ ، ومنحه لقب « كونت بيلوز » تذكراً لأعماله وأبحاثه في مصر ، وله مؤلفات ومذكرات عديدة في العلوم الرياضية وبخاصة الهندسة ، وباسمه سميت (حارة مونج) بالناصرية بجوار المدرسة السنية الآن

كوستاز « Costaz »

١٧٧٦ — ١٨٤٢

من علماء الرياضيات وعضو بالمجمع العلمي الفرنسي ، كان مدرسا بمدرسة الهندسة العالية (السنترال) بفرنسا حينما اختاره نابليون لعضوية لجنة العلوم والفنون ، وبعد انتهاء الحملة عاد الى فرنسا وعين سنة ١٨١٣ مديراً عاما لإدارة الري والقناطر والجسور بفرنسا ومنح لقب بارون

لوپير « Le Père »

١٧٦٣ — ١٨٤١

هو كبير مهندسي الري والطرق والجسور في عهد الحملة الفرنسية ، وواضع التقرير المشهور عن اتصال البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط ، عهد اليه نابليون أن يدرس هذا المشروع فقضى عامين في فحصه ودراسته ، وعاونته فيه بعض مهندسي الحملة ، وقدم به تقريراً الى نابليون بعد مغادرته مصر (وكان « قنصلاً أول ») ، وتصميم المشروع كما وضعه المسيو لوپير أن تحفر ترعة من السويس الى البحيرات المرة ويعاد حفر الخليج القديم المعروف بخليج أمير المؤمنين (١) الى أن يتلاقى مع بحر موسى

(١) هو الخليج الذي حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب

بقرب بوباسط (١) ومن بحر موسى الى فرع دمياط ، ومنه الى الترة الفرعونية ، ومنها الى فرع رشيد ، ومنه الى الاسكندرية بواسطة ترة الاسكندرية ، وقد جذب المسيو لويير كذلك فكرة وصل البحرين رأسا بواسطة ترة أخرى تحتوق برزخ السويس فيما بين بيلوز (٢) (الطينه) على البحر الابيض ومدينة السويس على البحر الاحمر ، غير أنه اعتقد خطأ ان البحر الاحمر يعلو عن سطح البحر الابيض بنحو تسعة أمتار ، وقد نشر مشروعه في كتاب « تخطيط مصر » الجزء الحادي عشر ، وفيه بحث مستفيض عن تخطيط ترة الفراعنة القديمة وخليج أمير المؤمنين وتخطيط الجهات التي ينفذ فيها المشروع ونفقات انفاذه ، ويقع هذا البحث في أكثر من ثلثائة صفحة وهو من أجل الابحاث التي وضعها علماء الحملة الفرنسية ، والمسيو لويير هو الذي تولى اصلاح بناء المقياس بالروضة وكتب له الديوان لمناسبة عمله كتاب شكر نشرناه في قسم الوثائق التاريخية ، وله بحث مستفيض عن مقياس الروضة نشر في كتاب تخطيط مصر الجزء الثاني عشر .

جراتيان لويير « Gratien Le Père »

هو أخو المسيو لويير المتقدم ذكره وهو من مهندسي الحملة الفرنسية ، شارك أخاه في بعض أبحاثه ، وله بحث خاص مستفيض في تخطيط مدينة الاسكندرية نشر في كتاب تخطيط مصر الجزء الثامن عشر ، وبحث آخر في بحيرات مصر وصحاريها

رضي الله عنه سنة ٢٣ هجرية ، وكان يصل النيل بالبحر الاحمر يبدأ من مصر القديمة حيث يبتديء خليج مصر اليوم حتى القاهرة ومنها الى المطرية ومنها الى العباسية ثم يتبع آثار ترة الفراعنة القديمة التي كانت تخرج من فرع النيل البيلوزي القديم وتسير بمحاذاة وادي الطميلات ثم تنثني جنوباً فتخترق البحيرات المرة ثم تصب في البحر الاحمر

(١) قرب الزقازيق

(٢) شرق الموضع الذي به بورسعيد الآن

نشر في الجزء السادس عشر ، وقد رسم لوبيز الكبير خريطة الاسكندرية الحديثة
ورسم المسيو جراتيان لوبيز خريطة الاسكندرية القديمة وكتاتها مطبوعة في مصور
كتاب تخطيط مصر

جيرار « Girard »

١٧٦٥ — ١٨٣٦

زميل المسيو لوبيز كبير المهندسين ووكيله في ادارة أعمال الري ، درس
ترع القطر المصري ، وله رسالة بديعة عن حالة مصر الزراعية والصناعية والتجارية
نشرت في كتاب تخطيط مصر الجزء السابع عشر وانتخب عضواً في الجمع
العلمي الفرنسي

جومار

١٧٧٧ — ١٨٦٢

هو المسيو ادم فرنسوا جومار Edme François Jomard ولد سنة ١٧٧٧ وتعلم
الهندسة في مدرسة القناطر والجسور ثم في مدرسة الهندسة ، وجاء الى مصر ضمن
المهندسين الجغرافيين من أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وله في مصر أبحاث جغرافية
وأثرية على جانب كبير من القيمة ، وقد اشترك في رسم خريطة مصر ، وعاد الى فرنسا
سنة ١٨٠١ بعد مقتل الجنرال كليبر ، واشترك من سنة ١٨٠٣ في وضع كتاب
(تخطيط مصر) وكان عضواً من أهم أعضاء اللجنة التي ألقها الحكومة للعمل في وضع
هذا الكتاب الجليل ، وتولى تنظيم العمل بعد وفاة المسيو لانكري وقضى سبعة عشر
عاماً مشغولاً في اظهار الكتاب ، وله فيه أبحاث ممتعة هندسية وجغرافية وأثرية
شغلت عدة أجزاء من الكتاب ، ومن أهمها بحث مستفيض عن تخطيط القاهرة
القديمة والحديثة نشر في الجزء التاسع عشر منه ، وانتخب عضواً بالجمع العلمي
الفرنسي مكافأة له على أبحاثه في الآثار المصرية ، واشترك في انشاء الجمعية الجغرافية
بفرنسا ، وكان من يوم أن عاد من مصر لا يألو جهداً في دراسة الابحاث العلمية الخاصة

بها ، وفي سنة ١٨٢٦ تولى رئاسة أول بعثة مصرية أرسلها محمد علي الكبير الى فرنسا لتلقى العلوم في مدارسها فأمد تلاميذ هذه البعثة والبعثات التي تلتها برعايته العلمية والادبية ، وقد أنجبت هذه البعثات طائفة من علماء مصر الذين كان لهم فضل كبير في نهضتها ، وكان للمسيو جومار مكانة كبيرة عند محمد علي باشا وكذلك عند سعيد باشا ، وأنعم عليه بلقب بك فكان يعرف في مصر باسم « جومار بك » وأنعم عليه كذلك بالوسام المجيدى ، ولما أعيد انشاء المجمع العلمى المصرى أسندت اليه رياسته الفخرية سنة ١٨٦١ فكان صلة الاتصال الباقية بين المجمع العلمى المصرى القديم وبين الحديث ، وظل مكباً على أبحاثه العلمية الى أن توفى سنة ١٨٦٢ وله من العمر خمس وثمانون سنة ، وهو معدود في فرنسا من كبار علماء الجغرافية والآثار القديمة

فورييه « Fourier »

١٧٦٨ — ١٨٣٠

من علماء الرياضيات ، كان مدرساً في مدرسة الهندسة قبل انتظامه في سلك لجنة العلوم والفنون ، وانتخب سكرتيراً دائماً للمجمع العلمى ، وتولى رئاسة الادارة القضائية في أواخر عهد الحملة الفرنسية ، وله أبحاث ممتعة في كتاب تخطيط مصر وهو واضح مقدمة الكتاب ، أنعم عليه نابليون بركة بارون وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى سنة ١٨١٦ ثم عضواً باكاديمية الآداب سنة ١٨٢٧ وأقيم له تمثال في بلدة أوكسير Auxerre مسقط رأسه

لانكرى « Lancret »

١٧٧٤ — ١٨٠٧

من علماء الرياضيات ومن مهندسى القناطر والجسور ومن علماء الآثار ، وله أبحاث مستفيضة عن آثار الوجه القبلى وتخطيطها نشرت في كتاب تخطيط مصر . وله بحث جغرافى عن الفرع الكانوبى من فروع النيل القديمة نشر في الجزء الاول

من كتاب تخطيط مصر ، وتولى ادارة العمل لتأليف الكتاب بعد وفاة كوثى سنة ١٨٠٥ ومات هو سنة ١٨٠٧

كورانسز « Corrancez »

من خريجي مدرسة الهندسة العالية (السنترال) ، انتخب عضواً في المجمع العلمى المصرى خلفاً للجنرال كافريللى ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمى الفرنسى سنة ١٨١١ وله كتاب فى تاريخ الوهاية من بدء ظهورها الى سنة ١٨٠٩

جالوا « Jallois »

١٧٧٦ — ١٨٤٢

مهندس رى تخرج فى مدرسة الهندسة بفرنسا ، ومنقب فى الآثار ، وله « يوميات » عن الحملة ، وله عدة أبحاث عن الآثار المصرية نشرت فى كتاب تخطيط مصر

دقيليه « De Villiers »

١٧٨٠ — ١٨٥٥

مهندس قناطر ورى وآثار ، وله يوميات (١) دون فيها مشاهدته فى مصر خلال الحملة الفرنسية ، نشرها حفيده البارون مارك دى فيلييه ، وكان جالوا ودقيليه متلازمين فى أبحاثهما الاثرية ، وأبحاثهما المشتركة منشورة فى كتاب تخطيط مصر

الكولونل چاكوتان « Jacotin »

١٧٦٥ — ١٨٢٧

هو من المهندسين الجغرافيين الذين جاءوا مع الحملة وقد تولى رأستهم بعد مقتل كبيرهم المسيو تستفيود فى ثورة القاهرة ، وعهد اليه نابليون فى وضع خريطة مصر العامة

(١) يوميات وذكريات عن حملة مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١)

فاشترك في تخطيطها مع المهندسين الجغرافيين ومهندسى الرى في عهد الحملة الفرنسية ،
وهى عبارة عن مجموعة خرائط كبيرة مفصلة طبعت في مصورات كتاب تخطيط مصر
وقد تم وضعها بعد انسحاب الفرنسيين من مصر وقدمت الى نابليون (وكان قنصلا
أول) في شهر اكتوبر سنة ١٨٠٣ فأمر بطبعها على نفقة الحكومة الفرنسية واستدعى
ذلك جهداً كبيراً لاعداد معدات الحفر والطبع وتدوين أسماء البلاد والمواقع باللغة
الفرنسية والعربية ، والى الكولونل جا كوتان يرجع الفضل في إخراج هذه الخريطة
ولذلك نسبت اليه وصميت (خريطة جا كوتان) وهى مؤلفة من ٤٧ خريطة كبيرة
طوبوغرافية غاية في الدقة والتفصيل منها ٤٢ خاصة بمصر وخمس بالاقليم السورية
التي فتحها نابليون وثلاث خرائط أخرى جغرافية عن مصر وخريطة أخرى عامة تجمع
الخرائط الطوبوغرافية

والكولونل جا كوتان بحثان جغرافيان جليلان في كتاب تخطيط مصر الاول عن
تخطيط خريطة القطر المصرى نشر في الجزء السابع عشر ، والثانى عن مساحة القطر
المصرى نشر في الجزء الثامن عشر ، وقد عين وهو في مصر عضواً بالمجمع العلمى بالقاهرة

ديبوا ايمى Dubois Aymé

من مهندسى الحملة الفرنسية ، له بحث جغرافى مستفيض عن فروع النيل القديمة
نشر في الجزء الثامن من كتاب تخطيط مصر ، وله خريطة دقيقة عن تخطيط هذه
الفروع

نوى « Nouet »

١٧٤٠ — ١٨١١

من علماء الفلك ويعتبر أ كبر علماء الحملة الفرنسية في الفلك والميقات ، نشرت
أبحاثه الفلكية الخاصة بمصر في كتاب تخطيط مصر الجزء الاول ، وعلى بياناته اعتمد
مهندسو الحملة في وضع المصورات التي رسموها في مصر

نورى Norry

١٧٥٦ — ١٨٣٢

مهندس معمارى ، عينه نابليون رئيس مكتب الفنون ، وعاد الى فرنسا فى خلال الحملة لاعتلال صحته فخلفه فى المجمع العلمى المصرى المهندس المعمارى لوبير ، وله بحث مستفيض عن عمود السوارى نشر فى كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس ، وله رسالة عن الحملة الفرنسية (١) وله رسوم عديدة فى كتاب تخطيط مصر

لوبير Lepère

١٧٦٢ — ١٨٤٤

مهندس معمارى وهو الذى خلف نورى فى المجمع العلمى وله رسوم كثيرة فى كتاب تخطيط مصر

علماء الطبيعيات

برتوليه Berthollet

١٧٤٨ — ١٨٢٢

عالم من كبار علماء الكيمياء ، يضارع فى شهرته الكيميائى الشهير لافوازيه ويليه فى المنزلة ، وهو صديق حميم للمسيو مونج ، وقد اشتركا معا فى تأسيس مدرسة الهندسة بباريس ، واليهما عهد نابليون اختيار علماء الحملة الفرنسية ، وكان من أعضاء المجمع العلمى الفرنسى قبل حضوره الى مصر صحبة نابليون ، وبعد رجوعه الى فرنسا دأب على ابجائه واكتشافاته فى الكيمياء وله فيها نظريات واكتشافات وابحاث ومؤلفات جعلته فى عداد كبار علماء الكيمياء

(١) تاريخ حملة مصر . وهي رسالة وجيزة طبعت سنة ١٧٩٩ بباريس اذ عاد اليها قبل انتهاء الحملة

جوفروا سان هيلير Geoffroi Saint Hilaire

١٧٧٢ — ١٧٤٤

هوأتين جوفروا سان هيلير، عالم كبير في التاريخ الطبيعي ومن أساتذة حياة الحيوان في معهد التاريخ الطبيعي بباريس ، وزميل كوفيه Cuvier ولامارك Lamark في العلوم الطبيعية ، وله أبحاث مستفيضة ورسوم عديدة في حيوانات مصر وحشراتنا واسماكها ، عين بعد عودته من مصر استاذا لعلم الحيوان في السوربون علاوة على تدريسه في معهد التاريخ الطبيعي ، وانتخب عضوا بالمجمع العلمي الفرنسي وله شهرة عالمية في التاريخ الطبيعي ، وله رسائل عن مشاهداته في مصر جمعت وطبعت سنة ١٩٠١ باسم (رسائل من مصر)

سافيني Savigny

١٧٧٧ — ١٨٥١

عالم في التاريخ الطبيعي ومساعد لوفروا في أبحاثه بمصر ، درس حيوانات مصر وطيورها وحشراتنا ونباتها ، وله فيها أبحاث مستفيضة ورسوم عديدة غاية في الدقة طبعت في كتاب (تخطيط مصر) وانتخب عضوا بالمجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨٢١ ، وضحى ببصره في سبيل بحوثه ورسومه

دولوميو Dolomieu

١٧٥٠ — ١٨٠٢

من علماء طبقات الارض والمعادن ، كان استاذا في مدرسة المناجم وعضوا بالمجمع العلمي الفرنسي قبل مجيئه الى مصر ، عاد الى فرنسا اثناء الحملة لمرض اصابه ، وانكسرت به السفينة التي تقله وجنحت على شاطئ (تارنت) جنوب ايطاليا فأمر وألقي في السجن وبقى سجينا الى أن انتصر نابليون في معركة مارنيجو سنة ١٨٠١ فجعل اطلاق سراحه من شروط الصلح ، ولكن صحته ساءت من اثر السجن فلم

يعش بعد خروجه طويلاً ، وكتب في السجن رسالة في فلسفة علم المعادن وهي من أهم مؤلفاته

دليل Delile

١٧٧٨ — ١٨٥٠

هو العالم دليل المشهور في علم النبات ، وله في النباتات المصرية كتاب يرجع اليه العلماء ، عين مديراً لحديقة النباتات في القاهرة (في عهد منو) واشترك في وضع كتاب تخطيط مصر ، وتولى التدريس في كلية العلوم بمونبلييه بفرنسا ، وهو أول من درس نباتات مصر في العصر الحديث وله فيها رسوم بديعة ، واكمل عمله من بعده العلماء في عصر محمد علي

كوني Conlé

١٧٥٥ — ١٨٠٥

عالم كيميائي وميكانيكي ومبتكر لطائفة من المخترعات الميكانيكية ، استخدم المناطق في حروب الثورة الفرنسية قبل مجيئه الى مصر وعين قومنداناً لكتيبة الطيران ومديراً لمدرسة الطيران في مودون Meudon ، ولما جاء الى مصر أسس عدة مصانع تولى ادارتها ، وأنشأ طواحين الهواء في القاهرة ، وأنشأ مصنعا ميكانيكيا ، وعهد اليه نابليون صب أحرف الطباعة وكان يعتمد عليه كثيراً في استثمار موارد مصر الطبيعية لاستيفاء حاجات الجيش وبخاصة بعد تحطيم العمارات الفرنسية في واقعة (أبو قير) ، وقد شرع في صنع منطاد يطير في القاهرة ، لكنه لم يوفق في طيراته ، وروى الجبرتي حكاية هذا المنطاد وما صار اليه من الفشل ، وشبهه بالطيارة التي يعملها الفراشون في المواسم والافراح ، قال في هذا الصدد

» وفي عشرين جمادى الثانية سنة ١٢١٣ (١) كتبوا (٢) عدة أوراق مطبوعة

(١) يوافق ٢٩ نوفمبر سنة ١٧٩٨ (٢) الفرنسيون

والصقوها بالاسواق مضمونها انه في يوم الجمعة حادى عشرينه قصدنا أن نطير مركبا ببركة (ميدان) الازبكية في الهواء بحيلة فرنساويه ، فكثرت لفظ الناس في هذا كعادتهم ، فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع الناس والكثير من الافرنج ليروا تلك العجيبة، وكنت بجملتهم ، فرأيت قماشاً على هيئة الاوية على عمود قائم ، وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثال دائرة الغربال ، وفي وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الادهان ، وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها الى الدائرة ، وهى مشدودة بيكر وأحبال ، وأطراف الاحبال بأيدي أناس قائلين بأسطحة البيوت القريبة منها ، فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة فصعد دخانها الى ذلك القماش وملأه ، فالتفتخ وصار مثل الكرة ، وطلب الدخان الصعود الى مركزه فلم يجد منفذاً ، فجذبها معه الى العلو ، فجذبوها بتلك الاحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الارض ، فقطعوا تلك الاحبال ، فصعدت الى الجومع الهواء ، وهشت هنيهة لطيفة ثم سقطت طارتها بالفتيلة ، وسقط أيضاً ذلك القماش ، وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الاوراق المبصومة ، فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير في الهواء بحكمة مصنوعة ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها الى البلاد البعيدة لكشف الاخبار وارسال المراسلات، بل ظهر أنها مثل الطيارة التي يعملها الفراشون بالمواسم والافراح...» (١)

وقد أعاد المسيو كونتى تجربة المنطاد لكنه أخفق في تجربته الثانية، قال الجبرتى في هذا الصدد « وفي يوم الاربعاء ٩ شعبان سنة ١٢١٣ (٢) كتبوا أوراقا بنطير طيارة ببركة الازبكية مثل التى سبق ذكرها وفسدت ، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر وطيروها ، وصعدت الى الاعلى ومرت الى أن وصلت تلأل البرقية وسقطت،

(١) الجبرتى الجزء الثالث

(٢) يوافق ١٦ يناير سنة ١٧٩٩

ولو ساعدها الريح وغابت عن الاعين لتمت الحيلة وقالوا انها سافرت الى البلاد البعيدة برزعمهم (١) »

ولما رجع كوتقى الى فرنسا بذل جهداً كبيراً في اخراج كتاب تخطيط مصر وهو الذى تولى اعداد معدات طبع خرائطه ورسومه ومصوراته العديدة

شامبي « Champy »

عالم في الكيمياء ومدير مصنع البارود الذى أنشأه الفرنسيون في الروضة ، وبعد انتهاء الحملة عين في فرنسا مديراً لمصانع البارود بها ومات سنة ١٨١٦ وابنه شامبي الصغير كان يعاونه في مصر ومات بها بالطاعون سنة ١٨٠١

ديكوتيل « Descotils »

١٧٧٣ — ١٨١٥

عالم في الكيمياء عين بعد الحملة الفرنسية كبيراً لمهندسى المناجم بفرنسا

روزيير « Rozière »

مهندس مناجم له أبحاث مستفيضة عن أحجار مصر ومعادنها وجيولوجيتها نشرت في كتاب تخطيط مصر وقد رسم أحجارها وصخورها ومعادنها

الاقتصاديون

بوسليج « Poussielgue »

ولد في باريس سنة ١٧٦٤ وتقلد بعض المناصب المالية في عهد الثورة الفرنسية وكان قوميسيراً للإيرادات سنة ١٧٩٤ وفي سنة ١٧٩٥ عين مكرتيراً للوزير فيبول Faypoult ، وجاء الى مصر ضمن الحملة الفرنسية مراقباً لنفقات الجيش، وعهد اليه نابليون ادارة الشؤون المالية ، وكان يثنى عليه ، لكنه غضب عليه بعد عودته الى

فرنسا لما اطلع على رسائله الى حكومة الديركتوار انتقد فيها سياسته ، ولما عاد الى فرنسا أهمله نابليون ، ويسميه الجبرتي بوسليك مدير الحدود ويعبر عنه بالروزنامي

استيف « Esteve »

مدير خزانة الحملة أولاً ثم مدير الشؤون المالية في أواخر عهد الحملة الفرنسية وقد درس مالية الحكومة في عهد الماليك وكتب عنها بحثاً مستفيضاً في كتاب تخطيط مصر

تاليان « Tallien »

١٧٦٧ — ١٨٢٠

هو أحد أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية وخصم روبسبير الشهير ومثير غبار الحملة التي انتهت باسقاطه في الجمعية الوطنية (١) وانتظم في سلك أعضاء لجنة العلوم والفنون وعهد اليه نابليون وقتاً ما بمهمة مندوب (قوميسير) لدى الديوان ، فكان بمثابة جاسوس على أعضائه ، لكنه لم يكن موضع ثقة نابليون ولا احترامه ، وغادر مصر في عهد الجنرال منو وقد بعد عودته الى فرنسا مكاتته السياسية

القواد والضباط

كافريلي « Caffarelli »

هو الجنرال كافريلي ، من اسرة ايطالية استوطنت فرنسا في عهد لويس الثالث عشر ، وهو من أكفأ قواد الجيش الفرنسي واغزرهم علماً ، ضرب بسهم وافر في الفلسفة والتشريع ، وقاتل في حروب الثورة الفرنسية وقد احدى قدميه في حصار ما يانس Mayence سنة ١٧٩٥ فجاء مصر بقدم واحدة ، ولذلك يسميه الجبرتي « كفرلي المسمى بأبي خشبة » وقد اختاره نابليون رئيساً لفرقة المهندسين في الجيش ، وهو مركز

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا الجمعيات الوطنية ص ٦٥

يتطلب كفاية فنية كبيرة وهو من افراد الحملة القلائل الذين تكلم عنهم الجبرتي بالاسم ،
واليك ماقله في صده : « ومن جملة من انتقل من الدرب الاحمر الى الازبكية
كفرلى المسمى بأبي خشبه ، وهو يمشى بها بدون معين ، ويصعد الدرج ويهبط منها
أسرع من الصحيح ، ويركب الفرس ويرمحه . . . وهو على هذه الحالة ، وكان من
جملة المشار اليهم فيهم والمدبر لأمر القلاع وصفوف الحروب ، ولهم به عناية عظيمة
واهتمام زائد » (١) وقد قتل في حصار عكا كما سيجىء بيانه في الفصل الثاني من
الجزء الثانى

الجنرال اندريوسى « Andreossi »

١٧٦١ — ١٨٢٨

من القواد ومن رجال السياسة معاً ، وله أبحاث ورحلات جغرافية في مصر أهمها
رحلاته الى بحيرة المنزلة ووادى النطرون ، وقد كتب عنها أبحاثاً تلاها في المجمع
العلمى ونشرت في كتاب تخطيط مصر الجزء الحادى عشر والثانى عشر
عاد الى فرنسا مع نابليون وعاونته على قلب نظام الديركتوار وعينه بعد معاهدة
(أميان) سفيراً لفرنسا في لندن ثم في فيينا ثم في الاستانة حيث بقى بها الى سنة ١٨١٤
واقتخب عضواً في أكاديمية العلوم (المجمع العلمى) وفي مجلس النواب

هوراس ساي « Horace Say »

رئيس أركان حرب فرقة الهندسة ، كان أستاذاً لفن الاستحكامات في مدرسة
الهندسة بفرنسا ، وهو أخوجان باتست ساي العالم الاقتصادى المشهور ، ومن أكفأ
ضباط الجيش الفرنسى وأكثرهم علماً ، وله عدة رسائل في المجمع العلمى المصرى عن
الحالة الاقتصادية والطوبوغرافية في مصر ، قتل في حصار عكا

مالوس - « Malus »

١٧٧٥ — ١٨١٢

عالم في الطبيعيات وضابط كبير في الجيش الفرنسي ، تلقى العلوم في مدارس الهندسة بفرنسا وانتظم في سلك فرقة الهندسة بالجيش ، وجاء الى مصر ضمن هذه الفرقة ، وكان صديقاً للجبرال كافريللي وتلميذاً للعلامة مونج ومعدوداً من أعضاء المجمع العلمي المصري النابيين ، ولما عاد من مصر ظل في فرقة الهندسة مع اشتغاله بالابحاث الطبيعية ، وله فيها رسائل ومؤلفات عظيمة القيمة ، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨١١ بقسم الطبيعيات ، وله يوميات ^(١) عن الحملة الفرنسية نشرت سنة ١٨٩٢ تحوى وقائع الحملة الى جلاء الفرنسيين عن مصر ، وله عدا ذلك « أفكار » ضمنها خواطره في مصر

الاطباء والجراحون

ديجننت « Desgenttes »

١٧٦٢ — ١٨٣٧

كبير اطباء الحملة الفرنسية في ايطاليا وفي مصر ، وله عدة ابحاث طبية عن مصر ، وله كتاب قيم اسمه « التاريخ الطبي لجيش الشرق » ، وقد وضع في مصر رسالة في مرض الجدري طبعها في المطبعة العربية التي احضرها الفرنسيون وأهداها الى أعضاء الديوان وهي الرسالة التي يشير اليها الجبرني بقوله :

« وفي شعبان سنة ١٢١٥ أرسل رئيس الاطباء الفرنسيين نسخاً من رسالة ألفها في علاج الجدري لارباب الديوان لكل واحد نسخة على سبيل المحبة والهدية ليتناقلها

(١) يوميات مالوس « Agenda de Malus »

الناس ويستعملوا ما أشار اليه فيها من العلاجات لهذا الداء المضال ، فقبلوا منه ذلك وأرسلوا له جواباً شكرياً له على ذلك ، وهي رسالة لا بأس بها في بابها « (١) »
وله احصاءات دورية عن وفيات القاهرة في مدة الحملة الفرنسية نشرت في كتاب تخطيط مصر الجزء السادس عشر ، ومنح بعد الحملة لقب بارون وعين كبير اطباء الانفاليد

لارِي « Larrey »

١٧٦٦ — ١٨٤٢

كبير جراحي الحملة الفرنسية وله شهرة عالمية في الطب والجراحة ، وظل بعد الحملة كبير جراحي الجيش الفرنسي في عهد نابليون وكان موضع ثقته وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي وبأكاديمية الطب ، وأنعم عليه نابليون برتبة بارون فصار يعرف بالبارون لاري ، وهو من كبار الاساتذة في العلوم الطبية ، عين كبيراً لجراحي مستشفى الانفاليد ، وله مؤلفات عظيمة في الطب والجراحة منها كتاب خاص بمصر نشر سنة ١٨٠٣

وله في كتاب تخطيط مصر الجزء الثالث عشر ابحاث مستفيضة عن الامراض الخاصة بمصر

ديبوا « Dubois »

١٧٥٦ — ١٨٣٧

من نوابغ الاطباء في الجراحة وبخاصة الولادة ، ولم يطل مكثه في مصر أمداً

(١) الجبرتي الجزء الثالث . وجاء في كتاب (التاريخ الطبي لجيش الشرق)
لمؤلفه الدكتور ديمجت أنه أهدى ٢٥٠ نسخة من رسالته في الجديري الي
الديوان و ٥٠ نسخة الى الست نفيسة المرادية

لمرضه فعاد الى فرنسا وخلفه في المجمع العلمي الجراح لاري وضار ديبوا طبيب نابليون الخالص .

الادباء والمترجمون والفنانون

فيغان دينون « Vivant Denon »

١٧٤٧ — ١٨٢٧

كاتب وفنان ، صاحب نابليون في حملة مصر وعاد بمجموعة نفيسة من الصور التي رسمها ، وله في رحلته بمصر كتاب نفيس « رحلة في الوجه البحري ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بوناپارت » نشر بعد عودته من مصر وطبع لأول مرة سنة ١٨٠٢ وأهداه الى نابليون وكان اذ ذاك « قنصلاً أول »

وأهمية هذا الكتاب راجعة الى المصور الكبير الملحق به ويتضمن رسوماً عظيمة القيمة عن مصر والآثار المصرية جعلت لكتابه مكانة كبيرة وترجم الى الانجليزية والالمانية .

وقد رسم في كتابه بعض معارك الحملة الفرنسية التي شهدا ورسمها أثناء وقوعها وكان دينون من المولعين بالفنون الجميلة وتولى في عهد امبراطورية نابليون ادارة المتاحف وانتخب عضواً في المجمع العلمي الفرنسي

فاتتور « Venture »

هو المستشرق فاتتور أكبر أعضاء المجمع العلمي سنا وكبير تراجمة الحملة الفرنسية ومستشار نابليون ومرجه في المسائل الخاصة بالشرق والشرقيين ، قضى نحو أربعين سنة في بلاد الشرق وكان قبل حضوره لمصر مترجماً لسفارة فرنسا في الاستانة ، ثم مترجماً للحكومة الفرنسية في اللغات الشرقية ومدرساً للتركية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ومن تلاميذه المسيو مارسيل والمسيو جوير وسيأتي ذكرهما ، مات بالسنطاريا في الحملة على سوريا ونعاه نابليون الى الديوان ، وذكره الجبرتي في كتابه

القال عنه « إن فاتتوره هنا ترجمان ماري عسكر وكان ليبياً متبحراً يعرف اللغات
تركية والعربية والرومية والطللياني والفرنساوي »

مارسل « Marcel »

١٧٧٦ — ١٨٥٤

هو المستشرق مارسل مدير المطبعة الفرنسية والعربية التي أحضرها نابليون الى
مصر، وقد درس اللغة العربية واشترك في تأليف كتاب تخطيط مصر وكتاب
التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية، وله رسالة عن المارستان الكبير بالقاهرة
ويسميه الناصري نسبة للملك الناصر محمد بن قلاوون الذي أتم بناءه، وله أبحاث
مستفيضة عن مقياس الروضة وعن الآثار العربية بمصر وما عليها من الخطوط الكوفية
منشورة في الجزء الخامس عشر من كتاب تخطيط مصر، وكان في خلال الحملة الفرنسية
مديراً للمطبعة الاهلية التي أنشأها نابليون وعضواً بالمجمع العلمي بالقاهرة، وعين بعد
عودته من مصر مديراً للمطبعة الاهلية بفرنسا

جوير « Jaubert »

١٧٧٩ — ١٨٤٧

اختاره نابليون كبيراً لتراجمة الحملة الفرنسية بعد وفاة المستشرق فاتتور، وله بحث
عن العرب وقبائلهم في مصر منشور في الجزء السادس عشر من كتاب تخطيط مصر،
وعين بعد الحملة مدرساً للتركية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ثم مدرساً للفرسية
في الكوليج دي فرنس ثم ناظراً لمدرسة اللغات الشرقية

برسفال دجرنمزيون Perseval De Grandmaison

١٧٥٩ — ١٨٣٤

عضو بالأكاديمية الفرنسية، عين وقتاً ما في عهد الحملة الفرنسية مديراً لمحرك

السويس وغادر مصر ضمن من صحبوا نابليون في عودته الى فرنسا

رفائيل

قسيس شرقي عين « ترجماناً أول » للديوان وبعد الحملة عين مدرساً للعربية
الدارجة في مدرسة اللغات الشرقية بباريس

فيلوتو « Villoteau »

١٧٥٩ — ١٨٣٩

موسيقى فنان، برع في فنون الموسيقى علماً وعملاً ودرس في مصر الموسيقى المصرية
القديمة والحديثة والموسيقى الشرقية في مختلف بلاد الشرق، وله في ذلك أبحاث
مستفيضة شغلت بعض الجزء السادس ومعظم الجزء الثالث عشر وكل الجزء الرابع عشر
من كتاب تخطيط مصر

ريجو « Rigo »

هو الرسام ريجو، ويسميه الجبرتي « أريجو » وهو الذي عهد اليه نابليون باقامة
أقواس النصر والاعمدة في ميدان الازبكية احتفالاً بعيد الجمهورية سنة ١٧٩٨ ورسم
الرسوم الفنية على قواعدها، وعهد اليه نابليون أيضاً برسم رجالات مصر في ذلك
العصر على اختلاف مراكزهم وأزيائهم، وترى هذه الرسوم في كتاب (تخطيط مصر)

ردوتيه « Redouté »

مصور في التاريخ الطبيعي واخو المصور المشهور « ردوتيه » الملقب بمصور الزهور،
رسم معظم حيوانات مصر وأسمائها، وتزين رسومه البديعة كتاب (تخطيط مصر)

دوترتي « Dutertre »

١٧٥٣ — ١٨٤٢

رسم معظم أعضاء لجنة العلوم والفنون، وترى صور النابيين منهم في كتاب

« يوميات » السيد فيلييه De Villiers المتقدم ذكره وله رسوم عديدة عن الآثار المصرية القديمة في كتاب (تخطيط مصر)

أعمال المجمع العلمي

هي المسائل التي بحثتها هيئة المجمع وكذلك أعمال أعضائه جماعة أو فرادى في المدة التي اقتصت بين تأسيس المجمع ورحيل الفرنسيين ، وهي الاعمال التي نستعرضها في هذا البيان

كانت أولى جلسات المجمع العلمي يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ (١) ، فاجتمع الاعضاء وانتخبوا السيد مونيخ العالم الرياضي رئيساً للمجمع ، ونابليون بونابارت نائب الرئيس ، وفورييه سكرتيراً دائماً ، وكوستاز نائب السكرتير ، وعرض نابليون على المجمع في هذه الجلسة درس المسائل الآتية

أولاً — ماهي الوسائل التي يمكن اتباعها لتدبير مواد الوقود اللازمة لافران الجيش وقد أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه وكافاريلي ومونيخ وساي ثانياً — هل يوجد وسيلة يمكن اتباعها في مصر لاستبدال حشيشة الدينار في صنع البيرة

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه ، وكوستاز ، وديجنيت وجلوتييه ثالثاً — ماهي الوسائل الناجعة لترشيح وتبريد ماء النيل

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من برتوليه ، وكوستاز ، ومونيخ ، وفاتور المسألة الرابعة — ما هو الانفع للبلاد بحسب الحالة الراهنة في مصر طواحين الماء أم طواحين الهواء ؟

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من اندريوسى ، وكافاريلي ، وكوستاز ، ومالوس ، وساي

المسألة الخامسة — هل فى مصر مواد أولية لصنع البارود وما هى هذه المواد ؟
أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من اندريوسى ، وبرتوليه ، ومالوس ،
ومونج ، وفاتور

المسألة السادسة — ما هى حالة التشريع والقضاء المدنى والجنائى فى مصر ؟ وحالة
التعليم ؟ وما هى الاصلاحات التى يمكن ادخالها على هذه النظم ويرغب
أهالى البلاد

أحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من كوستاز ، وسولكوسلى ، وسوسى ، وقاليان
وعرضت على المجلس فى جلسات متعاقبة مسائل أخرى فنية لدراسنها ، كالوسائل
التي يجب اتخاذها لزراعة العنب فى مصر ، ودرس طريقة زراعة القمح فى مصر
ومقارنتها بطريقة زراعته فى أوروبا ، وتموين القلعة بمياه النيل والتدرع الى ذلك
باصلاح قناطر السباع ، وحفر الآبار فى الصحراء ، والاستفادة من المواد المتخلفة من
مدينة القاهرة وسائر مدن القطر المصرى ، وانشاء مرصد ، وبحث هزات البرز
المغناطيسية فى مصر

وبحث نابليون كذلك فى امكان جلب الاخشاب من الحبشة بطريق النيل
لصناعة السفن فى مصر

وكان أعضاء المجمع العلمى وبعثة العلوم والفنون لا يدخرون وسعاً فى متابعة
جهودهم العلمية فى مختلف الفروع والفنون ، فأنشأوا فى المجمع مكتبة تحوى أنفس الكتب
التي أحضروها من فرنسا أو جمعوها من خزائن الكتب فى القاهرة ، وأنشأوا به
معملاً للطبيعة والكيمياء جهزوه بالآلات والادوات الخاصة بدراسة العلوم الطبيعية
 والرياضية ، وأخذوا يجوبون البلاد ، فاكشفوا الآثار وأزاحوا الستار عن عظمة
مصر القديمة ، ورسموا خرائط مفصلة للبلاد ونيلها وترعها وسواحلها ، وبحثوا فى طبائع
الحوانات والنباتات والمعادن المصرية ، ودرسوا مياه النيل وطبيعته وطبقات الارض ،
وجابوا واحاتها وبحيراتها

الطباعة

وأنشأوا بالقاهرة مطبعة عربية وفرنسية وهي التي أحضرها نابليون الى مصر بعد أن جمع لها الاحرف الفرنسية والعربية واليونانية من باريس واستكمل لها الاحرف العربية من مطبعة البروجندا بروما ، وعهد بإدارتها الى المسيو مارسيل المستشرق أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وجعل للمستشرق فانتور الاشراف على مطبوعاتها (١) وكانت تسمى (مطبعة جيش الشرق) ولما نقلت من الاسكندرية الى القاهرة أمر بتسميتها (المطبعة الاهلية) واتخذ لها دار عثمان بك الاشقر بالازبكية هلى مقربة من بيت الالفي الذي سكنه نابليون ، ثم نقلت الى الجيزة أثناء ثورة القاهرة الثانية ، ثم الى القلعة الى أن حلا الفرنسيون عن مصر ، وفي هذه المطبعة كانت تطبع منشورات نابليون بالعربية وجريدة الكورييه دليجبت ، والديكاد ، وبعض المطبوعات العربية والفرنسية

وكان للفرنسيين مطبعة أخرى خاصة حروفها افرنجية فقط لصاحبها المسيو مارك أوريل Marc Aurel طبعت الاعداد الاولى من جريدة (كورييه دليجبت) الى أن نقلت المطبعة الرسمية من الاسكندرية الى القاهرة ، ولما عاد مارك أوريل الى فرنسا في خلال الحملة باع مطبعته الى الحكومة

و (المطبعة الاهلية) هي أول مطبعة أنشئت في مصر في العصر الحديث ، وقد أخذها الفرنسيون معهم عند جلائهم عن البلاد ، ولم تعد الطباعة الى مصر الا في عهد محمد علي الكبير

(١) ورد في أمر نابليون الرقيم ١٤ يناير سنة ١٧٩٩ المنشور في (مراسلات نابليون) الجزء الخامس انه جعل المسيو فانتور مفتشاً للمطبعة بحيث لا يطبع فيها شيء الا بأمره

الصحافة

وأنشأوا جريدتين فرنسيتين أحدهما سياسية والاخرى علمية ، فالاولى هي جريدة « كورييه دليجبت » *Courier de l'Egypte* (الجوائب المصرية) وهي جريدة سياسية تصدر بالفرنسية كل أربعة أيام في أربع صفحات من القطع الصغير ، طبع منها بمطبعة مارك أوريل الثلاثون عدداً الاولى ، ثم طبع باقي ما ظهر منها في المطبعة «الاهلية» وصدر منها ١١٨ عدداً ، ظهر العدد الاول منها في ١٢ فركتيدور من السنة السادسة للجمهورية (٢٩ أغسطس سنة ١٧٩٨) والاخير في يونيه سنة ١٨٠١ قبيل جلاء الفرنسيين عن البلاد ، وتولى تحرير الاعداد الاولى المسيو كوستاز *Costaz* أحد أعضاء المجمع العلمى ، ثم فوريه سكرتير المجمع ثم ديجنت *Desgenettes* كبير أطباء الحملة ، وكانت هذه الجريدة هي الصحيفة شبه الرسمية للحملة الفرنسية

وجريدة « لاديكاد اجيبسين » *La Decade Egyptienne* (العشرية المصرية) تصدر مرة كل عشرة أيام ، وهي جريدة علمية اقتصادية تنشر أبحاث المجمع العلمى ومناقشات أعضائه ، صدر العدد الاول منها في اكتوبر سنة ١٧٩٨ وتولى تحريرها وإدارتها الدكتور ديجنت وكانت تطبع في المطبعة الاهلية (١)

الاعمال الصحفية

وأنشأوا محاجر صحية في القاهرة (بجزيرة بولاق) والاسكندرية ودمياط ورشيد (٢)

(١) عزم الجنرال منو في أواخر عهد الحملة الفرنسية على إصدار جريدة عربية باسم « التنبيه » لكنها لم تظهر ولم يحقق عزمه كما تراه في الفصل الحادى عشر من الجزء الثانى من الكتاب

(٢) ذكر الجبرتي محجر القاهرة بقوله « ان الفرنسيين عملوا (كرتيله) بجزيرة بولاق وبنوا هناك بناءً يحجزون به القادمين من السفار أياما معدودة

وأمر نابليون بإنشاء مستشفى عسكري في قصر مراد بك بالجيزة ثم عدل منه ونقل المستشفى الى قصر ابراهيم بك تجاه الروضة (مكان مدرسة الطب الآن) ، لكن هذا المستشفى كان خاصاً بالجنود الفرنسية، وأنشأ عدة مستشفيات أخرى عسكرية خاصة بالجنود أيضاً ، وفكر في انشاء مستشفى للوطنيين ، وألف لهذا الغرض لجنة من الجنرال كافريللى والطبيبين ديجنيت ولارى والعالمين مونج وبرتوليه والمسيو دور Daure مدير مهمات الجيش لفحص هذا المشروع ، فأخذت اللجنة تدرس المشروع وبحث حالة المستشفى الذى كان بالقاهرة قبل الحملة الفرنسية وهو المسى بالمارستان الكبير المنصوري الذى أسسه الملك المنصور قلاوون وأتمه ابنه الملك الناصر سنة ٧١٠ هجرية (١٣١٠ ميلادية) وأجرى عليه سلاطين مصر الاوقاف والهبات من عهد انشائه ، وكان في عهده الاول مستشفى كبيراً من أعظم المستشفيات شأننا وكان يلحق به مدرسة لتخريج الاطباء في مصر ، ولكن حالته اضمحلت في عهد الحكم العثماني والبكوات المماليك حتى آل أمره الى التدهور والتلف ، وقد زاره الدكتور ديجنيت كبير أطباء الحملة الفرنسية مصحوباً بالشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان وقدم تقريراً الى نابليون (١) عن سوء حالته وسوء حالة المرضى الذين كانوا يعالجون به، وأشار بإنشاء مستشفى جديد في بيت عثمان بك الطنبورجى ببركة الفيل ، واقترح كذلك انشاء مدرسة للطب تلحق بالمستشفى ، لكن المشروع لم ينفذ شيء منه في عهد الحملة الفرنسية

ومما تجب الإشارة اليه أنه كان بالقاهرة مستشفيات أخرى موجودة من قبل مجيء الحملة الفرنسية ، فقد ذكر المسيو جومار أحد مهندسى الحملة في بحثه الممتع عن تخطيط القاهرة (٢) انه كان بالقاهرة مستشفى للنساء أنشأه الامير عبد الرحمن كتحدا

كل جهة من الجهات القبلية والبحرية » وذكر الدكتور لارى كبير جراحي الحملة انهم أنشأوا محجراً آخر في جزيرة الروضة خاصاً بالوباء

(١) في ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨

(٢) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

بالقرب من شارع تحت الربع ، وكان به ٢٦ من المريضات، وكان يطلق عليه اسم (تكية) ، وقد تكلم العلامة علي باشا مبارك عن هذه التكية في خطه التوفيقية وقال ان الظاهر انها تكية الجلشانية^(١) ويقول المسيو جومار أيضاً انه كان بالقاهرة تكايا أخرى للرضى وهى تكية الحبانبة وتكية الاعجام بشارع الصليبة، وقد زار هذه التكية ورأى بها ١٦ مريضاً ، وتكية بشارع سوق السلاح ، وأخرى بشارع قيسون ويدخل في الاعمال الصحية التى أجراها الفرنسيون ماقرروه من انشاء لجنة لادارة الشؤون الصحية فى القاهرة ومصر القديمة وبولاق ووضع اللوائح لنظافة المدينة وتقرير الوسائل الصحية فيها

أعمال اخرى

ومما عمله أعضاء المجمع العلمى أنهم أنشأوا طواحين الهواء^(٢) ، احداها فى جزيرة الروضة والثانية بباب الحديد على التل المجاور لقنطرة الليمون وفى ذلك يقول الجبرتى « ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون ، وجعلوا فى أعلاه طاحوناً تدور فى الهواء عجيبة وتطحن الارادب من البر وهي بأربعة أحجار وطاحوناً أخرى بالروضة تجاه مساطب النشاب » وظاهر من عبارة الجبرتى انه لم يكن رأى طواحين الهواء من قبل فظن أن الفرنسيين استحدثوها ، على أن طواحين الهواء لم تكن ابتكاراً من الفرنسيين بل كانت موجودة فى مصر قبل الحملة الفرنسية ، فقد ذكر المسيو سان جنيس Saint Genis أحدهم مهندسى الحملة^(٣) أنهم وجدوا بالاسكندرية على شاطئ البحر فى شبه جزيرة راس التين طاحوناً تدار بالهواء بثمانى أجنحة ، ووصف المهندس جراتيان لوبير Gratién Le Père زميل المسيو سان جنيس هذه الطاحون وتراها مرسومة بخريطة الاسكندرية الملحقه بكتاب تخطيط مصر، ويقول المسيو جيرار

(١) الخطة التوفيقية الجزء الاول

(٢) انشأها المسيو كونتى Conté

(٣) كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس

Girard أحد مهندسى الحملة انه كان بالاسكندرية قبل الحملة الفرنسية سبع أو ثمانى طواحين هواء (١)

وأصلحوا دارالصناعة (الترسانة) التى أنشأها مراد بك فى الجزيرة لصنع المدافع والسفن والآلات الحربية ، وعنى بإصلاحها المسيو كونتى والمسيو شامبى Champy وولده

وانشأوا مصنعاً للبارود فى جزيرة الروضة وعهدوا بإدارته للمسيو شامبى يعاونه فيه ابنه الذى مات بالطاعون

وانشأوا مصنعاً للجوخ وآخر لصنع القبعات وآخر لصناعة البيرة وآخر لدبغ الجلود .

وانشأوا مصنعاً ميكانيكياً ومصنعاً للنجارة زارهما الجبرتنى ووصفهما بقوله : « وأفردوا أيضاً مكاناً للنجارين وصناع الآلات والاختشاب وطواحين الهواء والعربات واللوازم لهم فى أشغالهم وهندساتهم وأرباب صنائعهم ، ومكاناً آخر للحدادين بنوا فيه كوانين عظاما وعليها منافيخ كبار يخرج منها الهواء متصلاً كثيراً بحيث يجذبه النافخ من أعلى بحركة لطيفة ، وصنعوا السندانات والمطارق العظام لصناعات الآلات من الحديد والمخارط ، وركبوا مخارط عظيمة نخرط القلوزات الحديدية العظيمة ، ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم الخراط للحديد بالاقلام المتينة الجافية ، وعليها حق صغير معلق مثقوب وفيه ماء يقطر على محل الخراط لتبريد النارية الحادثة من الاصطكاك ، وبأعلى هذه الامكنة صناع الامور الدقيقة (الميكانيكيون) مثل البركارات (البراجل) وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة وغير ذلك »

وأصلحوا بناء المقياس مما أصابه حين القتال من العطب ، تولى المسيو لويير « Le Père » كبير مهندسى الرى فى عهد الحملة ترميمه ، وجعلوا للمقياس باباً

خارجياً تقشوا فيه بالعربية والفرنسية ما يشير الى هذا الترميم الذي تم في عهد الجنرال منو، وقد أرسل الديوان كتاب شكر للجنرال منو وآخر للمسيو لويير، وتجد نص الكتاب الاخير في قسم الوثائق التاريخية تعلقناه عن كتاب تخطيط مصر، وقد ذكر الجبرتي اصلاح بناء المقياس في حوادث سنة ١٢١٥ هجرية فقال في هذا الصدد « ومنها انهم غيروا معالم المقياس وبدلوا أوضاعه، وهدموا قبته العالية، والقصر البديع الشاهق، والقاعة التي بها عمود المقياس، وبنوها على شكل آخر لا بأس به، لكنه لم يتم وهي على ذلك باقية الى الآن، ورفعوا قاعة العمود العليا ذراعاً، وجعلوا تلك الزيادة من قطعة رخام مربعة ورسموا عليها من جهاتها الاربع قراريط النراع » وأقاموا جسراً من المراكب من القصر العيني الى الروضة وجسراً آخر كبيراً من الروضة الى الجزيرة تم وضعه في أثناء الحملة على سوريا، وكانوا معجبين بجمال جزيرة الروضة وحسن موقعها حتى فكر نابليون في أن يجعلها مقراً للعالية الفرنسية وينشئ فيها مدينة فرنسية، لكن مشروعه لم ينفذ، وكذلك وضع الجنرال (منو) تخطيطاً لمدينة ينشئها بها لكن فكرته لم تخرج عن حيز الآمال

واصلحوا شارع الفجالة وكانت أرضه من قبل يعسر المرور بها فهدوه وجعلوه ممتداً من باب الحديد الى باب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب

ومهدوا طريقاً مستقيماً غرسوا على جانبيه الاشجار من الازبكية الى بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ متر يبدأ من قنطرة المغربي ويتجه الى بولاق رأساً ويتفرع بقرب بولاق الى فرعين الاول الى طريق ابي العلا والثاني الى التبانة وساحل النيل

ومدوا الطريق بين باب الحديد وباب العدوى الى جهة المذبح خارج الحسينية وصار الطريق ممهداً بين الازبكية وقبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العاديه

وانشأوا منتدى للتنزه (كازينو) سموه «التيفولى» تشبهاً بنظيره بباريس انشأوه بالازبكية، وسماه الجبرتي «دار الخلاعة» ووصفها بقوله « واحدثوا بغيظ النوبي المجاور للازبكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة

في أوقات مخصوصة وجعلوا على كل من يدخل اليه قدراً مخصوصاً يدفعه أو يكون مأذوناً وبيده ورقة »

واقاموا مسرحاً لتمثيل الروايات ، ثم انشأوه في عهد الجبرال منو وهو الذي سماه الجبرني « كرى » (يريد كيدى Comedie) وصفه بقوله « وفي شعبان سنة ١٢١٥ كمل المكان الذي أنشأوه بالازبكية عند المكان المعروف بباب الهواء ، وهو المسمى في لغتهم بالكبرى ، وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلية والملاهي مقدار أربع ساعات من الليل ، وذلك بلغتهم ، ولا يدخل أحد اليه الا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة » وخلاصة ما تقدم أن أعضاء المجمع العلمي قد بذلوا جهوداً كبيرة في خدمة العلم والفن ، وكانوا دائمى النشاط مجدين في أعمالهم مثابرين في ابحاثهم ، فكان المجمع العلمي من اعظم المجامع العلمية قدراً وأكثرهم ثمرة كتب المسيو جوفروا سان هيلير — وكان من أعضائه النابيين — في رسالته الى الى العلامة كوفيه Cuvier يقول

« ان المجمع العلمي المصرى في نشاط دائم ، واني أؤكد ان جلساته تعادل بالاقل جلسات المجمع العلمي الفرنسى في أعمالها وثمراتها ، وقد قررنا بناء على اقتراح زميلنا بونا بارت (نابليون) أن نرسل الى مجمعكم محاضر جلساتنا ، فهل لكم أن تقررنا ازاءنا مثل هذا القرار وبذلك تقفوننا على تطور حركة العلوم في اوروبا (١)

يتبين من تشكيل المجمع العلمي ومن المسائل التي بحثها والاعمال التي عملها أنه معهد العلوم والفنون ومجلس استشارى قى مؤلف من أعضاء اخصائيين لدرس المسائل والمشروعات التي تعرضها عليه الحكومة ، فهو في الشق الآخر من مهمته شبيه بالمجلس الاقتصادى الذى أنشأته الحكومة المصرية سنة ١٩٢٣ الا انه يزيد في اختصاصه انه يتناول

(١) رسالة جوفروا سان هيلير الى كوفيه بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ الواردة في كتاب (رسائل من مصر)

عدا المسائل الاقتصادية والمالية المسائل الخاصة بالتشريع ، وهو عدا ذلك معهد أو أكاديمية للعلوم والفنون

ولا شك أن فكرة تأسيس هذا المجمع العلمى هي فكرة جليلة تدل على عبقرية نابليون ونبوغه فى التنظيم والانشاء كنبوغه فى الحروب ، وتدل ايضاً على قوة عزيمته وعلمه وحمته ، لانه أسس هذا المجلس بعد أن وصلته أنباء الكارثة التى حطمت عمارته فى معركة (أبوقير) وقطعت كل صلة بينه وبين فرنسا وجعلته هو وجيشه محصورين فى الديار المصرية ، ومع هول هذه الكارثة وعظم آثارها وما ضربت به نفوس الفرنسيين من اليأس فإنه قابلها بالجلد والصبر وأسس المجمع العلمى ليجد من خبرة أعضائه وكفاءتهم ما يجعله يكتفى بموارد البلاد الطبيعية ، وأخذ يقيم النظم فى مصر كأنه باق فيها الى ما شاء الله

وإذا نظرنا الى هذا المجلس من الوجهة العلمية البحتة نجد أنه قد نفع البلاد بآثاره واعماله ، وتعد مذكرات اعضائه نواة للأبحاث العلمية الخاصة بمصر ، فلا غرو أن يكون المجمع العلمى هو الاثر الوحيد الباقى من آثار الحملة الفرنسية ، ويكفى أن نعلم النظر فى اعمال اعضاء المجمع وابحاثهم المنشورة فى كتاب (تخطيط مصر) لنقدر مبلغ ما قاموا به من الاعمال وما يستحقونه من الاعجاب والثناء

وقد انتهى العهد الاول من المجمع العلمى بعد رحيل الفرنسيين ، ثم اعيد انشاؤه سنة ١٨٥٩ بالاسكندرية ، وانتخب المسيوجومار Jomard آخر من بقى من أعضاء المجمع العلمى الاول رئيساً شرفياً للمجمع الجديد ، وهذا المجمع قائم الى اليوم ، فالمجمع العلمى الحالى هو استمرار للمجمع العلمى القديم ، وقد انتقل من الاسكندرية الى القاهرة سنة ١٨٨٠ ومقره الآن بحديقة وزارة الاشغال ، وله نشرة دورية تحوى مجموعة المحاضرات والابحاث التى تلقى فيه

زيارة الجبرتي للمجمع العلمي

وما قاله في وصفه

نرى من الواجب أن نختم كلامنا عن المجمع العلمي بإيراد ما ذكره الجبرتي عنه وما قاله في وصفه وما رآه فيه ، ننقل ذلك لأن في وصف الجبرتي صورة دقيقة لما رآه وما شاهده وفي كلامه صورة جليلة للمستوى العلمي في ذلك العصر

وصف الجبرتي المجمع العلمي وصفاً عاماً بقوله « وافردوا المدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالمهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت مثل بيت قاسم بك وأمير الحج المعروف بأبي يوسف وبيت حسن كاشف جر كس القديم والجديد الذي أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالاً عظيمة من مظالم العباد وعند تمام بياضه وفرشه حدثت هذه الحادثة ففر مع الفارين وتركه »

مكتبة المجمع العلمي

وقال عن مكتبة المجمع « وفيه (بيت حسن كاشف) جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة ، فيراجعون فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن ، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسأفلهم من العساكر ، وإذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أما كنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصاً اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والاقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الامم وقصص الانبياء

بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الافكار ، ولقد ذهبت اليهم مراراً وأطلعوني على ذلك ، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظر الى السماء كالمهبط للخلقة ، وبيده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف ، وفي صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين ، وفي الاخرى صورة المعراج والبراق وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس ، وصورة بيت المقدس والحرم المكي والمدني ، وكذلك صورة الأئمة المجتهدين ، وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثال اسلامبول وما بها من المساجد العظام كأياصوفيه وجامع السلطان محمد وهيئة المولد النبوي وجمعية أصناف الناس لذلك ، وكذلك جامع السلطان سليمان وهيئة صلاة الجمعة فيه ، وأبي أيوب الانصاري وهيئة صلاة الجنائز فيه ، وصور البلدان والسواحل والبحار والاهرام وبرابي الصعيد والصور والاشكال والاقلام المرسومة بها وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والاعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الاثقال ، وكثير من الكتب الاسلامية مترجم بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضي عياض ويعبرون عنه بقولهم « شفاء شريف » ، والبردة للبوصيري ، ويحفظون جملة من أبياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن ولم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون في ذلك الليل والنهار ، وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أي لغة كانت الى لغتهم في أقرب وقت ،

قسم الفلك

وقال عن قسم الفلك :

« وعند توت^(١) الفلكي وتلامذته في مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن المصنوعة من الصفر المموه ، وهي تركيب براريم مصنوعة محكمة كل آلة منها عدة قطع تركيب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث اذا ركبت صارت آلة كبيرة أخذت قدراً من الفراغ ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها الى المرئي ، واذا انحل تركيبها وضعت في ظرف صغير ، وكذلك نظارات للنظر في الكواكب وارصادها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها وأنواع المنكبات والساعات التي تسير بثواني الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن وغير ذلك »

قسم الرسم والتصوير

وقال عن قسم الرسم والتصوير :

« وأفردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخدا السناري ، وهم المصورون لكل شيء ، ومنهم أريجو^(٢) المصور وهو يصور صور الآدميين تصويراً يظن من يراه انه بارز في الفراغ بحسب يكاد ينطق حتى أنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته في دائرة وكذلك غيرهم من الالعيان ، وعلقوا ذلك في بعض مجالس ساري عسكر ، وآخر^(٣) في مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر^(٤) يصور الاسماك والحيتان بأنواعها

(١) لعله يريد نوي Nouet

(٢) يريد الرسام ريجو Rigo

(٣) يريد بالاول سافيني Savigny والثاني ردوتيه Redouté وقد تكلمنا

عنهما ص ١٣١ و ١٤١ والاثنان ساعدا العلامة جوفروا سان هيلير في أبحاثه في التاريخ الطبيعي ولهما رسوم عديدة في كتاب تخطيط مصر فسافيني رسم حيوانات مصر وحشراتهما ، وردوتيه رسم أسماك مصر

وأسمائها ، يأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذي لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه
بذاته في ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيأته لا يتغير ولا يبلى ولو بقي
زمنًا طويلاً ،

قسم الهندسة

والطب والكيمياء

« وكذلك افردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقائق ، وسكن الحكيم روبا (١)
بيت ذى الفقار كتحدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه في ناحية وركب
له تنابير وكرانين لتقطير المياه والادهان واستخراج الاملاح وقدوراً عظيمة وبرامات،
وجعل له مكاناً أسفل وأعلى وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بانتراكيب والمعاجين
والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الأطباء والجراحية (الجراحين) ، وأفردوا
مكاناً في بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى وبنوا فيه
تنابير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع ، وآلات تصاعيد الارواح وتقاطير
المياه ، وخلاصات المفردات ، وأملاح الارمدة المستخرجة من الاعشاب والنباتات،
واستخراج المياه الجللاء والحلالة ، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج
البلورى المختلف الاشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبداخلها أنواع
المستخرجات ، ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان ان بعض المتقيدين لذلك
أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئاً في
كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماء ان وصعد منه دخان ملون حتى
اقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر قلبه على البرجات حجراً يابساً
أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى
فجمد حجراً احمر ياقوتياً ، وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندان

(١) يريد روييه Royer كبير صيادلة الحشيش الفرنسى

وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كهوت القربانة (البندقية) انزعجنا منه فضحكوا منا ، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة في مقدار الشبر ضيقة الفم ففمها في ماء قراح موضوع في صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص وأدخل معها أخرى على غير هيأتها وأنزلها في الماء وأصعدها بحركة انحبس بها الهواء في أحدهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر الشعلة إليها في الحال ، فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضاً ، وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ، ومثل الفلكة المستديرة التي يدورون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ، ويظهر له صوت وطققة ، وإذا مسك علقها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطققت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة ، ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلاً به حصل له ذلك ولو كانوا ألفاً أو أكثر...، ولم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لاتسعها عقول أمثالنا . . .»

نظرة عامة

في نظام الحكم الذى أسسه نابليون

لا جدال فى أن تأسيس « الديوان » على النحو الذى شرحناه كان نواة لنظام شوري لم تكن تعرفه البلاد من قبل ، ولا سيما اذا لاحظنا انه وضع سنة ١٧٩٨ أى فى أواخر القرن الثامن عشر ، فى ذلك الحين لم يكن النظام الدستورى مألوفاً فى الشرق ، بل كان الحكم المطلق القائم على الظلم والاستبداد واهواء الحكام هو السائد فى بلاد الشرق قاطبة بل فى أغلب بلاد أوروبا ، فلن الشعوب الاوروبية لم تكن الى ذلك العهد تعرف الحياة الدستورية الصحيحة عدا انجلترا التى كانت تتمتع بالنظام الدستورى من عهد القرن السابع عشر ، وفرنسا التى قوضت دعائم الاستبداد فى أواخر الثامن عشر ، أما معظم الامم الاوروبية فكانت لا تزال ترزح تحت نير الحكومات المطلقة

فالنظام الذى أنشأه نابليون فى مصر كان اذن نظاماً جديداً فى الحكم ، وفضلاً عن أنه يشبه أن يكون شورياً فإنه كان يجعل للعنصر المصرى صوتاً فى حكومة البلاد كان العنصر المصرى فى خلال حكم المماليك بعيداً عن كل نفوذ لان هؤلاء المماليك استأثروا بسلطة الحكم من جميع نواحيه ، فنظام « الديوان » بالرغم من أنه ترك السلطة العليا للفرنسيين قد أشرك العنصر الاهلى فى ادارة الحكومة ، وهذا شىء جديد كان له أثره فى التطورات التى ظهرت فى البلاد أوائل القرن التاسع عشر ، ولا شك ان نابليون بوضعه نظام « الديوان » فى مصر كان متأثراً ببعض التأثير بالافكار والمبادئ الجديدة التى أوحى بها الثورة الفرنسية الى أذهان الناس

ان نابليون كان قبل كل شىء قائداً عظيماً طموحاً الى الفتح والسلطان ، لكنه فى الوقت نفسه وليد الثورة الفرنسية ، كما كان جنود فرنسا أبناء ذلك الاقلام العظيم الذى أعلن حقوق الانسان وقرر حرية الشعوب ، فعلم الثورة كان لم يزل ينفق

على الجيوش التي ساقها الجمهورية الفرنسية الى ميادين القتال ، يحمل في طياته مبادئ الحرية الجديدة ، وهذا وحده كان كافياً لفتح عيون الامم والجماعات وتشوقها لنظام جديد قائم على أساس الحرية والحق ، ومهما تغلبت فكرة الفتح والاستعمار في رؤوس القواد والفانحين فاتهم مضطرون أن يجاروا الروح الجديدة التي ولدتها الاقلابات والثورات في نفوس الجماهير والجماعات ، اعتبر ذلك فيما أعلنته جيوش الثورة الفرنسية للبلاد التي فتحتها كالبليجيك والبيمونت ولومبارديا وايطاليا من أنها جاءت لنصرة مبادئ الحرية وتحطيم أغلال الاستعباد لتجذب اليها قلوب الشعوب في تلك البلاد ، كذلك فعل نابليون حينما جاء مصر ، فانه عمل على اجتذاب قلوب المصريين فخاطبهم بلهجة الود ووعدهم في منشوراته وبياناته بأن يجعل زمام الحكم في أيديهم ، وبذلك استثار الروح القومية في نفوس المصريين ، فكان في هذه المنشورات شبيها بالرئيس ويلسن الذي قام في الحرب العالمية الاخيرة يعلن للامم مبادئه المشهورة في حرية الشعوب وحقوقها في تقرير مصيرها ، فان اعلان هذه المبادئ والعهد قد استثار روح الاستقلال والحرية في الشعوب قاطبة بالرغم من اخلاف ويلسن لوعوده وعهوده للامم

فنا بليون قد استثار الروح القومية المصرية في منشوراته وبياناته للمصريين ، على انه في الوقت نفسه قد أثارها باعتدائه واعتداء جنوده على البلاد وأهلها ، لان هذه الاعتداءات أثارت كراهية الامة للاحتلال الفرنسي وحملتها على مقاومته بكل الوسائل ، فكانت هذه المقاومة هي النواة التي انبثقت منها الروح القومية المصرية

ومهما قيل في مبلغ ما كانت عليه الامة المصرية في ذلك الحين من التأخر في العلم والمدنية فان الحملة الفرنسية وما احتاجته في نفوس المصريين من روح المقاومة قد هزت أعصاب الامة هزة عنيفة أزاحت عن أبصارها شيئاً من الغشاوة التي رانت عليها في خلال العصور

أراد نابليون اذن أن يجتذب اليه قلوب المصريين ويتودد اليهم ويكسب ثقتهم

لانه كان على يقين انه مالم يفز بثقتهم وميلهم فلا يستطيع أن ينشئ على ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه ، مهما أوتي من قوة الجند والسلاح

لكن نابليون قد خاب في تحقيق هذا الامل ، وكان اخفاقه راجعاً الى أن الامة المصرية لم تدعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن اليه بحال من الاحوال ، ولم تخضع في حقيقة الاغراض التي كان يرمى اليها نابليون من هذه الحملة ، وتلك فضيلة تدل على مبلغ الحيوية الكامنة في الامة ، والواقع ان نابليون مع كل تلك الوعود التي كان يعنى بها المصريين في منشوراته وبياناته لم يكن يقصد في الحقيقة الافتح مصر واخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه في الشرق والغرب ، فالحملة الفرنسية قامت على أساس الفتح والاستعمار ، ومهما تعددت أساليب القوة والفتح فلامم التي تشعر بشيء من الحياة والكرامة تأتي أن تكون مطية لاهواء الفاتحين

فنظام الحكم الذي وضعه نابليون في مصر لم يكن ليصرف نظر المصريين عن أن يروا في الحملة الفرنسية اعتداء دولة أجنبية على بلادهم بدون حق أو مسوغ ، فهذا الاعتداء في ذاته قد أثار الروح القومية في نفوس المصريين ، وتلك أول مرة من نحو مائة وثلاثين عاما ظهرت فيها الروح القومية المصرية لمقاومة اعتداء دولة أجنبية ، والواقع انك اذا تتبعنا تاريخ الحملة الفرنسية في مصر نجد أنها سلسلة مقاومات مستمرة من جانب المصريين ضد الحكم الفرنسي ، بحيث لم يستقر للفرنسيين حكم ولم يهدأ لهم روع في السنوات الثلاث التي قضوها في مصر

ولا نزاع في ان إعراض الامة المصرية عن السكون لنابليون والاستثناء لوعوده هو في ذاته برهان على صدق نظر الامة أو بالأقل على ما انطوت عليه من سلامة الفطرة اذ لم تقبل أن تكون أداة مسخرة لتحقيق أطمع نابليون ، ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم على أنه لم يبر بوعده لأمة من الأمم التي فتحت بلادها ، بل كان يهزأ بحرية الأمم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقاً لأطماعه في الفتح والسلطان ، فالامة المصرية قد برهنت اذن على حيوية كبيرة في مقاومتها للحملة الفرنسية ، ولم

يفت مؤرخى الحملة حتى من هؤلاء الفرنسيين التنويه بهذه الحقيقة وحسبانها فضيلة
للشعب المصرى

وفي هذا الصدد يقول المسيو مارتان Martin أحد مهندسى الحملة وأحد أعضاء
لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون الى مصر (١) « بالرغم من احتلال الفرنسيين
لعاصمة مصر قاتمهم لم يستقر لهم قرار في البلاد ، وكان مركزهم فيها مزعزعا ومحفوفا
بالتعاب ، ولم يترك الاهالى وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتباعوها ، وقد ذهب
كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة »

وقال في موضع آخر « ان دعاة الفتنة ما فتوا يشعلون نار الثورة في مختلف أنحاء
القطر المصرى ، وقد اتخذ المصريون شعارهم ذلك المبدأ المشهور الذى أعلنته فرنسا
وهو ان مقاومة الاضطهاد هي أقدم واجبات الشعب »

ويقول المسيو ريبو Reybaud (٢)

« كانت هناك عقبات وطنية ودينية تحول دون ثقة المصريين بحكامهم الجدد
(الفرنسيين) ، فقد كان من الصعب أن توجد امة تبلغ بها السذاجة مبلغ أن تنتظر
الخير من جيش يركب متن البحار ويستهدف للاختار ويحتل بلادها ويخوض
فيها غمار الحرب لمجرد الدفاع عن مصالحها ، ولا يمكن أن تؤثر المنشورات والكلمات
الفخمة في تغيير حالة الشعب النفسية ، لذلك كان الوجه البحرى بالرغم من احتلاله
وانهزامه غير خاضع ولا مستسلم ، وكثيراً ما تمردت القرى التى مر بها الجيش
الفرنسى ورفعت علم الثورة »

هذا ما كتبه كاتبان فرنسيان في وصف الحالة النفسية للامة ، وفيه كما ترى
تمجيد لروح المقاومة التى ظهرت في نفوس المصريين
والآن وقد انتهينا من الكلام عن نظم الحكم التى أسسها نابليون فلنتكلم
تفصيلاً عن المقاومة الاهلية في عهد الحملة الفرنسية

(١) في كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية في مصر) الجزء الثانى

(٢) في كتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية جزء ٣

الفصل الخامس

المقاومة الاهلية

في عهد الحملة الفرنسية

كانت حكومة الديركتوار تظن قبل تجريد الحملة على مصر انها لن تلقى مقاومة من جانب المصريين لما وقر في الاذهان وقتئذ من ميلهم الى الهدوء وخفض الجناح وصبرهم على مظالم الحكام ، هذه الفكرة تراها ماثلة في التقرير الذي قدمه المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسية الى حكومة الديركتوار في ١٤ فبراير سنة ١٧٩٨ عن مشروع الحملة ^(١) وهو تقرير مطول بحث فيه علاقات فرنسا بمصر والاسباب التي تبرر الحملة الفرنسية في نظره والمقاومة الحربية التي ينتظر أن تلقاها الحملة في مصر ، بدأه بقوله « كانت مصر فيما مضى ولاية من ولايات الجمهورية الرومانية ، والآن يجب أن تكون ولاية تابعة للجمهورية الفرنسية »

وقال في كلامه عن قوة مصر الحربية « ان اهالى مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد ، وهم عزل لاسلح معهم ، واذا اعطاهم المماليك سلاحا بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الاجنبية فاتهم لا شك سيحاربون به طائفة المماليك انفسهم ، فليس تمت خوف من مقاومة أو وثبة من الاهالى »

وقال في موضع آخر « ان الشعب المصرى سينتلقانا باحترام لانه يأمل من زمن مديد أن يتخلص من حكامه الظالمين »

هذا ما كتبه تاليران في تقريره عن مشروع الحملة ، وذلك ما كان يتوقعه اقطاب الحكومة الفرنسية حينما قرروا انفاذ المشروع ، لكن الحوادث قد خيبت ظنونهم ، فان المقاومة التي لقيها الفرنسيون من جانب الاهالى كانت أشد من مقاومة المماليك .

(١) هو الذى تكلمنا عنه بالفصل الثاني ص ٧٤

والواقع ان من يتتبع سلسلة المقاومات التي لقيها الجيش الفرنسى من المصريين يعجب لشدة مقاومة الأمة وقتئذ للاحتلال الفرنسى واستمرار هذه المقاومة وانفساح مداها فى انحاء القطر المصرى ، حتى كأن ثورة عامة قد اندلعت فى وجه الفرنسيين وامتد لحيها من اقصى البلاد الى اقصاها ، ولوقبلت صحائف الحركة القومية المصرية فى خلال المائة سنة الاخيرة لما وجدت لهذه المقاومة شها سوى الحركة العامة التي ظهرت سنة ١٩١٩ عقب انتهاء الحرب العالمية

قلنا ان الحملة الفرنسية قد هزت اعصاب الامة المصرية فأخذت تنفض عنها غبار الجلود الذي كان ينجيم عليها من ركود العصور ، وان هذه الحملة قد استثارت روح القومية واهتاجت شعور المقاومة الاهلية فى نفوس المصريين ، فبدأوا يشعرون ان لبلادهم مركزا ممتازا فى العالم وان لهم كيانا يدعوهم للمحافظة عليه ، لم يكن هذا الشعور مصبوغا بالصبغة العلمية المهدبة التي نفهمها اليوم وذلك لما كانت عليه البلاد من التأخر فى العلوم والافكار ، لكن شعوراً طبيعياً قد طاف بالنفوس واستفزها للدفاع عن كيان البلاد ، فكان من نتائج هذا الشعور سريان روح المقاومة فى البلاد كلها من الاسكندرية الى اسوان ، وقد افردنا هذا الفصل والفصول التي تليه لسرد حوادث المقاومة فى البلاد التي مر بها الجيش الفرنسى وما لقيه الاهالى من ضروب العنت والارهاق ، وما أصابهم فى سبيل المقاومة من الشدائد والاهوال ، وسنفصل ذلك متبعين من جهة سير الحملة ومن جهة أخرى حوادث كل مدينة وكل مديرية من مديريات القطر المصرى بقدر المستطاع ، ليكون تحت نظر القارىء صورة مفصلة لحوادث المقاومة الاهلية فى ذلك العصر ، ولنبدأ بالاسكندرية وهي أول بلد نزل به الجيش الفرنسى

في الاسكندرية

يحسن بنا قبل أن نذكر دفاع أهل الاسكندرية عن مدينتهم أن نمتد بكلمة عن حالتها عند مجيء الحملة الفرنسية لتمثيلها كما كانت في ذلك الحين

الاسكندرية عند مجيء الحملة

كانت الاسكندرية مدينة صغيرة يبلغ عدد سكانها نحو ثمانية الاف نسمة ، عمرانها منهدم ، وبيوتها اشبه بمباني القرى ، وشوارعها ضيقة كثيرة التعاريج ، ومعظم سكانها فقراء ، فالفرق كبير جدا بين حالتها في ذلك العصر وما صارت اليه الآن من العظمة والثراء والاتساع والجمال ، أو ما كانت عليه قديما في عهد البطالسة إذ كانت عروس المدائن ومركز تجارة العالم يسكنها نحو ستمائة الف نسمة ، فقدت على مرّ العصور ما كان لها من الجلال والعظمة ، وما كانت بها من عمران وحضارة ، وتجارة وصناعة ، وعلوم وفنون

ومع انتقاض معالم الحضارة فيها فقد احتفظت بمكانتها الى القرن الخامس عشر من الميلاد ، ثم أخذت تفقد مكانتها بعد اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند (سنة ١٤٩٧) فقد تحول الشطر الأكبر من تجارة الهند الى طريق المحيط الاطلنطي وحرمت مصر مرور تجارة الشرق ، وبعد أن كانت الاسكندرية مستودع المتاجر وطريقها بين الشرق والغرب اقتصرت تجارتها على واردات افريقية وجزيرة العرب وثغور السلطنة العثمانية والنذر اليسير من واردات الهند ، فأخذت تنزل عن مكانتها التجارية ، وأمعنت في التأخر والاضمحلال من عهد الفتح العثماني (سنة ١٥١٧) الى آخر القرن الثامن عشر حيث لم يكن باقيا من الاسكندرية القديمة سوى الاسم والاطلال الدارسة ، درست معالم تلك المدينة العظيمة وتحولت الى بلدة صغيرة تقع شمال المدينة القديمة وتنحصر في شبه الجزيرة التي بين الميناء الشرقية والميناء الغربية المعروفة بالقديمه

كانت الميناء الشرقية تعرف وقتئذ بمرسى السلسلة ، وهذه الميناء واقعة كما هي الآن شرق المدينة ولا تصلح لمرسى السفن اثناء اضطراب البحر ، وعلى شاطئ هذه الميناء كان يوجد الجمر ك ودور القناصل ، وكانت السفن الافرنجية لا ترسو الا بها ، وفي النهاية القصوى من لسان الارض الواقع لهذه الميناء توجد القلعة المعروفة بطاوية « قايتباي » التي بناها السلطان الملك الاشرف ابو النصر قايتباي في القرن الخامس عشر ، ويسمىها الفرنسيون قلعة المنارة ، مسموها كذلك لانها انشئت في المكان الذي كان به منارة الاسكندرية القديمة المعدودة إحدى عجائب الدنيا السبع ، وعلى مدخل الميناء الشرقية من الجهة المقابلة لطاوية قايتباي يوجد برج السلسلة القائم اثره الى اليوم ، وكان في داخل الميناء طاوية (قلعة) أخرى صغيرة على الساحل ترى مكانها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل

أما الميناء الغربية أو المرفأ الكبير فهي الواقعة الى الغرب بين شبه جزيرة رأس التين والبر ، وفي طرف رأس التين غربا كان يوجد بطارية من المدافع لحماية الميناء ، وفي داخل الميناء برج آخر ترى موقعه على الخريطة ، وكانت هذه الميناء تصلح لمرسى السفن ، لكن المداخل المؤدية لها كان يتعذر مرور السفن الكبير منها ، ولم يجر اصلاحها الا في عهد محمد علي واسماعيل ، ومع أن الميناء الغربية أصلح لمرسى السفن التجارية من الميناء الشرقية ، الا أن السفن الاوروبية كان محظوراً عليها الرسو الا في الميناء الشرقية بأمر حكومة المالك ، وبالميناء الغربية توجد الترسانة ومخازن البحرية التي كانت على درجة كبيرة من التأخر والاهمال ، وفي النهاية القصوى للشاطئ خارج الميناء يوجد اللسان المعروف بجهة العجمي والمسافة بينه وبين رأس التين ٨٣٠٠ متر على خط مستقيم ، ونجاء هذا اللسان الجزيرة المعروفة بجزيرة العجمي وكان بها برج يسميه الفرنسيون برج المرباط Marabout ، واسمه الصحيح برج العجمي .

ويسمى الفرنسيون جزيرة العجمي (جزيرة المرباط) ، وهذا الاسم وارد بالفرنسية والعربية هكذا في خريطة الاسكندرية التي خطتها مهندسو الحملة الفرنسية ، وهذه

التسمية فيما نعلم لأصلها اللهم الا أن تكون وصفاً لاسمها^(١)، والاسم الصحيح هو جزيرة العجمى و برج العجمى ، ويقول المسيو فيفان دينون الذي جاء الى مصر مع الحملة الفرنسية^(٢) أن هذه التسمية ترجع الى اسم المسجد الذى كان بالجزيرة ، والصحيح أن هذا المسجد معروف باسم مسجد الشيخ العجمى ، لا باسم المرباط ، ويقول الجنرال رينيه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية فى كتابه (مصر بعد واقعة عين شمس) ان القلعة التي أنشأها الفرنسيون فى جزيرة (المرباط) أقاموها حول مسجد قديم فى جزيرة منفصلة عن اليابسة ، وقد رسم رينيه هذه الجزيرة فى خريطته ، وهى جزيرة العجمى بعينها ، ويقول ان القلعة قد تخربت أثناء القتال الذى دار بين الانجليز والفرنسيين فى أغسطس سنة ١٨٠١ و انتهى بتسليمها ، والمعروف أن محمد على الكبير قد أعاد بناءها ولا تزال آثار القلعة التي بناها باقية الى الآن بالجزيرة ، كما لا يزال مسجد العجمى مزاراً للناس الى وقتنا هذا ، وقال لنا كبار السن فى جزيرة العجمى ان هذا المسجد معروف بهذا الاسم وموجود قبل عهد محمد علي باشا وقبل الحملة الفرنسية

حدود عمران المدينة

أما عمران الاسكندرية فى أواخر القرن الثامن عشر فكان منحصرأ بين مينائين كما نراه فى الخريطة ، وحدود هذا عمران ينتهى شمالا فى مقابلة شبه جزيرة رأس التين ، فكانت جميع الجهات الواقعة بين البحر شمالا وشارع أبي وردة الى جامع أبي العباس بعضها مدافن وبعضها تقع ، ولم يكن بها مساكن سوى بعض بيوت للصيادين بالجهة المعروفة بالسيالة ، وكان حد المدينة من الجهة القبلية الحارة المعروفة الآن بحارة المغاربة قريبا من ميدان محمد علي

ويكفيك لتحكم على تناقص عمران المدينة فى ذلك العصر أن تعرف موضع عمود السواري فانه كان يبعد عن المدينة بنحو ألف وخمسمائة متر جنوبا

وكان للاسكندرية سور طوله الدائري ٧٨٩٣ متراً ، يتخلله مائة برج ، وبعض

(١) كلمة مرابط كثيرة الدبوع عند المغاربة وتطلق على الاولياء الصالحين والشيخ المجاهدين (٢) فى كتابه (رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا)

هذه الابراج غاية في الفخامة والمناعة لافرق بينها وبين القلاع الحصينة ، وهذا السور مشيد على الراجح في عهد احمد بن طولون ، وجدد بناءه السلطان صلاح الدين الايوبي ثم السلطان الظاهر بيبرس (١) ويسميه الافرنج سور العرب ، وهو الذي امتنع به الاسكندريون عند هجوم الجيش الفرنسى على المدينة ، ويبين هذا السور حدود عمراتها في عهد الدول الطولونية والايوية والبحرية والبرجية ، وهو يحد من العمران نصف ما كان يحده سور البطالسة القديم

خطط العالم المصري محمود باشا الفلكي معالم سور البطالسة القديم ، ومن المقارنة بينه وبين معالم سور العرب يتبين ان عمران الاسكندرية وان كان قد تناقص بعد اقراض عهد البطالسة الا أن المدينة ظلت عامرة الى القرن الخامس عشر ، وقد أخذ عمراتها يتقلص في بدء القرن السادس عشر ، وصار سور المدينة في عهد البكوات المليك لا يحيط الا بفضاء عظيم من الخرائب قد خلا من المساكن فيسير الانسان فيه عدة ساعات دون أن يرى من معالم العمران سوى الاطلال الدارسة ، ولم يبق به إلا صهاريج المياه وأربعة كفور يسكنها خدام البساتين التى بداخل السور وحراس القلاع والابراج ، وكان معظم هذه الابراج متخربا ، وفي السور ثغرات وفتحات سببها الاهمال وسوء الادارة

رسالة محمود باشا الفلكي عن الاسكندرية القديمة

ولمناسبة الكلام عن خريطة محمود باشا الفلكي نقول أنه اول عالم عصرى كشف عن موقع سور الاسكندرية القديم وآثارها ، وله في ذلك رسالة بديعة باللغة الفرنسية عن الاسكندرية القديمة طبعها سنة ١٨٦٦ ، وهى رسالة تتضمن نتائج مكتشفاته وما قام به من النقب والحفر وما وصل اليه من كشف معالمها القديمة كاسوارها وشوارعها واقنياتها ومراسحها ومتحفها ومكتبتها الشهيرة وقصورها ومبانيها وضواحيها ، ولم يسبقه الى هذه المكتشفات المؤسسة على عمليات الحفر عالم عصرى

من الافرنج ، لان مهندسى الحملة الفرنسية لم يكن لديهم الوقت ولا الوسائل الكافية للحفر والتنقيب ، وقد بحث اثنان منهم فى مواقع الاسكندرية ، أولهما الميوسان جنيس Saint Genis احد مهندسى الحملة وله فى الاسكندرية القديمة بحث مستفيض منشور فى الجزء الخامس من تخطيط مصر ، ولكن الميوسان جنيس لم ينقب ولم يحفر الارض كما فعل محمود باشا الفلكى بل اكتفى بذكر نتائج مشاهداته وأرائه التاريخية ، وكذلك كتب الميوس جراتيان لوبير Gratin Le Père بحثا فى وصف الاسكندرية نشر فى الجزء الثامن عشر اقتصر فيه على تدوين مشاهداته وما نقله عن مؤرخى الافرنج والعرب ، وللمسيو نورى Norry وللمسيو مارتان « Martin » وكلاهما من مهندسى الحملة الفرنسية بحثان اقل أهمية من ابحاث سان جنيس وجراتيان لوبير منشوران فى الجزء الخامس عشر من كتاب تخطيط مصر ، وكل هذه المباحث لم تكن مقرونة باعمال الحفر والتنقيب

فمحمود باشا الفلكى هو أول عالم عصرى خطط معالم الاسكندرية القديمة على ما كشفت له اعمال الحفر تحت الارض ، وقد بذل فى مكشفاته جهودا كبيرة وكان تحت امرته جماعة من المهندسين المصريين ونحومائى عامل يشتغلون فى النقب والحفريات ، ومما أفرد عمله وميزه أنه استشار الارض فى عيد الخديوى اسماعيل باشا أى قبل أن تغطى بالمباني الحديثة وتضيع معالم الآثار ، فهو أول من خطط سور البطالسة القديم تخطيطا مبنيا على الاكتشاف والفحص الدقيق

ورسالة محمود باشا الفلكى مقرونة بخريطة هى أبداع مارصمى العلماء والمهندسون عن الاسكندرية القديمة ، واليها يرجع علماء اوروبا فى أبحاثهم وقد خالف علماء الحملة الفرنسية فى بعض آرائهم ، فعين لمدينة كانوب مكانا غير الذي عينوه وكشف أطلال مدينة تابوزيريس^(١) التى يسمي الفرنسيون برجها برج العرب

(١) بوسير غرب الاسكندرية

حالة المدينة من الوجهة الحربية

وصف الكاتب الفرنسي « فولى » Volney حالة الاسكندرية من الوجهة الحربية كما شاهدها عام رحلته اليها سنة ١٧٨٣ أى قبل الحملة الفرنسية بخمس عشرة سنة، فقال انها من الوجهة الحربية لا قيمة لها ولا يوجد بها قلعة ذات شأن أو خطر، أما قلعة المنارة (طابية قايتباي) بأبراحها العالية فانها لا تصلح للدفاع اذ ليس بها سوى أربعة مدافع صالحة للضرب، وليس فيها رماة يحسون الرمي بالقنابل، وحاميتها المؤلفة من خمسمائة من الانكشارية هبط عددهم الى النصف، وان فرقاطة واحدة تكفى لهدم المدينة (١).

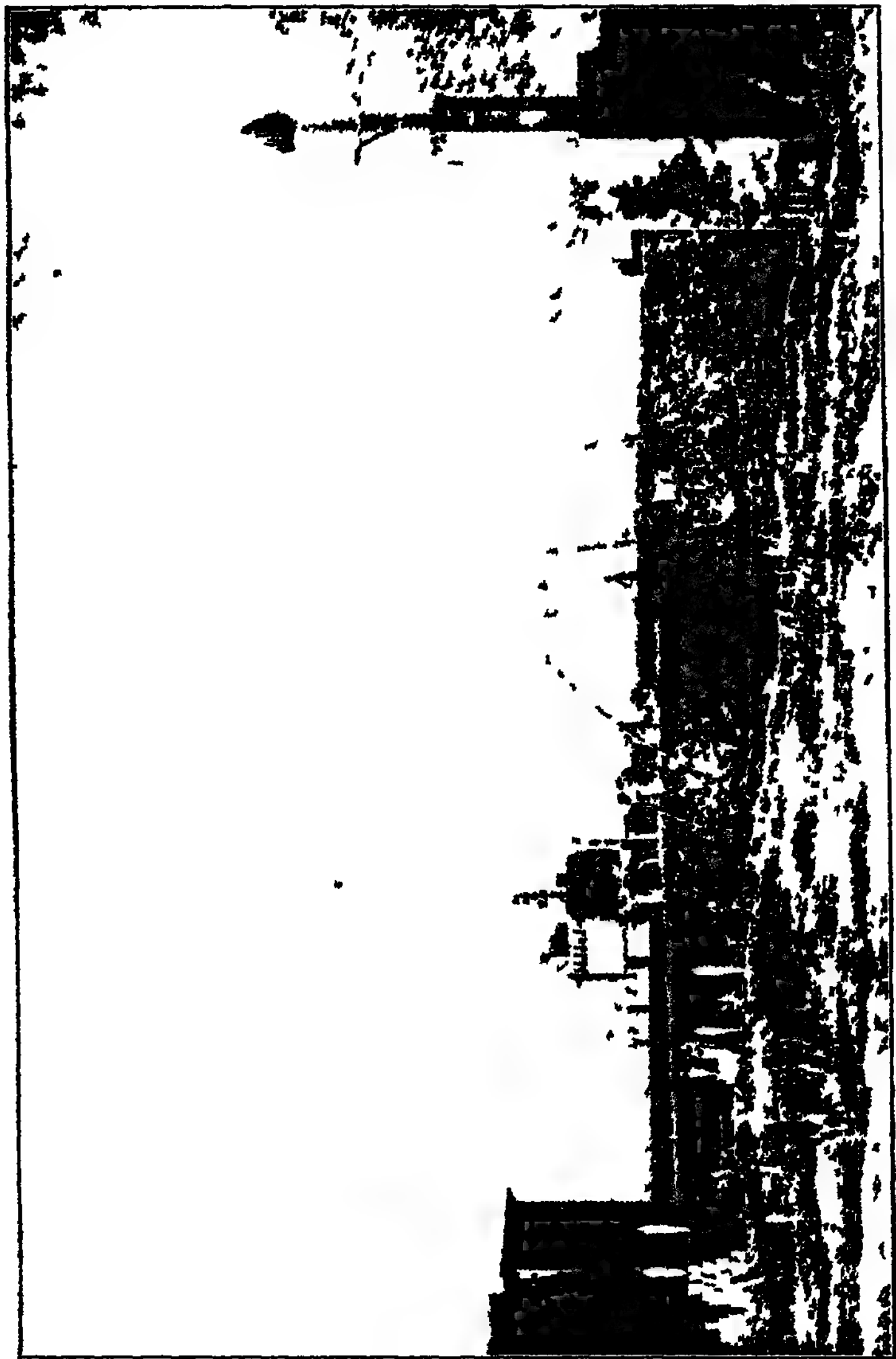
وقد زارها الرحالة الفرنسي الميسو سافارى Savary سنة ١٧٧٧ فقال ان قلعة المنارة لا تقوى على صد بارجة واحدة (٢)، وكتب الميسومور Mue قنصل فرنسا في تقريره (٣) الذي قدمه سنة ١٧٨٣ الى الحكومة الفرنسية يرغبها في الحملة على مصر « ان مرافئ الاسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر، وليس بها من الجنود سوى الاهلين الذين انتظموا في سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهدالفتح العثماني، أما قلعة المنارة فهي في ظاهرها نفخة لكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية، والمدافع الباقية بها لا تصلح للضرب، ولا تستعمل إلا في أيام الاعياد »

ففي هذه الاقوال صورة صحيحة لما آلت اليه حالة الدفاع عن الاسكندرية من الضعف والاهمال في عهد الولاة الاتراك والكوات المماليك، ويفهم من كلام الميسو مور أن حاميه الاسكندرية كانت مؤلفة من الاهلين دون سواهم، وبهذا نفسر قول فولى ان حاميه قلعة قايتباي كانت خمسمائة من « الانكشارية » فان هؤلاء

(١) رحلة في مصر وسوريا بقلم فولى Volney

(٢) رسائل عن مصر بقلم الميسو سافارى

(٣) أشرنا الى تقريره ص ٧٢



الاسكندرية — الميساء الشرقية سنة ١٧٩٨ ، وترى في الصورة طابية (قلعة) قايتباي بحالتها القديمة
والمدافن التي كانت على الشاطئ في ذلك العهد (ص ١٦٤ و ١٦٥)

« الانكشارية » كانوا اذن من الأهالى لا من الأتراك ، وهذا يؤيد ما ذكرناه فى الفصل الأول من أن المصريين انتظموا فى سلك الوجاقات (الفرق العسكرية) التى تألفت فى عهد الحكم العثمانى وبذلك اكتسبت الصبغة المحلية القومية

ترعة الاسكندرية

تردد اسم ترعة الاسكندرية كثيراً فى الوقائع التى حدثت بالاسكندرية والبحيرة ، لذلك يجدر بنا أن نكتب كلمة عنها

كانت الاسكندرية تأخذ ماءها من ترعة تنبثق من الرحمانية الواقعة على النيل وتسير مغربة شمال دمنهور ثم تنثنى شمالاً بغرب وتمر بين بحيرة مريوط وبحيرة (أبوقير) الى أن تبلغ الاسكندرية ، وكانت هذه الترعة تسمى (خليج الاسكندرية) اتباعاً لتسمية الترع فى ذلك العصر وما قبله بالخلجان ، وفى مكانها أنشئت ترعة المحمودية فى عهد محمد على الكبير مع اختلاف فى المأخذ والمصب (١) ، وترعة الاسكندرية كانت موجودة فى عهد الفراعنة كما ذكر ذلك استرابون (٢) Strabon مع اختلاف فى التخطيط ، وعنى بها البطالسة لأهميتها التجارية للأسكندرية لأنها كانت طريق الملاحاة بينها وبين النيل ، ونقل المقرئى فى خطه ان أحمد بن طولون أمر بحفرها سنة ٢٥٩ هجرية (٨٧٢—٨٧٣ ميلادية) وان السلطان الظاهر بيبرس جدد حفرها سنة ٦٦٢ هجرية ، وذكر أيضاً أنه فى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) جدد حفرها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون واشتغل ٤٠.٠٠٠ عامل فى حفرها وتطهيرها وأقيمت عليها القناطر والسدود وجرت فيها السفن طول السنة واستغنى أهل الاسكندرية عن شرب ماء الصحارى وعمرت أراض وبلاد كثيرة على جانبيها (٣)

(١) تأخذ ترعة المحمودية مياهها من النيل عند العطف

(٢) العالم الجغرافى اليونانى الشهير ولد سنة ٦٠ قبل الميلاد

(٣) المقرئى الجزء الاول

كانت ترعة الاسكندرية أعظم ترع مصر، وقد أهمل شأنها في عصر الولاة الاتراك والبكوات المالك حتى جفت وارتفع قاعها عن ضعف عمقها الأصلي، فكان لا يدخلها الماء في معظم السنين الا في وقت زيادة النيل ثم تجف باقى السنة، وفي مدة زيادة النيل أى في شهر سبتمبر من كل سنة تصل مياهها الى الاسكندرية فيملأ أهلها الصهاريج ليجدوا منها حاجتهم من الماء طول السنة، وكان أهل الاسكندرية يحتفلون بمجيء مياه الترعة وخرن الماء في الصهاريج ويتهيجون لذلك ابتهاجا عظيما كما يتهيج سكان القاهرة بمهرجان وفاة النيل (١) وبطلت الملاحة فيها بعد ان كانت طريق المواصلات النيلية إلى الثغر، فانعزلت الاسكندرية عن القاهرة وداخلية البلاد وانحطت منزلتها التجارية القديمة، على انها ظلت ميناء القطر المسمى التجارية في البحر الأبيض المتوسط لا ينافسها في هذا المركز إلا دمياط، فكانت متاجرا أوروبا ترد اليها وحاصلات مصر تصدر منها، وظلت مقصد السفن الأوروبية بسبب صلاح مينائها لا يواء السفن فكانت السفن تصل اليها قادمة من ثغور البندقية وليفورن وراجوز ومارسليا وثغور السلطنة العثمانية ثم تنقل المتاجر منها الى رشيد بحرا في المراكب المصرية المعدة للملاحة بالنيل، أما السفن الأوروبية فلم تكن ترسو برشيد رأساً لصعوبة اجتياز البوغاز

عدد سكان الاسكندرية

تناقص عدد سكان الاسكندرية الى درجة عجيبة من القلة، فان المسيو جومار Jomard (٢) قدرهم في ذلك العصر بخمسة عشر ألفاً، ولكن المسيو جراتيان لويير يقدرهم بثمانية آلاف، ويلوح لنا ان تقدير جراتيان لويير أدنى الى الحقيقة، لأن

(١) ذكر المسيوسان جنيس S Genis أحدهم هندسى الحملة الفرنسية في البحث المنشور بكتاب تخطيط مصر الجزء الخامس ان عدد هذا الصهاريج في عهد الحملة كان ٣٠٨ وانها كانت تسع من المياه ما يكفي المدينة مدة ثمانية عشر شهراً، وذكر محمود باشا الفلكي في رسالته عن الاسكندرية ان صهاريجها بلغت ٧٠٠ في عهد اسماعيل باشا

(٢) راجع ما كتبناه عنه ص ١٢٦

جوماً قدر عدد سكان الاسكندرية ضمن تقديره مدن القطر المصري ، أما جراتيان لويير فقد توفّر على درس حالة الاسكندرية درساً خاصاً وأقام فيها طويلاً زمن الحملة الفرنسية وخطط مواقعها وآثارها ، وله فيها رسالة مطولة نشرت في كتاب تخطيط مصر^(١) ، فتقديره فيما نعتقد أدعى الى الثقة به ، أضف الى ذلك ان الميسوسافارى Savary الذى زار الاسكندرية سنة ١٧٧٧ قبل الحملة الفرنسية بعشرين سنة أحصى عدد سكانها بستة آلاف نسمة^(٢) ، فالامر قريب من قريب كما ترى ، وبما يدل على دقة لويير في الاحصاء قوله ان عدد سكان الاسكندرية قد قص في عهد الحملة الفرنسية فنزل الى سبعة آلاف ، فهذه الملاحظة قوية الدلالة على انه لا يتحيز في ايراد الحقائق ، ويظهر ان السبب في هذا النقص يرجع الى اضطراب الاحوال في الاسكندرية عقب الاحتلال الفرنسى وكثرة ما فرضه الفرنسيون من الغرامات والمصادرات والى الحصر البحرى الذى ضربه الانجليز عليها ثم ركود حركة التجارة وظهور الوباء فيها وحصار الانجليز والاتراك لها براً وبحراً ، فبكل ذلك نقصوا وقلوا ، ولا زيادة على فقر أو موت أو هجرة ، فكيف بها كلها ؟

حضور الامبرال نلسن الى الاسكندرية

ثم اقلاعه

كانت الاسكندرية أول مدينة قصدها الحملة الفرنسية ، وهي كذلك أول من علم باقتراب العمارة الفرنسية قبل أن تصل الى الثغر ، ذلك انه بالرغم من تكتم نابليون وجهة العمارة فقد تسربت أخبارها الى البلاد ولا سيما بعد أن وصل نبأ استيلاء الفرنسيين على مالطه^(٣) في طريقهم الى مصر ، فطارت اشاعة عزم الفرنسيين على

(١) الجزء الثامن عشر

(٢) رسائل عن مصر

(٣) بعد أن رست العمارة الفرنسية في مالطه ذاعت الاشاعات ان وجهة

احتلال البلاد، وعم السخط والهياج طبقات الشعب واستعد الناس للمقاومة، وبيدهم كذلك حضر أسطول الاميرال نلسن الى مياه الاسكندرية يوم ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨ يفتش عن العمارة الفرنسية، لكنه لم يلتق بها لانها تأخرت في طريقها بسبب احتلال مالطه، فأرسل الى حاكم الاسكندرية الوطني السيد محمد كريم ينبهه الى احتمال حضور العمارة الفرنسية، وسأله أن يأذن له في دخول الثغر ليمتار منه، لكن الحاكم رفض طلبه، ولعل السبب في الرفض انه أساء الظن في مقاصد الاميرال نلسن لان الاشاعات التي كان الناس يخوضون فيها ذلك الحين تنبىء أن « الافرنج » يعتزمون احتلال مصر، وكلمة افرنج كانت تتناول الفرنسيين والاوروبيين على السواء، ومع أن الاشاعات ذاعت بأن الحملة المنتظرة حملة فرنسية الا ان حاكم المدينة توجس خيفة لما رأى أسطولاً كبيراً يقترب من الشاطئ، وكان لا يعلم شيئاً عن الحالة السياسية في أوروبا، فخشى أن يكون طلب الاميرال نلسن خدعة لها صلة بالحملة المقبلة فرفض، وظل الاميرال نلسن ينتظر بأسطوله أربعاً وعشرين ساعة ثم أقلمت بوارجه يوم ٢٩ يونيه متجهة الى شواطئ الاناضول

واليك ما كتبه الجبرتي عن حضور الاسطول الانجليزي :

« وردت مكاتبات على يد الساعة من ثغر الاسكندرية ومضمونها أنه في يوم الخميس حضر الى الثغر عشرة مراكب من مراكب الانجليز ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً، فانتظر أهل الثغر ما يريدون واذا بقاياق (مركب) صغير واصل من عندهم وفيه عشرة انفار فوصلوا البر واجتمعوا بكبار البلد، والرئيس اذ ذاك فيها والمشار اليه بالابرار والنقض السيد محمد كريم، فكلّمهم واستخبروهم عن غرضهم، فاخبروا أنهم انكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيين لانهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات، ولاندرى أين

الحملة مصر فنقل قباطين بعض السفن التجارية هذه الاشاعات الى الثغور المصرية قبل مجيء العمارة الفرنسية

قصدهم ، فربما دهموكم فلا تقدرّون على دفعهم ولا تتمكنون من منعهم ، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول ، وظن أنها مكيدة وجاوبهم بكلام خشن فقالت رسل الانجليز نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم الا الامداد بالماء والزاد بشمنه ، فلم يجيبوهم لذلك ، وقالوا هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا ، فعندها عادت رسل الانجليز وأقلموا في البحر ليتمتاروا من غير الاسكندرية وليقضى الله أمراً كان مفعولاً » (١)

في ذلك الحين كانت العمارة الفرنسية تمخر العباب قادمة الى سواحل مصر ، وهكذا شاعت الاقدار أن ينجو نابليون وجنوده من أسطول الاميرال نلسن ، فاقتربت العمارة من مياه الاسكندرية يوم ٣٠ يونيه ، وعندئذ أمر نابليون بأن تنفصل عن العمارة السفينة (جونون) Junon التي كانت في طليعة الاسطول لتصل الى الثغر وتلتقى بقنصل فرنسا (٢) وتنبئ الفرنسيين في الاسكندرية بوصول الحملة ، وظلت العمارة في عرض البحر دون أن تصل الى الشاطئ ، وفي اليوم التالي (أول يوليه) عادت السفينة جونون تحمل قنصل فرنسا بالاسكندرية (٣) فانبأ نابليون بحالة الهياج الذي عم الاهالي من يوم أن علموا باقتراب الحملة ، وأن الفرنسيين الذين في الثغر أصبحوا كالرهائن وأن كثيراً من سكان المدينة مسلحون يستعدون للدفاع وأنهم قد استنجدوا

(١) الجبرتي الجزء الثالث

(٢) هو مجالون الصغير ابن أخ المسيو شارل مجالون القنصل العام الذي كان

في فرنسا وجاء مع الحملة

(٣) يقول الجنرال برتويه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في كتابه أن

شواطئ مصر ظهرت في الافق يوم ١٢ مسيدور (٣٠ يونيه) صباحاً حيث كانت العمارة الفرنسية تجاه برج العرب (بوصير) التي تبعد عن الاسكندرية غرباً نحو ٣٦ كيلو متراً وأن نابليون أرسل يستدعي قنصل فرنسا في الثغر فوصل يوم ١٣ مسيدور (أول يوليه) الى بارجة الاميرال

بمن حولهم من الاهالى والعرب المجاورين للثغر، وأخبره كذلك بقدوم أسطول الاميرال
فلسن واقلاعه

الحالة النفسية للشعب عند مجيء العمارة الفرنسية

اذا أردت أن تعرف نفسية الاهالى قبيل وصول العمارة الفرنسية الى الاسكندرية
فتأمل فيما كتبه فى هذا الصدد الكاتب الفرنسى فيفان دينون Vivant Denon
كان المسيو فيفان دينون أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون على ظهر السفينة
(جونون) التى كلف نابليون ربانها بالتقدم الى مياه الاسكندرية لمقابلة قنصل فرنسا
فى الثغر، فسمع حديث القنصل وأثبتته فى كتابه (١) واليك ما ذكره فى هذا الصدد قال:
« قدم الينا قنصلنا يصحبه ترجمانه وقد خالطه الرعب بعد أن نجا من القتل
ومن هياج الشعب، وأخبرانا أن أسطولا انجليزيا مؤثما من أربع عشرة بارجة حربية
كان بالثغرو لم يغادره الا عشية أمس الأول وان الانجليز صرحوا بانهم قادمون
للتفتيش عنا ومحاربتنا، وقد ظنهم الاهالى فرنسيين، فانفجر بركان الهياج فى البلاد
كلها لشعورهم باقترابنا، وكانوا يتوقعون ذلك من يوم أن علموا باحتلالنا لمالطه، وقد
استعدوا للمقاومة فأخذوا يحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود بالمتطوعين للقتال
ويجمعون جيشاً من العرب، وأن حاكم الاسكندرية (السيد محمد كريم) لم يأذن
للقنصل بمقابلتنا الا مصحوباً بجماعة من نوتية الاسكندرية وعهد اليهم ارجاعه الى
الثغر (٢) »

(١) رحلة فى الوحه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بوناپارت
(٢) ذكر نقولا الترك الذى شهد وقائع الحملة الفرنسية ودونها فى كتابه ان
السيد محمد كريم كان معارضا فى هذه المقابلة وأن أدريس بك قومندان السفينة
العثمانية التى كانت راسية بالثغره هو الذى أقنع السيد محمد كريم بالتصريح لقنصل
فرنسا بمقابلة القادمين

وجاء في مذكرات الكولونل سلكوسكى أحد ضباط الحملة ما يأتى
« وصلت منذ شهرين عن طريق الاستانة أنباء الحملة فأخذ الأُمراء (المماليك)
يستعدون ، ولا نعلم الى أي حد بلغ استعدادهم ، ولكن الخبر الذى أزعجنا هو قدوم الاسطول
الانجليزى الى الاسكندرية ومغادرته إياها قبل وصولنا ، وقد انزعجت له البلاد وظنه
الناس أسطول الفرنسيين الذين يتوقعون حضورهم منذ مدة ، ومن يومئذ أخذ جميع الأهالى
يُعِدُّون العدة للمقاومة ، فحملوا السلاح وانضم اليهم المغاربة من ضواحي الثغر وتحصنوا
بالأسوار بينما كان اربعة من الفرسان يجوبون الضواحي استعداداً للقتال ، ولم يمكث
الانجليز بمياه الاسكندرية إلا يوماً واحداً ثم غادروها متجهين شمالاً بشرق ، هذا
كل ما استطعنا معرفته ، وعلمنا أنهم اقتصروا على السؤال أمستعدة البلادُ لاستقبال
الفرنسيين أم هي مُعدةٌ لهم الحرب والمقاومة ؟ »

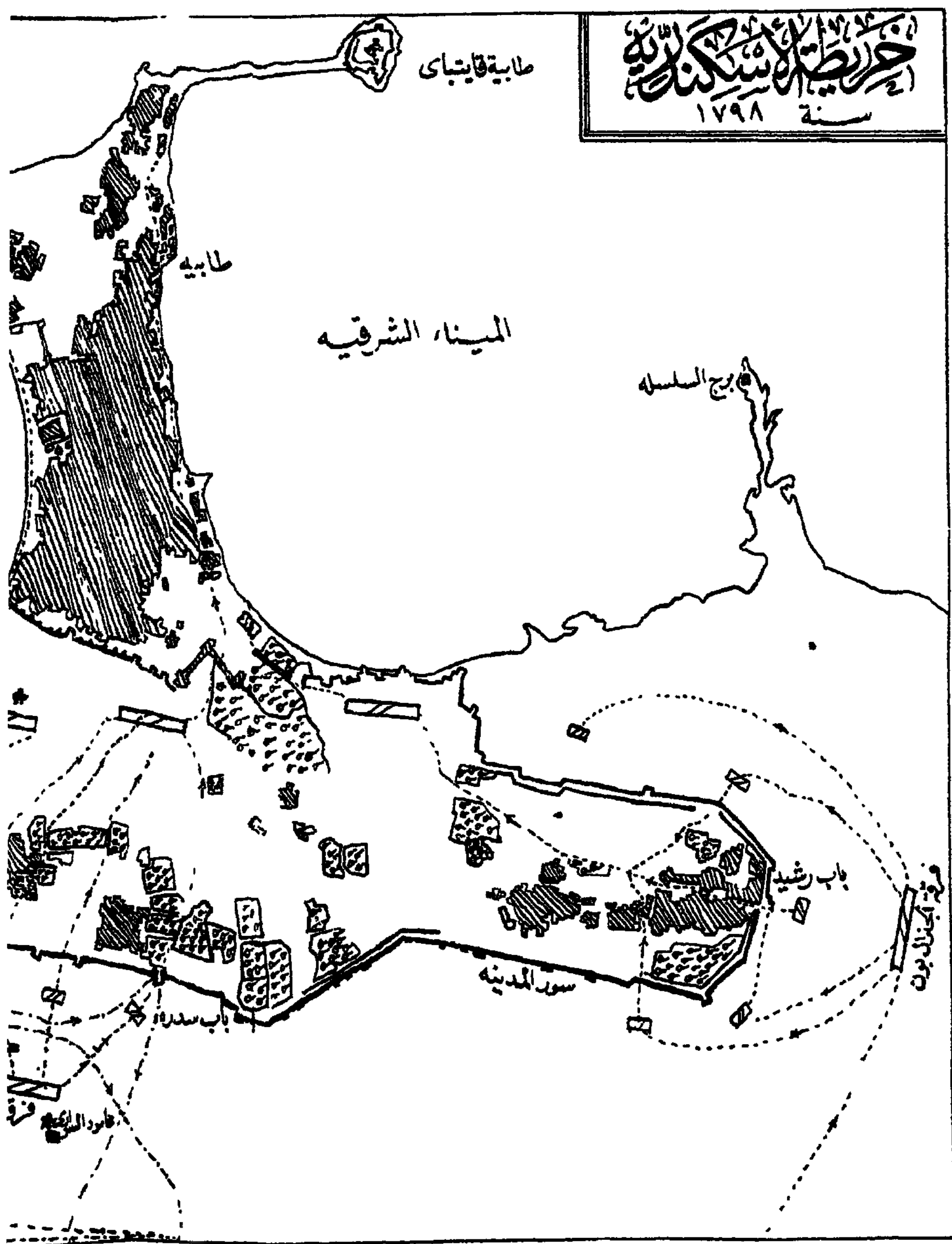
دفاع أهالى الثغر

واحتلال الاسكندرية

لما سمع نابليون حديث القنصل خشى عودة الأميرال نلسن ومباغتته بأسطوله فى
عرض البحر فأمر بالمبادرة الى إنزال الجنود للبر ، واختار المرسى عمارته ونزول جنوده جهة
العجمى (١) التى تبعد عن الاسكندرية غرباً نحو اثني عشر كيلومتراً ، وبدأت الجنود
تخرج الى البر ليلاً (ليلة ٢ يوليه سنة ١٧٩٨) ، ونزل نابليون الساعة الحادية عشرة
مساءً كما ذكر ذلك فى تقريره الى حكومة الديركتوار ، وظل نزول الجنود متراصلاً طول
الليل ، وفى نحو الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ يوليه كان عدد الذين نزلوا بالبر نحو خمسة
آلاف مقاتل من فرق الجنرالات كليبر Kleber وبون Bon ومنو (٢) Menou ، وبعد

(١) بالشاطيء الممتد بين العجمى والدخيلة

(٢) كان الجيش مؤلفاً من خمس فرق وهى فرقة الجنرال كليبر ، وفرقة
الجنرال ديزيه ، وفرقة الجنرال بون ، وفرقة الجنرال منو ، وفرقة الجنرال رينيه ،
هذا الفرسان الذين كانوا تحت قيادة الجنرال دumas ثم الجنرال مورا Murat



خريطة الاسكندرية سنة ١٧٩٨ — وتجد بها بعض المعالم القديمة والحديثة ، كسور الاسكندرية قايتباي ، و برج السلسلة ، والخطوط المائلة تمثل حدود عمران المدينة في أواخر القرن الثامن عشر (أنظر ص (منو) و (كليبر) و (بون) من قواد الجيش الفرنسي في هجومهم على السور الذي كان أهالي الاسكندر بالخريطة موقع فرسان العرب الذين كانوا يناوشون القوات الفرنسية قبل اقترابها من المدينة ثم انسحابهم جنوب

مشاة وركبانا ، رجالا ونساء ، كباراً وصغاراً ، ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح ، فأصدر أمره بالهجوم العام ، وأخذ الأهالي يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار إطلاقاً من غير إحكام ، فأحاط الجنود بأسوار المدينة وهاجموها من ثلاث جهات ، الجنرال منو من الغرب حذاء الشاطئ ، والجنرال بون من جهة باب رشيد ، والجنرال كليبر من باب سدره واندفعوا إلى الأسوار ، فقابلهم الأهالي بإطلاق النار إطلاقاً شديداً من المدافع والبنادق ، وقاومت الأبراج مقاومة عنيفة ، لكن المدافعة لم تدم طويلاً ، فافتحم الجنود الأسوار ودخلوا المدينة ووصلوا إلى الجهة المسكونة منها ، وكانت مقاومة الأهالي قد فدحتهم بالخسائر فهاجموا الناس في بيوتهم ، فدافع هؤلاء عن أنفسهم وأخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين ، وكاد نابليون نفسه يصاب برصاصة قاتلة لولا الحظ الذي نجاه من الموت ، قال بوريين Bourienne سكرتيره الخاص في هذا الصدد : « دخل بونا بارت المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنباً لجنب ، وكنت أرافقه في سيره ، فأوقفنا طلقات رصاص صوبها علينا رجل وامرأة من أحد النوافذ ، واستمرا يطلقان الرصاص ، فتقدم جنود الحرس وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم وقتلوا الرجل والمرأة (١) »

وخشى نابليون حدوث المذابح في المدينة وهو الذي أعلن أنه إنما جاء لمحاربة المماليك ، فأمر جنوده أن يكفوا أيديهم واستدعى إدريس بك قومندان السفينة العثمانية التي كانت راسية بالنهر ، وطلب إليه أن يقنع أهل المدينة بالكف عن القتال ويبلغهم أنه إنما جاء لمحاربة المماليك (٢) ، فبلغهم القومندان الرسالة وكف الأهالي عن المقاومة منعنين للقوة القاهرة ، وظل السيد محمد كريم يدافع بعد دخول الفرنسيين المدينة

(١) مذكرات بوريين سكرتير نابليون الخاص الجزء الأول

(٢) قبل أن يحتمل نابليون الاسكندرية أرسل إلى والي التركي (أبو بكر

باشا) وإلى إدريس بك قومندان السفينة العثمانية رسالتين يعرب فيهما عن مقاصده الودية نحو السلطان ويعلم أن إنما جاء لمحاربة المماليك ، وقد نشرنا هاتين الرسالتين في قسم الوثائق التاريخية

معنصا بطاوية قايتباى ومعه فريق من المقاتلة ، الى أن كلت قواه ورأى المقاومة عبثاً لا يجدى فكف عن القتال وسلم القلعة ، فتلقاه نابليون قهراً كريماً وأبقاه حاكماً للاسكندرية ، وبذلك سلمت المدينة بقلاعها وأسوارها ومراقها الى الفرنسيين ، ولم يكن بد من التسليم لأن قوة الدفاع كانت أضعف من أن تقاوم جيش نابليون وهو في عنفوانه وقوته ، وشرعت السفن الفرنسية في مساء اليوم الذى احتلت فيه المدينة تنزل بقية جنودها وأحمالها في الميناء الغربية

كتب الجنرال برتويه^(١) في رسالته الى وزارة الحربية الفرنسية بتاريخ ٦ يوليه سنة ١٧٩٨ يصف احتلال الفرنسيين للاسكندرية فقال : « ان الأهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت ، وقد أصيب في هذه الموقعة الجنرال كليبر بعار نارى في جبهته ، فخرج جرحاً بليغاً ، وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلى السور فنالته رضوض شديدة ، وأصيب الادجودان جنرال اسكال Escale بجرح بليغ في ذراعه من عيار نارى ، وقتل اللواء ماس Mas وخمسة ضباط آخرون »

وكتب الجنرال منو الى نابليون يقول « ان الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الاقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التى كانت تحيط بهم لأن الاعداء (الأهالى) قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم »
وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسى في مهاجمة الاسكندرية في رسالته الى حكومة الديركتوار بثلاثين الى اربعين قتيلاً وثمانين الى مائة جريح ، وقدرها بعد ذلك في مذكراته بثلاثمائة بين قتيلى وجريح ، وقدر خسائر الاسكندرانيين سبعمائة الى ثمانمائة بين قتيلى وجريح ، وأمر بدفن قتلى الفرنسيين حول عمود السوارى باحتفال عسكرى كبير وتقيست أسماؤهم على قاعدة العمود

رواية الجبرتى عن احتلال الاسكندرية

اليك ما ذكره الجبرتى عن رسو العارة الفرنسية واحتلال الاسكندرية :

(١) رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية

« فلما كان يوم الأربعاء العشرون من الشهر المذكور (محرم سنة ١٢١٣) (١) وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمهور بأنه في يوم الاثنين ثامن عشر وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة ، فارسوا في البحر وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد ، فلما نزلوا اليهم عوقوم عندهم ، فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب الى جهة العجمي وطلعوا الى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر ، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد ، فعندها خرج أهل الثغر ومن انضم اليهم من العربان المجتمعة وكاشف (حاكم) البحيرة ، فلم يستطيعوا مدافعتهم ، ولا أمكنهم ممانعتهم ، ولم يثبتوا لحربهم وانهزم الكاشف ومن معه من العربان ، ورجع أهل الثغر الى الترس في البيوت والحيطان ، ودخلت الافرنج البلد ، وانبث فيها الكثير من ذلك العدد ، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون ، وعن أنفسهم وأهلهم يقاتلون ويمانعون ، فلما أعيام الحال ، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال ، وليس ثم عندهم للقتال استعداد خلوا الابراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته ، طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم ، ورفعوا عنهم القتال ومن حصونهم أنزلوهم ، ونادى الفرنسيين بالأمان في البلد ورفع بنديراته عليها »

سياسة نابليون

في الاسكندرية

كانت الاسكندرية أول مدينة مصرية نزلها نابليون وواجه فيها المصريين ، فعزم على أن يتبع فيها السياسة التي رسمها من قبل وهي مجاملة الاهالي ومحاسنتهم واجتذابهم اليه بالكلم الطيب والوعود الحسنة ، لذلك بادر عقب احتلاله الاسكندرية الى دعوة مشايخ المدينة وأعيانها لمقابلته ، فلما اجتمع بهم أعرب لهم عن تمنيه السعادة وازدهار لشعب المصري وأوضح لهم انه لا يقصد بالاهالي سوءاً وطارحهم الرأي في

اصلاح حالة البلاد ، وواقفهم على الاطمئنان على حياتهم وأموالهم وأن لا يحاربوا الجيش الفرنسي وأن يكونوا موالين للجمهورية الفرنسية ، وردّ الى السيد محمد كريم الذي استبسل في الدفاع عن المدينة سلاحه وقال له في مجلس من أعيان المدينة : « لقد اخذتك والسلاح في يدك ، وكان لى أن أعاملك معاملة الاسير ، ولكنك استبسلت في الدفاع ، والشجاعة متلازمة مع الشرف ، لذلك أعيد اليك سلاحك وآمل أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الاخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة » (١)

حضر الميسو فيغان دينون هذا المجلس وأثبت في كتابه (٢) أقوال نابليون للسيد محمد كريم ووصفه بقوله « لقد لاحظت على ملامح هذا الرجل الذكاء والدهاء ، وكأنما كان يكتّم عواطفه عناء ، على انه بدت عليه علامات التأثر من العفو الذي أسداه اليه القائد العام » وصوره في مجموعة رسومه

وعقب اجتماع نابليون بأعيان المدينة أذاع منشوره الذي كان أعده من قبل ، وقد بسطنا الكلام عنه في الفصل الثاني ، وأطلق سراح أسرى مالطه ليوزعوا نسخاً منه في البلاد ، فلم يكن من الاهالي الا أن قابلوا هذا المنشور بالاذعان لا اقتناعاً به ولكن نزولاً على حكم القوة ، وأذاع نابليون أمره في الجند وحذرهم عقابه اذا لم يحترموا الشعائر الدينية للأهالي ونهاهم أن يتعرضوا لهم في أموالهم وأملاكهم

وقبل أن ترسو العمارة على سواحل الاسكندرية بعدة أيام أمر نابليون باذاعة منشور على الجنود يوصيهم فيه باحترام شعائر المصريين الدينية وعدم التعرض لنسائهم ويحذرهم من الاعتداء على أموالهم وبيوتهم ، وفرض عقوبات شديدة لجرائم النهب والاعتداء (٣) ، وبعد احتلال الاسكندرية أصدر الجنرال برتويه رئيس أركان الحرب أمراً بتاريخ ٣ يوليه يتضمن تعليمات القائد العام في هذا الصدد وأهمها « ان القائد العام يريد أن يستمر الاهالي يؤدون شعائرهم الدينية في المساجد كما كانوا

(١) و (٢) كتاب رحلة في الوجه البحرى ومصر العليا

(٣) نشرنا هذا المنشور في قسم الوثائق التاريخية

من قبل ، ويحظر على الفرنسيين جميعاً من عسكريين وملكيين دخول المساجد أو الاجتماع على أبوابها، وعليكم أن تأمروا ضباط الفرق بأن يتلوا هذا الامر على جنودهم وأن يعيدوا تلاوة أمر القائد العام الخاص بمعاينة النهب والتعدي على النساء، وعليكم أن تعدموا رمياً بالرصاص كل من يخالف هذه الاوامر، ومن المهم أن يدفع كل جندي من الجنود ثمن ما يبتاعه في المدينة وأن يحافظوا على أموال الاهالي وكرامتهم وعلينا أن نكتسب صداقتهم وأن لانعادي سوى المماليك »

كانت نتيجة مقابلة نابليون لزعماء الاهالي أن كتبت في يوم ٤ يوليه وثيقة بالعهود التي أخذها الفريقان كلاهما على الآخر ، واليك نص الوثيقة :

« هذا ما تم الاتفاق عليه بين أعيان الاسكندرية الموقعين بأسمائهم وبين رئيس الامة الفرنسية والقائد العام للجيش المعسكر بالمدينة

» يستمر الاعيان على العمل بقوانينهم والقيام بشعائهم الدينية وفض المنازعات بينهم مع مراعاة العدل والابتعاد عن مسالك الهوى ، ولهم أن يختاروا القاضي الذي يتولى القضاء في محكمة الشرع من خيار العلماء المشهود لهم بالاستقامة والتقوى ، وعليه أن لا يقضى في أمر الا بعد الرجوع الى رأي مجلس العلماء

« ويجتهد الموقعون على هذا في اقامة العدل ويبذلون ما في وسعهم لتحقيق هذا الغرض، وسيعملون جهودهم لما فيه صالح البلاد وتوفير أسباب السعادة للاهالي ومحاربة الاشرار والمفسدين ، ويتعهدون كذلك أن لا يخونوا الجيش الفرنسي وأن لا يعملوا عملاً يضر مصالحه وأن لا يشتركوا في مؤامرة تدبر ضده ، وتعهد لهم القائد العام من جهته بأن يمنع كل جندي من جنوده من التعدي على أهالي الاسكندرية، ويعلن ان من يرتكب من الجنود عدواناً أو ظالماً ينكل به ويعاقب بأشد أنواع العقوبة ، ويتعهد القائد العام علناً بأن لا يجبر أيّاً من الاهالي على تغيير دينه وتغيير شعائره الدينية فإن مقصده هو اقرار الاهالي في دينهم واطمئنانهم على أنفسهم وأموالهم وسينذل في هذا السبيل كل ما لديه من قوة ماداموا لا يقصدون « ولا بجيشه سوءاً »

هذا الاتفاق مؤرخ ٢٠ محرم سنة ١٢١٣ (الموافق ٤ يوليه سنة ١٧٩٨) وموقع عليه بالاسماء الآتية :

« ابراهيم البرجى مفتى الحنفية ، سليمان الكلاف مفتى المالكية، محمد المسيرى، احمد عبد الله الشافى ، حسن كانيد، عباس القويضى ، مصطفى محمد »

لم نجد لهذا الاتفاق ذكراً فى تاريخ الجبرتى ولا فى أي مرجع آخر من المراجع العربية ولذلك ترجمناه عن الاصل الفرنسى الوارد فى لاجونكيير (١) وقد أورد الجبرتى مقابلة نابليون لاعيان الاسكندرية ولم يذكر فيها الا طلبه جمع السلاح وتعليق الشارة الفرنسية المثلثة الالوان (الكوكارد) على صدورهم واليك ما قاله الجبرتى

« وطلب أعيان الثغر فحضروا بين يديه فألزمهم بجمع السلاح واحضاره اليه وان يضعوا الجوكار فى صدورهم فوق ملبوسهم ، « والجوكار » ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك مستديرة فى قدر الريال سوداء وحمراء وبيضاء توضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيطة بعضها ببعض » ولم نجد فى الجبرتى ذكراً ولا بطريق الاشارة لأحد من الموقعين على هذا الاتفاق سوى الشيخ محمد المسيرى فقد ذكره فى عرض الكلام عن ولاية على باشا الطرابلسى فأثنى عليه ووصفه بالعلم وقال عنه انه « أجل مذكور فى الثغر »

أوامر نابليون وتعليماته قبل مغادرته الاسكندرية

قبل ان يزحف نابليون بجيشه على القاهرة عين الجنرال كليبر قومنداناً وحاكماً لدائرة الاسكندرية وضواحيها ، والجنرال مانسكور Manscourt قومنداناً للموقع ،

(١) حملة مصر الجزء الثانى، وهذا الكتاب مطبوع سنة ١٨٩٩، وقد رجعنا الى كتاب الميسو تيبودو Thibaudau المطبوع سنة ١٨٢٨ فوجدنا به هذه الوثيقة مع زيادة بعض العبارات التى أضفناها فى الترجمة ومع اختلاف بسيط فى أسماء الموقعين عليها فان تيبودو لم يذكر سوى أسماء ابراهيم البرجى مفتى الحنفية ، ومحمد المسيرى، واحمد (ولعله احمد عبد الله الشافى)، وسليمان الكلاف مفتى المالكية

والقبطان لبلاى Le Pelley قومنداننا للميناء ، وعهد الى الكولونل كريتان Cretin
تحصين ثغر الاسكندرية وترميم قلاعہ القديمة وانشاء قلاع جديدة لجعلها بمأمن من
البوارج الانجليزية

ويعد الجنرال كليبر من أكفأ قواد الحملة الفرنسية وكان قائد فرقة من الفرق المعدة
للزحف على القاهرة ، لكن الجراح التي أصابته يوم احتلال الاسكندرية حالت دون
اشتراكه في الزحف ، فأبقاه نابليون بالاسكندرية الى أن يشفى من جراحه ، ووكل
اليه شؤون الدفاع عنها والاشراف على ادارتها وترك بها حامية من الجنود (١) ، وعين في
الوقت نفسه الجنرال منو Menou حاكما لرشيد ، وكانت اصابته كذلك سبباً في
تخلفه عن اللحاق بالجيش الزاحف في داخلية البلاد ، وقد شاعت الأقدار ان كليبر
ومنو قد توليا على التعاقب القيادة العامة للجيش الفرنسى عقب سفر نابليون الى
فرنسا كما سيجيء ببيانہ

ولما أزمع نابليون مغادرة الاسكندرية (يوم ٧ يوليہ سنة ١٧٩٨) أوصى الجنرال
كليبر أن « يينزل كل ما في وسعه لاستبقاء العلاقات الحسنة مع الأهالى وابداء كل
أنواع الاحترام للمفتين ورؤساء المشايخ في المدينة » ومع ذلك فان نابليون قد فرض
على المدينة بعد احتلالها غرامة حرية قدرها ١٥٠ ألف فرنك (ستة آلاف جنيه)
وهي غرامة فادحة إذا قيست بما كانت عليه المدينة في ذلك الحين من الفقر والتأخر
الاقتصادى

وقبل أن يغادر الاسكندرية أمر بابقاء السيد محمد كريم حاكما لها وأعرب له
عن ارتياحه لمسلكه الذى اتخذه من يوم قدوم الجيش الفرنسى وكتب له الخطاب
الآتى يوم مغادرته الاسكندرية :

(١) تتألف هذه الحامية من ٦٥٠٠ جندي يضاف اليهم ٣٠٠٠ من بحارة
السفن اتى أقلت الجنود أى ان مجموع الحامية بلغ نحو ٩٥٠٠

« الى السيد محمد كريم

« المعسكر العام بالاسكندرية في ١٩ مسيدور من السنة السادسة (٧ يولييه

سنة ١٧٩٨)

« لقد سر القائد العام سروراً تاماً من الخطة التي سلكها السيد محمد كريم منذ
قدوم الجيش الفرنسى ، واعراباً عن هذا السرور يعينه في وظيفة محافظ دائرة
الاسكندرية ، وستصل اليه أوامره بواسطة الجنرال كليبر القومندان العام للجهة ، وهذا
لا يمنعه من أن يرسل القائد العام رأساً متى شاء ، وعلى الجنرال كليبر أن يطلب منه
كل ما تقتضيه مهام الجيش الفرنسى وبوليس دائرة العرب . بونا بارت (١) »

موقف كليبر في الاسكندرية

بذل الجنرال كليبر ما في طوقه واستخدم كفايته وجهده لتوطيد مركز الفرنسيين
في الاسكندرية من الوجهتين العسكرية والادارية ، على أنه فشل في مهمته ، ولم يكن ينظر
الى مقامه بالاسكندرية بعين الارتياح لانه كان من القواد الذين يطمحون الى نيل المجد
في ميادين القتال لا بين أسوار المدن ، ولقد كتب الى نابليون يقول (٢) انه يعتبر
الاسكندرية منقبة له ويرجو منه أن ينقذه من منغاه في عاجل الوقت ، وانه وان
كانت جراحه لا تلتئم قبل شهر تبيد أن ذلك لا يمنعه من السفر الى القاهرة واللاحاق بفرقة
ان مهمة كليبر في الاسكندرية كانت شاقة لأن حالة الحرب جعلت
الاسكندرية في شبه حصار بحرى شل حركة السفن وعطل التجارة التي هي أكبر
مورد ثروة الأهالى ، لذلك أخذ الكساد يضرب في المدينة وتشتد الفاقة والضيق
بالأهالى فيزداد تدمرهم وسخطهم من الاحتلال الفرنسى ، ولقد شكّا كليبر غير مرة
من هذه الحال الى نابليون وأعرب له عن حيرته في دفع عطاء الجنود لان موارد

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٨٥

(٢) رسالة كليبر الى نابليون بتاريخ ١٢ يولييه سنة ١٧٩٨

المالية لا تتسع لمرتباتهم ، وكان الأهالى من ناحيتهم لا ينفكون ينظرون الى الفرنسيين بعين المقت والكراهية ، والجنود من جهتهم لا يكبحون لأنفسهم جماحا ، بل كانوا يقتربون من المنكر والعدوان ما يؤجج نار الكراهية ويشير الحفيظة عليهم فى نفوس الناس ، ذكر كليبر فى رسالته الى نابليون (١) ان بحارة الأسطول قد خربوا ضواحي (أبو قير) فكانوا يقتصبون ثمار الأشجار ويقطعون النخيل من جذوعه ، وقد لفت كليبر نظر الاميرال « برويس » قومندان الاسطول الى كفهم عن هذا العدوان قائلا له « انكم تقدرّون عواقب هذا السلوك فى اثاره روح الكراهية فى نفوس الأهالى فى الوقت الذى نحن محتاجون فيه الى كسب قلوبهم » وكان بعض الجنود فى المدينة يخرج على النظام ويرتكب السرقات ، وبالرغم من حكمة الجنرال كليبر واناته وبذله الجهد فى تحسين علاقة السلطات الفرنسية بالأهالى فان روح السخط كانت كامنة فى جوانحهم ، والواقع أنهم ما رضخوا للحكم الفرنسى الا اذعانا للقوة وكانوا يتحينون الفرص للمقاومة والوثبة ، وقد وقعت حادثة فى يوم ١٣ يولييه سنة ١٧٩٨ كادت تفضى الى هياج عام لولا ما اتخذته الجنرال كليبر من الحكمة والحزم ، فقد قتل فى هذا اليوم أحد جنود مدفعية الاسطول ولم يعرف قاتله ، ووجدت جثته ملقاة فى الشارع ، وفى الوقت نفسه ألقى فى البحر خادم أحد الضباط فمات غرقا ، حصلت الحادثتان فى وقت واحد ، فترامى الخبر فى المدينة وتحفز الناس للهباج فأتخذ كليبر وسيلة الشدة فى معالجة هذه الحادثة ، فاعتقل بعض أعيان المدينة بصفة رهائن واستدعى حاكم المدينة الوطنى (السيد محمد كريم) والقاضى الشرعى وكبار الاعيان وطلب منهم البحث عن الجناة ومعاقبتهم طبقا لقوانين البلاد ، وتهدد بشنق من تقع عليه القرعة من الرهائن اذا لم يعاقب الجاني فى خمسة أيام وتمهد السيد كريم وزعماء المدينة بتعقب الجناة ومحاكمتهم ، لكن البحث لم يؤد الى نتيجة ما ، وتبين أن القاتل واسمه السيد احمد قد نجا بنفسه وأفلت من القصاص فحوكم غيايبا بالحكمة الشرعية وحكم عليه قاضى الاسكندرية

بالقصاص بمحضر جمع من العلماء وأعيان المدينة وكتب بذلك اعلام شرعي والظاهر ان الجنرال كليبر قد تحقق من أخباره وأبحاثه ان الجندي القتل هو الذي استهدف للقتل باعتدائه على الناس ولذلك أصدر عقب الحادثة منشوراً الى الجنود قال فيه : « أيها الجنود انكم ستستهدفون لمثل هذه الحوادث اذا خالفتم أوامر القائد العام ولم تحترموا أملاك الأهالي وعاداتهم وديانهم ، وقد رأيت من واجبي حماية للاهالي ومحافظة واطمئنانا عليكم أن أصدر اليكم الأوامر الآتية تفاديا من عواقب الخروج عن حدود الواجبات والنظام

أولا — كل من يدخل من مسكن أحد المسلمين في مكان النساء يعد محرضاً على القتل والاخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام

ثانياً — كل من يتسلق بيتاً من بيوت المسلمين أو غير المسلمين لاي من الأسباب يعد سارقاً ويحكم عليه بالاعدام

ثالثاً — من يصيد الحمام داخل المدينة باستعمال الآلات النارية وينشأ عن عمله تعريض حياة الأهالي للقتل والخطر كما حدث من قبل يعد قاتلاً ويحكم عليه بالاعدام

رابعاً — كل من ينتهك شعائر المسلمين الدينية في المساجد أثناء صلواتهم أو وضوئهم يعد محرضاً على الاخلال بالنظام ويحكم عليه بالاعدام»

بين الاسكندرية ودمهور

هزيمة الجنرال ديموى

وكانت روح الكراهية للفرنسيين تظهر ويعلتها الأهالي كلما وجدوا سبباً أو سنحت فرصة ، فمن ذلك ان الجنرال كليبر أمر بتسيير كتيبة طوافة من الجنود تقوم من الاسكندرية لتجوب بعض جهات مديرية البحيرة فتخرج على دمنهور ثم تقشنى الى رشيد فأبوقير فلاسكندرية للاطمئنان على سلامة مواصلات الجيش الفرنسي بين

المدن والمواقع المهمة ، وكان ذلك بأمر من نابليون الذى اختار الجنرال ديموى Dumuy
لقيادة الكتيبة

قامت الكتيبة يوم ١٧ يولييه سنة ١٧٩٨ ، ولم تستطع أن تنزود ما يكفيها من الماء
والزاد لأن الأهالى علموا بعزم القيادة الفرنسية على تجريد هذه الكتيبة فهربوا
الجمال لكيلا يستعين بها الفرنسيون ، ولقيت الفرقة عنتا ومشقة بعملهم هذا ، قال
الجنرال ديموى فى تقريره عن طوافه « على بعد نصف فرسخ من الكريون (١) هاجم
الكتيبة عدد كبير من العرب وكان هذا العدد يزداد كلما تقدمنا فى السير وقد شتتنا
هذه الجموع بالرصاص ولم نفقد سوى قتيل واحد وجريح ، وقد داخلنى الشك من
الاتفاق بين هجوم هذا الجمع علينا ومغادرتنا للاسكندرية ، وخيل إلى أن هناك
اتصالا بينهم وبين أهالى الاسكندرية ، تابعت الكتيبة سيرها ووصلت الى دمنهور ،
وكنّا فى خلال هذه المسافة محرومين الماء حرمانا تاما ، وكان من المستحيل علينا
ونحن فى الاسكندرية أن نحصل على جمل واحد أو قربة واحدة لحمل الماء على رغم
أوامر الجنرال كليبر ، وبلغت بنا الحال انه فى يوم تحرك الفرقة اختفت الجمال من
الاسكندرية ثم عادت إلى الظهور فى شوارع المدينة غداة مسيرنا ، مما يدل على ان
هناك تواطؤا بين الأهالى وأصحاب الابل »

لقيت الكتيبة عنتا ومشقة فى طريقها الى دمنهور فقد كان الأهالى لا يزالون
يذكرون اعتداء الجنود على القرى أثناء زحف الجيش الى القاهرة فكانوا يقابلون
الفرقة بما استطاعوا من أنواع المقاومة ، ولما دخلت دمنهور لقيت بها تمردا شديدا
حيث اجتمع من الأهالى نحو ستة آلاف (٢) معدّين للقتال وقد غصت بهم الطرق
والشوارع وتغطت أسطح المنازل ، فرأى قائد الكتيبة ان من الخطر الاصطدام مع
هذه الجموع ، فأخلى دمنهور بعد ان قتل بعض جنوده وصدت المدافع الفرنسية هجوم

(١) من بلاد مركز كفر الدوار

(٢) تقرير الجنرال ديموى المؤرخ ٣ ترميدور (٢١ يولييه سنة ١٧٩٨)

الجموع النائرة وانسحب الى بركة غطاس وهناك استقى الجنود من الماء وهاجمهم العرب ثانية فاعتزمت الكتيبة ان ترجع الى الاسكندرية وتعديل هن متابعة سيرها الى رشيد وذلك لما عاتته من المتاعب والغارات في طريقها ، رجعت ادراجها الى الاسكندرية مضعضعة منهوكة القوى بعد ان خسرت ثلاثين بين قتيل وشريد ، وأخفت شر اخفاق فيما قصدت إليه ، وأخذ الأهالي يتعقبونها حتى وصلت الاسكندرية يوم ٢٠ يولييه ، وكانت جموع العرب والأهالي لا تفتأ تحتشد حول أسوار الاسكندرية متشجعة لما حل بفرقة الجنرال ديموى من الخسائر وقتلت بعض الجنود المالمطين بجهة عمود السوارى وجرحت جندياً آخر ، فاضطر الجنرال كليبر الى انشاء مخافر على الاكبات المشرقة على المدينة لمنع توالى الهجمات وحماية السرايا (الدوريات) المسلحة التى كانت ترود الضواحي ، وقد فتكت هذه السرايا بقوة من العرب على مقربة من باب رشيد يوم ٢٣ يولييه فقتلت منهم ثلاثة وأربعين رجلاً لم يكن الفرنسيون يتوقعون هذه المقاومة بل كانوا يظنون الأهالي قد أخلدوا واستكانوا ، قال الجنرال ديموى فى تقريره « انى آسف كثيراً لانى لم أجد فى جولى هذه مصرى واحداً يحمل الشارة الفرنسية ! » واستنتج من حوادث دمنهور ان هناك مخبرات سرية بين الاسكندرية والمدن التى مرت بها الفرقة ولاحظ ان أهالي دمنهور كانوا على علم بقدوم الفرنسيين قبل وصولهم فكانو معدّين لحربهم ما أعدّوا

مسألة السيد محمد كريم

والقبض عليه ومحاكمته

بدأت القيادة الفرنسية من ذلك الحين ترتاب فى نيات السيد كريم حاكم الاسكندرية وتتهمه بخيائته للجمهورية وممالأته عليها واثارته الهياج والعصيان فى نفوس الأهالي ، وكانت عودة كتيبة الجنرال ديموى بالحالة التى وصفناها والخسائر التى لحقتها قد نالت من هيبة الجيش الفرنسى فى الاسكندرية ، فأراد الجنرال كليبر

أن يستعيد هذه الهبة بعمل ينطوي على البأس والشدة ، فأمر بالقبض على السيد محمد كريم يوم ٢٠ يولييه أى يوم عودة كتيبة ديموى ، وبعث به الى ظهر السفينة « ديبوا » التى كانت بالاسكندرية فأقلته الى (أبوقير) حيث كان الاسطول الفرنسى راسياً واعتقل بالبارجة (أوريان) سفينة الاميرال برويس

اتهم كليبر السيد محمد كريم بأنه كانت له يد فى المقاومة التى لقيتها كتيبة الجنرال ديموى ، وكان السيد كريم قيل القبض عليه قد دافع عن أهل المدينة لمناسبة وضع سلفة اجبارية على تجار الثغر يدفعونها للجيش الفرنسى ، فعارض السيد كريم فى تقرير هذه السلفة وتلكأ فى الموافقة عليها ومساعدة السلطة الفرنسية فى تحصيلها ، فأمرها كليبر فى نفسه ، ولما عادت كتيبة الجنرال ديموى وتحقق منه مالحق الجنود من الخسائر بسبب توالى هجوم الاهالى عليهم ساءت ظنونه فى السيد محمد كريم وموقفه ، واجتمعت كل هذه العوامل فافضت الى القبض عليه وابعاده عن المدينة أراد كليبر بإبعاد السيد محمد كريم عن الاسكندرية أن يقضى على نفوذه الأدبى بين الاهالى ويضعف أملهم فى عودته ، كتب كليبر الى الاميرال « برويس » قومندان الاسطول الفرنسى بتاريخ ٢٠ يولييه سنة ١٧٩٨ يخبره بنبأ اعتقال السيد محمد كريم ويقول « لقد رأيت أن أعوان هذا الرجل يقون مابقوا آملين عودته اذا هو ظل قريباً من المدينة ، لذلك رأيت قطعاً لهذا الأمل أن أرسل به اليك لتعتقله على ظهر البارجة (أوريان) » (١)

وقد أوصى فى رسالته الاميرال برويس بأن يحسن معاملة السيد محمد كريم فى اعتقاله وأن يأمر اذا شاء بأن تؤدى له التحية العسكرية الى أن يعرض أمره على القائد العام ويقرر فى شأنه ما يراه ، وكتب الى السيد كريم يوم اعتقاله خطاباً قال فيه :

(١) ذكر الجبترى فى كتابه ما يشير الى هذه الواقعة فقال :

« فلما حضر الفرنسيس ونزلوا الاسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وضائبوه بالمال وحبسوه فى مركب » فرواية الجبترى صحيحة تؤيدها المراجع الفرنسية .

« انى لم أقصد من ارسالكم الى بارجة فرنسية إلا أن أمكنكم من أن تلحقوا بالقائد العام ، وعلى ذلك بعثت بكم الى قومندان الاسطول الفرنسى ليسهل لكم الوصول الى القاهرة من طريق النيل ، فاذا وصلتم الى مقابلة القائد العام أمكنكم أن تثبتوا له أنكم تستحقون ما وضعه فيكم من الثقة ، وفي انتظار سفركم أرجو أن تبلغوني ما ترغبونه وسأمر بأن لا يمنع عنكم كل ما تطلبون » وقد تلقى الاميرال برويس قومندان الاسطول الفرنسى أسيره بالاحترام وأكرم مشواه ، وكتب عنه الى نابليون فى رسالته التى بعث بها اليه بتاريخ ٢٦ يولييه - ولعلها آخر رسالة منه قبل كارثة (أبوقير) - فقال « أرسل الى الجنرال كليبر منذ ثلاثة أيام حاكم الاسكندرية الوطنى فأفردت غرفة كبيرة له ولحاشيته وأنزلته نزلًا كريماً ، وأتى أعامله بكل رعاية واحترام معتقداً انى بذلك أحقق رغباتكم الى أن تصدروا أمركم فى شأنه وتبتوا فى مصيره »

وفى يوم اعتقال السيد محمد كريم جمع الجنرال كليبر أعيان المدينة وأبلغهم خبر القبض عليه للريية فى اخلاصه للجمهورية الفرنسية ، وطلب اليهم أن يختاروا حاكماً للمدينة بدلاً عنه ، فوقع اختيارهم على السيد محمد الشورى الغريانى ، ووعدوا بمعاونته فى تأديته وظيفته ، وقد كان موقف الحاكم الجديد دقيقاً حرجاً لان السيد محمد كرم كان محبوباً محترماً من الاهالى ، وقد زاد فى احترامه اضطهاد السلطة الفرنسية له ، فاذا كان يستطيع خلفه أن يفعله فى وظيفته ؟ كتب الجنرال كليبر الى نابليون رسالة (١) فهم منها حالة الحاكم الجديد النفسية . قال

« أخبرنى السيد محمد الغريانى قبل أن يقبل وظيفة المحافظ (الحاكم) أن أهالى الاسكندرية يختلفون عن سائر أهالى القطر بأنهم أصعب مراساً وقرب الى القلق وأهياج ، وأبدى لى بعض استدراكات وملاحظات تخص ادارة المدينة ، فجبته على ملاحظاته بأن الرجل الذى يتنبأ بمصاعب الوظيفة جدير به أن يعرف كيف يضطلع بها ويتغلب عليها ، وبذلك أقنعتة بقبول المنصب »

(١) بتاريخ ٢١ يولييه سنة ١٧٩٨ لمناسبة القبض على السيد محمد كريم وتعيين

السيد محمد الغريانى بدله

وقد قبل السيد محمد الغريانى وظيفة المحافظ ، وكان الشيخ محمد المسيرى كبير علماء المدينة يعاونه فى عمله وكان أول عمل طلبه كبير منهما أن يساعدا على تحصيل السلفة الاجبارية التى فرضها على تجار المدينة فطلبا منه اقتصاص هذه السلفة فنزل منها عن خمسة عشر الف فرنك يحصلها من ايراد الجمارك

عرض الجنرال كليبر فى آخر رسالته أمر السيد محمد كريم على القائد العام وادغب اليه فى أن لا يأمر بعودته الى الاسكندرية خوفا من أن يستفحل أمره ويتضاعف نفوذه فى نفوس الاهالى ، وقد أقر نابليون عمل الجنرال كليبر وأرسل اليه بتاريخ ٣٠ يولييه خطابا من القاهرة جاء فيه « انى لا أوافق على اعتقال كريم وحسب بل أمرت فوق ذلك باعتقال أشخاص آخرين » والواقع انه أصدر فى هذا اليوم منشورا عسكريا يعلن استيائه من سلوك أهل الاسكندرية وأمر بأن يطلب من جميع الاهالى على اختلاف أجناسهم تسليم أسلحتهم الى قومندان الموقع ومن يتأخر منهم عن تنفيذ هذا الامر بعد ثمان وأربعين ساعة من نشره فجزاؤه الاعدام ، وأمر بهدم منزل الشخص المتهم بقتل الجندى الفرنسى ، وباعتقال خمسين شخصا يكونون رهائن وحبسهم على ظهر الاسطول الى أن يستوثق من سلوك أهل الاسكندرية (١)

وفى اليوم نفسه أصدر أمرا آخر بفرض ضريبة ثلثماية ألف فرنك على تجار الاسكندرية يحسب منها الثلاثون ألف فرنك التى فرضها الجنرال كليبر والباقي يجب استصفائه وجمعه فى ٢٤ ساعة من نشر هذا الامر (٢) وأرسل الى الاميرال برويس كتابا فى شأن السيد محمد كريم يفبئه فيه بأنه قد تحقق خيائته ويأمره على ذلك أن يكبله فى الحديد ويسد عليه كل منفذ حتى لا يهرب ، وأن يسجن أتباعه وحاشيته ويرسلهم مخفورين الى الجنرال كليبر بالاسكندرية ، وأرسل الى الجنرال كليبر صورة هذا الكتاب ، وأمره أن يستقل كل من بقى فى منزل السيد محمد كريم من الحاشية

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٢

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٣

وأن يحتم على داره وعلى أملاكه ، وقال له في كتابه انه علم ممن قدموا له الادلة على خيانة كريم ان امواله مطمورة في بئر بالاسكندرية وان عنده دفنوا فيه بيان امواله وأملاكه وان بعض خدمه يعرفون مقادير هذه الاموال وموضعها ، وكلفه أن يقرر هؤلاء الخدم منفردا بكل منهم وأن يتهدهم ما شاء ليبوحوا بما لديهم من الاسرار ، واذا دفع السيد كريم في ثمانية أيام مبلغ ٣٠٠ الف فرنك فيبقى معتقلا على ظهر احدى بوارج الاسطول حتى لا يجد مفرأ ويرسل الى فرنسا حين تعرض فرصة قريبة ، واذا لم يدفع بالاقل ثلث المبلغ المفروض عليه في خمسة أيام فعلى الجنرال كليبر أن يأمر قتله رميا بالرصاص (١)

على ان رسالة نابليون لم تصل للاميرال برويس ولا الى كليبر لان الرسول الذي كان يحملها وهو الكاتب جوليان Julien قتل في الطريق وأرسل الاميرال برويس في ٣٠ يولييه السيد محمد كريم الى رشيد ليبعث به الجنرال منوم من هناك الى القاهرة ، وكان برويس لا يفتأ يعامل السيد كريم بالاحترام حتى انه كتب الى منو كتابا من البارجة (اوريان) ينبئ فيه ان السيد كريم ألح عليه في أن يرسله الى نابليون ويقول « انى لم ستطع أن أرفض رجاءه المتكرر البالغ نهاية التلطف وأرجوكم اذا نزل برشيد أن تعاملوه باحترام » كتب هذه الرسالة إذ كان لم تصله أوامر نابليون

وصل السيد محمد كريم الى رشيد مطلق السراح (٢) ، وكانت منزلته في نفوس

-
- (١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢٦
وجاء في يوميات أركان حرب الجنرال كليبر ان الجنرال أمر اللجنة الادارية بمجرد أملاك السيد محمد كريم وأمواله في منزله وفي مخازنه فوجدوها خالية وقد اعتقل كليبر عم السيد محمد كريم وشقيقه ويهوديا كان موضع ثقته واستحضر الاثنين الاخيرين وتهدهما بالاعدام اذا لم يبوحا بموضع أموال السيد كريم
(٢) هذا مستفاد من رسالة منو الى كليبر التي يقول فيها « لقد ألقيت القبض

لمصريين قد عظمت بسبب اعتقاله وانتشرت محبته في كل مكان ، فلم يكده يعلم أهالي رشيد بمقدمه حتى سارعوا الى ملاقاته بالحفاوة والتكريم مما اضطر الجنرال منو الى القبض عليه والاسراع بإرساله الى مصر
كتب منو الى نابليون يقول « ان السيد محمد كريم حضر الى رشيد يوم ٣٠ يوليه ، فحدث حركة كبيرة في المدينة للحفاوة به وتهنئته ، وحيال هذه المظاهرة رأيت القبض عليه وإرساله الى القاهرة »

الحالة في الاسكندرية

بعد اعتقال السيد كريم

أخذ الاهالى الى السكنية بعد اعتقال السيد محمد كريم وكفوا عن المظاهرات العدائية التي كانت تبدو منهم ، فكتب الجنرال كليبر الى نابليون يقول (٣١ يوليه) « تسود السكنية مدينة الاسكندرية بعد اعتقال السيد محمد كريم ، ولم تعد تنتشر اشاعات السوء المقلقة للخواطر والمثيرة لروح الهياج ، وأقبل كل انسان على عمله »
وقد ازداد مركز الفرنسيين توطدا في الاسكندرية عقب ورود أخبار انتصار نابليون في معركة الاهرام ودخوله القاهرة ظافرا

وردت هذه الانباء من طريق رشيد في رسالة بعث بها الجنرال منو الى كليبر بتاريخ ٢٧ يوليه ، فأثرت هذه الانباء في روح الاهالى المعنوية وأضعفت فيهم روح التمرد والمقاومة ، وأقام الجنرال كليبر حفلة تكريم كبيرة ابتهاجا بهذا النصر ، على أن هذه الحالة ما لبثت أن تبدلت بعد أن وقعت واقعة « أبو قير » البحرية التي نحط فيها الاسطول الفرنسى فتغيرت نفسية الشعب تغيرا محسوسا على قدر ما شدة منها تضعضع الفرنسيين

هنا على السيد محمد كريم الذى أطلق سراحه من البارجة (أوريان) وسأبعث به غدا الى القاهرة مخفورا بقوة كافية »

اعدام السيد كريم



السيد محمد كريم
حاكم الاسكندرية الوطنى
حين مجيء الحملة الفرنسية

سافر كريم على ظهر سفينة من سفن الجيش
أقلعت به من رشيد يوم ٤ أغسطس ، وكان على
ظهرها جماعة من أقطاب الحملة الفرنسية منهم
المسيو بوسليج Poussielgue مدير الشؤون
المالية ، والمسيو استيف Esteve مدير الخزانة
والموظفون الذين تحت رآستهم يحملون خزانة
الجيش الى القاهرة

وصلت السفينة الى القاهرة يوم ١٢ أغسطس
مساءً ، وظل السيد كريم مسجوباً رهناً بالتحقيق ،
وكان الجنرال ديوى Dupuy قومندان (حاكم)
القاهرة يتولى أمر التحقيق معه ، فستجوبه في
الهمة الموجهة اليه وهى مراسلته لمراد بك وغيره
من المماليك وعرب البحيرة ، وانتهى التحقيق
بثبوت التهمة عليه ، وأصدر نابليون أمره في
٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ باعدامه رمياً بالرصاص
ومصادرة أملاكه وأمواله ، وسمح له أن يفقدى
نفسه بدفع غرامة ثلاثين الف ريال (١) في أربع

وعشرين ساعة ، فلم يقبل السيد محمد كريم أن يدفع هذا المبلغ ، وأظهر جلداً وشجاعة
أمام حكم الاعدام ، فقد نصحه المستشرق فانتور Venture كبير تراجمة الحملة الفرنسية
بأن يدفع الغرامة وقال له « انك رجل غنى فماذا يضيرك ان تفقدى نفسك بهذا المبلغ »
فأجابه السيد محمد كريم : « اذا كان مقدوراً عليّ أن أموت فلا يعصنى من الموت أن

أدفع هذا المبلغ ، واذا كان مقدراً لى الحياة فعلام أدفعه » (١) وظل على اصراره الى ان نفذ عليه الحكم رمياً بالرصاص فى ميدان الرميطة يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ومن غرائب القدر ان السيد محمد كريم غادر البارجة (اوريان) يوم ٣٠ يولييه قبل ان تفرق ويموت من بها فى واقعة « ابوقير » بيومين ، فنجوا من الكارثة التى حلت بالاسطول الفرنسى يوم أول اغسطس ، ولكن القدر الذى نجاه من الموت فى « ابوقير » قد أسلمه الى يد الجلاد فى القاهرة ، ولكل أجل كتاب « وما تدرى نفس بأى أرض تموت »

وقد ذكره الجبترى فى وفيات سنة ١٢١٣ فقال عنه « مات الوجيه الاجل الامثل السيد محمد كريم السكندرى مقتولا بيد الفرنسيين » وذكر عن منشأه انه كان قبانيا فى الثغر وعنده خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة فأحبه الناس واشتهر ذكره فى ثغر الاسكندرية ورشيد ومصر « وقلده مراد بك أمر الديوان والجمارك بالثغر ونفذت كلمته وأحكامه » أى أنه عينه حاكماً للاسكندرية ومديراً للجمارك بها ، وفصل الجبترى خبر مقتله ، وروايته تختلف عن رواية « بورين » و « ريبو » التى اعتمدنا عليها والتى نعتقد أنها أرجح من رواية الجبترى لأنها واردة فى معظم المراجع الفرنسية ومنقولة عن شهود الواقعة من الفرنسيين ، قال الجبترى « ولما حضر الفرنسيين ونزلوا الاسكندرية قبضوا على السيد محمد المذكور وطالبوه بالمال ، وضيقوا عليه ، وحبسوه فى مركب ، ولما حضروا الى مصر وطلعوا فى قصر مراد بك وفيه مطالعة بأخبارهم (أى رسائل السيد كريم عن أخبارهم) وبالحث والاجتهاد على حربهم وتهوين أمرهم وتنقيصهم ، فاشتد غيظهم عليه ، فأرسلوا وأحضره وحبسوه ، فتشفع فيه أرباب (أعضاء) الديوان عدة مرار ، فلم يمكن ، الى ان كانت ليلة الخميس فحضر اليه مجنون Magallon وقال له المطلوب منك كذا وكذا من المال وذكر قدرا يعجز عنه ، وأجله اثنى عشرة ساعة وان لم يحضر ذلك القدر والا يقتل بعد

(١) ريبو . التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية . الجزء الثالث . وانظر كذلك مذكرات بورين سكرتير نابليون الجزء الاول

مضيتها ، فلما أصبح أرسل الى المشايخ والى السيد احمد المحرقى (كبير تجار القاهرة) فحضر اليه بعضهم قترجهم وتداخل عليهم واستغاث ، وصار يقول « اشتروني يا مسلين » وليس ييدهم ما يفتدونه به ، وكل انسان مشغول بنفسه ، ومتوقع لشيء يصيبه ، وذلك فى مبادئ أمرهم ، فلما كان قريب الظهر وقد انقضى الأجل أركبوه حماراً واحتاط به عدة من العسكر وبأيديهم السيوف المسالوة ويقدمهم طبل يضربون عليه وشقوا به الصليبة ، الى أن ذهبوا به الى الرميطة ، وكتفوه وربطوه مشبوحا وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونه ، ثم قطعوا رأسه ورفضوها على نبوت وطاقوا بها فى جهات الرميطة والمنادى يقول « هذا جزاء من يخالف الفرنسيين »

فلخلاف بين رواية الجبرتى ورواية بورين وريبوهوفى موقف السيد محمد كريم بعد الحكم بالاعدام ، ولو كانت رواية الجبرتى صحيحة لما قلت الفرنسيين أن يذكروها ولما ذكروا رواية تشرف خصا لم حكموا باعدامه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن رواية « بورين » ترجح رواية الجبرتى لان الجبرتى لم يكن شاهد عيان لواقعة اعدام السيد كريم ، بل يغلب على الظن أنه كان منزوياً فى بيته بالصناديق فى ذلك اليوم العصيب ، أما المسيو بورين فقد شهد الواقعة ويقول فى مذكراته أنه هو الذى أوعز الى المسيو فاتتور أن ينصح للسيد كريم بدفع الغرامة (١) فأبى دفعها ، فرواية « بورين » كما ترى هى رواية شاهد عيان وهى أدعى الى الثقة وأقرب الى الواقع وقد كان اعدام السيد محمد كريم قسوة لا مبرر لها حتى فى نظر بعض الكتاب الفرنسيين ، ذكر تيبودو Thibaudeau فى كتابه (٢) خلاصة هذه الحادثة وعلق عليها بقوله « ان اعدام هذا الشريف هو أول عمل من التصرفات العديدة التى وجهت فيها التهم الى نابليون أثناء حملة مصر ، فان النفوس الحساسة قد تأثرت للخاتمة المحزنة التى انتهت بها حياة ذلك الشريف النزيه الذى أعدم بأمر القائد العام ، على أن الجنرال كليبر كان أول من اقتنع بخيائته للجمهورية ، وهو الذى قبض عليه وأتهمه لدى بوناپرت »

(١) مذكرات بورين الجزء الأول

(٢) تاريخ نابليون حملة مصر الجزء الاول طبع سنة ١٨٢٨

الفصل السادس

في البحيرة

كانت البحيرة أول مديرية اجتازها الجيش الفرنسي في زحفه الى القاهرة ، فلاقى من وراء اجتيازه لها شذائد وأهوالاً ، ونال كثيراً من القرى التي مربها الجيش أذى كبير من اعتداء الجنود ونهبهم القرى والمنازل ، وتعددت حوادث الاعتداء حتى اضطر الجنرال برتية Berthier رئيس أركان الحرب ان يصدر أمراً عسكرياً في ١٢ يولييه سنة ١٧٩٨ من الرحمانية يذكر الجنود فيه بمنشور نابليون الذي يعلن أن الجيش الفرنسي قدم البلاد ليحارب المالك لا الأهالي ، وقال في أمره ان بعض الجنود اقتحم منازل الأهالي فالقائد العام يلقى تبعة هذه السيئات على ضباط الفرق ، وأوصى الجنرال برتية الجنرال دوجا Dugua قائد الفرقة الزاحفة من رشيد الى الرحمانية بأن يحظر على الجنود اقتحام منازل الأهالي أو صيد الحمام ، وكرر أمره في ١٦ يولية بمنع صيد الحمام أو غيره من الطيور في الطرق أو في الغيطات ونبه رجال الجيش والملكين الى اتباع هذا الأمر

ثم تمنع هذه الأوامر تكرار اعتداءات الجنود على القرى الآمنة ، ولم يتم الضباط في كثير من المواطن بالواجب عليهم في منع جنودهم من النهب والاعتداء ، ويعزو كتاب الحملة الفرنسية ومؤرخوها هذا الإهمال الى ان الجنود والضباط قد أنهكهم تعب السير من الاسكندرية الى القاهرة ، وأجهدهم الأعياء والقيظ ، فشعروا بخيبة الأمل في مغامرتهم في بلادناية كانوا يظنون انها من أغنى بلاد العالم فوقعوا منها في صحراء قاحلة تختلف كثيراً عن سهول لومبارديا الجميلة التي لقوا فيها الرفاهية ورغد العيش ، فتبرمت نفوسهم بهذه الحملة الشاقة وضعف فيهم احساس النظام العسكري والشعور بالواجب ، وتراخي الضباط في كبح جماح جنودهم فكانوا يرونهم يرتكبون النهب والسلب ولا يحدتهم أنفسهم بمنعهم ورددتهم الى حدود الواجبات والنظام

معركة شبراخيت

١٣ يولييه سنة ١٧٩٨

قلنا في الفصل الثاني (ص ٨٢) خلال الكلام عن وقائع الحملة ان الجيش الفرنسى بلغ الرحمانية يوم ١٠ يولييه سنة ١٧٩٨ وعسكر فيها ينتظر قدوم فرقة الجنرال دوجان من رشيد ، فوصلت هذه يوم ١٢ يولييه ووصل معها أسطول السفن الفرنسية الخفيفة التى رافقت الفرقة فى النيل بقيادة الكونت رامبرال بيرى Peirée ، وهناك استعد نابليون لمهاجمة جيش مراد بك الذى جاء من القاهرة
كان جيش مراد بك مؤلفاً من نحو ١٢ ألف رجل منهم ثلاثة آلاف فقط من فرسان المماليك ، والباقيون من الفلاحين وأتباع البكوات (١) ، وكان الفلاحون مسلحين بالبنادق والعصى (الشاربخ) (٢)

تحرك الجيش الفرنسى من الرحمانية وقضى ليلة ١٣ يولييه فى ناحية منية سلامة (٣) واتخذها مؤقتاً معسكره العام وأخذ نابليون يتأهب للقتال ، فأمر الكونت رامبرال بيرى أن يحمى بأسطوله ميسرة الجيش فى هجومه على شبراخيت بحيث لا يبتعد عن صفوف الجنود ، فتحركت السفن الفرنسية فى الساعة الثامنة من صبيحة يوم ١٣ يولييه ، ولكن ريحا عاصفة هبت على السفن فدفعتها عن موقع الجيش مسافة طويلة فالتقى الاسطول

(١) هذا الاحصاء مأخوذ عن يوميات الكابتن ديپونتون Deponthon من ضباط فرقة الجنرال ديريه ، وقول الجنرال برتنيه فى تقريره الى وزارة الحربية بتاريخ ٢٤ يولييه سنة ١٧٩٨ أن عدد المماليك فى واقعة شبراخيت كان أربعة آلاف فارس ، ويقول نابليون فى مذكراته أن جيش مراد بك كان مؤلفاً من ثلاثة آلاف من المماليك وكان مع كل مملوك ثلاثة او أربعة من الرجال لخدمتهم وانضم اليهم ٢٠٠٠ من العرب

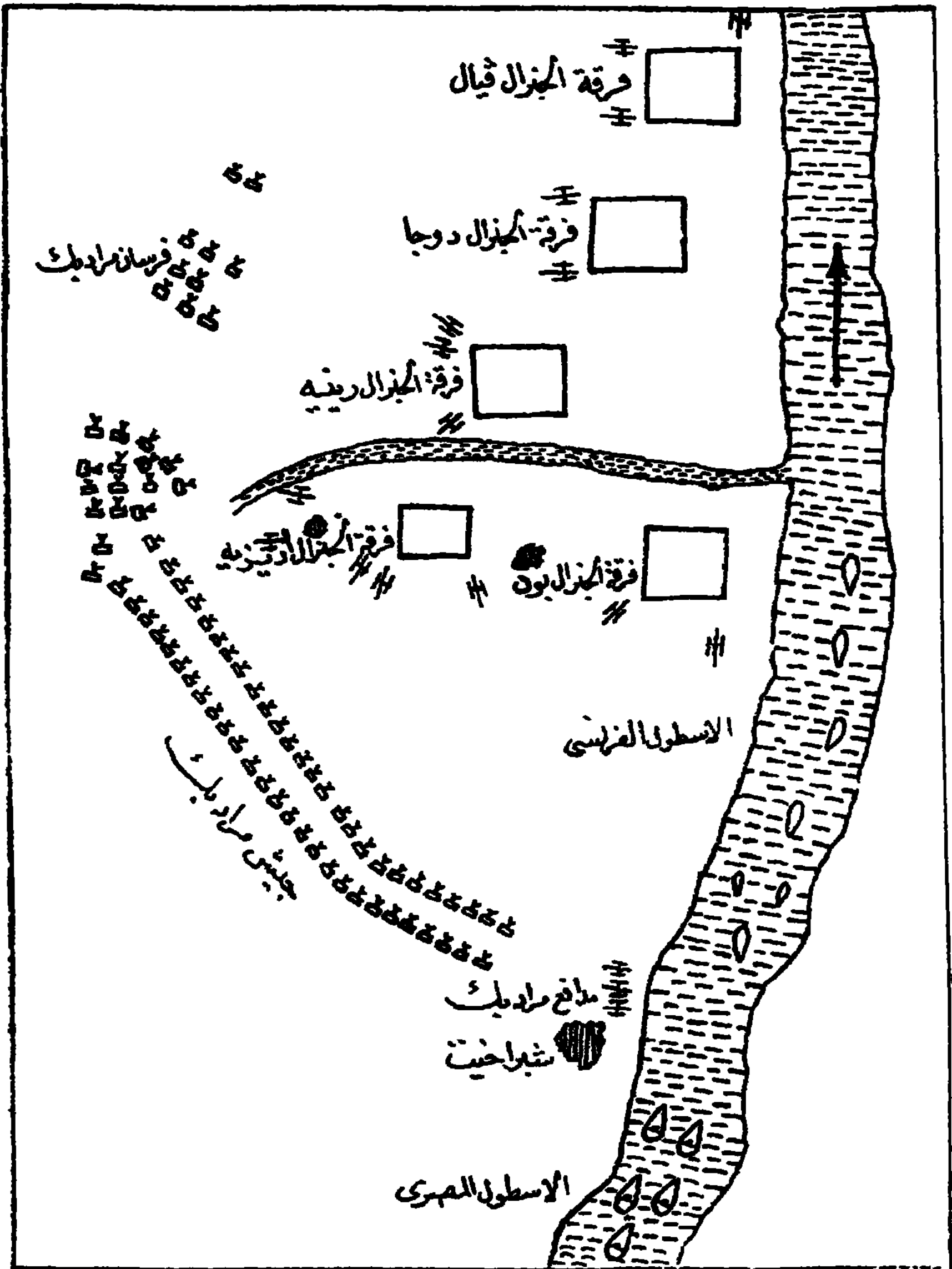
(٢) تقرير الكابتن ديپونتون

(٣) بالبر الغربى للنيل جنوب الرحمانية وشمال شبراخيت

الفرنسي بأسطول المالك الذي كان يحصى مئمة جيش مراد بك بالقرب من شبراخيت كان الاسطول الفرنسي مؤلفاً من اثنتى عشرة سفينة مسلحة وعدة مراكب ثقالة قتل كتيبة من الجنود بقيادة الجنرال أندريوسى Andreossi وتحمل الذخائر والأقوات، وعلى ظهرها جماعة من أقطاب الحملة الفرنسية منهم المسيو مونج Monge والمسيو برتوليه Berthollet من علماء الحملة الفرنسية و بورين Bourienne سكرتير نابليون الخاص، المسيو سوسى Sucy مدير مهمات الجيش

أما أسطول مراد بك فمؤلف من عدد من السفن لا يقل عن عدد الاسطول الفرنسي يقوده القبطان خليل الكرينلى ، فتلاقى الاسطولان فى النيل بالقرب من شبراخيت وأخذا يتبادلان إطلاق القنابل ، وكان مركز الاسطول الفرنسي فى هذه المقاتلة محفوفاً بالخطر لأن ألوفاً من الأهالى المسلحين على شاطئ النيل كانت تهاجمه من الجانبين ، ففرقت منه خمس سفن وهوت الى قاع النيل واستولى الأهالى على سفينتين مسلحتين ، وجرح الكونتراميرال بيرى Perrée فى ذراعه جرحاً خطراً ، ومرت لحظة كادت الدائرة تدور على السفن الفرنسية لولا إحكام مرمى مدافعها فأصاب قنبلة منها سفينة من سفن مراد بك كان بها مستودع البارود فانفجر ونسفت السفينة نسفاً ، وكان الجنرال أندريوسى على ظهر إحدى النقلات الفرنسية ، فأمر بانزال جنوده إلى البر لمقاومة الأهالى الذين كانوا يطلقون النار على السفن ، فاستطاع ان يبعد عن الشاطئ جموع الفلاحين الذين كانوا يهاجمون الاسطول الفرنسي ، واستمر القتال ثلاث ساعات حتى حضر نابليون بجنوده

كان جيش مراد بك يرتكز بميمنته الى شبراخيت حيث ركب بها عدة مدافع والى النيل حيث كان أسطوله راسياً ، فرتب نابليون جنوده على شكل مربعات ، فكانت كل فرقة من الفرق الخمس تؤلف مربعاً ، والمدافع على زوايا المربعات، كما تراه على الخريطة، وهجم بهذا النظام المحكم على جنود مراد بك فكانوا مكشوفين أمام نيران المدافع والبنادق، وأخذوا بالرغم من ذلك يهاجمون جناحى الجيش الفرنسي وجبهته، وانتشروا فرسانهم فى السهل ليحيطوا بالمربعات الفرنسية ، ولكن نار المدافع حصدت الصفوف المتقدمة



خريطة معركة شبراخيت — ١٣ يولييه سنة ١٧٩٨

منهم ، فاختل نظامهم وانسحبوا بغير نظام الى شبراخيت ، بعد ان قتل منهم نحو مائتي قتيل ، فتعقبهم نابليون بمجنوده واحتل شبراخيت وأخلى شاطئ النيل من جموع الفلاحين الذين كانوا يهاجمون الاسطول الفرنسي

وبالرغم من ان الجيش الفرنسى كان ينقصه الفرسان فانه انتصر على قوات مراد بك لجهلها أساليب القتال الحديثة ، قال أحد ضباط أركان حرب نابليون فى هذا الصدد : « لو كان جيش المماليك متدرّباً على ضروب القتال الحديثة ويقوده ضباط متعلمون لأمكنهم أن يهزموا الجيش الفرنسى أو لأجبروه على التراجع الى الاسكندرية » (١)

هذه هى المعركة التى سميت معركة « شبراخيت » وتلك رواية المراجع الفرنسية عنها ، ومنها يتبين ان القسط الذى احتمله الأهالى فى هذه المعركة كان كبيراً بل كان أكبر من قسط المماليك

واليك ما ذكره الجبرتى عن هذه الواقعة :

« فى يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم سنة ١٢١٣ (٢) التقى العسكر المصرى مع الفرنسيين ، فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بك ومن معه ، ولم يقع قتال صحيح ، وإنما هى مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانه والآلات الحربية ، واحترق بها رئيس الطبجية خليل الكردلى ، وكان قد قاتل فى البحر قتالاً عجيباً ، فقدّر الله ان علقت نار بالقلع وسقط منها نار إلى البارود ، فاشتعلت جميعها بالنار واحترق المركب بما فيه من المحاردين وكبيرهم وتطايروا فى الهواء ، فلما عين ذلك مراد بك داخله الرعب وولى منهزماً وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره ونزلت المشاة فى المراكب ورجعوا طالبين مصر « القاهرة » ووصلت الأخبار بذلك الى مصر فاشتد انزعاج الناس »

انتهت معركة شبراخيت بانتصار الفرنسيين كما قدمنا وانسحاب مراد بك ،

(١) كتاب (ميادين الوقائع والهجمات والمعارك التى انتصر فيها بونا بارت فى ايطاليا ومصر)

(٢) يوافق ١٣ يوليه سنة ١٧٩٨

قتابع الجيش الفرنسى زحفه قاصداً القاهرة ، فمر بشابور (١٤ يوليه سنة ١٧٩٨)
فكوم شريك (١٥ يوليه) ، فعلقام (١٦ يوليه) ، فالطرايه ، فأبى نشابه (١٧ يوليه) ،
فوردان (١٨ يوليه) ، فأم دينار (١٩ يوليه)

وكان الأهالى والعرب يتعقبون فرق الجيش الزاحفة فيقتلون كل من يدركونه
ممن يتخلفون عن قوة الجيش اعياء أو تبعاً أو ممن ينتقلون بين مختلف القرى لتبليغ
الرسائل إلى قواد الفرق ، حتى اضطر نابليون ان يشدد الأوامر على الجنود والرجال
الملكيين التابعين للحملة بعدم الابتعاد عن فرقهم ^(١) ، ولقى الجيش عناء كبيراً
فى اجتياز هذه المرحلة لأنه لم يكن يلقى فى طريقه الا بلاداً مقفرة أخلاها أهلها قبل
قدوم الجيش وهاجروا منها بعيالهم ومواشيهم ، ونهب الفرنسيون عدة قرى فى طريقهم
الى القاهرة

نهب القرى

كتب الجنرال بليار فى يومياته يصف نفسية الجيش فى طريقه الى شابور « ان
روح التدمير سائدة فى الجيش ، والضباط لعدم اكترائهم بالواجب يتركون جنودهم
يجوبون القرى القريبة من طريق الجيش وينهبون كل ما تصل اليه أيديهم »

وجاء فى يوميات الجنرال لوجيه Laugier

« وصلنا يوم ٢٦ مسيدور (١٤ يوليه) الى قرية (النجيلة) بينما كان جنود
الجنرالين بون وفيال ينهبونها ، وكان صياح الأهالى وبكاء النساء ونحيبهم بصم
الآذان ، وقد علم القائد العام بذلك فأمر الجنرال دوجا بالبقاء فى هذه القرية حتى يعود
النظام فيها ، وقد لاقى الجنرال دوجا صعوبات كبيرة فى القيام بمهمته لأن الضباط
كانوا يتدمرون من قلة الزاد وكانوا لا يقاومون تمرد الجنود »
وجاء فيها :

« صرنا على مسيرة نصف فرسخ من شابور ثم وصلنا الى النجيلة فى الظهر ،
ولم يكن لدى الفرقة زاد ، قهبت القرية »

(١) أمر ١٦ يوليه سنة ١٧٩٨

وجاء في يوميات الكابتن سافارى (١) ~~مما~~ حدث في الطرارة

«صادرنا بعض المواشى التى وجدناها في طريقنا، وبينما كانوا يقيدونها كان الجنود ينهبون هذه القرية ويخربونها بالرغم من وجود ثلاثة من القواد جاءوا ليمنعوا هذا النهب والتدمير، ان فرقتنا لم تكن تعمل سوى اتمام خراب القرى التى كان يمر بها الجيش، لان الفرق التى تقدمتنا لم تترك فيها الا مالا يمكن حمله أو تخريبه، وفي بعض الاحيان كنا نرى النار مشتعلة في الغيطان قبل حضورنا بحيث لم نكن نعرف كيف نحصل على ما يلزم من التبن والشعير لحيولنا»

وكتب الجنرال بليار في يومياته

«وصلنا الى مقربة من النيل حيث وجد الجنود الراحة تحت ظلال النخيل والجيز بعد رحلتهم الشاقة في خلال الصحراء ووصلنا الى ووردان، وهذه القرية هي أغنى وأكثر عمراناً وأعز سكاناً من جميع القرى التى مررنا بها، وبالرغم من أن الجنود كانوا في حاجة الى الراحة فان ذلك لم يردّهم عن النهب»

وقال في موضع آخر «خرجنا من ووردان وعدنا الى اجتياز الجهات الرملية ووصلنا الى القطا ووجدنا الاهالى قد غادروها لما علموا باقترابنا، ولم يأسف الجنود لذلك لانهم لما لم يجدوا أحداً في البيوت وضعوا أيديهم على ما وصلت اليه من المتاع وأخذوا منها ما راق لهم أن يأخذوه»

هذه أقوال واعتراقات القواد الفرنسيين، على ان من الواجب أن نقول تقريراً للحقيقة ان نابليون كان شديد الاستياء من صنيع جنوده ناقماً على ما ارتكبه من النهب والتدمير، تدل على ذلك أوامره التى كانت يصدرها من آن لآخر في هذا الصدد

ففي ١٥ يولييه سنة ١٧٩٨ أصدر أمراً عسكرياً «بإعلان استيائه من سلوك

(١) ياور الجنرال ديزيه وقد ارتقى في عهد امبراطورية نابليون وصاد لقبه

الدوق روفيجو Duc de Rovigo

الجند من فرقى الجنرال بون والجنرال ~~بجور~~ وفرقة المدفعية والاحتياطى لما ارتكوه من الاخلال بالنظام فى عدة قرى ، وان هذا الاخلال جاء فى الوقت الذى هو أذى لحسن مسلك الجنود وجاء هادما للآثر الحميد الذى تركه سلوك الجيش من عهد نزوله بالاسكندرية »

وعندما وصل نابليون الى وردان ومعه أركان حربه كان فى شدة الغضب والنقمة على حوادث النهب وأمر بمغادرة القرية فى الحال وكان يبت ألمه من هذه الحوادث للمقرين اليه

وغنى عن البيان ان اعتداء الجنود على القرى الآمنة كان يُوغر صدور الاهالى ويُذكى فيهم نار العداوة والبغضاء للجيش الفرنسى فلم يتركوا وسيلة للمقاومة الا اتخذوها ، ونسوا مظالم حكامهم السابقين بما ابتلوا من فظائع المتمدنين ، فخالفوا المالك وأمدوا جيش مراد بك بما لديهم من حول وقوة

وكان معظم السكان قد سمعوا بما حدث فى القرى من النهب والاعتداء فهجروا بلادهم بما تيتهم ومناعمهم

قال ريو (٢) « لقد هوى الجنود تعباً واصباً من قلة الزاد ، فان كل القرى التى على طريق الجيش كانت خالية خاوية لان الاهالى هاجروا منها الى داخل الدلتا ، ولا ندرى أهده الهجرة من تلقاء أنفسهم أم بتحريض المالك ، على انهم فى هجرتهم ساقوا مواشيهم معهم ولما رأى مدير مهمات الجيش القوميسير سوسى ان قرى الشاطيء الغربى أقفرت من الاقوات أمر بعبور النيل لمصادرة الاقوات فى القرى والبلاد التى بالبر الشرقى وقام بهذه المهمة الجنرال فوجيير Fugieres والجنرال زايونشك Zayonchek ومعهما قوة من ١٤٠٠ من الفرسان ولكنهم لم يجدوا الا قرى خالية خاوية ، ولم يجدوا من الاقوات الا ما يكاد يكفى القوة التى بلغت »

-
- (١) هذه الفرقة كان يقودها الجنرال فيال بدلا من الجنرال منو الذى بقى فى رشيد ولذلك تعرف أحيانا بفرقة منو وأحيانا بفرقة فيال
- (٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

الفصل السابع

في القاهرة

لما وصل الجيش الفرنسي الى أم دينار يوم ١٩ يولييه سنة ١٧٩٨ لم يكن بينه وبين القاهرة سوى خمسة فراسخ ، وهناك شاهد نابليون أول مرة الاهرام بعظمتها الخالدة، فأمر باراحة جيشه يوم ٢٠ يولييه تأهباً لخوض المعركة الفاصلة (معركة الاهرام)

حالة الافكار

في القاهرة

عند مجيء الحملة الفرنسية

الآن وقد أفضينا الى الكلام عن المقاومة الاهلية في القاهرة يجمل بنا أن نصور الحالة فيها من يوم أن جاء نبأ نزول الفرنسيين بساحل الاسكندرية الى أن احتلوا العاصمة

كانت القاهرة في اضطراب وفزع منذ انتهى اليها نبأ رسو العماره الفرنسية في مياه الاسكندرية ، فقد أرسل السيد محمد كريم الى مراد بك يخبره الخبر ، وكان أسلوب رسالته يلقي الرعب في النفوس فقد قال فيها « ان العماره التي حضرت هذا اليوم مراكب عديدة ما لها أول يعرف ولا آخر يوصف ، فبالله ورسوله ادر كونا بالرجال » فلما تلا مراد بك الرسالة ذهب الى زميله ابراهيم بك في قصره تجاه الروضة (قصر العيني) للتشاور في الامر، وذاع الخبر في المدينة فاضطربت النفوس وهاجت الخواطر وتبلبلت الافكار ، واتفق مراد بك و ابراهيم بك على عقد جمعية عامة من البكوات المماليك ومن كبراء البلاد وعلمائها ، وحضر الجمعية الوالى التركى أبو بكر باشا والبكوات والكشاف الذين كان بيدهم سلطة الحكم في ذلك العهد مثل ابراهيم بك ومراد بك

ومصطفى بك ، وأيوب بك ، وإبراهيم بك الصغير ، ومراد بك الصغير ، وسليم بك
أبودياب ، وعثمان بك الشرقاوى ، ومحمد بك الألفى ، وعثمان بك البرديسى ، وعثمان
بك الطنبورجى وغيرهم ممن سترد أسماءهم فى فصول الكتاب ، وجاء من العلماء السيد
محمد السادات ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، والشيخ مصطفى
الصاوى ، والشيخ محمد المهدي ، والسيد خليل البكرى ، والسيد عمر مكرم قبيب
الأشراف ، والشيخ محمد الجوهري ، عدا من دون هؤلاء ممن لا يمكن حصرهم
وأخذ المجتمعون يتداولون فى الأمر ويستغربون قدوم هذه العارة الكبيرة ،
ويتطارحون الرأى فى ما يجب عمله ، وجشت العداوة القديمة بين المالك والأتراك ،
فالتفت مراد بك الى أبى بكر باشا وقال له ان الفرنسيين ماجأوا هذه الديار الا باذن من
الدولة العثمانية ولا بد أن يكون عندكم علم بذلك ، ولكن الله يساعدنا عليكم وعليهم ،
فأجابه أبو بكر باشا بأن هذا عبث فى القول إذلا يمكن أن تسمح الدولة العثمانية بدخول
الفرنسيين الى مصر ، وقل له منهمك « دعوا عنكم ذلك المقال واتهضوا واستعدوا
للحرب والقتال » واستقر الرأى فى هذه الجمعية على أن يرسلوا الى الاستانة بخبر وصول
الحملة الفرنسية ، وأن يجهز مراد بك جيشاً لملاقاة الفرنسيين فى حريقهم من الاسكندرية
الى القاهرة ، وأرسل الوالى التركى رسالة المجتمعين الى الاستانة صحبة رسول بطريق
البر « ليأتيه بالترىاق من العراق » كما يقول الجبرتى
سار مراد بك بجيشه فى البر وبمراكبه فى البحر لملاقاة الفرنسيين ، وكان ما كان
من هزيمته فى واقعة شبراخيت كما تقدم فى الفصل السابق

التطوع العام فى القاهرة

فما وصلت القاهرة أنباء واقعة شبراخيت وتراجع جيش مراد بك الى امبابه
أحس الناس شراً مستطيراً ، أما المليك فقد أدركوا حرج موقفهم أمام الجيش
الزاحف ، فأخذوا يهتمون بشؤونهم دون الدفع عن المدينة وينقلون أمتعتهم من
قصورهم المشهورة الى بيوت صغيرة لا يعرفها أحد ، واستمروا عدة ليال ينقلون

امتنعهم ويستودعونها معارفهم وثقاتهم ، وأرسلوا بعضها للأقاليم ، كل ذلك حتى لا تصل إليها أيدي المغيرين بعد احتلال المدينة ، وبينما هم منهمكون في هذه الصغائر كان أهل القاهرة الذين طالما عانوا من ظلم المماليك ما عانوا يتطوعون للدفاع عن العاصمة في وجه الجيش الزاحف ، وظهر الشعب في ساعة الخطر أرقى نفساً وأنبى قصداً من حكامه الظالمين ، ففي يوم الثلاثاء ١٧ يولييه أى قبل معركة الاهرام ببضعة أيام نودى بالنفير العام وخروج الناس للتاريس ، فلبى المصريون الدعوة ، وأغلقت الدكاكين والأسواق ، وخرج الجميع إلى جهة بولاق للدفاع عن القاهرة ، واشتركت طوائف الشعب في التطوع فكانت كل طائفة من أهل الصناعات تجمع المال من أفرادها اكتباباً ويجمعون إيرتبا ما يصرف عليهم وما يحتاجون إليه مما جمعوا ، وتبرع بعض الناس بالانفاق على البعض الآخر ، ومنهم من جهز بالسلاح والزاد بعض المقاتلة « بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في مقدورهم وطاقهم ، وشمحت نفوسهم بانفاق أموالهم فلم يشح أحد في ذلك الوقت بشيء يملكه (١) » وخلت طرقات العاصمة وبيوتها من كل قادر على حمل السلاح واتجهوا جميعاً نحو بولاق استعداداً لرد الجيش الزاحف على البلاد ، ولم يبق في المنازل أو الطرقات سوى النساء والصغار والضعفاء والمرضى الذين لا يقدرّون على الحركة « ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق وأقام بها من حيث نصب إبراهيم بك العرضى (٢) هناك إلى وقت الهزيمة سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى في بولاق فكانوا يرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق (٣) »

(١) الجبرتي الجزء الثالث

(٢) كلمة عَرْضَى بمعنى معسكر أو جيش وهي مأخوذة من الكلمة التركية « أوردو » أى الجيش أو الفيلق

(٣) الجبرتي الجزء الثالث

سوء استعداد الممالك

وضع وسائل الدفاع

تلك كانت حالة الشعب النفسية واستعداده للدفاع عن عاصمة البلاد ، ولم يكن في الامكان أن تنجح هذه التدابير في رد جيش نابليون المجهز بالعلم والنظام والسلاح والكفاءة الحربية التي أ كسبته النصر في حروب أوروبا ، لكن أهل القاهرة لم يقصروا في الدفاع، وإنما المقصر المسؤول عن ضعف المقاومة هم طائفة الممالك الذين قضوا السنين الطوال يتخبطون في الجهل والغباوة لاهم لهم إلا ارتكاب المظالم وابتزاز أموال الناس بالباطل ، فأهملوا شأن الدفاع عن البلاد ، وتركوا القلاع التي أنشأها أسلافهم السلاطين تهدم وتتخرب، ومن ثم سرى الخراب إلى قلاع الاسكندرية وأبو قير ورشيد ودمياط والبرلس والقرين ، وخلت من آلات الحرب والمدافع الصالحة للضرب ، وكذلك قلعة القاهرة لم تعد في عهدهم تصلح للدفاع عن المدينة بما توالى عليها من الاهمال وقلة الاستعداد ، وحسبك أن تقرأ ما كتبه عنها الرحالة الفرنسي سافاري Savary سنة ١٧٧٨ لتعرف مبلغ قوتها وحظها من الاستعداد الحربي .

زار المسيو سافاري مصر وشهد الحرب التي قامت بين مراد بك وإبراهيم بك وبين حسن بك الجداوى واسماعيل بك ، وشهد ضرب القلعة للجهة التي امتنع بها حسن بك الجداوى بالمدافع فقال ان القلعة بها ستة مدافع عتيقة ، وكان جنود المدفعية يحشون المدفع في نصف ساعة ، فكان المدفع يطلق طلقة واحدة كل نصف ساعة ، وقال تعليقا على ذلك « يمكنك أن تقدر هل مثل هؤلاء الجنود يستطيعون أن يثبتوا لحظة واحدة في ميدان القتال بإزاء عدة صفوف من الجنود الاوربية ؟ لاجرم ان الدولة الحربية التي تهاجم مصر تستولى عليها دون مقاومة ^(١) » هذا ما كتبه

(١) رسائل عن مصر بقلم المسيو سافاري

سافارى قبل الحملة الفرنسية بنحو عشرين سنة ، ومع ذلك لم يتنبه المماليك يوماً ما لتحصين القلاع وترميمها بل كانوا مملوءين جهلاً وغروراً يظنون انهم لما اشتهروا به من اجادة ركوب الخيل قادرون على مواجهة أقوى الجيوش المنظمة المدربة على أساليب القتال العلمية ، واذا أردت ان تعرف الى أى حد بلغ بهم الجهل والغرور فانظر ما رواه عنهم كلوت بك في كتابه (١) فقد ذكر انه لما استولى نابليون على جزيرة مالطة ووصلت أخبار نزول الجيش الفرنسى بها أراد الميسوروسنى Rosetti قنصل النمسا فى القاهرة وكان من كبار تجار الانجلىج بها وموضع ثقة رؤساء المماليك ان ينهى اليهم هذا الخبر ويحذرهم عاقبته ، فقابل مراد بك وكاشفه باحتمال عزم الفرنسيين ان يهبطوا مصر ، ورغب اليه فى اتخاذ وسائل الحيلة للذود عن البلاد ، فكان جواب مراد بك على هذا التحذير أن أغرق فى الضحك وقال « ماذا تريد من اخافتنا من الفرنسيين ، ألم يكونوا أشباه الخواجات الذين نراهم بيننا ؟ انه ليكفينى اذا نزلوا الى سواحل مصر فى مائة الف من رجالهم أن أبعث للقائهم بعض صغار المماليك ليقطعوا رؤوسهم بحد الزكاب » فحاول الميسوروسنى ان يقنعه بأن الفرنسيين الذين فازوا بالنصر المين فى ايطاليا هم غير التجار المساكين الذين اعتاد أن يراهم فى أسواق القاهرة ، وألح عليه بتحصين الاسكندرية ، فلم يُجِدْ تحذيره وأراد مراد بك أن يجامله ويسكن روعه فأرسل الى هذا الثغر قطارين من البارود فقط ذخيرة لمدافعها . . .

وحدث بعد ذلك بقليل أن وصل الفرنسيون الى الاسكندرية ونزلوا الى البر واستولوا عليها وعلم مراد بك بهذا النبأ فاستدعى الميسوروسنى على الفور وقال له مغضباً : أن أولئك الفرنسيين الوقحاء قد اجتروا على النزول الى هذا البر ، وطلب اليه أن يكتب اليهم على لسانه بالمسارعة الى الجلاء فى أقرب وقت ، فاعترض روسنى قائلاً « ولكنهم لم يأتوا الى هنا ليعودوا كما جاءوا ، فهم جاءوا بغير أمرك ولا يعودون بأمرك » فقل مراد بك وقد تولاه الجزع « وماذا يريد هؤلاء الخسرة ؟ ماذا يريد

هؤلاء المتشردون الجائعون ؟ ان كانوا طامعين في مال فارسل اليهم عدة آلاف من الريالات ^(١) ويرحلوا ! فأجابه روسي ولكن هذا المبلغ لا يعدل أجرة شحن أصغر سفينة أقلتهم الى مصر ، والاجدر بك أن تأخذوا عدتكم للدفاع »

من هذه الرواية يتبين مبلغ غرور المماليك وجهلهم وانحطاط عقليتهم ، ويدخل في هذا السياق ما رواه عنهم الجبرتي لما جاءهم الخبر بقدم أسطول الاميرال نلسن الى الاسكندرية للتفتيش عن العمارة الفرنسية قال « أما الامراء (البكوات المماليك) فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكثر ثوابه اعتمادا على قوتهم وزعمهم انه اذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون في مقابلتهم وانهم يدوسونهم بخيولهم ... » وقال عن مبلغ استعدادهم وجهلهم في فن الخطط الحربية ان مراد بك « لما ارتحل من الجسر الاسود أرسل الى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية التخن (كذا) والمتانة طولها مائة وثلاثة وثلاثون ذراعا لتنصب على البوغاز (بوغاز رشيد) عند برج مغيزل من البر الى البر تمنع مراكب الفرنسيين من العبور لبحر النيل وذلك باتسار على باشا الطرابلسي ^(٢) — صديق مراد بك — وأن يعمل عندها جسرا من المراكب وينصب عليها متاريس ومدافع »

فمراد بك في الوقت الذي احتل نابليون الاسكندرية وأخذ يسير بجيشه براً بطريق دمنهور فلرحمانية كان يظن ان الفرنسيين لا يستطيعون بلوغ القاهرة الا من بوغاز رشيد فطلب اعداد سلسلة لمنع المراكب من دخول النيل . . . وكانت هذه الفكرة غاية في الجهل حتى ان اجبرتي على قلة درايته بالشؤون الحربية سخر منها في كتابه وقال « ان الامر كان بخلاف ذلك فن الفرنسيين عندما ملكوا الاسكندرية ساروا على طريق البر الغربي من غير ممانع »

(١) في الاصل الفرنسي باتاك Pataques وهي محرفة عن كلمة (أبو ضافة)

أي (الريال أبو ضافة) الذي كان يتعامل به في مصر

(٢) هو عي باشا الجزائرلى الذي عينته حكومة الاستانة واليا على مصر

سنة ١٨٠٣ وقله المماليك كما تراه في موضعه في الفصل الخامس عشر من الجزء الثاني

وندد الجبرتي بما كان من اهل الماليك الاستعداد للقتال قبل معركة الاهرام بقوله « هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوساً أو طليعة تناوشهم القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم الى فناء مصر، بل جمع كل من ابراهيم بك ومراد بك عسكره ومكث مكانه لا يفتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم ، وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل ، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو »

إذن كان أمراء الماليك يركبون الجهل والغرور ، وكانوا أيضاً يمثلون الحرص على النجاة والتخاذل في أشد الأوقات حرجاً ، فبينما كان الجيش الفرنسي زاحفاً على العاصمة لم يكن مراد بك و ابراهيم بك على أتم وفق بل كان يباعد بينهما التنافس القديم على السلطة ، ولم يخف هذا التنافس على الفرنسيين فقد علم به نابليون وهو في أم دينار يرسم الخطط ويستطلع أخبار القوة التي سيواجهها ، فهناك وصلته أخبار الجفاء الذي بين مراد بك و ابراهيم بك (٢) وعلم أن كلا منهما بقي بجيشه بعيداً عن الآخر ، فراد بك بالشاطئ الغربي (برامبايه) و ابراهيم بك بالشاطئ الشرقي من النيل ، وكلاهما لا يثق بصاحبه ، فلم يكن تمت تعاون بينهما في خطة الدفاع ، ولو اتحدا لاجتمعت قوات الاثنين في صعيد واحد بالبر الغربي أو البر الشرقي للنيل

قال الجبرتي يصف نفسية الماليك قبل الواقعة « لكن الاجناد (الجنود) متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعيمهم ورقاهيتهم ، مختالون في ريشهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون في رؤيتهم ، مغرورون في غفلتهم ، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم »

(٢) انظر مذكرات الكولونل سلكوسكي ياور نابليون وعضو المجمع العلمي ، وهو الذي قتل في ثورة القاهرة كما سيجيء بيانه في الفصل الثالث عشر

واقعة امبابه أو معركة الاهرام

(٢١ يوليه سنة ١٧٩٨)

ونصيب المصريين فيها

يصور المؤرخون واقعة الاهرام قتالا دار بين الفرنسيين والمماليك وحدهم ، والواقع ان المصريين قد اشتركوا فيها بمقدار ما لديهم من قوة واستعداد ، وفي الحق ان قسطهم فيها كان أكبر من قسط المماليك فلندكر — اثباتا لهذه الحقيقة — كيف بدأت هذه المعركة ومبلغ اشتراك المصريين فيها

بعد ان انسحب مراد بك من شبراخيت وتراجع الى القاهرة أخذ يستعد للقتال في امبابه بالبر الغربي للنيل ، وأقام المتاريس بين امبابه وبشتيل (١) ، وكانت قواته ممتدة من بشتيل وامبابه الى الاهرام ، فيمينه الجيش كانت مرتكزة على شاطئ النيل وقاعدتها امبابه التي أنشأ فيها مراد بك الاستحكامات والمتاريس وركب فيها المدافع ، والميسرة تمتد قريبا من الاهرام ، وبينهما القلب .

ورسا الاسطول المصري على ساحل امبابه ، وكان مؤلفا من السفن الراسية تجاه بولاق وما انضم اليها من المراكب الكبيرة والغلايين (المراكب الحربية) التي قدمت من دار صناعة (ترسانة) الجيزة

أما ابراهيم بك فقد عسكر في بولاق على الشاطئ الشرقي للنيل ، وتفاوض مع الوالى والعلماء في اعداد معدات الدفاع فأجمعوا رأيا على اقامة متاريس من بولاق الى شبرا ، فصار البر الغربي والبر الشرقي للنيل مملوءين بالمقاتلة والمدافع والمتاريس .
الاستعداد للمعركة

في الساعة الثانية من صبيحة يوم السبت ٢١ يوليه تحركت فرق الجيش الفرنسى

كلها من أم دينار واستقرت في نحو الساعة الثانية بعد الظهر بين وراق الحضر (١) وبشتيل ، فكانت الاهرام عن يمينهم ، والنيل عن يسارهم ، وأمامهم قرية امبابه وفيها جموع المقاتلة من المصريين وعددهم نحو عشرين ألفاً تحميهم المدافع والمتاريس ، وتتألف منهم ميمنة جيش مراد بك ، وفي القلب والميسرة فرسان المماليك ومتطوعة القاهرة وعددهم نحو سبعة آلاف يرابطون في خط يمتد بين النيل والاهرام ، وفي أقصى الميسرة فرسان العرب

فلما شاهد نابليون عن بعد قوات مراد بك أراد أن يبعث الحماصة في نفوس جنوده فخطبهم بكلمته السائرة « تقدموا أيها الجنود واعلموا أن أربعين قرناً من الزمان تنظر اليكم من فوق قم هذه الاهرام » ففعلت هذه الكلمة فعل السحر في الجنود ونسوا متاعبهم التي قاسوها في الطريق

واطمأن نابليون لما شاهد جيش مراد بك وقابل بين قواته وقوات خصمه ، وكيف لا يطمئن وهو قادم بجيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل مزودين بأحدث آلات الحرب والقتال مدربين على خوض غمار الحروب ممتازين بالنظام وكفاية القيادة معترزين بالانتصارات التي نالوها في ميادين القتال بأوروبا ، وأمامهم جيش يعوزه الاستعداد والنظام والسلاح وكفاية القيادة ، أي ينقصه كل ما يكفل له الفوز والظفر

سير القتال

بدأت المعركة بعد ان رتب نابليون فرق الجيش على شكل مربعات ووضع المدافع على زوايا كل مربع ، وكانت فرقنا الجنرال ديزيه Desaix والجنرال رينييه Reynier باليمين ، وفرقتا الجنرال بون Bon وفيال Vial بالميسرة ، وفي القلب فرقة الجنرال دوجا Dugua وفيها نابليون يرسم الخطط ويصدر الأوامر ويرقب حركات الجناحين لاحظ نابليون من استحكامات امبابه انها لم تكن على جانب كبير من المناعة ،

(١) بالبر الغربي للنيل شمال امبابه

وان المدافع المركبة بها وعددها أربعون مدفعاً لم تكن مركبة على عجلات بحيث تستطيع التحرك والانتقال تبعاً لتطور القتال ، بل كانت مثبتة على الأرض ، فأدرك من ذلك ان المقاتلة الذين في امبابه لا يستطيعون التحرك بسهولة ومغادرة الاستحكامات التي كانوا ممتنعين بها ، فعزم على ان يبدأ الهجوم من اليمين بعيداً عن مرمى مدافع امبابه ، وان يجعل أول هدف لهجومه قوات المماليك الذين يتألف منهم قلب جيش مراد بك وميسرته ليحول بينهم وبين بقية القوات المرابطة في امبابه ، وبذلك يخترق صفوف مراد بك ويحيط بها ويدفعها أمامه الى النيل ثم ينشئ على امبابه ليستولى عليها وتنفيذاً لهذه الخطة أمر فرقة الجنرال ديزيه ان تتقدم من اليمين تتبعها فرقة الجنرال رينييه ، فهجمت الفرقتان في طريق الجزيرة بينها وبين امبابه ، وأمر فرقة الجنرال بون وفيال (١) بالتقدم من الميسرة للاحاطة بامبابه ، وتقدمت فرقة الجنرال دوجا (٢) التي كان بها نابليون لتتصل بحركات الجناحين ، فكانت الفرق الخمس التي يتألف منها الجيش الفرنسي تهاجم قوات مراد بك على شكل نصف دائرة مركزها امبابه وقاعدتها النيل

أدرك مراد بك خطر هذا الهجوم الذي كان مقصوداً منه اختراق صفوفه ، وترك بامبابه الفين من المماليك يشتركون في الدفاع عنها مع من بها من المصريين ، وهجم بنحو خمسة آلاف من فرسانه على فرقة دوجا ، فصدتها نار المدافع ، ثم هجم على فرقة ديزيه ليعزلها عن باقي الفرق ، وكان هجوم المماليك شديداً ، لكن فرقة الجنرال ديزيه تلقت هذا الهجوم بنار كالصواعق حصدت صفوف المماليك حصداً ، فكراً الفرسان على فرقة الجنرال رينييه ، فتلقتها بمثل تلك النار الحامية ، وقد تزلزلت أقدام الفرنسيين من شدة هذا الهجوم لولا ان فتكت نار المدافع وابنادق بصفوف المماليك ، وكان دوى المدافع كالرعد القاصف والدخن يملأ الجو حتى حجب وجه الشمس ،

(١) هي فرقة الجنرال منو كما بينا ذلك بهامش ص ٢٠٥

(٢) التي كانت في الاصل فرقة الجنرال كليبر

وانحصر المماليك بين فرقى ديزيه ورينييه واكتنفهم الموت من الجانبين ، وأرادوا الانسحاب الى النقطة التى بدأوا بها هجومهم فتلقهم فرقة الجنرال دوجا التى وصلت الى النيل فحالت بينهم وبين النهر فوق المماليك بين نارين من أمام ومن خلف ومات كثير من زعمائهم وشجعانهم ، وانفلتت بقيتهم من هذا المأزق فارتد جماعة منهم الى امبابه وارقد معظمهم الى الجيزة

أشار الجبرتي الى هذا الدور من المعركة بقوله « ولما كان وقت القائلة (الظهر) ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى وتقدموا الى ناحية بشتيل فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيين فكروا عليهم بالخيول فضربهم الفرنسيين بينادقهم المتتابعة الرمى ، وأبلى الفريقان ، وقتل أيوب بك الدقردار (مدير الشؤون المالية) وعبد الله كاشف الجرف (من البكوات المماليك) وعدة كبيرة من كشاف محمد بك الأتقى ومماليكهم ، وتبعهم طابور من الافرنج نحو الستة آلاف وكبيرهم ديزيه الذى ولى على الصعيد بعد تملكهم ، وأما بونابارته الكبير فانه لم يشاهد الواقعة بل حضر بعدها هزيمة ، وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير » هذا ما رواه الجبرتي عن هذا الدور من المعركة ، ولا يمكننا ان نمر على قوله « ان بونابارته الكبير لم يشاهد الواقعة » دون ان نبدي شيئاً من الدهشة لأنه كيف تصور الجبرتي ان بونابارته لم يشاهد الواقعة مع انه قائدها وراسم خططها ومدير الأمر فيها ؟ ولا ندري من أين جاء الجبرتي انه لم يحضر الا بعد الهزيمة وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير مع ان بونابارت كان فى القلب يرقب حركات القتال ويتبع كل صغيرة وكبيرة فيه ؟ على أى وجه قلبنا الرواية لا نجد ثبوتاً لها وكل ما نقوله فيها انها « خطأ »

والآن فلنتقل الى الدور الثانى من المعركة

أمر نابليون قوات الميسرة من جنود الجنرال بون والجنرال فيال بمهاجمة امبابه ، فوقع الهجوم فى الوقت الذى كان فرسان مراد بك يغامرون بأنفسهم بين فرقى ديزيه ورينييه ، واشترك فى الهجوم فرقة الجنرال دوجا فدار قتال شديد بينهم وبين المصريين والمماليك وكرر هؤلاء على الفرنسيين لكنهم ارتدوا أمامهم ورجعوا الى معاقلم

وحاولوا صد هجوم الفرنسيين باطلاق النار من المدافع المركبة في استحكامات امبابه، لكن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق فلم تطلق قنابلها إلا مرة واحدة ولم يستطع رماةها ان يعيدوا الضرب بها ، فاختل نظام الجيش في امبابه وأحاط جنود الجنرال رامبون Rampon ومارمون (١) Marmon بالاستحكامات لقطع خط رجعة المصريين الى النيل، وتمكن الفرنسيون من تطويقها فوقع المصريون والمماليك بين نارين ، فكان العدو أمامهم والنيل من ورائهم « والريح النكباء قد اشتد هبوبها وأمواج البحر في قوة اضطرابها والزمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار » ووقعت الهزيمة بجيش مراد بك ومات معظم رجاله قتلاً أو غرقاً في النيل ، واستولى الفرنسيون على امبابه وغنموا ما بها من المدافع والاستحكامات والأسلحة والمؤن ، فلما علم مراد بك بسقوط امبابه تحقق ان الهزيمة حلت به ففر بالباقيين من جنوده وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف الى جنوب الجزيرة ، وأغرق المليك السفن المصرية التي كانت بالنيل حتى لا تقع في أيدي الفرنسيين ، وانتهت المعركة في نحو الساعة السادسة مساءً بانتصار نابليون وجنوده والقضاء على قوة البلاد الحربية

قلنا عن الجبرتي العبارة التي وضعناها بين قوسين لانها أبلغ ما كتبه عن الدور الثاني من المعركة ، ولا بأس ان نورد ما ذكره في وصف وقائع القتال حول امبابه ليقابل القارئ بين روايته والرواية التي استخلصناها من المصادر الفرنسية ، قل « ولما قرب طابور الفرنسيين من متاريس مراد بك ترامي الفريقان بالمدافع ، وكذلك العساكر المحاربون البحرية (أى بحارة السفن المصرية التي كانت راسية بين امبابه وبولاق) وحضر عدة وافرة من عساكر الارناؤود من دمياط وطلعوا الى انبابه وانضموا الى المشاة وقتلوا معهم في المتاريس وركب طائفة كبيرة من الامراء والاجناد

(١) من قواد فرقتي بون وفيال

من العرضى الشرقى (١) ومنهم ابراهيم بك الوالى (٢) وشرعوا فى التعدية إلى البر الغربى فى المراكب ، فتزاحوا على المعادى لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً فلم يصلوا إلى البر الاً خرجتى وقعت الهزيمة على المحاربين »

وقال يصف نظام المربعات الفرنسية وهجومها على امبابه وهزيمة الجيش المصرى « ثم ان الطابور الذى تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عندهم فى الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ، ودق طبوله ، وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع ، واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار ، واظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الزياح وصمت الاسماع من توالى الضرب بحيث خيل للناس ان الأرض ترتزلت والسماء عليها سقطت ، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع ساعة ثم كانت هذه الهزيمة على العسكر الغربى (٣) ففرق الكثير من الخيالة فى البحر لاحاطة العدو بهم وظلام الدنيا ، والبعض وقع أسيراً فى أيدي الفرنسيين ، وملكوا المتاريس وفر مراد بك ومن معه الى الجزيرة ، فصعد الى قصره وقضى أتعاله فى نحو ربع ساعة ثم ركب وذهب الى الجهة القبلىة وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والاسلحة والفرس ملقاة على الأرض ببراساه تحت الأرجل ، وكان من جملة من القى نفسه فى البحر سليمان بك المعروف بالأغا ، وأخوه ابراهيم بك الوالى ، فأما سليمان بك فنجوا وغرق ابراهيم بك الصغير وهو صهر ابراهيم بك الكبير »

بلغت خسائر جيش مراد بك فى معركة الاهرام نحو ألفى قتيل من المماليك وعدة آلاف لا تحصى من المصريين ، وفى مذكرات نابليون ان مجموع القتلى من جيش مراد بك من ممالك ومصريين بلغ سبعة آلاف ، وان خسائر الفرنسيين ثلثمائة (٤) وقد سار نابليون بعد انتهاء المعركة الى الجزيرة واتخذ قصر مراد بك معسكراً له

(١) يعنى جيش ابراهيم بك الذى كان مرابطاً بالبر الشرقى لليل

(٢) صهر ابراهيم بك رئيس المماليك

(٣) يعنى جيش مراد بك لأنه بالبر الغربى

(٤) مذكرات نابليون التى أملاها على الجنرال برتران فى سانت هيلين



قصر مراد بك في الحيرة (انظر ص ١٤٦ و ٢١٨)

أستولى على (ترسانته) التي أنشأها بالجيزة وما بها من المدافع والذخائر ، وفي مساء هذا اليوم احتلت فرقة من الجيش الفرنسى جزيرة الروضة

وفي مساء اليوم التالى دخل الجنرال « ديبوى » أحد قواد الجيش الفرنسى المدينة على رأس كتيبة من الجنود لاحتلالها فلم يلق بها مقاومة وعسكرت ليلا فى بيت ابراهيم بك الوالى ، فكانت هذه الكتيبة طليعة الجيش المحتل ، وفى اليوم التالى (الاثنين ٢٣ يولييه - ٩ صفر) تبعها بقية الفرق فاحتلت القلعة والمدينة وضواحيها ، وأصبحت العاصمة فى قبضة الجيش المحتل

انسحاب ابراهيم بك

كان جيش مراد بك هو الذى تلقى صدمة الهجوم الفرنسى بالبر الغربى للنيل ، وما أن حلت به الهزيمة حتى انسحب الى الجيزة كما قدمنا واحرق سفنه كيلا تقع فى أيدي الفرنسيين ، ثم فر الى الوجه القبلى ومعه فلول جيشه المهزوم

أما ابراهيم بك الذى كان يرباط فى الشاطئ الشرقى ليدافع عن القاهرة اذا اعتزم الفرنسيون عبور النيل فانه ظل يرقب تطورات المعركة وبقي جامدا لا يحرك ساكنا حتى علم بهزيمة زميله مراد بك فاركن الى الفرار هو ومن معه من المماليك ، وغادروا العاصمة وقصدوا الى بلبس ثم الى سوريا حاملين ما وصلت اليه أيديهم من المتاع والاموال والتحف لينحوا بها ويستخلصوها لانفسهم ، وبذلك ترك امراء المماليك سكان القاهرة واهل البلاد وجها لوجه أمام القوة الفرنسية



خريطة واقعة امسابه أو معركة الاله ام - ٢١ يولييه سنة ١٧٩٨ - وفيها البيانات الآتية

١ - فرقة اخترال دوح وفيه قلوبون وهم يتألف من احدى فرقى

٢ - فرقة اخترال بون } ومهما يتألف اخصاح لايسر
٣ - فرقة اخترال فيال }

٤ - فرقة اخترال ديريه } ومهما يتألف اخصاح الامن
٥ - فرقة اخترال ريديه }

٦ - امسابه وفيه الاستحكامات والمدافع والمتريس والقوات الى ثمة مراد بك

٧ - قواب ابراهيم بك المراقبة ببولاقي ولم تشرك في الفس

٨ - قواب مراد بك تم حرم فرقة اخترال دوح تم فرقى ديريه وريديه

٩ - قوات مراد بك تم حرم حدود اخترال رامبون رد مجموعهم على اتمه

١٠ - آخر بقعة انسحبت منها قوات مراد بك بعد هزيمة

١١ - الاسطول المصرى في النيل وهو راكب عليه بنو مصر وبولاقي

١٢ - جزيرة بولاقي

واخطوط لمزدوحة تمثل حرم سائر قوات مراد بك

وقد اقتبسنا هذه الخريطة من مجموعة رسوم استوفيفر ديون احد أعضاء بعثة العلو

والفنون الذين صحبوا قلوبون في مصر ، وأهمية هذه الخريطة ترجع الى ان قلوبون راحه

ونقحها قبل ان تضع في كتاب دينون سنة ١٨٠٢

نصيب المصريين في المعركة

وقف المصريون بجانب المماليك في معركة الاهرام يقاتلون الفرنسيين ، هذه واقعة وان لم يعطها المؤرخون الفرنسيون الا انها حقيقة ثابتة تنطق بها أقوالهم وروايات شهودهم

ذكر المسيوتيرس Thiers في كتابه (١) « ان جيش مراد بك اقام بعسكره على الشاطئ الغربي من النيل في السهل الممتد ما بين النيل واهرام الجيزة ، وكان يدافع عن قرية امبابه بقوة مؤلفة من ٢٤ ٠٠٠ من الفلاحين والانكشارية وهذه القوة كانت تؤلف ميمنة الجيش ، وكان المماليك وعددهم عشرة آلاف فارس ومنهم يتألف القلب والميسرة يرابطون في السهل الممتد بين النيل والاهرام يشد أزرهم عدة آلاف من الفرسان العرب »

ويقول الجنرال برتويه Berthier في كتابه (٢) .

« استولى الفرنسيون على قرية امبابه بعد أن دافع عنها نحو ألف وخمسمائة مملوك ومثل هذا العدد من الفلاحين دفاع الابطال ورفضوا التسليم فأتوا قتلا وغرقا » ومعلوم ان الجنرال برتويه هو رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية وقد شهد معركة الاهرام وكان يخوض غمارها الى جانب نابليون ، فكلامه حجة

ويقول نابليون في مذكراته عن قوة جيش مراد بك :

« كانت الميمنة ترابط شمال امبابه وتتألف من ٢٠ ٠٠٠ من الانكشارية والعرب ومقاتلة القاهرة ، وتتألف الميسرة والقلب من ١٢ ألف فارس من المماليك والأغاوات (رؤساء الجند) والمشايخ والاعيان المصريين ومع كل منهم ثلاثة أو أربعة من المشاة لخدمتهم ، فكان مجموع هذه القوة نحو خمسين ألف رجل يضاف اليهم

(١) تاريخ الثورة الفرنسية الجزء العاشر

(٢) تاريخ حروب بونابارت في مصر وسوريا

ثمانية آلاف فارس عربي تتألف منهم ميسرة هذا الجيش فكان الجيش يحتل خطا طوله ثلاثة فراسخ »

وقال ميو Miot وهو شاهد عيان لوقائع الحملة في مذكراته « ان قوة مراد بك تقدر بستة الاف من المماليك وعدد كبير من الفلاحين والعرب (١) »

وذكر ريبو « ان مراد بك كان تحت امرته ستة الاف من المماليك رابطوا على الشاطئ الغربي للنيل وارتكزت ميسرتهم الى الجزيرة وميسنتهم الى قرية امبابه حيث كان يدافع عنها ١٢ ألفاً من الفلاحين ومعهم أربعون مدفعاً وقد امدته في هذا اليوم فصيلة من الانكشارية وعدد حاشد من العرب والاقباط والحباشان (٢) »

وتكلم دى لاجونكيير عن حامية امبابه فقال « من الصعب أن تتصور أن عشرين ألفاً كانوا محتشدين في قرية صغيرة كامبابه ، والمعقول أن القوه النظامية من هذا العدد كانت مؤلفة من أربعة آلاف فقط من المشاة ، ولكن هذا العدد قد وصل الى الضعف أو الثلاثة الأمثال بمن انضم اليهم من الفلاحين ومن متطوعة القاهرة ، وقد بلغت خسارة المماليك الفين من فرسانهم وخبرة رجالهم ، وكانت خسائر الأهالي عظيمة ففرق معظمهم في النيل » (٣)

وفي الجبرتي ما يدل على اشتراك المصريين في المعركة فقد نقلنا عنه ما ذكره عن تطوع أهل القاهرة ونضيف اليه ما أورده عن تطوع سكان الاقاليم قال :

« أرسل ابراهيم بك الى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا في المقدمة بنواحي شبرا وما والاها ، وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجزيرة والصعيد والخيرية والقيعان وأولاد علي والهنادى وغيرهم »

وقال في موضع آخر « ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر (صفر الموافق ٢٠ يونيه)

(١) مذكرات عن تاريخ الحملة الفرنسية في مصر بقلم القوميسير ميو Miot

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٣) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث بقلم دى لاجونكيير

وصل الفرنسيين الى الجسر الاسود وأصبح يوم السبت (يوم الواقعة) فوصلوا الى أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر (١) «

يؤخذ من هذه الوثائق والمصادر المتعددة أن المصريين قد اشتركوا في معركة الاهرام بكل ما أوتوا من حول وقوة وأنهم قدموا كل ما في استطاعتهم من رجال ومال للدفاع عن كيان البلاد ، وان عددهم كان أكثر من عدد المماليك .

ولقد اختلف الرواة في تقدير عدد المماليك الذين اشتركوا فعلا في المعركة ، لكن التقدير الذي هو أقرب الى الصواب أنهم يتراوحون بين ستة آلاف وسبعة الاف فقط ، فقد أحصى المسيو مارتان Martin أحد مهندسي الحملة الفرنسية (٢) عددهم ٥٠٠٠ ره مقاتل ، وقدرهم ريكاردو Richardo أحد ضباط الحملة بستة آلاف ، ويقول دي لاجونكيير De La Jonquiere أن احصاء المماليك بستة آلاف موافق لتقدير الجنرال برتية رئيس أركان الحرب وميو وريكاردو ، ويلاحظ دي لاجونكيير تأييداً لهذا التقدير أن مجموع المماليك الصالحين للقتال كان عند مجيء الحملة الفرنسية لا يزيد عن عشرة آلاف مقاتل (٣) منهم ١٥٠٠ كانوا بالبر الشرقى للنيل بقيادة ابراهيم بك ولم

(١) الجبرتي الجزء الثالث

(٢) في كتابه تاريخ الحملة الفرنسية في مصر الجزء الاول

(٣) هذا الاحصاء يوافق ما ذكره الجبرتي في الجزء الرابع على لسان ابراهيم بك

زعيم المماليك وهو يخاطب مندوبي محمد علي الكبير الذين قابلوه في شأن الصلح فذكر ابراهيم بك ما كان لهم من النفوذ والشوكة قبل الحملة الفرنسية قال في هذا الصدد « اعلم اننا كنا بمصر نحو العشرة آلاف أو أقل أو أكثر ما بين مقدمي ألوف (قواد) وأمراء وكشاف ، واكابر وجاقات ، ومماليك ، واجناد وطوائف ، وخدام ، واتباع » فيؤخذ من ذلك ان عدد المقاتلة من المماليك كان عشرة آلاف ، أما جنس المماليك من رجال ونساء واطفال وعتق وارقاء فيبلغ عددهم نحو خمسين الفا

بشركوا في المعركة ، و ٥٠٠ بالصعيد بقيادة حسن بك الجداوى ، ونحو هذا العدد مع قافلة الحج التي لم تكن حضرت بعد ، فاذا قدرت خسائر الممالك في الرحمانية وشبراخيت كانت النتيجة أن عدد الممالك الذين حشدتهم مراد بك بالبر الغربي انما كان يتراوح بين ستة آلاف الى ستة آلاف وخمسمائة ، والباقيون من المصريين .
وصفوة القول أنه لا يمكن لأمة عزلاء لاسلح معها أن تدافع عن كيانها بأكثر مما فعلت الأمة المصرية في عهد الحملة الفرنسية

بعد الواقعة

قام المصريون بقسطهم في الدفاع في واقعة الاهرام كما ترى ، وهم الذين احتملوا عواقب الهزيمة ، فقد عم الفرع القاهرة بعد وقوع الهزيمة وفرار قواد الممالك ، وقضى أهلها ليلة رهيبة اكتنفتهم فيها الخطوب والاهوال وتوقعوا أن تحمل بهم الكروب اذا دخل الفرنسيون المدينة ، فلاذ معظمهم بالفرار تلك الليلة الى الاقاليم ومعهم نسائهم وعيالهم ، فكان هذا الدعر أشد هولاً من وقائع الحرب والقتال . قل أجبرنى يصف تلك المأساة :

« استمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر ، البعض بحريجه ، والبعض ينجو بنفسه ، ولا يسأل أحد عن أحد ، بل كل واحد مشغول بنفسه عن ابنه وأبيه ، والناس يضجون بالمويل والنحيب ، ويبتهلون الى الله من شدة ذلك اليوم العصيب ، والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت ، تخرج تلك الليلة معهن أهل مصر ، البعض لبلاد الصعيد ، والبعض لبلاد الشرق وهم الأكثر ، وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه ، ومن لا يقدر على الحركة ممتثلاً للقضاء متوقفاً للمكروه ، وذلك لعدم قدرته أولقاة ذات يده وما ينقذه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم في الغربة ، فاستسلم للمقدور ، والله عاقبة الأمور »

وقد زاد هذه الفاجعة هولاً انه لما احرق الممالك سقنهم بعد الهزيمة تصاعد لهب الحريق ودخان من السفن المحترقة ببولاق والجيزة ، وشاهد سكان العاصمة النيران

المشتعلة ليلا ، فظنوا ان الفرنسيين قد عبروا النيل واحرقوا بولاق والجيزة ، وشاع بين الناس انهم وصلوا الى باب الحديد يحرقون ويعتدون على النساء ، فاشتد الفرع وعظم الخطب ، وفي ذلك يقول الجبرتي :

« ان بعض القليونجية (البحارة) من عسكر مراد بك الذي كان في الغليون (المركب الحربي) بمرسى انبابه لما تحقق الكسرة اضرم النار في الغليون الذي هو فيه ، وكذلك مراد بك لما رحل من الجيزة امر بانحراق (سحب) الغليون الكبير من قبالة قصره (قصر مراد بك بالجيزة الذي اتخذه نابليون معسكرا له بعد الواقعة) ليصاحبه معه الى جهة قبلي ، فمشوا به قليلا ووقف في الطين ثقلة الماء ، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة ، فامر بحرقه ايضا ، فصعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق ظنوا بل ايقنوا انهم احرقوا البلدين فاجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفرع والروع والجزع ، وخرج (من القاهرة) اعيان الناس وافندية الوجاقات واكابرهم وقييب الاشراف وبعض المشايخ القادرين ، فلما عين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللاحاق بهم ، والحال ان الجميع لا يدرون أى جهة يسلكون ، وأى طريق يذهبون ، وأى محل يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا ، وخرجوا من كل حذب ينسلون ، وبيع الحمار الاعرج أو البغل الضعيف باضعاف ثمنه ، وخرج اكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على اقدامه ، وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات ، واطفالهن على أكتافهن يبكين في ظلمة الليل ، واستمروا على ذلك طول ليلة الأحد وصبحها »

وختم الجبرتي وصف تلك المأساة بقوله « وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين ، فما راء كن ممعا »

الفصل الثامن

عود إلى الاسكندرية

واقعة أبوقير (١) (أول أغسطس سنة ١٧٩٨)

وتأثيرها في مركز الفرنسيين

على مقربة من الاسكندرية ، وفي منتصف المسافة تقريبا بينها وبين رشيد ، في خليج (أبوقير) ، وقعت يوم أول أغسطس سنة ١٧٩٨ الواقعة البحرية الشهيرة بواقعة (أبوقير) بين الاسطول الانجليزي بقيادة الاميرال نلسون Nelson والاسطول الفرنسي بقيادة الاميرال برويس Brueys وانتهت بتحطيم الاسطول الفرنسي وتدمير معظم سفنه وأسر الباقي ومقتل أميراله وخيرة رجاله ونحو أربعة آلاف من بحارته، فكانت هذه الواقعة كارثة عظمى أصابت البحرية الفرنسية وقضت على آمال فرنسا في بسط سيادتها على البحر الأبيض المتوسط، وكانت في الوقت نفسه أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية في مصر، من أجل ذلك وجب علينا أن نتكلم عن هذه الواقعة مع بيان نتائجها وأثرها في تطور الأحوال في مصر

(١) التزمنا في هذه الكلمة لفظها المحكي « ابو قير » على قاعدة الحكاية ، والكلمة ليست مركبة من (ابو) و (قير) بل هي كلمة مفردة ، فلا تجرى على (ابو) قواعد الاضافة ، وفي تاج العروس للعلامة اللغوي المشهور السيد محمد مرتضى الزبيدي (الجزء الثالث) انها (بوقير بالضم جزيرة قرب رشيد) وقد أوردتها تحت كلمة (بقر) ، فالباء من بنية الكلمة ، وهذا يثبت انها كلمة مفردة ، وسواء أكانت (بوقير) أم (أبوقير) فهي ليست كلمة مركبة ، ولذلك قلنا واقعة أبوقير

مقدمات الواقعة

كانت ميناء الاسكندرية الغربية لا تستطيع أن تؤوى بوارج الاسطول الفرنسى الكبرى لقرب غور المياه فى مداخلها ، فاختار الاميرال برويس بالاتفاق مع نابليون خليج (أبوقير) يتخذ مرسى لبوارجه ، وانتقل اليه بأسطوله يوم ٧ يولييه سنة ١٧٩٨ على أن يقلع منه الى جزيرة كورفو إذا رأى المكث فيه خطراً ، وكان السكبتن بارى Barré قد كلف سبر غور الميناء ومداخلها للتحقق من عمقها ، فأجرى عدة من التجارب انتهى منها إلى ان الميناء تحتل دخول البوارج الكبرى ، لكن الأدميرال برويس بعد ان استشار قواد الاسطول رأى من المخاطرة أن يعود الى ميناء الاسكندرية اذ لم يطمئن الى التجربة التى زاوها السكبتن بارى ، وكان متردداً بين البقاء فى أبوقير والاقلاع الى جزيرة كورفو ، لكنه آثر البقاء فى أبوقير لأنه لم يكن لديه المؤونة الكافية للسفر الى كورفو ، ثم لأنه لم يشأ أن يغادر سواحل مصر قبل أن يطمئن على مصير الجيش الفرنسى بها ، فأخذ يترقب أخبار نابليون بنافذ الصبر وينتظر نتيجة محاربته لجيش مراد بك ، فأضاع وقته فى الانتظار دون أن يتخذ خطة حاسمة أو ينصب المدافع بالبر لحماية مواقع الأسطول ، وكان بشاطيء (أبوقير) قلعة قديمة (١) لكنها لا تصلح لحماية الخليج إذ كانت فى حاجة الى تحصينها بالمدافع الكبيرة ، وكذلك يوجد فى مدخل الخليج جزيرة صغيرة (٢) (شرق القلعة) وضع فيها الاميرال برويس بعض المدافع لكنها لم تستطع منع السفن الانجليزية من دخول الخليج يوم الواقعة

وكان الاميرال نلسن قبل الواقعة لا ينفك يتجول فى البحر الابيض المتوسط ليتعرف مواقع الاسطول الفرنسى ، فانه بعد ان وصل الى الاسكندرية يوم ٢٨ يونيه

(١) هى المعروفة الآن بطابية البرج وهى على الراجح منشأة فى عهد سلاطين البحرية

(٢) سميت بعد الواقعة جزيرة نلسن

ولم يجد العمارة الفرنسية كما قدمنا أقلع بأسطوله الى شواطئ الأناضول ثم عاد ادراجها الى صقلية ليمتار منها، ثم قصد ثانياً الى سواحل مصر، وفي غضون ذلك اشتد قلق الرأي العام الانجليزى فى لندن لأن الأميرال نلسن لم يستطع فى بحر ثلاثة أشهر تقريباً قضاها فى خوض البحر ان يدرك الاسطول الفرنسى وترك نابليون يستولى على مالطه ويبلغ سواحل مصر ويحتلها بمجنوده، ولكن نلسن لم يقصر فى تعقب أسطول الاميرال برويس بل كانت الأقدار هي التى باعدت بينه وبين خصمه على ظهر البحار، الى أن حضر بأسطوله تجاه الاسكندرية صباح يوم أول أغسطس (يوم الواقعة) ثم اتجه ناحية أبو قير حيث كان الاسطول الفرنسى راسياً يترقب

الموازنة بين الاسطولين

لم تكن قوة الاميرال نلسن تزيد عن قوة الاسطول الفرنسى لافى عدد السفن ولا فى عدد المدافع والبطارية، فان اسطول نلسن كان مؤلفاً من خمس عشرة سفينة حربية منها أربع عشرة بارجة كبرى، وكان عدد مدفع أسطوله ١٠٥٠ مدفعاً وبطارته ٨٢٤٠ من المقاتلة

أما أسطول الاميرال برويس فى أبو قير فكان مؤلفاً من سبع عشرة سفينة حربية منها ثلاث عشرة بارجة كبرى وأربع فرقاطات كبيرة عدا السفن المسلحة المتوسطة الحجم أو الصغيرة التى كانت حولها^(١) وكان سلاح هذا الاسطول ١١٨٠ مدفعاً وبطارته ٨٩٠٠ مقاتل

فيتبين من هذه المقابلة أن الاسطول الفرنسى وان كان أقر عدداً فى البوارج الكبيرة إلا أنه فى مجموعه أكثر عدداً وعتاداً من الاسطول الانجليزى، لكن الفارق الحقيقى الذى جعل للاسطول الانجليزى الغلبة والنصر فى القتال هو كفاية

(١) ترك الاميرال برويس بميناء الاسكندرية بعض السفن الحربية وكثيراً من السفن الخفيفة

القيادة والنظام وحسن الاستعداد الحربى ، ولا غرو فشخصية نلسن هى من أهم أسباب عظمة انجلترا البحرية ، كأن الرجل أسطول إنسانى لم يكن الاميرال برويس يتوقع أن يصادمه الاسطول الانجليزى فى خليج أبوقير ، فلم تكن بوارجه على تمام من أهبتها واستعدادها ، وكان عدد كبير من ضباطها وبحارتها يتخلفون فى الشواطىء أو فى الاسكندرية يمتارون منها

بدء المعركة

فى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر يوم أول أغسطس ، بدأت بوارج الاميرال نلسن تظهر فى الأفق تجاه أبوقير ، وتبينها الاميرال برويس وهى فى عرض البحر بعيدة عن الساحل ، ولم يكن يعتقد أنها جاءت لمهاجمته ، بل كان يظن بادىء الامر أنها تريد محاصرة الخليج ، غير أنه رآها تقترب شيئاً فشيئاً على سمت من الخليج ، فتحقق أن المعركة لا محالة ناشبة

وكانت تتقدم أسطول الاميرال نلسن عند اقترابه من الخليج سفينة مصرية ^(١) ويرجح « ريبو » أن هذه السفينة كانت تقل جماعة من البحارة المصريين تقدموا ليرشدوا الاسطول الانجليزى الى مسالك البحر فى تلك الجهة يساعده به بذلك على الاسطول الفرنسى ^(٢)

وعند الساعة الثالثة اصدر الاميرال برويس امره للسفن بالتأهب للضرب ، وأخذ الاميرال نلسن يرقب مواقع بوارجه ، وكان فى حركاته حراً بعكس الاميرال

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) جاء فى تقرير الضابط الفرنسى شاربيه Charrier الذى كان على ظهر البارجة فرنكان من بوارج الاسطول الفرنسى ما يؤيد هذه الرواية ، قال « فى منتصف الساعة الخامسة مساءً شاهدنا فى عرض البحر سفينة مصرية قادمة من الاسكندرية تتصل باحدى السفن الانجليزية ولم تنفصل عنها بالرغم من أن السفينة (ألرت) Alerie اطلقت عليها عدة قنابل »

برويس فان حركاته كانت مقيدة لانحصاره في الخليج ، وبالرغم من أن بعض أركان حربه نصحوه بالخروج في عرض البحر الملاقاة الاسطول البريطاني فانه آثر البقاء في مرساه ، وكان موقف الاسطول الفرنسي مما ساعد الاميرال نلسن على احكام تدبيره لان البوارج الفرنسية كانت مصطفة على خط يشبه القوس بعيدة عن الشاطئ الغربي للخليج كما تراه في الخريطة ، فاستطاعت البوارج الانجليزية أن تندس بينها وبين الشاطئ ، وُخيل للاميرال برويس أن مثل هذا الحادث يستحيل وقوعه لقلة عمق البحر في هذا الموضع ، فكان هذا الخطأ في التقدير وجرأة الاميرال نلسن في الوصول الى هذا المكان من أسباب الكارثة التي حلت بالاسطول الفرنسي

توصل الاميرال نلسن الى حصر البوارج الامامية من الاسطول الفرنسي وعددها ثمان بين صفين من البوارج ، فصارت هدفا لتارين ، ومع ان البوارج الفرنسية الاخرى كانت حرة وخارجة عن مرمى هذه النار وكن في استطاعة قائدها الكونت ادميرال فيلنوف ، أن ينتهز الفرصة يحيط بلورج الانجليزية ، فانه ظل جامداً وترك لبورج المحصورة عرضة للذخ من الجانبين ، فكان جهود فيلنوف من أسباب انتصار نلسن

بدء الضرب

بدأ الضرب في نحو الساعة الخامسة مساءً ، (١) وكان شديد مروءة ، فنقلب البحر كأنه بركان من نار أو واد من أودية الجحيم ، وبدأ الفريقان بسنة في التمثل لكن البوارج الانجليزية كانت أرسخ في مواقعهم وشدا حكامهم في رمي ، وكانت البارجة (أوريان) بارجة الاميرال برويس هدف لنار شديدة ، عني ان الاميرال

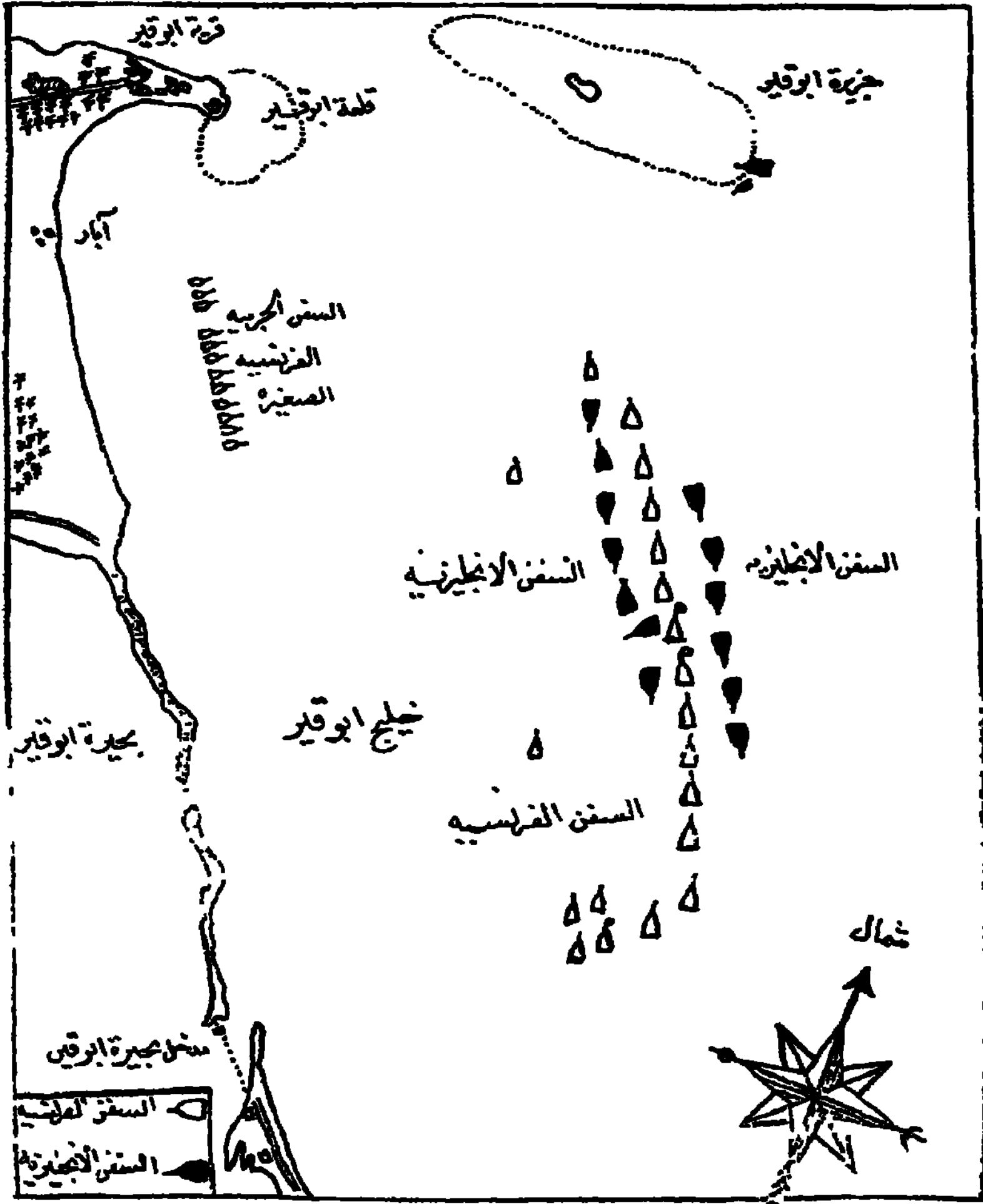
(١) يوجد اختلاف في الرواية عن بدء الضرب ، ففي رواية أخرى أنه بدأ الساعة السادسة مساءً على اننا نرجح الرواية الاولى لان الكاتب الفرنسي فيفان دينون كان وقت المعركة واقفاً على برج ابى مندور جنوب رشيد عند ابتداء الضرب وسمعه هناك فقال انه ابتداء الساعة الخامسة مساءً

لم يفتأ يصدر الاوامر ويحرض رجاله على القتال ويبدى شجاعة كبرى في قيادة المعركة ، وفي نحو الساعة السابعة مساءً أصيب في رأسه وفي يده ، لكنه استمر في مركز القيادة وضمد جراحه بنفسه

مقتل الاميرال برويس

الى أن كانت الساعة الثامنة فأصابته قنبلة مدفع فصلت نخذه الأيسر وقضت على حياته ، وتولى القيادة بعده الكونتراميرال فيلنوف واستمر الضرب حتى كانت الساعة التاسعة مساءً ، وهناك اضطربت النار في البارجة أوريان وظلت مشتعلة فيها الى أن اتصلت بمستودع الذخائر ، فانفجر ونسف السفينة نسفاً ، فتطايرت اجزاؤها في الفضاء ومات معظم بحارتها حرقاً وغرقاً ، وكان ذلك في منتصف الساعة الحادية عشرة مساءً ، فساد من الجانبين سكون رهيب لهُول الانفجار ، ثم تجدد الضرب بعد نصف ساعة ، وكان الاسطول الفرنسي قد تضعضع بسبب ما حل به من الخسائر ولا سيما بعد مقتل أميراله وضياح كبرى بوارجه ، واستمر الضرب الى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ثم انقطع وخفت وطأته ، ثم تجدد في نحو الساعة الخامسة صبيحة اليوم التالي (٢ أغسطس) وانتهت المعركة في نحو الساعة الثانية عشرة ، انتهت بالقضاء على الاسطول الفرنسي ، وانسحب الكونتراميرال فيلنوف بأربع سفن حربية هي البقية الباقية من العارة الفرنسية ومضى بها قاصداً الى مالطة ، ولم يتعقبه الاميرال نلسن لما أصاب سفينه من العطب ولما حل برجاله من الاعياء .

كان الضرب من الجانبين في خلال المعركة شديداً مروّعا ، وقد سمعه وقتئذ سكان الاسكندرية ورشيد ، ففي منتصف الساعة السابعة مساءً (يوم أول أغسطس) سمع في الاسكندرية قصف المدافع آتيا من أبوقير ، فعلم الناس أن معركة هائلة وقعت في الخليج ، واستمر دوى المدافع الى الساعة العاشرة ليلا ، وبعد ذلك سمعوا صوت انفجار البارجة « أوريان » وشاهد بعض الضباط الفرنسيين في منتصف



خريطة واقعة ابو قير البحرية — اول اغسطس سنة ١٧٩٨
وموقف الاسطولين عند ابتداء القتال

الساعة الحادية عشرة ليلا هيب النار يتصاعد في جنح الظلام وتمتقوا في اليوم التالي انها نار البارجة (أوريان) ساعة انفجارها ، فكان المنظر رهيباً يملأ النفوس فرعاً ورعباً ، واقطع صوت الضرب عقب الانفجار مدة عشرين دقيقة ، ثم تجدد بشدة واقطع ثانية في نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل

وكذلك سمع قصف المدافع في رشيد خلال المعركة ورأى أهلها هيب النار يمترق ظلمة الليل ، فأدركوا ان بارجة كبيرة تمترق (وهي البارجة أوريان) وسمعوا دوى انفجارها ، وفي اليوم التالي عند أذان الفجر تجدد صوت الضرب ، وفي الصباح سمعوا انفجاراً آخر وهو انفجار الفرقاطة ل'Artemise الفرنسية التي جنحت على الشاطئ فأمس ربانها بإشعال النار فيها حتى لا تقع في يد الانجليز

خسائر الفرنسيين

فقد الفرنسيون في معركة أبوقير سفنهم الكبرى ولم ينج منها إلا أربع سفن وهي التي فرت من الميدان بقيادة فيلنوف أما الباقي فقد دمرت النار بعضها وغرق البعض الآخر وغنم الانجليز ست سفن ضموها الى أسطولهم ، فكان انتصار فلسن في موقعة أبوقير ساحقاً لأنه خرج منها وقد حطم الاسطول الفرنسي وزاد عدد أسطوله بما غنمه من السفن الفرنسية ، وكانت خسارة الفرنسيين في الأرواح فادحة فقد قتل أميرال الاسطول ومعظم أركان حربه وقتل وغرق من الفرنسيين نحو أربعة آلاف ولم ينج من بحارة الاسطول سوى ثلاثة آلاف ، أما الباقون فكانوا في عداد القتلى أو الأسرى . وقد أعاد الانجليز الأسرى الفرنسيين الى الاسكندرية تخلصاً من مؤونتهم ومنهم كثير من الجرحى ، وخسر الانجليز ٢١٨ قتيلاً و ٦٧٨ جريحاً وأصيبت بوارجهم تلف وعطب من شدة الضرب

دامت المعركة طويلاً ، وكان الحظ فيها متايلاً بين الفريقين ، ومر وقت كان للشك في مصيرها عظيم ، لكن أسباباً ثلاثة عجبت بهزيمة الفرنسيين ، وهي احاطة الاسطول الأنجليزى بالوارج الأمامية ، واحتراق البارجة أوريان ، وجود

الكونت راميرال فيلنوف ، وقد أصيب الأميرال نلسن بجرح في رأسه وأغمى عليه
لكن جرحه كان خفيفاً ولما زال عنه الانغماء عاد الى موقفه في القيادة حتى تم له النصر
وخرج من المعركة رافع الرأس خالد الذكر يحمل لواء البطولة والمجد
ويسمى بعض المؤرخين هذه المعركة « معركة النيل البحرية »

رواية الجبرتي عن الواقعة

كتب الجبرتي ما يلي عن واقعة أبو قير

« وفيه (٦ ربيع الأول سنة ١٢١٣ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨) تواترت
الاجبار بحضور عدة مراكب من الانكليز الى ثغر اسكندرية ، وانهم حاربوا
مراكب الفرنسية اراسية بالمينا ، وكانت أشيعت هذه الاخبار قبل وتحدث الناس بها
فصعب ذلك على الفرنسية ، واتفق ان بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف
يسمى السيد احمد الزرو من أعيان التجار بوكالة الصابون انه تحدث بذلك ، فأمرؤا
باحضاره وذكروا له ذلك ، فقال انه حكيت ما سمعته من فلان انصراني ، فحضره
أيضاً ، وأمرؤا بقطع لسانيهما ، أو يدفع كل منهما مائة رين فرانسه نكالا لهما وزجرا
عن الفضول فيما لا يعنيهما ، فتشفع المشايخ ، فلم يقبلوا ، فقال بعضهم اطلقوهما ونحن
نأتيكم بالدراهم ، فلم يرضوا ، فرسل الشيخ مصطفى الصاوي (من أعضاء الديوان)
وأحضر مائتي ريال ودفعها في الحضرة ، فلما قبضها الوكيل ردها ثانيا اليه ، وقال فرقها
على الفقراء ، فأظهر انه فرقها كما أشار وردها الى صاحبها ، فنكف الناس عن
التكلم في شأن ذلك ، والواقع ان الانكليز حضروا في أثرم (أي الفرنسيين) الى
الثغر وحاربوا مراكبهم فنالوا منهم وأحرقوا القايق الكبير المسمى نصف الدنيا (١)

(١) يريد البارجة « أوريان » (الشرق) ولا ندرى لماذا اختار هـ الجبرتي
هذا الاسم ، ولعلها سميت في مصر (نصف الدنيا) اشارة الى عظمها أو اشارة
الى أن اسمها (الشرق) ومن الشرق والغرب تتكون هذه الدنيا ، وظاهر من

وكان به أموالهم وذخائرهم وكان مصفحاً بالنحاس الأصفر واستمر الانكايز بمراكبهم
بمينا الاسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيين »

نتائج المعركة

يوجد في تاريخ الحروب وقائع معدودة امتازت بعظم تأثيرها في مصير الدول
والشعوب ، ومن هذه الوقائع واقعة أبوقير

كانت هذه الواقعة أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية وظهرت نتائجها الخطيرة
على مدى الأيام ، فإن فرنسا حينما شرعت في احتلال مصر كانت تعتمد على قوتها
البحرية في البحر الأبيض المتوسط لامتداد الحملة وحماية المواصلات بينها وبين
السواحل المصرية ، وكانت تأمل إذا بقيت قوتها البحرية في البحر الأبيض سليمة
أن تتفاهم مع تركيا بشأن مصر لأن تركيا لم يكن لها فيها سوى سيادة اسمية لا أهمية لها ،
وكانت من جهة أخرى تؤمل أن يكون اتصالها بمصر بطريق البحر مما يسهل عليها
اتخاذ وادي النيل قاعدة عسكرية لضرب إنجلترا في الهند وإنشاء دولة شرقية تحقق
اطمئنان فرنسا ، فلو أن معركة أبوقير انتهت بانتصار الاسطول الفرنسي لضمنت
فرنسا سيادتها في البحار واستطاعت أن تضرب إنجلترا الضربة القاضية بل أن
تغزوها في جزيرتها

لكن كل هذه الاعتبارات والآمال قد تلاشت في معركة أبوقير إذ قضت هذه
المعركة على البحرية الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط ، وضمنت لإنجلترا السيادة
على البحار ، وقطعت الاتصال بين فرنسا وسواحل مصر ، وأحيت آمال الدول المملكية
التي قهرتها فرنسا في ميادين القتال ، فبدأت تتأهب للأخذ بالثأر متشجعة بما حل
بالأسطول الفرنسي من الدمار ، وانهزت إنجلترا فرصة انتصارها على ظهر البحر

رواية الجبرتي عن الواقعة انه لم تصله عنها بيانات وافية وان الفرنسيين كانوا
يتكتمون أخبارها ويتهددون كل من يذيع أنباءها كما رأيت ما فعلوه مع السيد
احمد الزرو وصاحبه

لتجندب اليها الدول المتوترة ، وانضمت روسيا الى تلك الدول وعقدت محالفة جديدة مؤلفة من انجلترا والنمسا وروسيا وتركيا وناپولى لمحاربة الجمهورية الفرنسية ، وتمكنت انجلترا من أن تحمل الباب العالي على اعلان الحرب على فرنسا والانضمام الى روسيا عدوته التاريخية وفتح البحر الأبيض للبوارج والقوات الروسية ، ولم تلبث الحرب أن تجددت بين النمسا وفرنسا ، وانضمت روسيا الى النمسا ، وقامت الثورة في مالطة ضد الفرنسيين ، وتخرج مركز فرنسا أمام تحالف الدول الملكية عليها (التحالف الثانى) ، فكانت واقعة أبوقير نذيراً بتزلزل مركزها وضياع فتوحاتها في القارة الأوروبية والبحر الأبيض هذا من الوجهة الدولية ، أما من الوجهة المحلية فقد كانت خسائر الفرنسيين في واقعة أبوقير فادحة ، فقدوا بوارجهم الحربية الكبرى ، وفقدوا معظم ضباط وبحارة هذه البوارج بين قتيل وغريق.

وكان وقعها في نفوس الجنود من اجيش الفرنسى اليأس ساقط ، لأنهم أدركوا أن المواصلات قد انقطعت بينهم وبين فرنسا وأنهم أصبحوا شبه منفيين في القارة الافريقية ، وكان وقع الكارثة أشد على جنود الاسكندرية ورشيد والسواحل القريبة من مكان الواقعة ، فأنهم شهدوا عن كذب آثار الكارثة ، فكانوا يرون المستشفيات غاصة بالبحارة المصابين الذين مرقت القنابل أجسامهم ، ويرون على الشاطئ بقايا العمارة المتحطمة وأشلاء الجثث التي كانت تقذفها الأمواج الى البر ، ويشهدون في عرض البحر البوارج الانجليزية تمخر عباب اليم فتلقى الزعب في قلوبهم أثرت كل هذه المشاهد في روح الجنود المعنوية ، فخذت قواهم تضعف ونفوسهم تيأس وعزائمهم تنخور ، وكان من نتائج الواقعة أنها ضعفت هيبة فرنسا في جهات الاسكندرية ورشيد والبحيرة وشجعت أهلها على الثورة ، وأخذ الاسطول الانجليزى بعد انتصاره في تلك المعركة يشدد الحصار على الشواطيء فتقطع كل المواصلات التجارية التي كانت مصدر ثروة الاسكندرية ، ونضب معين الجمارك فضاقت أخال واشتد الكرب ب أهل الاسكندرية وزاد سخطهم على الاحتلال الفرنسى ، وكان الفرنسيون

يتوقعون في كل وقت أن ينزل الانجليز قوات الى الشاطئ فيوقعوا الفرنسيين في الخطر وبخاصة اذا اتصلوا بالاهالى الذين كانوا على استعداد للثورة

كتب كليبر الى نابليون بتاريخ ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ رسالة طويلة يشكو فيها حرج مركزه قال فيها « ان مركزى هنا حرج عسير ولا سبيل لى الى معرفة خطتكم ونهجم وانى مضطر أن أواجه الحالة كما لو كنت ألتقى تعليقاتكم ، ان الانجليز يستطيعون أن يضربوا المدينة بالقنابل وان يفتحوا الثغر دون أن يخشوا مقاومة ، ان لدينا بطاريات تحمى الثغر ولكن وسائلنا محدودة بالنسبة لمجهودات العدو الذى يظهر أنه مصمم على سحقنا ولوضحى فى سبيل ذلك أسطوله بأكمله، ومن الواجب أن توجهوا عنايتكم لضمان المواصلات بطريق البر ومن رأى أن كتيبة الجنرال ديموى لا تقنى بل لاتعد شيئاً يركن اليه فى تحقيق هذا الغرض »

وكتب له رسالة أخرى يقول فيها « لم تصلنى كلمة منك منذ خمسة وثلاثين يوماً، ان وجودكم هنا ضرورى لرفع المستوى المعنوى للجنود ، فان كثيراً من الاشاعات تنتشر عن مركز الجيش وأنى أعلم فى احباطها بقوة ولكن أخشى أن تترك أثراً فى النفوس فوجودكم يردُّ الى الجنود طمأنينتهم »

على أن نابليون قد محاً بتأثيره السحرى أثر اليأس الذى تسرب الى نفوس الجنود، وشدد عزائمهم ونفخ فيهم روح الاقدام والبسالة ، وقابل الكارثة برباطة جأش ردت الى الجنود قوتهم المعنوية ، واستمر فى مشاريعه يدبرها وينفذها كأن لم يحدث حادث ولم يقع مصاب ، وكتب الى كليبر يقول « ان ما حدث سيضطرننا أن نفعل أعمالاً أعظم مما كان فى حسابنا »

وأخذ كليبر من جهته يواجه الكارثة بجلد وثبات ، وجمع فلول البحارة الذين نجوا من الهلاك وعددهم نحو ثلاثة آلاف فانشأ منهم فرقة جديدة سميت (الفرقة البحرية) وكلف نابليون الاميرال جانتوم بان يجمع بقايا السفن السليمة وينظمها من جديد على أن يكون قومنداناً لها، وأوفد الجنرال مارمون الى الاسكندرية لتحصين السواحل وحمايتها من هجمات السفن الانجليزية

ديوان الاسكندرية

رأى الجنرال كليبر أن يستميل الأهالى ويتبع حياهم طريق المسألة لانه شاهد بنفسه ولاسيما بعد كارثة الاسطول الفرنسى أن هوة الخلاف تزداد اتساعا بين الفرنسيين والمصريين ، فأنشأ فى الاسكندرية (ديوانا) على مثال ديوان القاهرة وعين لرأسته الشيخ محمد المسيرى ، وأصدر بذلك منشورا الى الاسكندريين فى ٢١ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، فديوان الاسكندرية لم يؤسس كما ترى الا عقب واقعة (ابوقير) وكان كليبر هو مؤسسه

ان أغلب المؤرخين يذكرون أن نابليون هو الذى أسس الديوان بالاسكندرية ، وهذا خطأ كما ترى ، وقد جاء فى يوميات الجنرال كليبر بتاريخ ٤ فركتيدور (٢١ أغسطس) « فى هذا اليوم أنشأ الجنرال كليبر ديوانا فى الاسكندرية مع أنه لم تصله تعليمات من القائد العام فى هذا الشأن وكن لا يعلم اذا كن القائد العام يريد انشاءه ، على أنه أسسه حتى يقاوم دسائس الانجليز فى المدينة » وما جاء فى يوميات كليبر من أنه لم تصله تعليمات نابليون فى شأن انشاء الديوان فيه شيء من التجاوز ، لأن نابليون أرسل الى كليبر فى ٢٨ و ٣٠ يولييه سنة ١٧٩٨ (مراسلات نابليون اجزاء الرابع وثيقة رقم ٢٨٨٠) يذمره بتأسيس ديوان الاسكندرية طبقا للنظام الذى رسمه لدواوين الاقاليم ، وهذه الرسالة تنفى أن كليبر أسس الديوان من تلقاء نفسه ، وتنفى كذلك ما زعمه أغلب المؤرخين من ان نابليون هو الذى أسس ديوان الاسكندرية أثناء اقامته بها وقبل رحيله عنها ، لأنه غادرها يوم ٧ يولييه ، ولم يصدر أمره بانشاء دواوين الأقاليم - ومنها ديوان الاسكندرية - إلا فى ٢٧ يولييه كما تقدم الكلام عن ذلك (ص ١٠٣) وكان وقتئذ بالقاهرة

الشيخ محمد المسيرى

قلنا ان الشيخ محمد المسيرى عين رئيساً لديوان الاسكندرية ، والشيخ المسيرى هذا كان كبير علماء الاسكندرية فى ذلك العصر ، وكان ابنه معتقلا مع الأهالى

الذين قبض عليهم عقب مقتل الجندي الفرنسي في المدينة (انظر ص ١٨٦) ثم أفرج عنه بعد محاكمة القاتل ، وكانت الشيخ تقياً ورعاً يؤثر العدالة والاستقامة ، وما يذكر عنه في هذا الصدد ما جاء في يوميات الجنرال كليبر انه أوصى أعضاء الديوان الذي أسسه بالنزاهة في عملهم والابتعاد عن الطمع في أموال الناس ، فأجاب الشيخ المسيرى محتجاً بأنه إذا لاحظ على أى من أعضاء الديوان أنه يبسط يده في أموال الناس فهو يعتزل لفوره رأسه الديوان فطلب منه كليبر أن يكتفى بتبليغه الأمر دون أن يعتزل حتى لا يحرم قومه ولا يحرم الافرنج خدمته وعمله ، فهذا يدلك على مكانة الشيخ المسيرى في نفوس الشعب وما كان له من الاحترام عند المصريين والافرنج ، ويدلك على منزلته عند نابليون انه كتب الى الجنرال مارمون في ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ (١) يطلب اليه ان يذهب لمقابلة الشيخ المسيرى ويبلغه بالنيابة عنه كيف احتفل بالمولد النبوى بالقاهرة ، قال في رسالته « وأبلغه عنى انى أجتمع مع كبار المشايخ ورؤساء الاشراف بالقاهرة بين حين وآخر ، وانه لا يوجد أكثر منى اعتقاداً بطهارة وقدسية الدين الاسلامى (٢) » وكتب نابليون الى الشيخ المسيرى رسالة من القاهرة يقول فيها « لقد سرنى ما علمته من الجنرال كليبر عن مسلككم ، وانك تعلم مبلغ احترامى لك منذ عرفتك وأتعشم ان يجيء الوقت الذى أستطيع أن أجمع عقلاء البلاد وعلماءها وان أضع نظاماً موحداً مؤسساً على مبادئ القرآن ، تلك المبادئ الصحيحة التى تكفل للناس سعادتهم (٣) »

بين كليبر ونابليون

وأخذ كليبر يختلف بالزيارة الى محافظ المدينة ورئيس الديوان ويتودد اليهما ، ودعاهما مع أعضاء الديوان الى مأدبة عنده احكاماً لروابط الود معهم كما أنه عين

(١) و(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣١٤٧

(٣) مراسلات نابليون وثيقة رقم ٣١٤٨

مرتبات شهرية لكل من المحافظ وأعضاء الديوان وفرقة الشرطة وطلق يرسل بعض رؤساء العشائر في دمنهور ليستميلهم الى جانبه بالحسنى ويأخذ منهم عهوداً بالولاء ، وكان يرى تنظيم مديرية البحيرة على قاعدة اعتبار البلاد الكائنة بين الاسكندرية ودمنهور وسابور ورشيد مديرية واحدة تدخل فيها هذه المدن وتخصص لها قوة من ثلاثة آلاف جندي وبذلك يمكن تنظيم جباية الاموال بطريقة تكفل نفقات الجيش والادارة (١)

وكان كليبر شديد اربة في ان لا يرهق أهالى الاسكندرية بضريبة جديدة أو سلفة اجبارية تزيد في ضيقهم ، فاختلف هو ونابليون من هذه الوجهة لان نابليون كتب اليه بضرورة فرض ضريبة جديدة لسد نفقات الجيش وتقوية معدات الدفاع عن الاسكندرية وترميم بعض الموانج البحرية التى نجت من كارثة أبوقير ، لكن كليبر أصر على رأيه وكتب الى نابليون يقول ان طريقة المصادرة تؤول الى حدوث مجاعة وقتنة في المدينة

وكان كبير يرى ان ليس من الحكمة في الوقت الذى مد فيه ينود الى الأهالى بالشاء الديوان والخبيرة مع زعماء العشائر في دمنهور لاعادة الصفاء أن يتبر سخط أهالى الاسكندرية بفرض ضريبة جديدة ، وكان من جهة أخرى لا يرى رأى نابليون في الاهتمام باحياء القوة البحرية الفرنسية لأن هذه القوة محكوم عليها بالفشل مما انفق عليها ، فاستاء نابليون من رد أوامر ولا سيما في فرض ضريبة جديدة على تجار الاسكندرية وكتب اليه في أول سبتمبر بعاتبه ويدمره بفرض الضريبة ، فظب كبير من نابليون اقلته من وظيفته بالاسكندرية واخلقه بفرقة واعتذر بعدم اضطلاع بالوظائف الادارية ، ورشح الجنرال دوج ليخلفه ، على ان نابليون كان يعرف مقدرة كليبر ومميزاته في شئ أن يحرم مساعدته ورج منه بالحاج أن يبقى في مركزه ، وكتب له كتابا يعرب له فيه عن تقديره لمواهبه ويسترضيه عما قرط منه في عبارات

عتابه ، فتأثر الجنرال كليبر من لمجة الود والاحترام التي خاطبه بها نابليون وأذعن لرغبة القائد العام (١) وكتب له يرجو مقابلته في القاهرة ، وسافر كليبر من الاسكندرية لهذا الغرض فوصل الى القاهرة حين نشوب الثورة فيها وكانت الحال في الاسكندرية تزداد حرجا بسبب تضيق الانجليز للحصار البحري المضروب على الثغر ، وقد بذل كليبر ما في وسعه لتخفيف وطأته ولكن الانجليز شددوا نطاق الحصار فأسروا في يوم واحد (٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨) ٣٨ سفينة احرقوا منها ٢٨ سفينة وأعادوا بحارتها الى البر

الجنرال مارمون في الاسكندرية

تولى الجنرال مانسكور Manscourt قومندانية الاسكندرية عقب سفر كليبر الى القاهرة ، لكنه لم يلبث أن استدعاه نابليون لما ظهر له من عجزه وعين الجنرال مارمون قومندانا لها (٢) وظل في هذا المركز الى أن رحل مع نابليون الى فرنسا في أغسطس سنة ١٧٩٩

وقد أبدى مارمون حزمًا في الاضطلاع باعباء مركزه ولكن صادفته صعوبات كبيرة أهمها ظهور الطاعون في الاسكندرية ، فقد كن لظهوره وضرورة حصره في الثغر أثر شديد في صعوبة المواصلات بين الاسكندرية وباقي بلاد القطر المصري ، فاشتد الضيق بالاسكندرية وأهلها

اهتم الجنرال مارمون بتحسين الاسكندرية وتولى الكولونل كريتان Cretin انشاء قلعتين لصدهجمات البوارج الانجليزية ، القلعة الاولى بكوم الدكة ، والقلعة الأخرى بكوم الناضورة

(١) سنعود تفصيلا الى هذا الموضوع في مراسلات نابليون وكليبر بالفصل السادس من الجزء الثاني

(٢) أمر نابليون الصادر في ٢٨ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، والجنرال مارمون كان من قواد فرقة الجنرال بون وهو الذي اقتحم باب رشيد يوم احتلال الاسكندرية

وقد سميت القلعة الاولى باسم قلعة كريتان تخليداً لاسم بانيتها الكولونل كريتان
الذى قتل في معركة أبوقير البرية كما سيجيء بيانه في الفصل الرابع من الجزء الثانى
وسميت القلعة الثانية قلعة كافريللى تذكراً لاسم الجنرال كافريللى الذى قتل في
حصار عكا

ونصب الفرنسيون المدافع في قلعة قايتباى وفي قلعة أبوقير وبنوا قلعة بجزيرة
العجمى مكان البرج القديم الذى كان بها ووضعوا المدافع على مدخل الميناء في نهاية
شبه جزيرة راس التين

وقد بقيت قلعتا كافريللى وكريتان الى عهد محمد عى باشا وشاهدهما الجنرال مارهون
حينما زار الاسكندرية سنة ١٨٣٥ ويقول في رحلته (١) أنه الفاهما كما كانتا في عهد
الحملة الفرنسية وان محمد على حفظ عليهما (والصحيح أنه رممهما وجدد ما تخرب من
بنائهما) ويقول أيضاً أن محمد على رمم سور المدينة وأصلح أبراجه وركب فيه المدافع
وجعل الاسكندرية في حالة منيعة من بدفع

(١) رحلة المرشال الدوق دى راجوز (الجنرال مارمون) الجزء الثالث

الفصل التاسع

في رشيد

رشيد هي الآن مركز من مراكز مديرية البحيرة ، لكنها في عصر الحملة الفرنسية وقبلها كانت مديرية قائمة بذاتها وموقعاً حريباً وتجارياً على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أنها مفتاح النيل (فرع رشيد) على البحر الأبيض المتوسط وطريق المواصلات النيلية الى داخلية البلاد ، وزادت أهميتها بعد طمر ترعة الاسكندرية التي كانت تصل الاسكندرية بالنيل (١) فقد كانت هذه التربة طريق الملاحة بين الاسكندرية والقاهرة وسائر بلاد الوجه البحري ، فلما طمرت في عصر المماليك بسبب اهمالها صارت المواصلات بين الاسكندرية والقاهرة بطريق رشيد (٢) فكانت المراكب تنقل البضائع من الاسكندرية الى رشيد وتنزل النيل أو تفرغ شحناتها في مراكب أخرى حتى تصل الى القاهرة ، وصارت رشيد مركزاً تجارياً عظيماً يلتقي بها جزء كبير من صادرات الدلتا وواردات أوروبا والأناضول ، وكان عدد سكانها يبلغ ١٣٠٠٠٠ نسمة في حين ان الاسكندرية لم يكن بها سوى ثمانية آلاف ، وكان لها في نظر نابليون أهمية حربية كبرى لأنها صلة الاتصال للحيش الفرنسي ، وذلك ان المواصلات البرية كانت مهددة من جانب الأهالي في داخل البلاد ، فاختر الفرنسيون طريق

(١) أنظر الكلام عنها في الفصل الخامس

(٢) كتب المسعودي ما ييه De Maillet قنصل فرنسا في مصر في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر في رسائله (وصف مصر) يقول انه لما جاء مصر سنة ١٦٩٢ كانت ترعة الاسكندرية قد طمرتها الرمال منذ خمس وعشرين أو ثلاثين سنة فكانت جافة في زمن الشتاء ولم تكن المراكب تسير بها قط حتى في وقت الفيضان وان هذه الحالة قد اكسبت رشيد مكانة كبيرة في ذلك العصر

النيل للاتصال بين القاهرة والاسكندرية ، فكانت رشيد من هذه الوجهة موقعا حرياً عظيم الأهمية ، لذلك بادر نابليون وهو بعد في الاسكندرية فأوفد اليها الجنرال دوجا لاحتلالها

احتلال رشيد

سار الجنرال دوجا من الاسكندرية براً واحتل في طريقه قرية أبوقير وقلعتها ثم احتل رشيد يوم ٦ يولييه سنة ١٧٩٨ ولحق به بجرأ أسطول من السفن المدفعية الخفيفة بقيادة الكونتراميرال بيرى Perrière واجتاز بوغاز رشيد ليكون تحت تصرف الجيش الفرنسى لم يلق الجنرال دوجا مقاومة في رشيد ، ويقول المسير دفيليه أحد مهندسى الحملة الفرنسية (١) تعليلاً لذلك انه ذهب الى رشيد بعد احتلالها فلم ان تسليمها راجع الى المنشورات التى أذاعها نابليون فى البلاد يوم نزوله الاسكندرية وحملها الى الاهالى الاسرى المسلمون الذين فك الفرنسيون أسارهم من ماله وجاؤا بهم الى مصر ، قال وكان أهالى رشيد قبل اطلاعهم على هذه المنشورات عزمين على قتل لأوروبيين فما اطلعوا عايبها رجعوا عن عزمهم

كانت مهمة الجنرال دوجا بعد احتلال رشيد أن ينزل النيل بفرقة يلتقى بباقي الفرق فى اتر-ثانية ، فلم يمكث برشيد أكثر من ٢٤ ساعة وترك بها حامية من مائتى جندى بقيادة الضابط سان فوست Saint Faust استقرت بالمدينة فى انتظار قدوم الجنرال منو Menon الذى عينه نابليون حاكماً رشيد ، وكان الحكام المليك قد هربوا منها منذ علموا بنبأ احتلال الاسكندرية فحلت المدينة من حكومة تقوم على حراسة الأمن ، لكن الأهالى أنفسهم مدفوعين بفطرتهم انسيمة أقاموا من بينهم حكومة أهلية اختاروا لها ثلاثة من خيارهم وحوهم محل حكاهم الأقدمين ، فلما وصل الجنرال منو (٢) عمل بوصاية نابليون فى احترام العلماء والكبراء ، وقد تكن

(١) فى كتابه « يوميات وذكريات عن حملة مصر »

(٢) يوم ١٢ يولييه سنة ١٧٩٨

القوة التي تحت قيادته تزيد عن اربعماية رجل ، ومع أن أهل رشيد كانوا أسلس قياداً من أهل الاسكندرية فقد طلب الجنرال منو أن يمدّه كليبر بقوة أخرى من الجنود وأوضح في طلبه (١) أن العرب يزعمونه على الدوام وأن الأهالي لم يخلدوا الى الطاعة ولذلك فهو يشكو من قلة عدد الحامية ، وقد أبلغته الحاجة لتكوين الجيش الى فرض الضرائب على الأهالي فاثار كامن سخطهم ، وبالرغم من مناعة مركز الحامية الفرنسية في المدينة فان سلطة الفرنسيين لم تتجاوز ضواحيها ، يتبين ذلك من الحادثة الآتية

أوفد الجنرال كليبر ياوره الكولونل داماس Damas برسالة الى نابليون ، فسافر الرسول من الاسكندرية الى رشيد وهناك التقى بالجنرال منو فأعد له سفينة انحدر بها في النيل يوم ١٦ يولييه سنة ١٧٩٨ ليصل الى القاهرة ، لكنه لم يكد يبتعد عن المدينة حتى هاجمه أهالي مطوبس وادفينا فاضطر أن يعود أدراجه الى رشيد (٢) ثم أعاد الكرة ثانية ولكن لم يكد يتجاوزها باثني عشر فرسخاً حتى أطلق الفلاحون على سفينته الرصاص من جانبي النيل فاضطروه الى الرجوع مرة أخرى (٣) كانت مهمة الجنرال (منو) في رشيد دقيقة فقد كان مطلوباً منه أن يحمي البوغاز من غارات الاسطول الانجليزي ويحمي مواصلات الجيش بالاسكندرية عن طريق فرع رشيد ويتولى الادارة المدنية لمنطقة رشيد ويخضع حركات التمرد والهياج التي كانت تظهر فيها ، وقد زاد مركز (منو) حرجاً بعد واقعة (أبوقير) لأن رشيد من أول المدن التي علمت بكارثة الاسطول الفرنسي في خليج أبوقير وأولها تأثراً من وقوعها ، فأخذت روح المقاومة تقوى في نفوس الأهالي ، كتب الجنرال (منو) الى نابليون في هذا الصدد بتاريخ ٤ أغسطس يقول :

(١) بتاريخ ٢٠ يولييه سنة ١٧٩٨

(٢) خطاب منو الى كليبر في ٢٣ يولييه سنة ١٧٩٨

(٣) يوميات أركان حرب الجبرال كليبر بتاريخ ٢٥ يولييه سنة ١٧٩٨

« لا أكلّمكم عن نكبة أسطولنا ، وحسبى ان أقول انها فظيعة ، وليس لدى
للآن تفاصيل عنها لصعوبة المواصلات بين رشيد وأبو قير بطريق البر وصعوبة
الخروج من البوغاز الى البحر ، ولا أدري مبلغ تأثيرها فى نفوس أهالى البلاد ، على
أنى من جهتي سأبذل كل ما فى وسعى لتخفيف أثرها وسأستعمل مع الاهالى سياسة
اللين والمجاملة والتودد مع الحكمة والحزم ، وبالجملة فان أهالى هذه الجهة متصفون بالوداعة
ولسكنهم على جانب من الدهاء والمكر »

وكتب فى اليوم نفسه رسالة أخرى الى الجنرال برتبيه يشكو فيها من مقامه فى
رشيد ويقول « إن الذى يهمنى بالذات ان لا أبقي هنا طويلا فانك تشعرانى أوتر
مائة مرة أن أكون على راس فرقى على أن أدفن فى هذه المدينة ، انى حضرت الى
صر لا كسب الفخر أو أموت فيها ، لا لأجمع الضرائب »

حادثة السالمية

على أن الجنرال (منو) لم يكن معروف بأخكمة ولا بحسن السياسة ، فنه فى وقت
الذى كان يعد بمعاملة الاهالى باللين والتودد قد استعمل الغنظة والفضاضة مع أهالى
« السالمية » الواقعة على الشاطئ الايمن من النيل (بمركز فوه الآن) عقابا لهم على مهاجرتهم
شرذمة من الجنود أرسلها منو الى نابليون يحمل اليه البريد ، فقتلوا ثمانية من هؤلاء
الجنود ، مضى على هذه الحادثة شهر وانتقل (منو) الى القرية التى اتهمت بأن
المهاجرين منها فمّر بقتل كل من يحمل السلاح فيها ومصادرة مواشيها ثم أضرم النار
فى القرية

كتب منو الى كليبر بتاريخ ١٣ أغسطس يقول « لقد قتت هذا اليوم بحوثة
لمعاقبة قرية قتلت بعض الفرنسيين فأحرقت القرية وقتلت تسعة من لاهى ،
وسيعتبرون بهذا الدرس كما يعتبر به أهالى وادى النيل » وفى آخر رسالته هذه « ان
مركزه فى المدينة دقيق لأن القوة التى لديه قرابة ستائة جندى وليسو جميع فى الخدمة
وهذا العدد لا يكفي للدفع عن المدينة ، والعرب ينوشونها كل يوم »



اضرام الفرسيين السار في السالمية سنة ١٧٩٨ انظر ص ٢٤٦
(نقلا عن مجموعة رسوم المسيو فيفان دينون)

وقد أصدر منو لمناسبة هذا التنكيل منشوراً عن هذه الحادثة موجهاً الى «الأهالى الساكنين على شاطئ النيل من رشيد وفوه والقرى الواقعة ما بين رشيد وأبو قير ومن أبو قير الى الرحمانية» وهذا المنشور يصف ما أوقعه من العقاب الأهالى السامية وتبيحهم السبيح سلامه العقدة وينهدد السلاذ بمثل هذا العقاب ان وقع اعتداء على الجنود الفرنسيين

وقد راد فى استياء الأهالى كثرة الضرائب التى كان الفرنسيين يبتزونها بالقهر والقوة

وكان الجنرال (منو) يحنى عقب كرده (أبو قير) اسحريه أن يفكر الانحياز فى انزال قوة الى البر ولكن تحقق له بعد ذلك أن هذا المشروع ليس فى برناجهم فاطمان بوعا على مركزه فى رشيد وأخذ يخطط فى توطيد مكاتته بين الأهالى بالتودد اليهم ، ولكنه لم يوفق الى كسب قلوب الناس فكانت الحوادث تصدمه كلما ضن أنه وطد مركزه، وكان من هذه الحوادث قيام لاحتياط وحدهم بعد فى ضواهر ومن هذه الحوادث حدثه من عمير

حادثة شبس عمير

ومحصل هذه الحادثة أن الجنرال منو أراد أن يحوب سمار لدت ويرود بعض جهاتهم، وصرطحب معه اجنرال مرمون وبعض أعضاء لجنه 'الموم' و'لفنون' منهم دينون ودلوميو (١) وبعض الصباط فى كتيبه من جنود سب ٢٠٠ حدى عذرت الكتيبة رشيد يوم ١٢ ستمبر فوصت الى برسان فى 'يوم نفسه' ثم فى يوم ١٣ الى مطوس ثم فى يوم ١٤ الى فوه ثم الى دسوق يوم ١٥ ووصل منو يوم ١٦ الى حدود مديريه رشيد وعد الى دسوق ثم شرم حتى نيكشف

(١) تكلمنا عنها ص ١٣١ و ١٣٩

شمال الدلتا ويصل الى البرلس، فوصل الى سنهور المدينة ، وكانت الرحلة حتى هذه القرية هادئة لم يتخللها حادث أو مصادمة، بيد أنه لم يكد يصل الى شباس عمير حتى اصطدمت الكتيبة بمقاومة عنيفة من الاهالى

كان الجنرال منو يتقدم الكتيبة ومعه الجنرال مارمون والمسيو فيفان دينون والمسيو دوميو والرسام جولى وبعض الحاشية وترجمان ، فلم تكد تقرب هذه الطليعة من شباس عمير حتى أطلق عليهم الرصاص ، فاضطروا الى التراجع ليتصلوا بالكتيبة ولكن أحد رفقاء الجنرال منو وهو الفنان جولى لم يستطع اللحاق بهم وعجز عن المسير فتركه اخوانه وقتله الاهالى .

قصبت الكتيبة الى كفر شباس عمير ، وكانت محصنة بسور عال يحيط بها ، وبهذا السور أبراج حصينة كان يحتلها الاهالى ويطلقون منها النار ، فافتحمت الكتيبة الفرنسية هذا السور ، فلم يجد الاهالى بداً من إخلاء الابراج ماعدا برجا واحداً امتنع المدافعون عنه وأخذوا يطلقون النار على الجنود الفرنسيين ، وأصاب رصاصة جواد الجنرال منو فخر قتيلاً ، فأدرك خطورة الموقف ، وكان رجال البرج مستمرين على إطلاق الرصاص ، فرأى من المجازفة الاقتراب منه ، فأمر باضرام النار فى القرية ، وكان الليل قد أقبل ، وجاء كثير من سكان القرى المجاورة لانجاء إخوانهم ، فأمر « منو » جنوده باطلاق الرصاص فى الظلام لمقاومة المهاجمين ، واندلعت النيران فى القرية كلها ، فاضطر الاهالى المدافعون عن البرج الى إخلائه ، وكانت الجموع قد تكاثرت حول القرية حتى بلغ عددهم من ألفين الى ثلاثة آلاف من الفلاحين ، فاضطر الجنرال منو الى الانسحاب وعاد بكتيبته الى سنهور المدينة ثم الى دسوق بعد أن فقد بعض القتلى وتسعة عشر جريحاً، ثم قفل راجعاً الى رشيد بعد أن عدل عن متابعة اكتشافه ، وكان غرضه الوصول الى البرلس ، فعاقته هذه الحادثة وكتب الى نابليون ينبئه بنجبرها ويذكر له ضمن رسالته أن التوغل فى هذه الجهات أمر مخوف بالمخاطر

لأن معظم القرى في تلك البلاد محصنة ولأن إخضاعها يستلزم قوة من سبعمائة الى ثمانمائة جندي مسلحين بالمدافع

وكتب في هذا الصدد الى الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية يعترف بأنه كان مخدوعا في رحلته هذه وكان متأثرا من المقابلة الحسنة التي قوبل بها في بعض القرى ولكن هذه الحادثة جعلته أكثر احتراما ، فلأياخذ الامور بظواهرها إن كان يظن الا ظننا .

الفصل العاشر

عود الى البحيرة ورشيد

الاضطرابات في البحيرة

عرف القارئ ما حل بقوة الجنرال ديموى Dumuy من الهزيمة (١) ، وقد أوردنا ذلك في الفصل الخامس لارتباطه بمحادث الاسكندرية رأى الجنرال كليبر وقتئذ أن مثل هذه الكتيبة لا تستطيع أن تخضع اقلها كبيراً كالبحيرة ولا سيما القسم الشمالى منه المتصل بالاسكندرية ، وان الاضطرابات فيه لا تؤدي الى قطع مواصلات الجيش فحسب ، بل تقضى الى تهديد الاسكندرية براً وحرمانها الماء الذى يرد اليها من ترعة الاسكندرية (ترعة المحمودية الآن) ، فكتب الى نابليون فى ٣١ يولييه سنة ١٧٩٨ يخبره أنه من الضرورى وضع حاميات قوية من المشاة والفرسان فى دمنهور والكريون مسلحة بالمدافع الخفيفة لترود جوانب الترعة ، قال كليبر فى رسالته « من العيب أن نعتمد على كتيبة الجنرال ديموى ، ومن الواجب تخصيص فرقة من الجنود لتوطيد النظام فى المثلث الكائن بين البحر والنيل وترعة الاسكندرية ، وحماية المواصلات البرية فى إقليم البحيرة »

وكان الاهالى لا ينفكون يقطعون ترعة الاسكندرية لينعوا وصول المياه الى الثغر ، فقامت كتيبة من ستمائة من الجنود وحاصرت بلدة بركة غطاس وأحرقها ونهبها .

وقد سبق القول أن نابليون كان شديد الاهتمام بهذه الترعة لأنها جزء من طريق المواصلات المأمون الذى اختاره بين الاسكندرية والقاهرة ، وزاد اهتمامه بها بعد واقعة (أبو قير) ، ذلك أن الفرنسيين لم يكن فى مقدورهم بعد أن ضاعت عمارتهم البحرية أن يسلكوا طريق البحر من الاسكندرية الى رشيد فالنيل ، كما

أن المواصلات البرية كانت شاقة ومعرضة لهجمات الأهالي ، فلم يكن أمام الفرنسيين إلا جعل ترعة الاسكندرية صالحة للمواصلات النيلية ، وقد عهد نابليون الى بعض مهندسي الحملة الفرنسية في انفاذ هذا المشروع (١)

عزم نابليون على مقاومة الاضطرابات في مديرية البحيرة وبخاصة بعد هزيمة الجنرال ديموى ، فعين الادجودان جنرال بيرب Birbes قومنداناً لها وأصدر اليه تعليماته وأمرها أن يأخذ أهل دمنهور أخذاً شديداً بمسلكهم إزاء كتيبة الجنرال ديموى وأمره بالسير من القاهرة الى الرحمانية ومن هذه الى دمنهور انفاذا لمهمته بها وهي « تجريد الأهالي من السلاح وإعدام خمسة من أعيان المدينة فيهم واحد من العلماء ممن اشتركوا في الواقعة والأربعة الآخرون من المحرضين ، واعتقال خمسة وعشرين رجلاً يأخذهم رهائن فيرسلهم الى القاهرة بطريق النيل » وأن يعود بعد ذلك الى الرحمانية إذ عزم نابليون على جعلها عاصمة مديرية البحيرة (٢).

مهمة الجنرال مارمون

على أن قوات الجنرال بيرب والجنرال ديموى لم تكن كافية لتمنع هياج في البحيرة ولا سيما بعد واقعة (أبو قير) التي أضعفت هيبة النفوذ الفرنسي في تلك الجهات ، فعهد نابليون الى الجنرال مارمون Marmont إخضاع القسم الشمالي منها ،

(١) جاء في مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران Bertrand في سانت هيلين أن ترعة الاسكندرية هي أهم ترعة في مصر من الوجهتين الاقتصادية والحربية ، وقد وضع المسيو لوير Le Père كبير مهندسي الري في عهد الحملة الفرنسية مشروعاً لجعل هذه التربة صالحة للملاحة ولكن المشروع لم ينفذ ، وظلت الاسكندرية في عزلة عن المواصلات النيلية الى أن أمر محمد علي باشا بإنشاء ترعة المحمودية مكانها

(٢) كانت الرحمانية موقعاً حريماً على جانب كبير من الأهمية لوجودها على فتحة ترعة الاسكندرية فأقام الفرنسيون فيها قلعة ومستودعاً لمهمات الجيش على أن نابليون بعد أن جعلها وقتاً ما حاضرة البحيرة عاد وجعل دمنهور حاضرتها

وتأمين مواصلات الجيش بطريق ترعة الاسكندرية والنيل ، وحماية شواطئ البحر من هجمات السفن البريطانية ، وتحصين المواقع التي يحتمل أن تنزل بها الجنود الانجليزية من جهة العجمي (غرب الاسكندرية) الى رشيد ، وتحصين بوغاز رشيد وبوغاز البرلس (١)

تلقى مارمون تعليمات نابليون بعد عودته من حادثة شباس عمير (٢) وكانت تعليماته تنطوي على القسوة والفظاعة فقد كتب له يقول

« انكم ستجدون تحت قيادتكم قوة من ١٥٠٠ جندي ، فبهذه القوة ونشاطكم وكفايتكم تستطيعون ان تكسبوا نحرًا حديدًا وتقديرًا عما لخدماتكم ، فكونوا نيل نهار على تمام الأبهة ، وأغلظوا العقاب للقرى بصرامة وقسوة »

صدع مارمون بالأمر فوصل الى الرحمانية يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وسار في تاليه قاصداً الى دمنهور وراد شواطئ ترعة الاسكندرية حتى بلغ الثغر وأصلح ماخر به الأهالي وأقام المخافر العسكرية على التربة وترك ألني جندي لحراستها وجعل الرحمانية مركزاً رئيسياً للقوات المخصصة لهذه الحراسة ومركزاً آخرًا بالقرب من العكريشه ، عدا المخافر التي أنشأها على جانبي التربة والسرايا (الدوريات) المسلحة التي أقامها لحراستها

تمكن الجنرال مارمون من اصلاح التربة وتنظيم المواصلات فيها مدة الفيضان فزجى فيها كثيراً من مهمات الجيش من الاسكندرية الى القاهرة وانتعشت

(١) كانت بحيرة البرلس أوسع مدى مما هي عليه الآن فكانت تمتد غرباً الى القرب من برنبال الواقعة على البر الشرقي للنيل فخشي نابليون أن تدخل السفن الانجليزية الخفيفة من بوغاز البرلس وتصل الى مقربة من برنبال ورشيد ، فأمر باقامة قلعة على مدخل البرلس مكان القلعة القديمة التي كانت آثارها باقية الى ذلك العصر ، وقد تم إنشاء القلعة الجديدة في عهد منو ، وكذلك أمر نابليون باقامة برج محصن في برنبال

(٢) راجع الفصل التاسع ص ٢٤٩

الاسكندرية لوصول الغلال بطريق التربة وأخذت المواصلات تزداد نشاطاً فكان بالترعة نحو مائتي سفينة عاملة في النقل ليلاً ونهاراً ، على أن انخفاض النيل حال دون سير المراكب فيها ، وعطل الاتقاع بها ولم تستمر الملاحة فيها أكثر من بضعة أسابيع وكانت السفن الانجليزية قد استأنفت في ذلك الحين مناوراتها حول الاسكندرية وصحبتها بعض السفن التركية فاضطر الجنرال مارمون أن يعود أدراجه الى الاسكندرية ليتولى حمايتها من الهجمات الطارئة .

تجدد الاضطرابات حول رشيد وفي دمنهور

كانت السفن الانجليزية والتركية توفد بعض ارسل الى الشواطئ لتعرض الاهالى وتشجعهم على الثورة ، وقد قويت روح الهياج في ضواحي رشيد وكان ذلك في شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، فتكرر الاعتداء على قوافل الفرنسيين بجهت رشيد وأبو قير وشمال البحيرة

احتشد حول رشيد جمع من لاهى يية ٢٠ وفهر ففجأتهم تقوت الفرنسية وأسرت منهم بعض رجله ، واتهم نفر لسيون مشايخ بلاد دكو ودفين بكيد لهم وان لهم يدافى هذه الاعمال العدائية ، فجاء بهم الى رشيد وقتلوا رمياً بالرصاص بامر الجنرال منو .

وازداد الهياج كذلك فى جهة دمنهور التى لم تكن خضعت من قبل لسلطة الفرنسية ، وكانت تابعة عسكرياً لرحمانية التى رابض بها لادجودان جنرال لتورن Letourneur فراد تجريد حملة عليهم ، لكن قوته لم تكن كافية هذه التجريدة فضلا عن انها كانت منصرفة الى صد مندوبات جموع لاهى فى جهة زرحمانية ، وكان الجنرال مور Murat ذلك الوقت فى رشيد فوفده منو الى دمنهور فقمع حركات العدائية التى تجددت بها .

سار مور من رشيد الى الزرحمانية ومن هناك قصد الى دمنهور يدونه لادجودان جنرال لتورن ، فاحتل دمنهور فى ١٧٩٨ وخر نوفمبر سنة ١٧٩٨ وأعدم بعض زعماء حركة

رمياً بالرصاص ، وفرض على المدينة اتاوة كبيرة من الغلال والمواشي ، ولكن جموع العرب والأهالي الذين قاموا بالحركات الثورية بها تمكنوا من الانسحاب وأوغلوا في الصحراء ، فعزم مورا على تعقبهم وأقام عدة أيام في دمنهور لاختضاع القرى المجاورة وفرض الغرامات عليها وناط بالجنرال لتورك هذه المهمة (١) ثم غادر دمنهور في أوائل ديسمبر قاصداً قرية (دير أمس) إذ جاءه أن الثوار وعلى رأسهم سليم كاشف وإبراهيم الشور بجى مرابطون بها ، وصل الجنرال مورا ليلا وعلى الرغم من أنه ضرب الحصار عليها فإن الثوار قد تسللوا منها وسط طلقات الرصاص وأوغلوا ثانية في الصحراء وكانت الجنود الفرنسية قد أنهكها التعب فاستراحت في دير أمس ثم استأنفت السير تقتفى أثر الثوار ، لكنها لم تستطع اللحاق بهم واضطر الجنرال مورا أن يعود إلى دمنهور ثم سار منها إلى الرحمانية وتلقى بها أوامر نابليون . فقام من الرحمانية يوم ٥ ديسمبر قاصداً إلى شابور فوصلها ليلاً ، وهناك علم أن قافلة من الأهالي والعرب ضاربة في الصحراء بالقرب من الصواف ، فقام في صباح ٦ ديسمبر يتعقب هذه القوة ، ومرت بعدة قرى فألقاها خالية قد هجرها أهلها فراراً بأنفسهم من نقمة الجنود الفرنسية ووصل إلى الصواف ، ومن هناك سار على أثر القافلة إلى أن اقترب من مؤخرتها وكانت مؤلفة من ستمائة فارس ، فأطلق عليهم الفرنسيون النار فانهزموا تاركين معسكرهم وما فيه من المتاع والعتاد ، فجدّ الجنرال مورا في تعقبهم لكنه عجز عن اللحاق بهم فاكتمى بالقاء النار في معسكرهم وأحرق كل ما كان به من المتاع والغلال واستأنف مورا سيره قاصداً الطرانة بالبر الغربي لفرع وشيد ثم رجع منها أدراجه إلى القاهرة

(١) كتب الجنرال مورا إلى نابليون بتاريخ ٤ ديسمبر سنة ١٧٩٨ يصف هذه المهمة بقوله : « ان الجنرال لتورك جمع الخيول والاموال من جميع القرى المجاورة لدمنهور وانه أرسل إلى الاسكندرية ستين محملة غلالاً مما صادره من البلاد »

الفصل الحادى عشر

فى القليوبية والشرقية

علم القارىء أن ابراهيم بك فر بماليكه عقب انتصار الفرنسيين فى معركة الاهرام الى جهة بلبيس وحمل معه ما استطاع من الاموال والمتاع ، ولم تحارب القوة التى اصطحبها معه فى معركة الاهرام فبقيت سليمة وان كانت قليلة العدد ، لكن نابليون توجس من وجود هذه القوة فى شرق الدلتا وعلى مسافة اربعين كيلو متراً تقريباً من القاهرة خطراً يهدد مركز الفرنسيين ، فاعتزم بعد أن وطد مركزه فى القاهرة أن يتعقب ابراهيم بك ليخلص له الوجه البحرى ، وكذلك أجمع أن يضارء مراد بك الذى فر بابقية الباقية من فلول جيشه الى الوجه القبلى وعهد بذلك الى الجنرال دينيه Duvivier ، على أن ينبشون ما يكن يرى بادية الأمر فى قوة مراد بك خطراً كبيراً لأن الهزيمة التى حقت به فى معركة الاهرام قد قومت أخطره وهؤنت من أمره ، لذلك اعتزم أن يوجه معظم قوته لسحق ابراهيم بك فى شرق الدلتا إذ كان لم يزل مرابطاً بجيشه فى بلبيس ، أضف الى هذا اقتراب وصول قافلة الحج من الحجاز ، فرأى نابليون من مصلحته السياسية أن يتولى تأمين مواصلات الحج ليحمد أثر ذلك فى نفوس المصريين والعالم الاسلامى ويكتسب عطف أمراء الاسلام ثم ليقنع شريف مكة وعرب الحجاز واليمن أن وجود الفرنسيين فى مصر لا يقطع سبل الحج الذى هو مصدر أرزاقهم

واليك ما ذكره الجبرتى عن خطة نابليون ازاء قافلة الحج « فى عشرين صفر سنة ١٢١٣ (٣ اغسطس سنة ١٧٩٨) حضرت مكاتيب الحجاج من العقبة فذهب أرباب (أعضاء) الديوان الى باش العسكر (القائد العام) وأعلموه بذلك وطلبوا منه أماناً لأمير الحج (صالح بك) فامتنع ، وقال لا أعطيه ذلك الا بشرط أن يأتى فى قلة ولا يدخل معه ممالك كثيرة ولا عسكر ، فقالوا له ومن يوصل الحجاج

فقال لهم أنا أرسل لهم اربعة آلاف من العسكريين صالونهم الى مصر ، فكتبوا لامير الحج مكاتبة بالملاطفة وانه يحضر بالحجاج الى الدار الحمراء وبعد ذلك يحصل الخير ، فلم تصل اليهم الجوابات حتى كاتبهم ابراهيم بك يطلبهم للحضور الى جهة بلبس فتوجهوا الى بلبس وأقاموا هناك أياما »

توزيع القوات الفرنسية في الوجه البحري

صحت عزيمة نابليون اذن على تجريد جيش للقضاء على قوة ابراهيم بك في شرق الدلتا، وقبل أن يزحف بجيشه وزع القوات العسكرية على مديريات الوجه البحري لاختصاصها وتوطيد سلطة الفرنسيين فيها ، فعين الجنرال فيال « Vial » قومنداناً لمديرتي المنصورة ودمياط والجنرال زايونشك « Zayonchek » قومنداناً للمنفية، والجنرال فوجير « Fugières » قومنداناً للغربية على أن يكون مقره المحلة الكبرى عاصمة المديرية في ذلك العصر ، والجنرال مورا « Murat » للقليوبية ، والجنرال رامبون « Rampon » لاطفيح ، وأبقى الجنرال ديزيه « Desaix » جنوب الجزيرة يرصد حركات مراد بك وأمر الجنرال لكرك « Leclerc » بالسير الى بلبس

المعارك بين الخانكة وأبي زعبل

بدأت طلائع الجيش الفرنسي تزحف يوم ٢ اغسطس سنة ١٧٩٨ من القاهرة بقيادة الجنرال لكرك، فمرت بالقبة ومنها سارت الى المطرية ثم الى المرج دون أن تجد مقاومة ما لأن الاهالى كانوا ينزحون عن بلادهم قبل قدوم الفرنسيين ، ومن المرج سارت القوة الى الخانقاه (الخانكة) وبها استقرت واتخذها الفرنسيون قاعدة عسكرية للزحف ومركزاً لتكوين الجيش وانشؤا بها الافران ومخازن البقسماط والازاد والعلف قصدت الكتيبة يوم ٤ من اغسطس قرية أبي زعبل ولكن صدم عنها جمع من العرب والفلاحين مسلحين بالبنادق والعصى (١) (الشاربخ) فعادت الكتيبة أدراجها الى الخانكة وأخذ الاهالى من العرب والفلاحين يتعقبونها الى مستقرها

(١) تقرير الكاتبين مالوس الى الجنرال كافاريللى

وفي صباح ٥ من أغسطس هاجم الأهالي المخافر الامامية لمعسكر الخانكة بقوة أكبر من قوتهم الاولى اذ انضم اليهم مائتان من المماليك ، وبدأ الهجوم ، فبرزت من غابة أبي زعبل قوة من فرسان العرب يتبعهم عدد حاشد من الفلاحين ، ولم يكن هؤلاء يحملون في الغالب الا أسلحة ضعيفة فلم يتجاوز عدد حملة البنادق منهم السدس ، فأحاطوا بالفرنسيين من كل جانب تخفيهم الزروع والغيطان وانضم اليهم سكان القرى المجاورة (١) فاطلقوا النار على الفرنسيين من كل صوب ، ولكن نيران المدفعية والبنادق أوقفتهم بعيدا عن المعسكر فعادوا الهجوم كرة بعد كرة واضطروا جنود المقدمة الى التراجع

انسحاب الفرنسيين من الخانكة ثم احتلالها

وأدرك الجنرال لكرك ان خطر من الاصرار على الدفع عن قرية الخانكة فجمع أن ينسحب منها ويرتد غربا ، وفي مساء المعركة ثرت قرية الخانكة بنفسها فواب أهلها برسل حرس الفرنسيين الموجودين بها فجدوهم من سلاح وقتلهم 'ستولى الفرع على الجنود الفرنسية ولم يضيخوا البقاء معرضين للهجمات ، فجمع القائد ضباطه وتشاوروا في الامر فاستقروا على إخلاء الخانكة والتراجع عن القرية ، فتقهقروا بعد غروب الشمس وكان عددهم نحو ستمائة مقاتل وارتدوا قصدوا المطرية ، وفي ضريقهم اليها قباهم الكولونل سكوسكى أحد يوران نابليون فنبههم بقرب وصول فرقة الجنرال رينيه Rev. 1111 انجدهم ، لكنهم استمروا في إبدارهم حتى وصوا الى المرح وقضوا بها آخره الليل ، ولما لاح الفجر وصلت قوة جنرال رينيه فرجعوا يريدون استرداد الخانكة ووصوا اليها ظهر يوم ٦ أغسطس وقد زاد عددهم فوجدوها خالية من أهلها فاحتوها (٢)

(١) تقرير الكابتن مالوس

(٢) أخذنا هذه البيانات عن تقرير الكابتن مالوس الى الجنرال كافريللي ، واليك ما ذكره الجبرتي في هذا الصدد في ثالث وعشرين صفر (سنة ١٢١٣) خرجت

كانت الخانكة من جهة موقعها ذات شأن عظيم لأنها تكاد تكون في منتصف الطريق بين القاهرة وبلبيس ، لذلك وجه اليها نابليون عناية كبرى في اتخاذها نقطة ارتكاز للزحف ، وكان في أوامره العسكرية يهتم بجعلها على تمام الأهمية لاقامة الجنود بها وكان سير الجيش محفوقا بصعوبات كبيرة لاصطدامه مع الالهالى أين توجه ، كتب الجنرال لوجيه Langier الى الجنرال دوجا في ٦ أغسطس يقول :

« ثارت القرى التى أرسلنا اليها بعض فرسان الدراجون لأخذ الخيول منها وعاد الفرسان يخبروننا بهذه الثورات ، وكل الدلائل تدل على انه لا بد من قوة كبيرة لاختضاع هذه الجهات »

احتلال بلبيس

ثم وصلت بقية الجيش الفرنسى بعد استرداد الخانكة ، فجاء نابليون ومعه فرقتا الجنرال دوجا والجنرال لان وانضمت اليهما فرقة الجنرال رينييه فسار نابليون على رأس الفرق الثلاث قاصداً بلبيس عاصمة الشرقية في ذلك الحين ووصل اليها يوم ٩ أغسطس بعد أن أخلاها ابراهيم بك ، فاعتزم نابليون أن يتعقبه قبل أن يغادر حدود مصر الى الشام ، ولقى الفرنسيون في بلبيس من بقى من الحجاج بعد أن ارتحل بعضهم الى بلادهم قبل وصول الجيش الفرنسى وكان أمير الحج صالح بك قد لحق بابراهيم بك وصحبته جماعة من التجار وغيرهم لأن ابراهيم بك كتب الى أمير الحج بعد معركة الاهرام ينصح له أن لا يذهب الى القاهرة ويرغب اليه فى اللحاق به فى الصالحية ، وبقى فى بلبيس من لم يقدر من

طائفة من العسكر الفرنساوى الى جهة العادلية وصار فى كل يوم تذهب طائفة بعد أخرى ويذهبون الى جهة الشرق ، فلما كان ليلة الاربعاء خرج كبيرهم يونا بارت وكانت أوائلهم وصلت الى الخانكة وأبى زعبل وطلبوا كلفة من أبى زعبل فامتنعوا فقاتلوهم فضربوهم وكسروهم ونهبوا البلدة وأحرقوها وارتحلوا الى بلبيس »

الحجاج أن يغادرها فلم يتعرض لهم الفرنسيون بسوء وأرسلوهم الى القاهرة تحرسهم كوكبة من جنودهم (١) وفي ذلك يقول الجبرتي « وفي ١٨ صفر ملك الفرنسيين بلبس من غير قتال ومن بقى فيها من الحجاج لم يشوشوا عليه فأرسلوهم الى مصر ومعهم طائفة من العسكر »

معركة الصالحية (١١ أغسطس سنة ١٧٩٨)

١ يضيع نابليون وقتاً في بلبس بل ارسل قوة من فرسانه ليلة ١٠ أغسطس في أعقاب ابراهيم بك ، ووصل الجيش الى (القرين) في ١٠ أغسطس دون أن يلحق بقوة ابراهيم بك الذي غادرها قبل وصول الجيش الفرنسي قصداً الى الصخية ، فتعقبه نابليون بفرسانه دون أن ينتظر فرقة الجنرال لان Lannes وانضم اليه الجنرال مورا Murat الذي جاء من قلوب بقوة الفرسان ، فستبت نابليون مع قوة المماليك في معركة عرفت بمعركة الصالحية (١١ أغسطس سنة ١٧٩٨) لأنها وقعت على مقربة منها ، وقد حى وطيس القتال في هذه المعركة وكادت تدور الدائرة على قوة الفرنسيين لانه كانت مؤلفة من عدد قليل من فرسانهم لا يزيد عن مائة وكن فرسان المماليك كثير منهم عدداً وأشد بأساً ، فكانت هذه أول معركة نشبت بين فرسان الجيشين والتقى فيها الفريقان وجها لوجه واقتلوا بالسلاح الأبيض فتخرج مركز الفرنسيين لأن فرسان المماليك اشتهروا بانهارة والبسالة في قتالهم ولا غرو فقد كانوا أحلاس أخيل وأبناء الطعن والضرب ، ولم ينقد نابليون الا وصول امدد من الجنرال لكرت ، فاضطر المماليك الى الانسحاب ، وجرح في هذه المعركة من خاصة رحل نابليون "كوفون" سلكوسكي (٢) يوره والكولونل ديترس Detres وغيرها من "ضبط حروح" بركة ، وفي ذلك يقول الجبرتي

(١) عين نابليون بعد عودته الى القاهرة مصطفى بك كتيخدا (وكيد) الوالى أميراً للحج بتاريخ ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ (٢١ ربيع الأول سنة ١٢١٣) كما أوضحنا ذلك في الفصل الثاني عشر

(٢) هو الذي قتل في ثورة القاهرة . راجع الفصل "ثالث عشر

« فركب صارى عسكر وأخذ معه الخيالة وقصد الاغارة على الحملة ، وعلم ابراهيم بك بذلك أيضاً ، فركب هو وصالح بك (أمير الحج) وعدة من الامراء المماليك وتحاربوا معهم ساعة أشرف فيها الفرنسيين على الهزيمة لكونهم على الخيول ، واذا بالخبير وصل الى ابراهيم بك بان العرب مالوا على الحملة يقصدون نهبها ، فعند ذلك فر بمن معه على اثره ، وتركوا قتال الفرنسيين ولحقوا بالعرب فاجلوهم عن متاعهم وقتلوا منهم عدة ، فارتحلوا الى قطيا ورجع صارى عسكر (نابليون) الى مصر وترك عدة من عساكره متفرقين في البلاد ، فالجبرتي ينسب انسحاب المماليك في معركة الصالحية الى نهب العربان للحملة واضطرار اولئك الى اجلائهم عنها واستعادتها منهم ، وقد انتهت هذه المعركة بانسحاب ابراهيم بك ومن معه الى حدود مصر الشرقية

عودة نابليون الى القاهرة

غادر نابليون الصالحية يوم ١٣ اغسطس عائداً الى القاهرة ، وفي طريقه اليها جاءه نبأ كارثة الاسطول الفرنسى في واقعة أبوقير ومقتل الاميرال برويس (١) ، حمل اليه هذا النبأ الضابط لوييه « Lover » ياور الجنرال كليبر في رسالة بعث بها اليه كليبر من الاسكندرية ، فلما تلا نابليون الرسالة وفيها أعظم نكبة أصابت الحملة الفرنسية تلقاها بالجلد والصبر ، ولم تبد عليه علام الاضطراب وأخذ يسأل الياور عن تفاصيل الواقعة مما لم يرد في الرسالة ، وبعد أن أتم الياور كلامه أبلغ نابليون نبأ الكارثة الى أركان حربه قائلاً لهم « ان أسطولنا لم يعد له وجود ، والآن يجب علينا أن نبقي في هذه البلاد أو نخرج منها عطاء كما فعل الاقدمون » ثم عجل بالمسير الى القاهرة لينزيل بوجوده الأثر المعنوى الذى أحدثته أخبار الكارثة في مصر فجاءها يوم ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ وهناك خاطب ضباطه قائلاً « هانحن أولاء مضطرون

(١) يقول نابليون في رسالته الى كليبر الواردة في مجموعة رسائله رقم ٣٠١٨ انه تلقى نبأ الواقعة في الصالحية ، وفي تقريره الى حكومة الديركتوار يقول انه تلقاه بعد ان غادر الصالحية اذ كان على بعد فرسخين منها

أن نعمل العظام ، وسنعملها ، وان تؤسس في هذه البلاد دولة كبيرة، وسنؤسسها ،
إن البحار تفصل بيننا وبين الوطن ولاسلطان لنا على هذه البحار، ولكن ليس تمت
فاصل يفصلنا عن آسيا وأفريقية، وعندنا من الرجال العدد الوافر ، ولا ينقصنا المدد
لتقوية صفوفنا ، ولا تنقصنا الميرة والذخيرة ، وإذا احتجنا الى المزيد منها فان شامبي
Champy (١) وكونتى Conlé (٢) كفيلا بصنعها (٣) »

الاضطرابات في الشرقية

عادت فرقة الجنرال لان الى القاهرة ورجع الجنرال مورا Murat بالقوة التي
كانت تحت إمرته الى قليب لاخضاع مديرية القليوبية، وسار الجنرال دوجا بفرقته
الى المنصورة لاخضاع القسم الشمالى الشرقى من الدلتا (٤) وبقيت فرقة الجنرال

(١) و(٢) من أعضاء المجمع العلمى ، أنظر ما كتبناه عنهما بالفصل الرابع
ص ١٣٢ و ١٣٤

(٣) نقلنا هذه العبارة عن مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران
بسانت هيلين ، وقد كتب الجنرال مارمون في كته به (رحلة المارشال الدوق
دى راجوز) يقول انه كان بجانب نابليون حينما جاء نبأ كارثة العمارة الفرنسية
في معركة أبو قير وانه تلقى هذا النبأ وهو في خيمته (خيمة مارمون) في معسكر
الخانكة بين بلبس والقاهرة (وهذا يخالف ما ذكره نابليون كما بيناه في هـ، ش
الصحيفة السابقة) قال مارمون يصف حالة نابليون عندئذ «تلا الجنرال بوبارت
رسالة كبير وظل ثابتاً رابط الجأش ، وأبان عن شىء كثير من علو النفس وقوة
البأس ، ولم يكتم عنا عظم النكبة وما تجره من العواقب ، ولكنه اجتهد في
أن يخفف عما أثر وقعها » وذكر الجنرال مارمون أقوال نابليون وهي لا تخرج
في معناها عما جاء في مذكراته

(٤) قبل أن يغادر نابليون الصلحية أصدر أمره بتعيين الجنرال دوجا
قومنداناً لمديرية المنصورة وان يقتصر الجنرال فيل على دمياط

رينيه وفرسان الجنرال لكرك في الصالحية حيث أمر نابليون بتحصينها لحراسة برزخ السويس ومراقبة حدود مصر الشرقية ، واتخذ من الصالحية مركزاً لتموين الجيش، وعين الجنرال رينيه قومنداناً لمديرية الشرقية وعهد اليه في إقامة الطوابي والاستحكامات بالصالحية وبلبيس واستطلاع أخبار المماليك الذين ارتدوا الى حدود سوريا، وقد اتخذ الجنرال رينيه مسجد الصالحية مركزاً عسكرياً للفرقة وأنشأ فيه الأفران والمخابز للجيش وأقام فيه المدافع ، وأقره نابليون على صنيعه المثير لحفيظة الأهالي وأمره «أن يزيد عدد الأفران التي بالمسجد وعدد المدافع التي نصبوها عليه وأن يتخذ فيه مخزناً للبارود ومستشفى للجنود ويجعل منارته مرصداً لاستطلاع الحركات العدائية» وقد صارت الصالحية وبلبيس في عهد الحملة الفرنسية من المواقع الحصينة وعلى جانب كبير من المناعة.

كان مقام رينيه في الشرقية مقروناً باعتداء الجنود وجرائمهم، فكانوا يجوبون القرى وينهبون الماشية فيضطر الناس الى الرحيل عن قراهم تهريب مواشيهم في الصحراء، وعبثاً حاول الجنرال رينيه أن يرد النظام في صفوف جنوده أو يقنع الأهالي في القرى المجاورة أن يبيعوه ما يحتاج اليه من المواشي بالثمن فلم يصدقوه ولم يأمنوه واخذوا يفرون من القرى بمواشيهم نجاةً بها من النهب والسلب، وكانت صدور الفرنسيين من جهة أخرى موغرة على الأهالي لحملهم السلاح في وجههم، فاضطربت الأحوال في الشرقية وظل الأهالي يناوشون الحاميات الفرنسية ويتهددون مواصلات الجيش مع القاهرة ، وقد اشتدت حركاتهم في أوائل اكتوبر سنة ١٧٩٨ عند ما انبثت فكرة الثورة في القاهرة وبدأت تذيع الدعوة اليها في الاقاليم ، فاجترأ الثوار على مهاجمة المخافر الفرنسية ، وقتل الأهالي ترجمان الجنرال رينيه الخاص على مقربة من معسكر الفرنسيين في بلبيس ، وقاوم أهل (بيشه) الفرنسيين عند ما شرعوا في مصادرة خيولهم ، وبدأ أهالي بلبيس وأعوانهم من العرب المجاورين لهم يهاجمون معسكر الفرنسيين في المدينة ولم يستطع الجنرال رينيه ان يخضع القوم لان الفيضان قد خرب الأرض ففعل حركات الجنود في انتقالها الى القرى كما ان الامراض قد فتكت بالجنود

وبخاصة الرمد الذى انتشر بينهم

وقد كان لجود الحامية الفرنسية ولدعوة الثورة التى استطارت من القاهرة فى الاقاليم اثر كبير فى تشجيع الاهالى على مهاجمة معسكر بلبيس بقوة كبيرة، فبدأ هجومهم فجر يوم ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ فاقبل مائة من الفرسان من قبيلة العائد قادمين من الصحراء فالتقوا بكتيبة من الفرنسيين وقتلوا منها بعض الجنود، فرد الجنرال رينييه هجمة العرب ولكنه اضطر ان ينسحب الى بلبيس ليرد هجوما آخر كان يتهدد مركزه فى المدينة وقد اشترك فيه ٢٥٠ من الفرسان و ١٢٠٠ من المشاة

فربط رينييه بالمدينة حتى اقبل اليه المدد ثم اخذ بها حرم الثوار الى ان ارتدوا عنها وسار بجنوده يتعقبهم حتى غابوا فى الصحراء فعاد الى بلبيس ، وفى هذا الوقت كان عرب بلى قد اقبلوا من طريق القاهرة ، وهاجموا المعسكر ، فردهم الجنود الفرنسية ، ثم كروا بعد قليل ولهم قوة أكبر فكان عددهم كما قدرهم الجنرال رينييه ٥٠٠ قرس و ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ راجل ، فمال عليهم رينييه بجنوده ومدفعيته ففرقهم بالبندق والمدفع وردهم الى قرية « غيته »^(١) ، وفيما هو على اثرهم هجم الجمع الحشد من أهالى البلاد المجاورة (قدرهم رينييه بألفين من المشاة و ١٥٠ من الفرسان) على الفضاء الذى يفصل المعسكر عن بلبيس ، ولكن رينييه ردهم على اعقابهم عند عودته الى المدينة ، ثم عدوا الى الهجوم ثانية وكذلك ردتهم الجنود الفرنسية ، ثم استمرت الحرب سجالا بين الفريقين لم تنقطع الحركات العدائية حول بلبيس ، ولم يكن لدى الجنرال رينييه من الجنود القوة الكافية لتجريد حملة على الثوار تغزوهم فى بلادهم وقراهم ، فصحت مواصلات الجيش الفرنسى مهددة ، وأرسل رينييه يطلب النجدة من نابليون ، فأمده وأمره ان لا ينفل عن تحسين موقعي بلبيس والصالحية ، وأن ينهك بعقوبته القبائل التى تمردت أو شاركت فى الحركات الاخيرة ويأخذ منها الرهائن ، وأمره كذلك بمعقبة

(١) فى الجنوب الغربى لبلييس

البلاد التي اشتركت في الثورة وأن يأخذ مشايخها ويقتلهم لانهم هم المسؤولون فهم هم
المأخوذون بما يحدث في بلادهم (١)

وقد علم الاهالى والعرب أن رينييه زاحف عليهم للايقاع بهم والقصاص منهم ،
فأوغلوا في البلاد البعيدة وأخلوا القرى المجاورة لبليس ، فلم يستطع رينييه ان
يجرد حملة لتعقبهم ، وأثر أن يعدل معهم الى المحامنة فلجأ الى المفاوضة مع زعمائهم
لإعادة السكينة وافرارها ، لكنه لم يوفق توفيقا يُعتدُّ به

واستمرت الاضطرابات في الشرقية بعد ذلك لم تنقطع ، قال الجبرتي في حوادث
أواخر رجب سنة ١٢١٣ (ديسمبر سنة ١٧٩٨)

« حضر سارى عسكر (نابليون) من ناحية بليس الى مصر ليلا واحضر معه
عدة عربان وعبد الرحمن اباطة اخو سليمان اباطة شيخ العباددة وخلافه رهائن ،
وضربوا ابو زعبل والمنير ، وأخذوا مواشيهم وحضروا بهم الى القاهرة وخلفهم
اصحابهم »

(١) رسالة نابليون الى رينييه في ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨

الفصل الثانى عشر

عود الى القاهرة

سياسة الحفلات

كان نابليون يسعى بكل الوسائل الى كسب قلوب المصريين واستئلال الضغينة منها وتخفيف حدة النفرة والكراهية التى كانت تبدو عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد ، ومن الوسائل التى ابتكرها اقامته الحفلات والافراح لادخال السرور الى قلوبهم ، ولعله كان يدرك ميل المصريين الفطرى الى الابتهاج والانشراح بما كان يشاهده من تجمع الالهالى فى شوارع القاهرة لسماع المغنين والناقرين على الدفوف ، فأراد ان يصل الى قلوبهم من طريق التفریح ، وكان له غرض آخر من اقامة المهرجانات والحفلات ، ذلك حين أراد ان يحجب عن الشعب أثر النكبة التى حلت باسطوله فى واقعة ابو قير البحرية ويتظاهر بانه لا يكثر لها ، ويتوود الى زعماء الشعب ليكسب ثقتهم فى تلك الاوقات العصيبة بعد ان اصبح محصورا فى القارة الافريقية ، فاخذ يتحين ما يعرض من المناسبات لاقامة الافراح والحفلات ، ولذلك سمينا هذه السياسة سياسة الحفلات

مهرجان وفاء النيل

انتهز اولاً فرصة وفاء النيل ليشارك المصريين فى احتفالهم بهذا اليوم السعيد ، فأمر بأن يجرى الاحتفال المعتاد وان يشترك الجيش فى المهرجان ، فصطفت الجنود بحذاء النيل ، وحضر نابليون الاحتفال مصحوباً بقواده واركان حربه وبجانبه كتخدا الباشا (نائب الوالى) والقاضى التركى (قاضى مصر) واعضاء الديوان والاغا (المحافظ) وأعيان المدينة ، وازدانت السفن بالاعلام والرايات ، وأطلقت المدافع والسوارىخ النارية من البر والبحر ، لكن الالهالى لم يشتركوا فى هذا الاحتفال ، ولم يخرجوا للتنزه ليلاً فى المراكب كهاداتهم كل عام ، وفى ذلك يقول الجبرنى « فى يوم

الجمعة خامس ربيع الاول سنة ١٢١٣ الموافق لثالث عشر مسرى القبطى (١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨) كان وفاء النيل المبارك، فامر صارى عسكر بالاستعداد وتزيين العقبة كالعادة ، وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين (سفن حربية) ونادوا على الناس بالخروج الى التزهة في النيل والمقياس والروضة على عادتهم ، وأرسل صارى عسكر اوراقا (تذاكر دعوة) لكتبخدا الباشا والقاضى وأرباب (اعضاء) الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور فى صباحها (السبت ٦ ربيع — ١٨ اغسطس) وركب صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره الى قصر قنطرة السد ، وكسروا الجسر بحضرتهم ، وعملوا شتى مدافع ونفوطا حتى جرى الماء فى الخليج ، وركب وهم صحبتته حتى رجع الى داره ، وأما أهل البلد فلم يخرج منهم احد تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والقبط والاروام والافرنج البلديين ونسائهم ، وقليل من الناس البطالين حضروا فى صباحها «

هذا ما قاله الجبرتي ، ومنه تعرف الحالة النفسية للشعب ومبلغ انصراف المصريين عن الاشتراك فى الاحتفال بيوم ينتهجون له كل عام ، ويدخل فى هذا الباب ما ذكره الجبرتي من ان الاشاعات عن هزيمة الفرنسيين (فى معركة ابو قير البحرية) قد ذاعت فى ذلك اليوم نفسه وتهدد الفرنسيون من أذاعوها بأشد أنواع العقاب (١) فكان نابليون أراد بالاحتفال بوفاء النيل إخفاء مظاهر الحزن التى كانت تختلج فى قلوب الفرنسيين لضياع اسطولهم

حفلة المولد النبوى

وجاءت مناسبة أخرى لمشاركة نابليون المصريين فى حفلاتهم ومحاولته إدخال السرور الى قلوبهم ، وهى حفلة المولد النبوى الشريف ، فأمر أن يحتفل به كالعتاد ، وبالغ نابليون فى الاحتفال به وعين لهذه المناسبة السيد خليل البكرى تقيما للاشراف

بدلاً من السيد عمر مكرم (١) ، وخلع عليه خلعة ثمينة ، وأقيمت الليلة الكبيرة للمولد في منزل السيد خليل البكرى ، وحضر نابليون هذه الحفلة ، ويقول ريبو (٢) أن بونابرت أظهر أناة وصبراً في شهود حفلة الذكر من بدئها الى تمامها ، ومدّ السيد البكرى الموائد تكريماً للمولد النبوى ، فبسطت خمسون مائدة على الطراز الشرقى ، حول كل مائدة خمسة أو ستة من الضيوف جالسين أرضاً على الوسائد ، وكانت المائدة التى جلس حولها بونابرت والسيد البكرى فى الوسط ، وهى من الفضة وقد صفت عليها أطباق الطعام ، ويتبين من رواية الجبرتى أن نفوس المصريين كانت فى شغل وقتئذ عن الحفلات والمسرات ، وإن نابليون هو الذى أوجب الاحتفال ، قال الجبرتى :

« سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولماذا لم يعملوه كعادتهم ، فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الاحوال ، فلم يقبل ، وقال لا بد من ذلك ، وأعطى له ثلثمائة ريل فرنساوى معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل ، واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبّادبهم ، وأرسل الطبائخانة الكبيرة (موسيقى الجيش) الى بيت الشيخ البكرى ، واستمروا يضربونها طول النهار والليل (ليلة ١٢ ربيع الأول سنة ١٢١٣ — ٢٤ اغسطس سنة ١٧٩٨) بالبركة (ميدان الازبكية) تحت داره ، وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة ، وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريح تصعد فى الهواء ، وفى ذلك اليوم ألبس الشيخ خليل البكرى فروة

(١) كانت نقابة الأشراف قبل أن يتولاها السيد عمر مكرم فى يد السيد محمد البكرى ، وهو ابن عم السيد خليل البكرى ، ولما توفى السيد محمد البكرى سنة ١٢٠٨ هجرية تولى النقابة السيد عمر مكرم الى أن جاء الفرنسيون فغادر الديار المصرية وهاجر الى سوريا عقب واقعة الاهرام ، نخلت نقابة الأشراف من النقيب فتولاها السيد خليل البكرى كما ترى فى سياق الكلام

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء ٣

و تقلد قباة الاشراف ونودى فى المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها الى النقيب »

تعيين أمير الحج

كانت إمارة الحج من المناصب العالية التى يعهد بها الى كبار الامراء المماليك ، وكان أمير الحج عند قدوم الحملة الفرنسية صالح بك وهو من أتباع مراد بك ، فلما قدم بالحجاج من الحجاز استدعاه نابليون الى القاهرة ، لكنه رفض وانضم الى ابراهيم بك وسافر معه الى سوريا وتوفى بها فى تلك السنة (١٢١٣ هجرية) ، وكانت التقاليد المتبعة فى ذلك العصر أن يعين أمير الحج فى حفلة حافلة ، فأراد نابليون أن يتبع هذه السنة فعين مصطفى بك كتخدا الباشا (وكيل الوالى) أميراً للحج يوم ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢١٣ (أول سبتمبر سنة ١٧٩٨) وخلع عليه خلعة خضراء بحضور أعضاء الديوان (١) وأهداه جواداً كريماً ، وأراد أن يكتسب قلوب الأهالى وقلوب المسلمين فى الشرق فأبلغ أمر هذا التعيين رسمياً الى الدول الاسلامية وكتب الى شريف مكة يعده بارسال أوقاف الحرمين كما كانت ، واستكتب مشايخ القاهرة رسالة بعث بها الى السلطان وأخرى الى شريف مكة فيها إطراء لسياسته وتنويه بما بذله فى تأمين طريق الحج واشترأ كه فى الاحتفال بفتح الخليج والمولد النبوى وتعيين أمير الحج الجديد واحترامه للشعائر الاسلامية

فنا بليون قد استعمل « سياسة الحفلات » ليجتذب اليه قلوب المصريين من جهة ، وليعلن عن نفسه فى العالم الاسلامى بأنه صديق الاسلام والمسلمين ، ويظهر أن الفرنسيين كانوا يعلقون أهمية كبيرة على تعيين أمير الحج ، فقد كتب المسيو

(١) يقول الجبرتى فى هذا الصدد « وفى عشرين ربيع الأول قلدوا مصطفى بك كتخدا الباشا إمارة الحج فحضروا الى المحكمة عند القاضى ولبس هناك الخلعة محضرة مشايخ (أعضاء) الديوان والتزم بونا بارتة بتشهيل مهمات الحج وعمل محلاً جديداً »

جوفروا سان هيلير (١) عضو المجمع العلمى المصرى رسالة الى أخيه بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٧٩٨ يقول فيها:

« لقد نجح القائد العام فى حمل كتخدا الباشا (وكيل الوالى) على قبول منصب إمارة الحج ، وأمير الحج الجديد رجل ذو نفوذ كبير ، وقد أطلقت المدافع إنداءاً بهذا التعيين وبإدراك ديوان الى إبلاغه للأثم العربية مع دعوتهم الى إجراء مراسم الحج كالمعتاد (٢) »

عيد الجمهورية الفرنسية

انتهز نابليون فرصة عيد الجمهورية الفرنسية الأولى (أول فنديمير (٣) — ٢٢ سبتمبر) وأقام بميدان الازبكية احتفالاً عسكرياً مهيباً دعا اليه العظماء والقاضى التركى وكتخدا الباشا وأعضاء ديوان القاهرة ودواوين الاقاليم والاعيان ، وأبدع الفنانون الفرنسيون فى تنسيق هذا الاحتفال وظلوا عدة أيام يقيمون أقواس النصر وينصبون الساريت وعدده ١٠٩ بعدد المقاطعات الفرنسية ، رفعت عليها ترايات موشاة بأسماء مقاطعات فرنسا ، ونصبوا فى وسط الميدان سارية عظيمة سموها شجرة الحرية ، وأقاموا تماثيل من الخشب كاهيا كل الكبيرة نقش عليها أسماء قتلى الفرنسيين فى مصر ، وأقاموا بوابتين كبيرتين (أقواس نصر) الأولى قبالة باب الهواء والثانية بناحية قنطرة الدكة التى كان يدخل منها ماء الخليج الى الازبكية ، نقش على إحداها صورة معركة الاهرام ، وكتب على الأخرى (لا إله الا الله محمد رسول الله) ، وجرى الاحتفال يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨ فعرض نابليون كتب الجيش يحف به أركان

(١) انظر ترجمته بالفصل الرابع ص ١٣١

(٢) « رسائل من مصر » بقلم المسير جوفروا سان هيلير

(٣) يبدأ التقويم الجمهورى بأول فنديمير من السنة الأولى الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ غداة اليوم الذى قررت فيه الجمعية الوطنية إلغاء الملكية فى فرنسا

حربه ، وبعد انتهاء العرض تلا الادمجودان جنرال بوييه Boyer خطبة لنابليون من خطبه الساحرة التي كانت تملأ قلوب جنوده حماسة وإقداما (١)

وبعد تمام خطبته دعا ضيوفه المصريين والفرنسيين الى الغداء على مأدته ، وأضيء ميدان الازبكية ليلا بالأنوار ، واستمرت الموسيقى تعزف الى ما بعد منتصف الليل .

وإليك خلاصة ما ذكره الجبرتي في وصف هذا الاحتفال :

« في يوم السبت حادى عشر ربيع الثانى سنة ١٢١٣ (٢) كان يوم عيدهم الموعود به ، فضربوا في صبيحته مدافع كثيرة ووضعوا على كل قائم من الخشب بنديرة من بنديراتهم الملونة ، وضربوا طبولهم واجتمعت عساكرهم بالبركة (بركة الازبكية) ، الخيالة والرجالة ، واصطفوا صفوفاً على طرائقهم المعروفة بينهم ، ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبط والشوام فاجتمعوا ببیت صارى عسكر بونا بارتة وجلسوا حصّة من النهار ثم نزل عطاؤهم وصحبته المشايخ والقاضى وكتخدا الباشا فركبوا وذهبوا عند الصارى الكبير الموضوع بوسط البركة (الميدان) وقد كانوا فرشوا في أسفله بسطاً كثيرة ، ثم أن العساكر لعبوا ميدانهم وعملوا هيئة حربهم وضربوا البنادق والمدافع ، فلما انقضى ذلك اصطفيت العساكر صفوفاً حول ذلك الصارى وقرأ عليهم كبير قسوسهم (٣) ورقة باغتهم لا يدرى معناها إلا هم ، وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ ، ثم قاموا وانفض الجمع ، ورجع صارى عسكر الى داره فمد ممطاً عظيماً للحاضرين ، فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل التي على

(١) تمجد نص هذه الخطبة في قسم الوثائق التاريخية

(٢) يوافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(٣) هذا خطأ والصواب أن الذى تلا خطبة نابليون هو الادمجودان جنرال

بوييه Boyer وهو ليس بكبير القسس ولم يكن مع الجيش الفرنسى قسس

الحبال والتماثيل والأحمال التي على البيوت ، وعند العشاء عملوا حراقة بارود وسواريح وفوط وشبه سواقى ودواليب من قار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل ، واستمرت القناديل موقدة حتى طلع النهار ، ثم فكوا الحبال والتعليق والتماثيل المصنوعة وبقيت البوابة المقابلة لباب الهواء والصارى الكبير وتحت جماعة ملازمون الإقامة عنده ليلا ونهاراً من عساكرهم لانه شعارهم وإشارة الى قيام دولتهم في ذعهم» وعلى الرغم مما بذله الفرنسيون ليجعلوا احتفالهم حافلاً بمظاهر السرور والبهجة فان نفوس الاهالى كانت منقبضة عن تلك المظاهر ، ومن أطف مآقاله في هذا الصدد فيقولوا الترك الذى شهد هذا الاحتفال ووصفه في كتابه (١) ان الفرنسيين « كانوا يقولون ان هذه شجرة الحرية واما اهالى مصر فكانوا يقولون ان هذه إشارة الخازوق الذى ادخلوه فينا واستيلائهم على مملكتنا ، واستمر هذا العمود نحو عشرة اشهر وحينما رفعوه استبشرت اهل مصر وابتهجت بالفرح »

وقال الدكتور ديجنت كبير اطباء الجيش الفرنسى في مذكراته « لقد تكسروا كثيراً حتى في اورو با عن حفلات اول فنديمير وثيرها في نفوس المصريين ، على ان كاتب هذه المذكرات يؤكد انها لم يكن لها اثر ما في سكان القاهرة بالرغم من مظاهر الفخامة التي أحيطت بها » ويقول دى لاجونكير (٢) « أن الجنرال برتير Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية أصدر أمره في ٢١ سبتمبر الى الجنرال ديوبى قومندان القاهرة بان يضع حرساً بناحية قنطرة الدكة التي كان يدخل منها ماء الخليج الى ميدان الازبكية خيفة أن يعتمد بعض أهل السوء فتح السد فتطغى المياه على مكان الاحتفال فتعكر صفوه

فهذه البيانات تدل على نفسية اهل القاهرة وانصرافهم عن مشاركة الفرنسيين

في حفلاتهم

(١) ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والديار الشامية ، للمعلم

فيقولوا الترك

(٢) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث

الفصل الثالث عشر

ثورة القاهرة

احتل الفرنسيون القاهرة، ووطدوا سلطتهم بها، ووضعوا أيديهم على كل شئ، فيها، لكنها لم تكن في يوم من الايام راضية عن الاحتلال الفرنسي أو مستسلمة له، وما فتئت تتحين الفرص للتخلص منه، وعبثاً حاول نابليون بعد انتصاره الحربي ان ينتصر على ثورة النفوس وان يجتذب اليه قلوب المصريين، ولم يكن انشاؤه الديوان، ولا تودده الى الزعماء، ولا اشتراكه في حفلات الشعب، ليحل الصفاء والوثام محل الجفاء والخصام، والواقع ان يد الفرنسيين الباطشة قد ضربت على الديوان فجعلته محدود السلطة مشلول الارادة، وكان اعضاء الديوان انفسهم يظهرون الطاعة للفرنسيين مداراة ومجاملة، وقلوبهم منكرة نافرة، اعتبر ذلك فيما رواه الجبرتي عن المشادة التي حصلت بين نابليون وأعضاء الديوان، فقد طلبهم الى داره ذات يوم (١) ولما استقر بهم المقام أراد ان يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ذا الثلاثة الالوان (٢) ووضع بيده

(١) ٢٠ ربيع الاول سنة ١٢١٣ (أول سبتمبر سنة ١٧٩٨)

(٢) اصدر نابليون امرا في سبتمبر سنة ١٧٩٨ بان يحمل جميع سكان مصر شارة الجمهورية (الكوكارد) وان ترفع المراكب في النيل الراية الفرنسية وامر بأنه ابتداء من أول فنديمير (٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨) لا يصرح للسلطة الفرنسية بان تسمع اى شكوى من أى شخص من الاهالى اذالم يكن حاملا تلك الشارة ولا يسمح للسفن بالملاحة في النيل ابتداء من ١٥ فنديمير اذالم ترفع الراية الفرنسية، وامر ان تنصب الراية الفرنسية باعلى منارة في القاهرة واعلى منارة في كل حاضرة من حواضر المديریات

ويتقول الجبرتي ما خلاصته ان الفرنسيين امروا بان يضع الناس الشارة الفرنسية (الكوكارد) فانف غالب الناس من وضعها، ثم نادوا بابطالها بالنسبة لعامة الناس

الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان تكريماً له وتعظيماً ، فرمى به الأرض محققاً غاضباً ، واستعفى من الديوان ، وعبثاً حاول الترجمان ان يقنع المشايخ ان الباسم هذا الطيلسان هو تكريم لهم فلم يلق منهم قبولا ، وغضب نابليون على الشيخ الشرقاوى وقال انه لا يصلح للرئاسة

لم يعمل اذن أعضاء الديوان على تمكين علاقات نابليون بالشعب ، وما كان فى استطاعتهم ذلك لو أرادوا ، فاخذ سخط الاهالى يستفحل ، وزاد فيه أعمال كثيرة أخرجت صدورهم وانتهت بنشوب نار الثورة فى العاصمة

ثارت القاهرة فى وجه الفرنسيين يوم الاحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ - ١١

جمادى الاولى سنة ١٢١٣

لم يكن مألوفاً ولا منتظراً أن تثور القاهرة ، تلك المدينة الهادئة الوديدة التى احتملت ظلم حكامها السنين الطوال ، ولم يكن الفرنسيون يتوقعون ان تثور فى وجههم وهم الذين فتحوا العواصم ودوخوا الممالك فى القارة الأوروبية

لكن ثورة القاهرة جاءت عنونا لنفسية جديدة فى الشعب المصرى ، ولا غرو فان الحملة الفرنسية كما قلنا قد استفزت فى نفوس الشعب روح المقاومة الاهلية ، وكانت القاهرة مسرحاً لتلك المقاومة كما كانت مصدراً لسريان الهياج والثورة الى انحاء البلاد

لماذا ثارت القاهرة

من الواجب قبل أن نسرد وقائع تلك الثورة ان نتساءل لماذا ثارت القاهرة ، ما هى الاسباب التى أشعلت نار الثورة فى تلك المدينة العظيمة التى شتهرت من قبل بالاخلاق السكينة ؟

ذكر الجبرنى ان تقرير الضرائب الفادحة التى فرضها الفرنسيون فى أوائل جمادى الاولى هو الذى أدى الى نشوب الثورة ، وهذا صحيح اذا اعتبرنا تلك

والزموا بعض الاعيان ومن يريد الدخول عندهم الحاجة من الحاجات بوضعها فكانوا يضعونها اذا احضروا عندهم ويرفعونها اذا اتصلوا عنهم ، وذلك أياما قليلة ثم تركت

الضرائب كالشرارة التي أشعلت النار ، لكن فكرة الثورة كانت مختمرة في الرؤوس من قبل ، فلنبعث اذن عن أسبابها ومقدماتها

الاسباب المالية

ان سلوك نابليون مع المصريين خالف في كثير من المواطن ما وعدهم به في منشوراته وبياناته ، لقد كان ينعى على المماليك ظلمهم واعتسافاتهم ، فانظر ماذا فعل هو في إرهاب الاهالى بالضرائب والمغارم

لما دخل الفرنسيون القاهرة فرضوا على سكانها ضريبة فادحة في شكل سلفة اجبارية ، ولم يستطع «الديوان» أن يمنعها على الرغم من تدخله في الامر وتوسطه في تخفيفها فقد روى الجبرتي انه في يوم السبت ١٤ صفر سنة ١٢١٣ (٢٨ يولييه سنة ١٧٩٨) أي عقب أن استقر نابليون في العاصمة بأيام معدودة وعقب تأسيس (الديوان) بثلاثة أيام «اجتمعوا بالديوان وطلبوا سلفة خمماية الف ريال (مائة الف جنيه) من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الافرنج أيضاً فسألوا (أي أعضاء الديوان) التخفيف فلم يجابوا فأخذوا في تحصيلها»

قري من ذلك ان الديوان لم تكن له سلطة ما في منع الغرامات والقروض الاجبارية التي يفرضها الفرنسيون ، ولعل ذلك كان من أهم الاسباب التي دعت الى سقوط منزلته في نظر الشعب

وذكر دى لاجونكيير (١) بعض ما فرضه نابليون في أنحاء البلاد على مختلف الطبقات من القروض الاجبارية في الايام الاولى للحملة ، فمن ذلك انه فرض على تجار الاسكندرية ثلثماية الف فرنك ، وعلى تجار رشيد مائة الف فرنك ، وتجار دمياط ١٥٠ الف فرنك ، وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠ الف ريال قديماً و ٤٠ الف ريال عروضاً (ملابس وأحذية للجنود) وعلى تجار البن والبهار بالقاهرة ٢٠٠ الف ريال ،

(١) تاريخ حملة مصر الجزء الثاني . وانظر كذلك مراسلات نابليون الجزء

وعلى الاقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب في الاقاليم ١٠٠ ألف ريال ، ثم فرض على تجار خان الخليلي خاصة عشرة آلاف ريال ، ووكايل الصابون عشرة آلاف ريال ، ووكايل الفاكه ستة آلاف ريال ، والسقائين ١٥ ألف ريال ، وتجار السكر عشرة آلاف ريال ، وتجار الاقمشة الهندية بالغورية ١٥ ألف ريال ، فهذه غرامات فادحة تنوء بها البلاد ولا سيما اذا لاحظنا ما كانت تعانيه وقتئذ من الضنك والفاقة

وقد تفنن الفرنسيون في ابتزاز الاموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ، فمن ذلك انهم اذنوا لنساء البكوات المالكات أن يفقدن أنفسهن بالمال ليسكن في بيوتهن وان كان عندهن شيء من متاع أزواجهن يبذلنه فان لم يكن عندهن شيء منه يصلحن على أنفسهن ويأمن في دورهن

فهذه طريقة بلغت حد الاعنات والارهاق في جمع الاموال من النساء تلقاء أن يأمن على أنفسهن ! وهي أشد وطأة من الغرامات الحربية ، قل الجبرتي « ان الست نفيسة زوجة مراد بك ظهرت وصاغت عن نفسها وأتباعها من نساء الامراء والكشاف بمبلغ قدره مائة وعشرون ألف ريال فرانسوى وأخذت في تحصيل ذلك من نفسها وغيرها ووجهوا عليها الطلب (أى طالبوها) وكذلك بقية النساء بلوسائط المتدخلين في ذلك فصاروا يعملون عليهن ارهاصات وتخويات (١) »

ويقول ريبو (٢) ان مجموع ما فرضه الفرنسيون على نساء المالك بلغ ٦٠٠ ألف فرنك ، واذا رجعنا الى نص الامر الذى أصدره نابليون بتاريخ ١٤ ترميدور (أول اغسطس سنة ١٧٩٨) في شأن ما فرض على الست نفيسة زوجة مراد بك نجد أنه يقضى بأن تدفع هي وحدها ٦٠٠ ألف فرنك عن نفسها وعن نساء المالك من تباع مراد بك ، فيفهم من ذلك ان المبلغ الحاصل من نساء المالك يزيد على ستمائة ألف فرنك ، ويقول دى لاجونكيير ان ما أخذ من زوجة مراد بك خاصة ٨٥٧ و ٤٩٢

(١) الجبرتي الجزء الثالث

(٢) لتاريخ العالمى والحرنى ثلحمة الفرنسية الجزء الثالث

فرنكا وما أخذ من باقى نساء الممالك ٣٧٤٧١٧ فرنكا ، وذلك الى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، ولا شك ان هذه مبالغ جسيمة اذا قيست بثروة البلاد فى ذلك العهد . ويقول ريبو أيضاً ان الست نفيسة زوجة مراد بك اضطرت لدفع حصنها فى الغرامة الحربية أن تنزل عن حليها وجواهرها ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان أهداها لها القنصل مجالون باسم الجمهورية الفرنسية تقديراً لخدماتها ورعايتها للتجار الفرنسيين « فكان اضطرارها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجاً شريفاً منها (١) »

استطرد

الى ترجمة نفيسة المرادية

« نفيسة المرادية » هى أكبر شخصية ظهرت بين سيدات مصر فى ذلك العصر ، لذلك رأينا ان نستطرد الى الكلام عنها ونترجم لها كانت نفيسة المرادية شركسية الاصل ، تزوج بها على بك الكبير ، فصارت بمثابة ملكة مصر ، وبنى لها قصرًا عظيمًا بالازبكية بدرب عبد الحق ، ولما مات على بك تزوج بها مراد بك ، فاحتفظت بمكانها ونفوذها ، وكانت على جانب كبير من الثقيف والتهذيب ، إلى روعة فى الجمال ومخوفى العواطف ، تعلمت العربية قراءة وكتابة وأقبلت على الكتب العلمية تطالعها وتدرسها ، فارقت مداركها واكتسبت احترام العلماء والبكوات الممالك الذين كان ييدهم الحل والعقد ؛ وكذلك اجتذبت قلوب الشعب بما اشتهرت به من البر والاحسان ورفع المظالم وحماية الضعفاء ، فعظمت مكانتها بين طبقات الشعب ، وسرت شهرتها الى الأوساط الاوربية إذ عرف عنها الميل الى تنشيط التجارة والصناعة ومعارضة البكوات الممالك فى سلب اموال التجار ، وقد أهدتها حكومة فرنسا قبل الحملة الفرنسية ساعة مرصعة بالماس قدمها لها القنصل مجالون Magallon اعترافاً لها بخدماتها للتجارة ، وكانت تتبرع باعانات

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

شهرية لكثير من العائلات التي أخنى عليها الدهر ، واستمرت تؤدي هذه الاعانات حتى في أيام محنتها ، ولما جاءت الحملة الفرنسية وانهزم مراد بك في واقعة الاهرام بقيت هي في القاهرة فاستهدفت للاتاوات والغرامات الحربية كما تراه في سياق الكلام ، على أن قواد الجيش الفرنسي كانوا يعاملونها بالاحترام ، ولما جلا الفرنسيون عن البلاد استهدفت كذلك لمظالم الاتراك ، ذكر الجبرتي ما وقع من خورشيد باشا من اساءة معاملتها فقال ما خلاصته ان الباشا امر باحضارها الى القلعة واتهمها بان جارية لها تسعى في الاتفاق مع المماليك العصاة لتحريض الجند على التمرد ، فانكرت هذه التهمة وطلبت الدليل على مانسب الي جارتها وقالت « اذا ثبت ان جارتني قالت ذلك فانا المأخوذة به دونها » فخرج خورشيد باشا من جيبه ورقة وتظاهر بانها تثبت ذلك ، فطلبت السيدة نفيسة الورقة فاعادها خورشيد الى جيبه ، فوبخته نفيسة على عمله وقالت له طول ما عشت بمصر وقدرى معلوم عند الاكابر وخلافهم ، والسلطان ورجال الدولة وحریمهم يعرفونني اكثر من معرفتي بك ، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيين فما رأيت منهم الا التكريم ، وكذلك محمد باشا (خسرو) كان يعرف قدرى ولم نرمه الا المعروف ، وأما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم ، فقال ونحن ايضا لا تقبل غير المناسب ، فقالت له وأى مناسبة في أخذك لى من بيتى بالوالى (رئيس الشرطة) مثل ارباب الجرائم ، فقال أنا ارسلته لكونه اكبر اتباعى فارسالة من باب التعظيم ، قال الجبرتي « ثم اعتذر اليها وامرها بالتوجه الى بيت الشيخ السحيمي بالقلعة واجلسوها عنده بجماعة من العسكر » (أى جعلوها تحت الحفظ) فتدخل العلماء فى امرها حتى توصلوا الى اطلاق سراحها

يتبين من هذه الحادثة مقدار ما كان لتفيسة المرادية من المكانة بين الناس ، وقد أدركت عصر محمد على بعد أن أدبرت عنها الدنيا وفقدت املا كها ولم يبق لها سوى النذر اليسير منها فعاشت فى قلة وفقة الى ان توفيت سنة ١٢٣١ هجرية (١٨١٦) وقد ذكرها الجبرتي غير مرة ووصفها « بالشهيرة الذكر بالخير » ونعاهها فى وفيات ذلك العام وقال فى ترجمتها أنها عمرت طويلا مع العز والسيادة والكلمة النافذة ، واكثر نساء

الامراء من جواربها ، ولم يأت بعد الست شويكار من اشتهر ذكره وخبره سواها، وقال انها « كانت من الخيرات ولها على الفقراء برواحسان ، ولها من المآثر الخان الجديد والصهرى داخل باب زويلة توفيت يوم الخميس لعشرين من شهر جمادى الاولى بمنزلها المذكور بدرب عبد الحق ودفنت فى القرافة الصغرى بجوار الامام الشافعى ، واضيفت الدار الى الدولة وسكنها بعض اكابرها وسبحان الحى الذى لا يموت »

رجع ما انقطع

ذكر الجبرى ما وقع على الناس من المغارم الاخرى ، فمن ذلك ان الفرنسيين طلبوا الخيول والجمال والابقار والثيران والسلاح ، فحصلت عليها مصالحات أى أخذوا مقابلها قدياً، وكانوا يفتشون المنازل ويكسرون الدكاكين بسوق السلاح وغيره و يأخذون ما يجدون فيها من الاسلحة ، وفى كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من الامتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مالا يحصى ، ويستخرجون الخبايا والودائع ، ويطلبون البنائين والمهندسين والخدام الذين يعرفون بيوت اسيادهم ليدلوهم على اما كن الخبايا ومواضع الدفائن ، وطلبوا اهل الحرف من التجار بالاسواق وفرضوا عليهم قوداً على سبيل القرض والسلفة مبالغاً يعجزون عنه وحددوا لدفعها أجلاً مقداره ستون يوماً ، فضجوا واستغاثوا وذهبوا الى الجامع الازهر والمشهد الحسينى وتشفعوا بالمشايخ (أعضاء الديوان) فنكلموا لهم فانزلوها الى نصف المطلوب ووسعوا لهم فى أيام المهلة

هذا ما ذكره الجبرى من مظالم الفرنسيين ومغارمهم فى الايام الاولى من احتلالهم ، وذكر أيضاً انهم قطعوا رواتب الاوقاف الخيرية عن مستحقيها الفقراء ، فبمثل هذه المغارم الفادحة لا يمكن أن تجتذب القلوب وتسترضى النفوس

ولم تقتصر هذه المغارم على الايام الاولى من الاحتلال بل استمر الفرنسيون فى فرض الضرائب وجمع الاموال ولا سيما بعد أن تحطم أسطولهم فى معركة أبوقير وأصبحت الحملة الفرنسية منقطعة عاجزة عن تلقى الامداد والمساعدات من فرنسا متروكة لمواردها وموارد البلاد، فأخذ الفرنسيون من ذلك الحين يتفننون فى استخراج

الاموال من البلاد واهلها ، وتذرعوها الى ذلك بوضع النظام الذى ابتدعوه لاثبات الملكية وتسجيل السندات والعقود وما تبعه من فرض الاتاوات الجديدة كما بينا ذلك فى الفصل الثالث

كانت تلك المغارم الفادحة تناقض عهود نابليون فى منشوراته وبياناته ، وهى وحدها كافية لصرف قلوب المصريين عن الثقة به وبوعوده ، لان الشعب رأى ان الضرائب التى كانت تثقل كاهله فى عهد المليك قد بقيت كما كانت وزادت عليها ضرائب جديدة ابتكرها الفرنسيون ، فصارت الحالة من الوجهة المالية اسوأ مما كانت فى عهد للمالك ، والمسائل المالية كانت فى مختلف العصور والبلدان من أهم أسباب تدمير الشعوب وشكواها

مصادرة الاملاك وهدم المباني

ومن مظالم الفرنسيين التى أخرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيرا من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم اليها . وهدموا كثيرا من المباني والآثار والمساح بحجة تحصين القاهرة

قل اجبرتني فى هذا الصدد « وفيه (شهر ربيع اثنى سنة ١٢١٣) أمر بوسكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول الى المدينة ليسكنوا بها فتركوا ، وصعدوا الى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة ، وترعوا فى بناء حيطان وكراتك وأسوار ، وهدموا ابنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة ، وبنوا على بندقية باب العرب (من أبواب القلعة) بالرميلة ، وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها ، ومحووا كنزها من معتم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء وما كن فى الابواب العظماء من لاسلحة والمدق والبلط والحوادث والحرب الهندية واكر الفداوية ، وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحاسن الملوك والسلاطين ذوات الاركان الشهقة والاعمة ابسقة »

هذه رواية اجبرتني ، ويعترف نابليون فى مذكراته ان ترويم القلعة استوجب هدم كثير من البيوت القريبة منها وامتد الهدم الى المسجد الحجازي وسور ، وأن سكان القاهرة

قد ساورهم قلق شديد من رؤيتهم ضباط فرقة الهندسة يتولون الهدم وينصبون المدافع في الاماكن المهدومة (١)

هدم أبواب الحارات

وأمرؤا كذلك بهدم أبواب الحارات والدروب ، وكانت هذه الابواب تغلق في الليل فتصير كل حارة في مأمن من اعتداء اللصوص ، فاشتد قلق الناس من هدمها وتظننوا بالفرنسيين أنهم عازمون على قتل الناس وهم في صلاة الجمعة ، ولم يكن الناس واهمين في ظنونهم ومخاوفهم ، فان الفرنسيين كانوا يقصدون من هدم الابواب إخضاع المدينة ومنع كل محاولة للمقاومة ، قال الكولونل ديتروا (٢) Detroye في يومياته بتاريخ ٤ اغسطس سنة ١٧٩٨ « ان شوارع القاهرة مفصولة بعدد كبير جدا من الابواب الكبيرة التي تفصل الحارات والاحياء بعضها عن بعض ، ولقد رأى القائد العام ان هذه الابواب قد تعطل انتقال الجنود في حالة الفتنة او الهياج ، لذلك أمر بهدمها ، على ان هذه الوسيلة اذا كانت نافعة من هذه الوجهة فلها عواقب وخيمة من جهة أخرى فان الابواب كانت تعزل الأحياء التي تظهر فيها الأوبئة ، فاذا أغلقت منعت سريان العدوى الى الأحياء الاخرى وقامت حداً في الاختلاط بين الناس ، فبأي طريقة يمنع انتشار الأوبئة بعد هدم هذه الابواب »

وجاء في يوميات الجنرال لوجييه Laugier عما أحدثه هذا العمل من التدمير والسخط في نفوس الاهالى ما يلى :

« كان لكل شارع أوحدة باب كبير يقفل عليها ويمكن استخدامه كمتاريس في حالة الثورة ، لذلك أمر القائد العام بنزع هذه الأبواب ، وقد تدمر الأهالى

(١) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال بورتان في سانت هيلين
(٢) الكولونل ديتروا هو من قواد الحملة الفرنسية ، كان رئيس أركان حرب الجنرال كافاريللى ، ويومياته على جانب عظيم من الأهمية دون فيها الحوادث التي شاهدها الى حصار عكا إذ قتل أثناء الحصار

وجعلوا يصيحون ويسخطون ، ولكنهم بعد ذلك أذعنوا وأخلدوا للسكينة ، وبعد أن أقفل التجار دكاكينهم احتجاجا على هذا العمل عادوا وفتحوها ،
والمعروف أن نابليون أصدر أمره بهدم أبواب الشوارع والحارات في شهر اغسطس سنة ١٧٩٨ وقد انتهز فرصة اجتماع الديوان العام لانتفاذ فكرته ، ففي الوقت الذي كان الديوان منعقدا كان ضباط فرقة الهندسة يطوفون أحياء القاهرة ويباشرون هدم الابواب ، واجتمع هدم الأبواب وتحصين الفرنسيين للقلعة وفرضهم الضرائب الجديدة ، فكانت هذه العوامل المجتمعة من اسباب الهياج الذي أعقبته الثورة

القتل والارهاب

ومن المظالم التي أثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطني والحكم عليه بالاعدام وتنفيذ الحكم فيه مما رأيتة مفصلا في الفصل الخامس ، وكذلك وصول اخبار الفضايع التي رقت بها الجنود في المديريت وحضور اشراف الذين قبض عليهم من البلاد وحبسهم بالقلعة (١) ، والواقع ان الفرنسيين كانوا يسرفون في قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوب الأهالي ويحملوهم على الخضوع والأذعان ، وهذا مستفاد من بعض رسائل نابليون الى قواد الجنود الفرنسية في الاقاليم ، ففي رسالته الى الجنرال زايونشك Zayonchek قومندان المنوفية يقول (٢) « لا بد أن تكون جاءتك تعليماتى لتنظيم مديريتكم (المنوفية) ، يجب ان تعاملوا الترك بمنتهى القسوة ، وإني قد أقتل كل يوم

(١) كتب نابليون الى الجنرال كافاريللي بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ينبئ به بأنه سيحضر الى القاهرة نحو خمسين من الأهالي من مختلف بلاد القطر المصري وكلفه أن يهيء لاقامتهم سجن القلعة

(٢) بتاريخ ٣٠ يولية سنة ١٧٩٨ ، مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة

ثلاثة وأمر بأن يطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة ، وهذه هي الطريقة الوحيدة لاختضاع هؤلاء الناس ، وعليكم ان توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح «
وظاهر أن نابليون يقصد من عبارة « الترك » الأهالي ، ولا يمكن أن يقصد الأتراك العثمانيين لأنه في تاريخ هذه الرسالة كان يتوعد اليهم كثيراً ويتظاهر بمحبته لسلطان تركيا ، وكلمة « ترك » كثيراً ما يستعملها الكتاب الفرنسيون للتعبير عن الأهالي المصريين وهذا مفهوم من رسالة أخرى لنابليون الى الجنرال منو Menou قومندان رشيد^(١) يقول فيها

« إن الترك لا يمكن إخضاعهم إلا بالقسوة وفي كل يوم أمر بقتل خمسة أو ستة في القاهرة ، لقد كنا تتفادى التعرض لهم حتى نزيل عن سمعتنا وصمة الارهاب تلك التهمة التي كانت تسبقنا الى أذهان الناس ، أما الآن فيجب علينا أن نستعمل الوسائل التي تؤدي الى إخضاع هؤلاء القوم ، وإخضاعهم معناه تخويفهم »

* * *

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت فكرة الهياج تختمر في الأذهان ، وجاءت الضرائب الجديدة فأشعلت بركان الثورة ، ومهما اختلف المؤرخون الفرنسيون في بيان أسباب ثورة القاهرة وعزاها بعضهم الى الدعاية الدينية التي كان يبثها رجال الدين فانهم يعترفون بأن فداحة الضرائب كانت من أهم العوامل التي عجلت بها ، قال دي لاجونكيير^(٢) « كانت الدعوة الى الثورة تختلط علناً بأذان المؤذنين فيدعون الى الله والى الثورة على المآذن صباح مساء ، فبلغ تهيج النفوس أشده حتى لتكفي حادثة واحدة أن تضرم بركان الهياج القومى ، ولقد كان فرض الضرائب

(١) بتاريخ ٣١ يوليه سنة ١٧٩٨ مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة

رقم ٢٩٠٧

(٢) حملة مصر الجزء الثالث

على المنازل سبباً كافياً استغله دعاة الثورة لاثارة الهياج في نفوس من لم تستفهم
الدعاية الدينية »

لجنة الثورة

كان للثورة لجنة تديرها وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها ، ومقرها في الأزهر ، وفي
ذلك يقول ريبو

« لقد اجتمع الى جانب تدمير الأهالي واستيائهم نشر الدعاية الى الثورة ،
فكان في الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدير الثورة تعمل على إثارة
الكراهية في نفوس الناقمين (١) » وقال الجبرتي بعد أن ذكر احتشاد الجماهير في
الطرق « ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عاقبة الأمور ، ولم
يتفكر أنه في القبضة مأسور » وظاهر ان الجبرتي يقصد بأولئك المتعممين الداعين
الى الثورة

ويشون - بليون في مذكرته ان لشعب قد سحّب (ديواناً) لسورذ ونظم
متطوعين للقتال واستخرج لأسلحة مخبوءة ، وأن تسيح السدات ، تتخب رئيساً
هذا الديوان (٢) ، وذكر في تقريره الى حكومة المدير كتوار عن ثورة القاهرة ان
« لجنة الثورة » كانت تنعقد بالأزهر .

فلأزهر إذن كان مركز الثورة في أواخر القرن الثامن عشر ، وقد شغل هذا
المركز بعد أكثر من مائة عام فإن الأزهر خلال سنة ١٩١٩ كان في فترة من الزمن
المعسكر العام للثورة القومية التي قامت في مصر عقب انتهاء الحرب العالمية ، والتاريخ
يعيد نفسه

(١) التاريخ العمى والحربي للحملة الفرنسية في مصر الجزء الرابع

(٢) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين

وقائع الثورة

أخذ دعاة الثورة يحرضون الناس على التمرد والانتفاض على الفرنسيين، وشرعوا في الوقت نفسه يشيرون الشكوك والريب حول أعضاء الديوان ويتهمونهم بمالأة الفرنسيين حتى لا يستمع الجمهور لنصائحهم في الاخلاص الى السكينة ، وقد أفلحوا في إخراج مركز أعضاء الديوان فأخذت منزلتهم تتضعض في نفوس الشعب وكانت الدعوة الى الثورة تتردد على ألسنة الأهالي لكنها لم تقابل في مبدأ الأمر الا بعطف الناس وميلهم دون أن تقرر باعلان الثورة فعلا ، حتى جاءت الضرائب الجديدة فزادت عدد الناقمين على الحكم الفرنسي، وسرت روح الثورة الى طبقة الملاك والتجار وأصحاب الصناعات ، وجاء تنفيذ نظام الضرائب الجديدة على طريقة منيرة للخواطر، لأن تقييد الاملاك في دفاتر الضرائب اقتضى معاينة المنازل والدخول فيها لتقدير قيمتها ، وهذا أمر يستفز الملاك ، قال الجبرقي في هذا الصدد « وعينوا (الفرنسيون) المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الاعلى من الادنى (من العقارات) وشرعوا في الضبط والاحصاء وطاقوا بالجهات لتحرير قوائم الاملاك وضبط اسماء أربابها »

وقد بدأ ذوو اليسار يتذمرون لان الضرائب الجديدة اثقلت كاهلهم ، وهؤلاء وان لم يشتركوا فعلا في الثورة الا أن إقرارهم لها أمدتها بالمساعدات المادية والمعنوية ، وبذلك اشتركت طبقات الشعب كلها في ثورة القاهرة، واغتتم دعاة الحركة فرصة تدمير الشعب من الضرائب الجديدة فبدؤا يعملون لاهتياج الخواطر وإشعال النار ، وتعاهدوا على الاجتماع ليلة الاحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ الرسم الخطة الواجب اتباعها ، فاجتمعوا، وكان عددهم في ذلك الاجتماع ثلاثين، فاتفقوا رأيا على البدء بالعمل في اليوم التالي ، وأزمعوا إقفال الدكاكين ودعوة أكبر عدد من التجار والصناع للذهاب بجمع كبير من الشاكين الى مركز القيادة العامة لرفع الصوت احتجاجا على الضرائب الجديدة ، وبذلك تحث في المدينة حركة يكون منها الشعب والهياب فتكون مقدمة للثورة

اليوم الاول للثورة

٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨

وقد وقع مارسموا ، ففي اليوم الموعد ٢١ أكتوبر كانت القاهرة في حالة لم يألفها الناس من قبل ، فكان الناس يتألبون في الشوارع زرافات يشكون ويتهددون ، ويخطب بعض المعممين هذه الجموع فيشعلون نار الحماسة في قلوبهم فتقابلهم الجماهير بالتأييد والتحبيد ، وكان الناس يتلاقون على غير تعارف ، فيتبادلون الشكوى ويتعاهدون على المقاومة ، وأخذت سمات الغضب تبدو على الشعب الهادئ الوديع ، وظهرت الاسلحة في أيدي المتجمهرين في الشوارع والميادين بعدما كانت محجوبة عن الانظار ، وأقبل الفلاحون وأهل الضواحي الى القاهرة فاشتركوا في هذا التجمهر ، وأخذت صيحات السخط واللعنات تنصب على الضرائب الجديدة وعلى الفرنسيين قل ريبو يصف هذه الحالة « سادت اجلبة ، وأختلطت الاصوات ، وعلت انصيحات ، فكان هذا منظر يبعث رهبة في نفوس شجع الناس ، ولم يعد هناك شك في أن الثورة قد بدأت »

وهرعت جموع الناس الى بيت القاضي التركي ابراهيم أدهم افندى (ويسميه الجبرتي بجمقشي زاده) وكان رجلا وقورا يحترمه الناس وله في نفوسهم مكانة ومنزلة ، وتقدم عشرون من المتجمهرين فقابلوا القاضي وقنوا له منهم يريدون الذهاب الى بونا بارت ليفي نظام الضرائب الجديدة ، وطلبوا منه أن يركب معهم ، فاستجاب لهم ، ولكنه لم يكده يتخطى عتبة داره حتى رأى الثائرين وجموعهم تزحف زحفاً ، فأدرك خطورة الأمر ، وقل للجمع إن هذه الطريقة ليست مما يتبع لتقديم شكوى ، واعتذر من مصاحبتهم وانكفاً الى بيته ، فثارت نفوس الجمهير ونادوا: "لى بونا بارت! الى بونا بارت! القاضي معنا الى بونا بارت! وماه يقبل القاضي مصاحبتهم انهالوا عليه وعلى رجاله ضرباً بالعصى ورجماً بالأحجار .

تلك رواية المراجع الفرنسية عن بدء الثورة ، وهي تقرب من رواية نابليون

في تقريره الذي أرسله الى حكومة الديركتوار بتاريخ ٢٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ عن وقائع الثورة ، وقد كان تقريره موجزاً اجتهد فيه أن يقلل من خطورتها ، ولكنه وصف ابتداءها وصفاً دقيقاً بقوله : « في الساعة السابعة صباحاً احتشد جمع كبير من الناس على باب القاضى ابراهيم أدهم افندى ، وهو رجل محترم بأخلاقه وصفاته ، واختار الجمع عشرين من زعمائهم لمقابلة القاضى فى داره وألزموه أن يركب معهم ويحضروا الى ، وقد طأوعهم القاضى وركب معهم الى أن قابله رجل بصير بالأمر فأفهمه أن الجمع الذى يسير معه كبير جداً ، وسواده من الدهماء ، بحيث لا يمكن أن يكون مقصده ما يزعم من الشكوى وحديثها ، فأدرك القاضى وجهة هذه الفكرة ونزل عن جواده ورجع الى منزله فاستاء الجمهور وانهالوا على القاضى وحاشيته رجماً بالأحجار وضرباً بالعصي ونهبوا منزله »

كانت هذه الحادثة كاعلان للثورة ، فاحتشدت الجموع فى الجامع الأزهر يضحجون ويصيحون ، ويهتفون بالقتال ، وامتلات الطرق والشوارع بالناس حاملين الأسلحة قاصدين الى أحياء الفرنسيين لمهاجمتها

حدث كل ذلك والسلطات الفرنسية لم تحسب حساباً لهذه الجموع أو تتوقع حدوث ثورة ما ، ولم تتخذ التدابير لمنع احتشاد الجماهير المسلحة ، فعمت الثورة مدينة القاهرة كلها فى أسرع من لمح البصر ، وأخذ الثوار طريقهم الى مركز المخافر الفرنسية قتلوا الجنود والحراس .

مقتل الجنرال ديبوى Dupuy

لم يقدر الجنرال ديبوى قومندان القاهرة (١) فى مبدأ الأمر خطورة الحالة ،

(١) كان بمثابة حاكم القاهرة ولذلك يلقب (شيخ البلد) وهو اللقب الذى كان يعطى لرئيس المماليك فى القاهرة كما بينا ذلك فى الفصل الأول ، والجنرال ديبوى من قواد الجيش الفرنسى الذى حارب فى ايطاليا تحت قيادة نابليون قبل مجيئه الى مصر ، وكان قومنداناً لميلان حينما اختاره نابليون ضمن قواد الحملة الفرنسية

وجاءته أنباء غامضة عن الهياج ، فلم يحسب له حساباً ، ولم يره أمراً ذا بال ، واكتفى بانفاذ بعض دوريات من الجند ، ولكنه لم يلبث أن خُبرَ الخبر بما يدل على اشتداد الأمر وتفاقم الثورة ، فعزم على مواجهتها ، وكان الرجل معروفاً بالجرأة والاقدام ، فاصطحب ياوره الكاتبين موري Maury والمسيو بودوف Baudeuf التاجر الفرنسي ليكون ترجماناً له في مخاطبة الجماهير ، وسار يقصد بيت القاضي ليتعرف أسباب الهياج ، وأصدر في الوقت نفسه أمره الى الجنود المربطة في بركة الفيل (١) بأن تحمل السلاح وتناهب للقتال ، ومضى في كتيبة من الفرسان قاصداً مركز الهياج ، فسار من بركة الفيل الى الموسيقى واتجه الى شارع الغورية وأراد أن يذهب الى بيت القاضي (بين القصرين) ، ولكن الشوارع ازدحمت بالجوع حتى صارت كأنها بحر يزخر بالناس ، فأخذ الجنرال ديوي يشق لنفسه طريقاً بين هذه الجوع الصاخبة وتساقطت الأحجار على الكتيبة من الناس ومن المنازل ، نخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وهناك اى جمعاً من النوار أخذوا الطريق عالياً ، فحاول بودوف أن يخضب الناس فأجابه بسخط والاعتد ، ولم يحسب ديوي حساباً عواقب مواجهة هذه الجوع الثائرة ، فهجم عليها على رأس فرسانه ، فتردت أول وهلة ، لكن الهجوم كان في زقاق ضيق بحيث لم يستطع الفرسان أن ينطلقوا في حركتهم فطبق الناس على الجنرال ديوي من كل جانب ، وفي هذا الوقت جاء برتلي اروي (١) في شرذمة من رجاله لنجدة الجنرال ديوي . وكان برتلي هذا مشهوراً بالقسوة والفظاعة .

-
- (١) كان الجنرال ديوي يسكن بيت ابراهيم بك بركة الفيل
 (٢) يسميه الجبرتي برطمين الرومي وكان الامة يسمونه « فرط الرمن » وهو كما يقول الجبرتي من أسافل الاروام العسكرية القاضين بمصر ، وكان من الطوبجية عند محمد بك الالفي وله حانوت بخط الموسيقى يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة ، وكان مشهوراً بالقسوة والفظاعة وكرهيته الاهالي ، عينه الفرنسيون (كتنخدامستحفظان) أي وكيل المحافظ فكانت له سطوة كبيرة في عهد محمد وسفك دماء كثيرة وضج الناس من فظائعهم وشروره

فأطلق رصاصته على الجموع المحتشدة ، فكانت هذه الرصاصة شؤماً على الجنرال ديبوى أثارت غضب الجماهير ، فهجموا على الفرنسيين و بينهم ديبوى وانهالوا عليهم ضرباً بالعصي ، ورجماً بالأحجار ، وأخذوا بالسيوف ، وطعنوا بالرماح ، ورشقاً بالسهام ، فأدرك ديبوى حرج الموقف ، لكنه لم يجد لنفسه ولا لجنوده مفراً ، وفيما هو كذلك أصابته طعنة رمح في ثديه الأيسر قطعت شريانه ، وأراد ياوره الكابتن موري أن يدافع عن قائده ، فسقط عن جواده ، وبالرغم مما أصاب ديبوى قاته مد يده الى ياوره يحاول رفعه عن الأرض فتفجر الدم من طعنته وخرّ صريعاً ، وهناك خف الهياج والتجمهر في الشارع ووصل الدكتور لاررى Larrey كبير جراحي الجيش ليضمد جراح الجنرال ونقلوه الى دار صديقه الجنرال جونو Junot بالأزبكية ، بيد أنه لم ينفه إسعاف ولم ينفعه علاج ، وأسلم الروح متأثراً من جراحه

ذاع خبر مقتل ديبوى في أنحاء المدينة كالبرق ، فحفي الثوار وامتلاًوا حماسة ، وظنوه سهلاً عليهم وقد قتلوا قومندان المدينة أن يقتلوا القواد والجنود في الشوارع وانحازت الجموع المائدة الى صفوف الثورة متشجعين بهذا « النصر الأول » ، فزاد عدد الثائرين وتضاعف ، واشتدت حمية القتال في نفوسهم ، واستولوا على المواقع المحيطة بمعظم خطط القاهرة كباب الفتوح و باب النصر والبرقية الى باب زويلة و باب الشعرية الى جهة البندقيين ، واتخذوا من مساطب الحوانيت متاريس أقاموها في الشوارع والحارات يستدفعون بها الجنود و يعرقلون سيرهم ، وأخذوا يطلقون النار من خلالها ، وزادت جموع الثائرين بمن انضم إليهم من اهل الضواحي الذين أقبلوا من طريق الاهرام و بليبس

ولما بلغت الثورة هذا المبلغ أطلق مدفع الخطر وضرب النفير العام صائحاً بالجنود الفرنسية الى القتال ، فأخذوا يتجمعون ويطلقون النار على الثوار في الشوارع وخلف انتشاريس ، وطلقت جموع الثوار تحتشد في حي الازهر ، وامتنع بالجامع الاكبر خمسة عشر الفا من اشد الثوار حماسة وأقاموا المتاريس في الطرق والأزقة الموصلة اليه وهنا حضر : بلبون الى القاهرة ، فاذا هي كالشعلة يضطرم نارها ، حضر وصحبته

الجنرال كافاريلى Gaftarelli ودومارتان Dommartin والكولونل ديتروا Detroye وأخذ يعد ما استطاع لمواجهة الثورة

وصف الثورة

بقلم شاهد عيان

للكولونل ديتروا يوميات كان يدون فيها وقائع الحملة الفرنسية فوصف الثورة كما شاهدها، قال

« ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ - الساعة السادسة صباحاً ، احتشدت الجموع في عدة أحياء من القاهرة ، وعلت أصوات السخط والأستياء ، وأخذ الناقلون يعددون اسباب سخطهم ، وصاح المؤذنون على ما ذنهم ينادون نداءات مثيرة للخواطر ، واثال الناس مسلحين بالبنادق والعصى يقصدون الاجتماع في صعيد واحد ، ثم أقفلت الدكاكين . وفي نحو الساعة العشرة صباحاً عى الجنود الفرنسية بهذا الشرفتهت للقتل ، وكان القائد أعد مضمثاً موقفه فركب جواده وصحبه من القواد كافاريلى ودومارتان وكنت معهم ، وذهبنا نتفقد استحکامات مصر القديمة وجزيرة الروضة ، وفي نحو الساعة العاشرة جاءه الخبر أن القتال قد بدأ في المدينة (١) وان أناساً قتلوا من الفريقين وان الجنرال دييوى قومندان القاهرة ضمن القتلى صرعه

(١) جاء في مذكرات نابليون أنه غادر القاهرة في شروق ذلك اليوم لزيارة ترسانة (دارصناعة) الجزيرة قبل نشوب الثورة وأنه عاد الى القاهرة في الساعة التاسعة صباحاً ، على أن شهادة الجنرال ديتروا تدل يقيناً على أن نابليون كان وقت نشوب الثورة في القاهرة ولكنه غادرها اذ لم يساوره بدء الامر قلق من وقائعها الاولى ، ورواية ديتروا أدق وأدعى الى الثقة لانه كان يدون مذكراته يومياً وقدمات في حصار عكا ، أما نابليون فأملى مذكراته على الجنرال برتران في منفاه بسانت هيلين بعد أكثر من ستة عشر عاماً مضت من وقوع هذه الحوادث

الناثرون برمية سهم نفنت الى ثديه وكان في كتيبة من الفرسان ذهب القتل بكثير منهم «رجعنا الى المدينة ولما دخلنا من جهة مصر القديمة أمطرونا الناثرون مطراً من الحجارة فعدنا أدراجنا وقصدنا باب بولاق، ودخلنا منه فرأينا المدينة في أفضع حالة، ممعنا طلقات البنادق في كل مكان، رأينا الجثث ملقاة على الارض هنا وهناك، وسرايا (دوريات) الجنود يهاجمها الناثرون في كل جهة فيضطر الجنود غالباً الى التقهر راجعين الى مواقعهم الاحتياطية، وفي حي الفرنسيين نفسه قريباً من المعسكر العام بينما كنت على رأس جماعة من حرس القائد العام هاجمى ١٥٠ من الناثرين، ولم استطع إقناذ حياتي الا بعد أن قتلت من تفرست أنه رئيسهم وفتحت ثغرة في صفوفهم، وكان الفرنسيون وقتئذ يحتلون المواقع الآتية :

« القلعة (قلعة الجبل) حيث كانت لنا مدفعية قوية، وميدان بركة الفيل حيث كان يعسكر معظم الجنود، ثم ميدان الأزبكية مقر القيادة العامة وكان يحويه ١٥ مدفعاً، وقد أمكننا بعد جهد وصعوبة أن نمد الاتصال بين هذه المواقع المختلفة

« أما المعسكر العام للناثرين فكان الجامع الكبير المسمى بالأزهر، ذلك المسجد الجميل الذي طارت شهرته في أنحاء المشرق، وقد أقام الناثرون المتاريس على منافذ الشوارع المفضية اليه، فأصبح من المستحيل أن تقتحمه المدفعية أو الجنود المشاة « أدرك القائد العام خطر الحالة واستفحال الثورة وإقبالها بوجهها المرعب الخيف، وأغضبه انتصار الناثرين على عدد كبير من الجنود وهجومهم على دار فرقة الهندسة^(١) ونهبهم أدواتها، ثم بخاصة قتلهم الجنرال ديبوى، فأمر الجنرال دومارتان قومندان المدفعية أن ينصب المدافع على ربي المقطم الى شرق القلعة لتعاون مدافع القلعة في إطلاق القنابل على الجامع الأزهر «

هذا مارواه الكولونل ديبروا في يومياته عما شاهده من حوادث اليوم الاول للثورة

(١) بيت مصطفى كاشف بالدرب الأحمر وكان يسكنه الجنرال كافريللى رئيس

فرقة الهندسة

وعن الاستعداد لليوم الثاني ، ونزيد عليه أن نابليون أمر بأن يتولى الجنرال جونو Junot قيادة الجنود العسكرية في الازبكية وإقامة مخافر من الجنود لمراقبة الجهات المجاورة لها ، وتسيير طلائع مسلحة لاكتشاف جهات القاهرة ، ووضع مدافع على منافذ الشوارع المهمة ، وأمر بتعيين الجنرال بون Bon قومنداً للقاهرة خلفاً للجنرال ديبوى ، وكلفه « اتخاذ اللازم لإعادة النظام في المدينة » (أمر ٣٠ فاندسمير - ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨) ، وعهد الى الجنرال لان Lannes الذي كان معسكراً في مصر القديمة ان ينتقل بجنوده في فجر اليوم التالي ليحتل المرتفعات القائمة خارج المدينة ومعه من المؤونة ما يكفي الجنود مدة يومين وقد أرسل الجنرال بون بعد تعيينه التقرير الآتي الى نابليون يصف فيه حالة المدينة النائرة :

« ٢١ أكتوبر الساعة العاشرة مساء . إن مركز الثورة لا يزال في حى العرب حيث يوجد الجامع الاكبر - الازهر - وقد حط نشيرون هذا المعسكر بانتدريس التي مدت جميع الشوارع بمقضية اليه ، وه استمع كستف هذه الشوارع لأن فداء ينجم عليها ، وقد أطلق أرضاص على طلائع ، و يظنون أن الغد كليوم ، فلا سبيل غداً الى تشتيت الجموع المسلحة التي تتدفق من هذا المعسكر النورى ، لذلك أرى في هذه الحال أن تقرر اتخاذ وسائل الشدة والصرامة »

اليوم الثاني للثورة

يوم الاثنين ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨

انقضى الليل في سكون ، والفريقان يتأهذان للغد ، و تنقل الجنرال دومرتان ليلاً ونصب المدافع على سفح انقضى بالقرب من القلعة ، مادعة الثورة قد ذهبوا في جنح الليل الى القرى المجاورة يستصرخون اليه للقتال . وفي الفجر كن أهلى هذه الضواحي يتوافدون على المدينة ، وكان معظم أبواب القاهرة - تنز في أيدي الثوار ففتحوها لهم ودخلوا المدينة وجبوا شوارعها حامين مسلحين من عصي ورمح وبنادق

وبدأ النهار بتجمهر الناس في الشوارع ، وكانت صيحات المتجمهرين تشق الى السماء ، وأخذ نابليون ينفذ الخطة التي وضعها في ليلته، فوجه الى كل جماعة من الثوار القوة الكافية للتغلب عليهم ، وعلم ان حشداً من الثوار قد رُم في مذكراته بين سبعة آلاف وثمانية آلاف خرجوا من باب الفتوح يرمون الى الهجوم على المرتفعات المركبة فيها المدافع ، فصدمتهم الجنود الفرنسية وفرقت شملهم ، وصعد جموع من الثوار على أسطحة جامع السلطان حسن ومناراته لضرب القلعة ومن فيها من الجنود ، فلم يفوزوا بطائل ، وكانت كتيبة من الجنود الفرسان ومعها مدفعان تحتل مدخل الحارة الموصلة الى ميدان الازبكية ، فعزم الثوار على مهاجمة هذه الكتيبة ولكنهم لم يستطيعوا أن يهاجموها من الشارع ، فتسلقوا المنازل وعلاوا الاسطحة القريبة واحتلوا جامعاً صغيراً يشرف على موقع الكتيبة وأصلوها ناراَ حامية قتلت الكثير من الجنود ، فهجم العسكر على المسجد وحطموا أبوابه وقتلوا معظم الثوار بنار البنادق والمدافع ، وتنفيذاً لتعليمات نابليون وزع الجنترالات لان Lannes وفو Vaux والكسندر دumas جنودهم بعد الفجر في ضواحي القاهرة لمنع سكانها أن ينحازوا الى ثوار العاصمة ، وقد صدت القوات الفرنسية جموعاً كثيرة من الاهالي وحالت بينهم وبين العاصمة ، وبذلك تمكن نابليون من حصر الثورة في المدينة وعزلها عن البلاد المحاورة

مقتل الكولونل سلكوسكى

وكان الكولونل سلكوسكى Sulkowski ياور نابليون ممن عهد اليهم إنفاذ هذه المهمة، فركب في الصباح ومعه كتيبة من حرس القائد العام ومضى على طريق بلبس ليصد الاهالي منه ، وفيما هو عائد الى القاهرة من (باب النصر) تلقاه الثوار وأرادوا منعه هو وكتيبته من دخول المدينة ، فهاجمهم سلكوسكى بشرذمة من الجنود ، وفي أثناء القتال كبا جواده وألقاه على الارض ، وكان لم يزل يشكو من جراحه التي أصابته في معركة الصالحية ، فهجم عليه الثوار وقتلوه ، وكان هذا الضابط بولوني الاصل سليل

بيت من البيوت العريقة هاجر من بلاده فراراً من الظلم وتطوع في الجيش الفرنسي ، وكان من قبل مجاهداً في سبيل حرية بلاده تحت لواء كوتيسكو بطل بولونيا الشهير ، فلما هزم كوتيسكو تطوع في الجيش الفرنسي وعينه نابليون ياوراً له تقديراً لكفائته وإعجاباً بعواطفه النبيلة ، وكان على جانب من العلم والذكاء ، فجعله عضواً بالمجمع العلمي بمصر ، وكان لكل ذلك موضع عطفه واحترامه ، فلما جاءه نبأ مقتله حزن عليه حزناً شديداً ونعاه الى حكومة الديركتوار في التقرير الذي بعث به اليها عن ثورة القاهرة

وساطة أعضاء الديوان

وفي ضحوة هذا اليوم جاء أعضاء الديوان لمقابلة نابليون يسألونه الكف عن الضرب ، فتلقاهم بفتور ورمائم باتهاون في منع الثورة ، وبعد مناقشة بينهم أمهلهم حتى يعودوا الى الثوار ويدعوهم الى اللقاء السلاح والاخلاد الى السكينة ، وفي الوقت نفسه أمر الجنرال دومارتان قومندان الطوبجية بأن يمسك عن ضرب المدينة بالمدافع الى أن تصله أوامره

وكانت كتائب الجنود قد تغيبت على الثوار في معظم أحياء المدينة وانحصرت الثورة في حي الجامع الازهر وما حوله فذهب أعضاء الديوان الى الازهر لينصحوا الثوار بالكف عن القتال فلا يأبهوا لهم ، ومنعهم الثوار أن يتخطوا المتاريس وبوا عليهم المدخول الى الازهر ، ولم يبلغ المشايخ الى نابليون ما انتهى اليه سعيهم ، وكان نابليون يرقب حركات الازهر من الصباح ويصدر تعليماته الى القواد على ما يقتضيه تحول الحال

ففي الصباح أرسل له الجنرال بون قومندان القاهرة يطلب منه أوامره ، ويقوب في رسالته « إن الدوريات التي اكتشفت في فجر يومنا هذا حي الازهر بلغتني أن السكينة سائدة عاياه ، لكن دوريات أخرى أنهتني بعد ذلك أن الحال غير هذا ، ومن الواجب التدرع بالشدة لتفريق الجموع المسلحة التي تحتشد في هذا الحي ، واني منتظر أمركم ، ومن رأيي أن نميل بقواتنا على هذا المسجد ، ولكن من الصواب أن نزحف عليه من كل الجهات التي تفضي اليه »

فأنفذ الجنرال برتیه Berthier رئيس أركان الحرب في الساعة الثانية بعد الظهر الى الجنرال بون تعليمات القائد العام وهي :

« عليكم أن تهاجموا لغورك معسكر الثائرين ، وان تضربوا الازهر بالمدافع ، ولتكن المدافع في أصلح موقع ليكون الضرب أشد أثراً ، بلغوا الجنرال «دومارتان» ان يفعل مثل ذلك وان يستولى على مدخل الازهر والمنازل الموصلة اليه ، وعليكم ان تقتحموه بجنودكم تحت حماية المدافع ، والقائد العام يأمر أن تقتلوا كل من تلقونه في الشوارع المسلحة ، وعليكم ان تعلنوا الاهالي بأن كل المنازل التي تلقى منها الحجارة تحرق حالا بالنار ويعفى عن المنازل الاخرى ، وعليكم ان تقتلوا كل من في المسجد وان تضعوا فيه حرساً قوياً من الجنود »

ضرب المدينة بالمدافع

وبينما كان الثائرون مجتمعين في الازهر قذفت أول قنبلة من المدافع القائمة على ربي المقطم ، فانفجرت في المسجد ، وكانت هذه القنبلة نذيراً بابتداء ضرب المدينة بالمدافع

يقول ريبو^(١) ان اطلاق القنابل بدأ في الساعة الرابعة تماماً ، لكن الكولونل ديتروا يقول في يومياته ان الضرب ابتداء في الظهر واستمر الى الليل ، وروايته أدعى الى الثقة لانه شاهد لتلك الحوادث شهادة عيان

أخذت آلاف القنابل تنهال على الازهر وتترامى في الاحياء المجاورة له كالصنادقية والغورية والفحاميين وتنفجر بهول لم يعهده سكان القاهرة من قبل ، فالقت اربعب في نفوس الناس ، وفي الوقت نفسه أقبلت كتائب الجنود فاحتلت الشوارع الموصلة الى الازهر بحيث أصبح الشوارع محصورين بين نارين نار المدافع من فوقهم ونار الجنود من حولهم ، وأحدثت المدافع تخريباً في الجامع الازهر والبيوت القائمة في الاحياء

(١) التاريخ العلمى والحرب للحملة الفرنسية الجزء الثالث

المجاورة له ، فأصبح منظر هذه الأحياء فظيماً لما شوها من آثار الخراب ، قال « ريبو »
يصف تأثير الضرب :

« أوشك أجامع الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب فيدفن تحت أنقاضه
الجامع الحاشدة فيه ، وأصبح الحي المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم
يكن يرى فيه البيوت مدمرة ودور محترقة ، وماتت تحت الأنقاض آلاف من السكان
الآمنين كان يسمع لهم أنين موجع وصيحات مرعبة ، وكانت الجهات القريبة من
الأزهر ولا سيما شوارع الغورية والصنادقية مسرحاً لهذه المشاهد الفظيعة »

ويقول الجبرتي في هذا الصدد « تتابع ارمى من القلعة والكيان ، حتى
تزعزعت الأركان ، وهدمت في مرورها حيطان الدور ، وسقطت في بعض القصور ،
ونزلت في البيوت والوكائل ، وأصمت الأذان بصوتها الهائل ، فلما عظم الخطب ،
وزاد الحال والكرب ، ركب المشايخ الى كبر الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ،
ويمنع عسكره من الرمي للتراسل ، فذهبوا اليه تبهم في نه خير وتبهمه بالتقصير ،
فاعتذروا اليه قبل عذرهم وأمر برفع رمي عنهم فقدموا من عنده وهم ينددون بالأمان
في المسالك »

قال ريبو ان الضرب انتهى في نحو الساعة السادسة مساء ، ويقول المسيو مارتان
Martin أحد مهندسي الحملة الفرنسية وهو شاهد عين لتلك الحوادث ان الضرب
انتهى الساعة الثامنة مساء (١) ، فوق الاختلال في صفوف الثوار وطلبوا الهدنة والتسليم ،
وانتهت المفاوضة بقاء السلاح ورفع المتاريس فدخل منها الجنود حتى وصلوا الى
الجامع الأزهر ، فسكروا فيه طول الليل ، وبذلك انتهت ثورة القاهرة وباتت المدينة
تلك الليلة غارقة في لجة من الظلام ولجة من الفزع

(١) تاريخ الحملة الفرنسية في مصر تأليف المسيو مارتان

قمع الثورة

تغلبت قوة الحديد والنار مرة أخرى على مقاومة شعب أعزل لا سلاح معه ، واستهدف سكان القاهرة بعد اخذ الثورة لأشد ضروب الانتقام ، ونزلت بهم النوازل بخطوبها وأهوالها

قدر الكولونل دينروا في يومياته قتلى الاهالى بسبعائة الى ثمانمائة رجل ، لكن هذا التقدير دون الحقيقة بمراحل ، فضلا عن انه لم يحص الذين ماتوا تحت أنقاض النور المتهمة والمنازل التي خربت أو احترقت

أما نابليون فأحصاهم في تقريره الى حكومة الديركتوار بعدد يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ قتيل ، وقدر ريبو عدد ضحايا الثورة بأربعة آلاف ، واعله اعتمد في هذا العدد على تقدير الجيرال « بليار » Belliard في مذكراته ، فانه قدرهم بهذا العدد وهو أقرب الى الثقة

وبلغت خسارة الفرنسيين ٢٠٠ قتيل منهم جنرال وهو (ديبوى) وكولونل (سلوكسكى) وبعض الضباط والمهندسين ، والباقي من الجنود ، وقد يكون قتل بعض المهندسين مدعاة للتعجب ، اذ ما شأنهم بثورة قامت بين الأهالى والجنود ؟ على أن نابليون في مذكراته يبين لما السبب فهو يقول أن ضباط فرقة الهندسة كانوا هدفا للشعب لأنهم هم الذين كانوا يتولون اقتلاع أبواب الدروب والحارات ونبش القبور وهدم البيوت وتحصين القلعة ، ولعل هذا من أهم أسباب مهاجمة الثوار لبית الجنرال كافريللى رئيس فرقة الهندسة الذى كان يسكن بيت مصطفى كاتشف بالدرب الاحمر ، فقد هجم العامة على داره وكان غائبا عنها صاحبة نابليون فى الروضة ، وكان بها اثنان من مهندسى القناطر والجسور وهما تيفنو Thevenot ودوقال Duval فقتلها الثوار وأتلفوا ما كان بالدار من الآلات الفلكية والهندسية ، فحسر العالم باتتلاف هذه المجموعة خسارة كبيرة قال الجبرنى فى هذا الصدد « وكان بتلك الدار شيء كثير من آلات الصنائع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك مما هو

معدوم النظير كل آلة لا قيمة لها عند من لا يعرف صنعها ومنفعتها، فبدد العامة كل ذلك وكسروه قطعاً، وصعب ذلك على الفرنسيين جداً، وقاموا مدة طويلة يمحسون عن تلك الآلات ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجمالات «

وخسر العلم كذلك بقتل المسيو Testevuide كبير المهندسين الجغرافيين وكان يشتغل بوضع خريطة مصر فعاجلته المنية قبل أن يتمها، خرج صبيحة يوم الثورة (٢١) أكتوبر سنة ١٧٩٨ من دار المجمع العلمي بالناصرية وذهب الى دار الجنرال كافريلي بالدرب الأحمر فقتله الثوار في الطريق، وقتل كذلك ارساء دوبري Duperré والجراحان روسل Roussel ونجان Mangin

مروءة سكان القاهرة

ويعترف الكتاب والمؤرخون الفرنسيون انه لا يصح نسبة شيء مما يعد من الفضائل في ثورة القاهرة الى المصريين وانه اذا كان تمت فضائل ارتكبت فهي من عمل المغاربة الذين كانوا بدمهره، وفصلاً عن ذلك فمنهم يعترفون بان "طبقة متوسطة من سكان العاصمة قد برهنت في خلال الثورة على مروءة كبيرة وعواطف نبيلة بايواء الفرنسيين العزل من السلاح، قد ريبوا في هذا الصدد ان جميع الفرنسيين الذين التجأوا الى بيوت الطبقة المتوسطة قد اضنوافهم على حياتهم وأنفوا بها النجدة والمروءة (١)

وكتب المسيو فيقان دينون Vivant Denon وهو شاهد عيان لحوادث ثورة القاهرة يصف مروءة الطبقة المتوسطة من السكان : « ان كان العامة وبعض الكبراء والأتقياء قد ذهروا قساة في ثورة القاهرة فن الطبقة المتوسطة من سكان المدينة برهنت على أسمى عواطف الإنسانية ومروءة رغم فوارق العادات والاخلاق والدين واللغة التي كانت تفصل بينهم، فبينما كانت صيحات التحريض على القتل تسمع من المآذن وبينما كان شبح الموت والدم ينتشر في الشوارع فن أصحاب المنازل التي كان

يسكنها الفرنسيون قد آوهم وأظلمهم بحجائتهم وأمدوهم بما يحتاجون ، فمن ذلك أن هجوزا كانت تسكن بالحي الذي كنا نقيم به (١) فاخبرتتنا انه لا يفصل بيننا وبينها الا حائط مشترك وانها مستعدة لان تؤويننا في بيتها وصرحت لنا في حالة الهجوم علينا ان نهدم الحائط المشترك لنكون في دارها ، وحدث أن جارنا لنا امدنا بالثبوتة التي تكفيها دون أن نطلب منه ذلك مع انه لم يكن يبيع ولا شراء في تلك الاوقات العصيبة إذ كانت المجاعة تتهدد العاصمة ، ومحا هذا الجار كل المعلومات التي ترشد الى مكاننا ، وجلس امام دارنا يدخن الشبك كأنها داره ليصرف عنا أنظار الثوار ، وحدث ان اثنين من الفرنسيين كانا يسيران في الشوارع فاخطفهما أناس مجهولون وذهبوا بهما الى دار لا يعرفانها ، فحيل اليهما انهما وقعا في كمين ولم يشكا انهما صارا فريسة القتل والتعذيب ، فثارت ثأرتهم ، ورأى المسكون بهما انهم لم يستطيعوا اقناعهما بحسن نيتهم وانهم لا يريدون الا انقاذها ، فأودعوها اطفالهم ليطمئنا على حياتهما ، ويمكن ايراد وقائع أخرى كثيرة من أشباه هذه الحوادث تدل على رقة الشعور وتبرهن على أن عواطف الانسانية تتجلى في أشد الساعات يأساً (٢) »

فظائع الفرنسيين

في إخماد الثورة

أسلفنا ان عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة في إخماد الثورة بلغ على أرحح الروايات أربعة آلاف ، ولا جدال ان قمع الثورة في مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعو الى إفناء هذا العدد الكبير من السكان ، على ان قواد الفرنسيين لم يكن همهم الا قمع الثورة بكل وسائلهم في الصرامة والارهاب ، ولم يحسبوا حسابا لتضيق جراح النفوس واجتذاب قلوب الشعب بعد هذه الضربة ، والواقع ان ثورة القاهرة وما نخللها وأعقبها من الفظائع قد باعدت بين المصريين

(١) حي الناصرية حيث كان المجمع العلمي

(٢) رحلة في الوحة البحري ومصر العليا للمسيو فيفان دينون

والفرنسيين ، فالدماء التي سالت في شوارع العاصمة في أيام ٢١ و ٢٢ و ٢٣ أكتوبر وما بعدها قضت نهائيا على آمال نابليون في اكتساب قلوب الشعب المصري ، على أنك اذا تأملت في الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون بعد تسليم المدينة واخلادها الى السكينة وجدتها أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ، ولهي أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام

وحسبك أن ترجع الى ما رواه الجبرتي عن تلك الفظائع وبخاصة انها كهم حرمة الازهر لتحكم أنها فوق ما توصف به من الفظاعة

قال الجبرتي « وبعد هجعة من الليل (ليلة الثلاثاء ٢٣ أكتوبر) ، دخل الافرنج المدينة كالسيل ، ومروا في الازقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أو جند ابليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ، ودخلت طائفة من باب البرقية ، ومشوا الى الغورية ، وكروا ورجعوا ، وترددوا وما هجموا ، وعلموا باليقين ، ان لا دافع لهم ولا كمين ، وتراسلوا أرسالا ، ركانا ورحالا ، ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالاروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والاواني والقصاع ، والودائع والنجبات ، بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الارض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها . . . وكسروا أوانيها ، وألقوها بصحنه وفواحيه ، وكل من صادفوه به عروه . . . ومن ثيابه أخرجه »

هذا بعض ما كتبه الجبرتي وصفا لتلك المأساة التي أعقبت تسليم القاهرة ، على ان الفظائع لم تقتصر على اليوم الذي اخذت فيه الثورة بل استمرت بعد ذلك ولا ضرورة اليها من حرب ولا من سياسة

ففي يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر غداة إخماد الثورة بعد أن سادت السكينة واستولى الفرع على النفوس كانت الجنود لم تزل مرابطة بالازهر وما حوله ، فكانوا يمنعون الناس دخول الجامع ، وشردت الجنود في الاحياء المجاورة للازهر ونهبوا بعض البيوت بحجة

التفتيش على السلاح حتى اضطر سكان تلك الجهة الى التحول عن دورهم والنجاة
بأنفسهم ، وأخذ الجنود يتسكعون في الاسواق ويقفون صفوفًا ، فلنمر بهم أحد فتشوه
وأخذوا ما معه ، وربما قتلوه ، وصاروا يقبضون على الناس جزافًا بحجة انهم كانوا
يخبأون السلاح أو أنهم اشتركوا في الثورة ، فوقع الفرع وكثرت الوشائيات ، وراجت
الشمائس ، وتغالت المقتريات ، وتعددت المظالم ، واستبيحت الحرمات ، وامتلأت
سجون بالابرياء ، وذاق الناس فيها أنواع الأذى والهوان ، وقتل منهم الكثير بلا
محكمة ولا حساب ، قال الجبرتي في هذا المعنى :

« وانتدب برطلمين (١) للعسس ، على من حمل السلاح أو اختلس ، وبث
أعدائه في الجهات ، يتجسسون في الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم . .
فيحكم فيهم بمراده ، ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهم الكثير ، ويركب في
موكبه ويسير ، وهم موثقون بين يديه بالحبال ، يسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ،
فيودعونهم السجون ، ويطالبونهم بالمنهوبات ، ويقررونهم (يكرهونهم على الاقرار)
بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن آلات السلاح والحرب ، ويدل بعضهم على
بعض ، فيضعون على المدلول عليهم أيضا القبض ، وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين
الآغا (٢) ، وتجبر في أفعاله وطفى ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر النيل قذفوهم ،
ومات في هذين اليومين وما بعدها أم كثيرة لا يحصى عددها الا الله »

وكانت التعليمات التي أصدرها الجنرال برتية Berthier رئيس أركان الحرب
(وهي صادرة بأمر القائد العام) بعد إخماد الثورة تأمر بالصرامة والغلظة والقسوة ، انظر

(١) هو برتلي الرومي الذي سبق الكلام عنه بهامش ص ٢٨٩

(٢) هو مصطفى آغا وقد عينه الفرنسيون محافظا للمدينة بعد أن عزلوا محمد
المسلماني الذي كان معينا بإشارة أعضاء الديوان كما سبق بيان ذلك بالفصل
الثالث ، ويقول الجبرتي عن مصطفى آغا انه كان تابع (خادم) عبد الرحمن آغا
مستحفظان (محافظ المدينة) سابقا

الى الأمر الذى أصدره الى الجنرال بون Bon بتاريخ ٢٣ أكتوبر :
« يهدم الجامع الأكبر ليلا اذا امكن ، وترفع الحواجز والأبواب التى كانت
تسد الشوارع »

تجد أن أعمال الفرنسيين تجاوزت الغرض من إخماد الثورة الى الانتقام والارهاب ،
ويعترف المؤلفون الفرنسيون بأن إعدام كثير من المتهمين فى الثورة تم سراً فى
القلعة (١) من غير محاكمة ، فقتلوا بحد السنك ، ويعترف القواد الفرنسيون فى رسائلهم
التى تبادلوها بالفضائح التى ارتكبت فى قمع الثورة ، كتب الجنرال برتويه بتاريخ ٢٣
أكتوبر سنة ١٧٩٨ الى الجنرال دوجا Dugua قومندان مديرية المنصورة وقتئذ بنجره
بحوادث الثورة قال .

« لقد نكلنا بالنابليين فى مدبحة رهيبة فسادت السكينة مساء أمس ، وقد قتلنا
منهم الفين أو ثلاثة آلاف »

وأمر نابليون الجنرال برتويه بتاريخ ٢٣ أكتوبر أن يصدر تعليماته الى قومندان
المدينة « بقض رؤوس جميع المسجونين الذين أخذوا معهم سلحة ، وعليكم إرسال
جثث فى هذه الليلة الى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة واغراقها فى النهر »
وأرسل نابليون بتاريخ ٢٦ أكتوبر الى الجنرال رينييه Reynier قومندان
الشرقية يقول :

« عادت السكينة الى القاهرة ، وقد الثأرون نحو ألفي قتيل ، وفى كل ليلة تقطع
رؤوس نحو ثلاثين من ارجل وكثير من زعماء الأهالى ، وأظن ان هذا سيكون
درساً قاسياً لهم »

وفى مذكرات نابليون رواية مخففة لهذه الفضائح ، قال « إن رجال الشرطة قبضوا على
ثمانين من أعضاء لجنة الثورة وسجنوهم بالقلعة ، وإن نحو أربعة آلاف من سكان
العاصمة هاجروا منها قبل شروق الشمس قاصدين الى السويس لياتجثوا اليها (وكان

الفرنسيون لم يحتلوها بعد) وأن أعضاء لجنة الثورة (بأى الثمانين) قد أخذوا بذنبهم وثبتت إدانتهم فأصدر المجلس العسكري يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ قراراً بأعدامهم جميعاً ونفذ فيهم الحكم (١) « ولعل هؤلاء هم الذين اعدموا سرّاً بدون محاكمة كما يقول دى لاجونكيير

وقد أسرف الفرنسيون في القتل ، ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء ، قتلوا كثيراً منهم ، وهذا من أفظع ما سمع في التنكيل وسفك الدماء ، قال المسيو بوريين سكرتير نابليون الخاص في مذكراته « سيق المسجونون الى القلعة ، وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بأعدام اثني عشر سجيناً كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتفرق في النيل ، واستمر ذلك ليالى عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهم أحكام الأعدام الليلية (٢) »

وفي مذكرات نابليون أيضاً أن الشيخ السادات الذي انتخب رئيساً للجنة الثورة نفى عن نفسه تهمة التحريض على الثورة بأنه كان مريضاً ، وقد تردد نابليون في شأنه وقال في مذكراته إنه مع قيام البينات على أنه زعيم الثورة فقد عفا عنه ورأى أن الضرر من قتله أكثر من نفعه لما كان له من المنزلة الرفيعة في الشرق ولأن قتله يجعله شهيداً في نظر الشعب (٣)

أما الذين حوكموا رسمياً من المقبوض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم الشيخ اسماعيل البراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ سليمان الجوسقى (شيخ طائفة المكفوفين) ، والشيخ احمد الشرقاوى ، وكلهم من أواسط علماء الأزهر ، حبس هؤلاء المتهمون فيمن قبض عليهم بعد إخماد الثورة ولم يكن أحد يعلم التهمة التي أخذوا بها

(١) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين

(٢) مذكرات بوريين الجزء الاول

(٣) مذكرات نابليون

وفي يوم الأربعاء ١٢٤ كتبوا تهاب الى نابليون وفد كبير من الشيوخ يسألونه العفو عن أهل المدينة لتطمئن قلوب الناس ويسكن روعهم ، فوعدهم كما يقول الجبرتي « وعداً مشوباً بالتسويق » وطالبهم بإرشاده عن تسبب من المغممين في إثارة العوام ، فلم يهتموا أحداً ، فقال لهم القائد العام على لسان الترجمان « نحن نعرفهم واحداً واحداً » ثم طلبوا منه إخراج الجنود من الجامع الأزهر فاجابهم الى ذلك وأمر بإخراج الجنود على ان يبقى سبعون جندياً أسكنوهم في خط الأزهر للمحافظة على النظام ، فكان الأزهر بقي محتلاً من ليلة الثلاثاء الى يوم الأربعاء ، ويقول نيقولا الترك في كتابه (١) ان نابليون رفض طلب كبار العلماء إخراج الجنود من الأزهر ، وقبل شفاعته الشيخ محمد الجوهري الذي جاءه متوسلاً وكن في حياته لم يقابل حاكماً قط فلما دخل على نابليون قال له ما قابلت حاكماً عادلاً كان أَوْ ظالماً ، والآن قد أتيت متوسلاً اليك أن تخرج العسكر من الجامع الأزهر ، فقبل نابليون رجاءه وأمر بإخراج الجنود من الأزهر

ولما علم الشيوخ باعتقال المتهمين بالتحريض على الثورة شفعوا لهم واختلّفوا الى ولاية الامور من الفرنسيين لاطلاق سراحهم ، فلم يتلقوا جواباً صريحاً ، وقبض كذلك على ابراهيم افندي كاتب جمر كالبهار وتتهم به أنب الجوع وكان يوزع عليهم السلاح والمساوق وانه كان يؤوى عدة من المماليك والرجال المعدودين ، وقد تردد الشيوخ غير مرة للافراج عنه وعن باقي المتهمين ، أما ابراهيم افندي فقبل نابليون فيه شفاعته الشيخ محمد المهدي ورجاء المسيو بوسليج مدير الشئون المالية ، فاطلق سراحه ونقل الى بيته ، وأما باقي المشايخ المتهمين فقد بقوا في السجن ، وهناك حكم عليهم بالاعدام يوم ٣ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، وكانت محاكمتهم في السرفلم يعلم بها أحد ، ونفذ فيهم الحكم يوم ٤ نوفمبر ، ففي الساعة الثامنة صباحاً جيء بهم الى القلعة

(١) ذكر تملك جمهور فرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية تأليف

المعلم نيقولا الترك (الذي شهد وقائع الحملة الفرنسية)

مخفوريين بشرذمة من الجنود ، وهناك تلى عليهم حكم الاعدام وأعدموا رميا بالرصاص (١) وتولى تنفيذ الحكم فيهم برتلى الرومى ، وَغَيَّبَ حالهم عن أكثر الناس اياما ، ويقول الجبرتي انهم سجنوهم بالقلعة الى الصباح ثم اخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وأقوهم من السور خلف القلعة ، وقد ذكرهم في وفيات سنة ١٢١٣ هجرية ، فقال عن الشيخ احمد الشرقاوى انه تولى التدريس بالازهر بدلا من والده واجتمع عليه طلبة أبيه وغيرهم واشتهر ذكره وكان فصيح اللسان عظيم الجسم ولم يزل يدرس بالازهر حتى اتهم في ثورة القاهرة

وقال عن الشيخ عبد الوهاب الشبراوى انه تولى التدريس بالمشهد الحسينى « وكان يقرأ كتب الحديث كالبخارى ومسلم ويحضر درسه الجم الغفير من العامة وكان حسن الالقاء سلس التقرير جيد الحافظة جميل السيرة »

وقال عن الشيخ يوسف المصيلحى انه كان يتولى التدريس بجامع الكردى وانه كان « مذهب النفس لطيف الذات ، حلو الناطقة ، مقبول الطاعة ، خفيف الروح » وقال عن الشيخ سليمان الجوسقى انه كان شيخ طائفة العميان تولى هذه المشيخة بعد وفاة الشيخ الشبراوى شيخها السابق ، وسار فيهم بشهامة وصرامة وجبروت ، وصار « من أعيان الصدور المشار اليهم فى المجالس ، نخشى سطوته ، وتسمع كلمته ، ويقال قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا »

وقال عن الشيخ اسماعيل البراوى انه ابن أخى الشيخ عيسى البراوى الشهير الذكر ، تصدر بعد وفاة والده مكانه « وكان قليل البضاعة ، تغلب عليه النباهة واللسانة والسلطة والتدخل ، وذلك هو الذى أوقعه فى حبائل الفرنسيين »

(١) نشرت جريدة (كوريه دليجيت) بالعدد الصادر فى ٢٠ برومير (١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٨) نبأ اعدام هؤلاء المشايخ وذكرت انهم ستة لا خمسة كما فى الجبرتي ونشرت أسماءهم كما ذكرها الجبرتي وأضافت اليهم السيد عبد الكريم . قالت انهم أعدموا فى ميدان القلعة وقطعت رؤوسهم

وقال الجبرتي عن أولئك المشايخ انهم لم يعلم لهم قبر بعد مقتلهم
وذكر الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيس الديوان في كتابه (تحفة الناظرين)
« ان الفرنسيين قتلوا من علماء مصر ثلاثة عشر عالماً ، ودخلوا بخيولهم الجامع الازهر
ومكثوا فيه يوماً وبعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علماء ، ونهبوا منه أموالاً كثيرة ،
وسبب وجودها فيه ان أهل البلد ظنوا ان العسكر لا يدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم
فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التي حول الجامع ودشتوا الكتب التي في الخزائن
يعتقدون أن بها أموالاً ، وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتباً
ومصاحف نفيسة »

وأمر الفرنسيون الأهالي الساكنين حول ميدان الازبكية — حيث كان معسكر
القائد العام وقواد الجيش — أن يتحولوا من بيوتهم يسكن بها رجالهم العسكريون
والملكيون الذين كانوا متوزعين من قبل في القاهرة حتى يجتمعوا في حي واحد إذ لم
يعودوا يأمنون على أنفسهم بين الأهالي ، وقد استيقنوا ان الشعب معاد لهم ساخط
عليهم يترصد بهم الدوائر

و صدر نابليون مرةً عسكرية في ٢٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ اذاعه بين الجنود يدل
على مبلغ توقعه الوثبة من الشعب ، يأمروهم فيه أن لا يتعدوا عن معسكراتهم ويستنكر
حوادث الاعتداء والنهب التي وقعت من الجنود ، قل في هذا الامر :

« لقد قتل بعض الفرنسيين في يوم الثورة ، وهؤلاء من الذين لم يتبعوا الأوامر
الصادرة اليهم ودهم الجيش الى الابتعاد عن معسكراتهم والمغامرة بأنفسهم غير حامين
سلاحاً ، فعلى رؤساء الفرق ورؤساء الأقسام الادارية مراقبة الجنود كيلا يتعدوا
ولا يضعوا عنهم السلاح ، وعليهم أن يراقبوا اتباع النظام والأوامر العسكرية بين
الجنود ، وعلى كل فرنسي أن يكون شاكي السلاح تام الذخيرة ، وإذا قامت قفمة في
المدينة فعلى كل فرد أن يلحق بفرقه أو الادارة التي يستتبع لها منتظراً ما يؤثر به ،
ولا يمنح الأمان من الحذر ، ولتكونوا في وقت السكنة معدين لوقت الهياج ، فن عدم
الاغراق في الاطمئنان أدعى للاطمئنان ، ولقد علم القائد العام أن بعض الجنود

يستبيحون التسلل الى المنازل ونهبها ، فعلى قومندان موقع القاهرة وقواد الفرق أن يتخذوا التدابير الفعالة ليلزم الجند حدود واجباتهم حتى لا يصم بعض الجنود سمعة إخوانهم ولا يكدروا صفو النظام والسكينة »

وأصدر أمراً آخر يحظر فيه على الجنود والضباط إصلاح أسلحتهم عند صنع الاسلحة (البندقية) الوطنيين وان يسترجعوا منهم كل الاسلحة التي لديهم وانثرت الثقة مما بين الجنود والاهالى ، فكانت ثورة القاهرة كالهوة العميقة التي باعدت الى الابد بين الامة المصرية والجيش الفرنسى ، وراح كل جندى لا يمشى الا بسلاح بعد ان كانوا لا يمشون به أصلا من حين دخولهم القاهرة ، وصار من لم يكن معه سلاح من الفرنسيين يحمل في يده عصا أو سوطا أو نحو ذلك ، ونفرت قلوبهم من المصريين ، وكف هؤلاء من جهمهم عن الخروج والمرور بالاسواق من العشية الى طلوع النهار ، وعامل الفرنسيون الشعب بالشدّة والقسوة ، وشرعوا في إحصاء الاملاك والمطالبة بالضرائب الجديدة التي كانت سبباً في نشوب الثورة فلم يعترضهم في ذلك أحد ، وساد حكم الارهاب مدينة القاهرة ، فلا عدل ولا أمن ولا طمأنينة

إبطال الديوان

وانشاء القلاع لاختضاع القاهرة

أبطل نابليون اجتماع الديوان عقب إخماد الثورة عقابا لسكان القاهرة على ثورتهم ، وانصرف الى تحصين المدينة وجعلها بأمن من وقوع ثورة أخرى ، فأقام الفرنسيون القلاع على التلول المحيطة بالمدينة ونصبوا فيها المدافع ، وهدموا كثيرا من الاماكن بالجيزة ومصر القديمة وشبرا وحصنوها تحصينا منيعا ، وأقاموا المعاقل في أهم شوارع القاهرة ، وأصلحوا قلعة الجبل وزادوها مناعة ، وهدموا عدة مساجد منها المساجد المجاورة لقنطرة امبابه ومسجد المقس المعروف الآن بجامع أولاد عنان ، وقطعوا كثيرا من النخيل والاشجار لعمل الحصون والمتاريس ، وهدموا جامع

الكازروني بالروضة والجامع المجاور لقنطرة الدكة غرب الازبكية، وخرّبوا دورا كثيرة، وكسروا شبائيكها وأبوابها وأخذوا أخشابها ليجعلوها في بناء الحصون الجديدة، ولم يمض ستة أسابيع على إخماد ثورة القاهرة حتى أصبحت محاطة بسلسلة من القلاع والاستحكامات (١)

وأهم هذه القلاع طابية (ديبوى) سميت باسم الجنرال ديبوى Dupuy الذى قتل في ثورة القاهرة وأقيمت على رابية من ربي الجبل بالمكان الذى ركب به الجنرال دومارتان مدافعه قرب القلعة، والغرض من اقامتها في هذا الموقع استهداف حى الازهر، للضرب وكانت تعرف في القاهرة باسم قلعة الغريب لقربها من مقام الشيخ الغريب

وطابية (سلكوسكى) Sulkowski أنشأوها في جامع الظاهر (٢) فحولوا المسجد الى قلعة، واتخذوا مأذنته مرصدا للاستكشاف وبنوا بداخله عدة مساكن وأمكنة تسع ٦٠٠ فارس بخيولهم، قال الجبرتي في هذا الصدد « وجعلوا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية قلعة، ومنارته برجا، ووضعوا على أسواره مدافع وأسكنوا به جماعة من العسكر وبنوا في داخله عدة مساكن تسكنها العسكر المقيمة به » والجبرتي يسمي هذه الطابية قلعة جامع الظاهر ويسمياها في بعض المواطن القلعة الظاهرية، أما الفرنسيون فسموها طابية سلكوسكى باسم الضابط البولونى الذى قتل في ثورة القاهرة على مقربة المسجد وقد روينا خبر مقتله ص ٢٩٤

وطابية « كامان » (٣) Camin بالقرب من قنطرة الليمون بالطريق الموصل

(١) بعض هذه القلاع أمر نابليون باقامتها قبل ثورة القاهرة لكنها أقيمت فعلا بعد الثورة

(٢) الكائن بالميدان المعروف الآن بميدان الظاهر وكان وقتئذ خارج مباني القاهرة أنشأه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى

(٣) هو ضابط فرنسى كبير (ادجودان جنرال) قتله العرب على سواحل الاسكندرية حمة مريوط بالقرب من برج العرب

لبولاق يسميها الجبوتي قلعة قنطرة الليمون

وطاينة (مويرور) أقاموها في حي طولون لاختصاص الحى

وطاينة (الناصرية) أقاموها فوق تل العقارب قريبا من دار المجمع العلمى

ويسمىها الفرنسيون طاينة المجمع العلمى، وكانت تعرف في مصر بطاينة قاسم بك

وحصن نابليون جزيرة الروضة ، ووضع بطاريات من المدافع في كل طرف من

طرفها ، وجعل من المقياس شبه قلعة ، وحصن شاطئ النيل في مقابل الجزيرة لحماية

الملاحة في النيل ، وجعل فم المجراة طاينة حصينة سميت طاينة المجراة (أوطاينة

السبع السواقى)، وجعل قصر ابراهيم بك (قصر العينى) الواقع تجاه جزيرة الروضة مستشفى

عسكريا حصينا يسع الف مريض وجريح والحق به البيت الذى بجواره وكان معروفا

وقتشد بيت محمد كاشف الأرناؤوطى وجعله مخزنا ومصنعا لفرقة الهندسة وحصن

السور المحيط بهما وركب عليه المدافع فصار حصنا منيعا

قال الكولونل ديتروا في يومياته « إن الغرض من إقامة هذه الحصون هو استهداف

مدينة القاهرة اذا قامت ثورة فيها، وقد وصل بينها بطرق خارجة عن المدينة ، ولما كانت

نية القائد العام متجهة الى جعل المستشفيات ومخازن الجيش بمعزل عن المدينة وإسكان

الفرنسيين في حين من احيائها فمن المحقق أننا نستطيع ان تغلب على كل هياج

في القاهرة »

وحصن نابليون الجزيرة وكانت من عهد المماليك محاطة بسور منيع أقيمت عليه

الابراج وبها دار صناعة (ترسانة) كبيرة من عهد مراد بك ، فجعلها نابليون مركزا

للمدفعية ومخازنها ومستودعا للدخائر ، واختار الجزيرة لهذا الغرض لموقعها على النيل

وسهولة النقل منها والىها بواسطة المراكب

(١) مويرور Muneur هو اسم جنرال فرنسى قتل في دمنهور في أوائل

الحملة الفرنسية

كلمة عن ترسانة الجزيرة

ذكر الجبرتي هذه الترسانة في ترجمة مراد بك فقال عنها ما خلاصته ان مراد بك لما رجع من الصعيد (١) جعل إقامته بقصر الجزيرة وأنشأ ترسانة عظيمة « وطلب صناع آلات الحرب من المدافع والقنابر والبندق (كذا) والجلل والمكاحل وأنخبها أيضا معاملة للبارود خلاف المعامل التي في البلد، وأحضر أناسا من القليونجية (البخارة) الاروام وصناع المراكب فأنشأوا له عدة مراكب حربية وغلايين وجعلوا بها مدافع وآلات حرب على هيئة مراكب الروم وصرف عليها أموالا عظيمة ورتب بها عساكر وبحرية وأدر عليها الرواتب والارزاق الكثيرة وجعل عليهم رئيسا يقال له « قولا (٢) » بنى له دارا عظيمة بالجزيرة وأخرى بمصر وله عزة وأتباع من نصارى الاروام المرتبين عسكريا (٣) »

ويقول بعض المؤرخين ان حسن باشا الجزائري الذي أرسلته تركيا لمحاربة ابراهيم بك ومراد بك هو الذي بنى هذه الترسانة بعد عودته من محاربة المليك بالصعيد وقبل سفره الى الاستانة ، ولكن رواية الجبرتي تصدق لانه شاهد عيان لحوادث مصر في ذلك العهد ، ومنطق الحوادث يؤيده لأن حسن باشا الجزائري هبط القاهرة في شهر شوال سنة ١٢٠٠ واعد الى الاستانة في شهر ذي الحجة سنة ١٢٠١ لنشوب الحرب بين تركيا والروم ، فم يكن لديه الوقت ولا التفكير في انشاء دار صناعة بالجزيرة أو غيرها ، والظاهر أن مراد بك بعد عودته من الصعيد وتخلصه من حسن باشا الجزائري بنى هذه الترسانة لتكون عدة له اذا عدت تركيا لمحاربتها ، والى ذلك يشير الجبرتي بقوله

(١) بعد عودة حسن باشا الجزائري الى الاستانة وموت اسماعيل بك

سنة ١٧٩١ كما سبق بيان ذلك في الفصل الاول ص ٢٢

(٢) اسمه نيقولا بابازوغلو

(٣) الجبرتي الجزء الثالث

« واختلفت آراء الناس في ذلك فمن قائل ان ذلك خوفا من خشداشينه (رفاقه) وقائل مخافة من العثمانية كما تقدم في قضية حسن باشا ، والبعض يظن خلاف ذلك، وليس غير الوهم والتخيل الفاسد ، وبقيت آلات الحرب جميعها والبارود بحواصله حتى أخذ جميعه الفرنسيين ، ويقال أنه كان بحواصل الترسانة أحد عشر ألف جلة » وقال الجبرتي عن « نيقولا » رئيس الترسانة ان الفرنسيين بعد ان اعتقلوه ضمن بحارة مراكب مراد بك أفرجوا عنه في شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣ (ابريل سنة ١٧٩٩)

عدد القلاع التي أنشأها الفرنسيون بالقاهرة

لم يكتف الفرنسيون بالقلاع التي تكلمنا عنها بل أخذوا يزيدونها كلما اشتد قلقهم من مقاومة الاهالى أو أوجسوا خيفة من نشوب نار الثورة ، حتى بلغ عدد القلاع التي أنشأوها في خلال الحملة الفرنسية ١٩ (تسع عشرة) قلعة كما ذكر ذلك المسيو جومار أحد مهندسى الحملة وذلك بخلاف استحكامات جزيرة الروضة (١) وقد اجتهدنا أن نحصى تلك القلاع بأسمائها ومواقعها ، فرجعنا الى خريطة القاهرة المفصلة التي خططها مهندسو الحملة الفرنسية ، فرأينا القلاع الآتية مرسومة على الخريطة واليك بيانها مسماة بأسمائها الفرنسية التي اختاروها لها عند انشائها، وهى أسماء بعض القواد والضباط ومعظمهم ممن لقوا حتفهم في خلال الحملة

طابية (دبوى) Dupuy أو طابية الغريب

طابية (سلكوسكى) Sulkowski أو قلعة جامع الظاهر بيبرس

طابية (مويرور) Muireur بحى طولون

طابية (كامان) Camin أو قلعة قنطرة الليمون

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء التاسع عشر

طابية المجمع العلمى Fort de l'institut أو طابية قاسم بك بالناصرية

طابية (ربو) Reboul بين قلعة الجبل وطابية دبوى

طابية (فنو) Venoux شمال طابية دبوى بشرق

طابية (مارتينيه) Martinet وطابية (سورنيه) Sornet وطابية (لامبير)

Lambert وهذه الطوابى الثلاث تقع شمال قلعة الجبل

طابية (جرزيو) Grezieux على الكوم القائم بالقرب من باب الحسينية

طابية (لوجيه) Laugier أو طابية أبى الريش الكائنة بكوم أبى الريش

بالفجالة

طابية (كونزو) Conioux غرب الازبكية على طريق بولاق

طابية (دنزلو) Donzelot ببولاق

طابية (سبتزر) Spizer ببولاق

هذه هى القلاع المرسومة فى خريطة مهندسى الحملة الفرنسية ، وهى خمس عشرة قلعة لا تسع عشرة ، ومن الواجب أن نضيف اليها طابية الحجر (السبع السواقى) ، وقصر العينى وقد أسلفنا أن الفرنسيين حصنوها فوجب عدما ضمن القلاع ، يؤيد ذلك ما جاء فى تقويم الجمهورية الفرنسية عن السنة الثامنة من الحساب الجمهورى (سنة ١٧٩٩ — ١٨٠٠) وهو التقويم الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية ، وفيه أنهما معدودان ضمن قلاع القاهرة ، وجاء فى كتاب نقولا الترك الذى عاصر الحملة الفرنسية انهم أنشأوا قلعتين فوق باب النصر وباب الفتوح ، فمع إضافة هذه القلاع الأربع الى الخمس عشرة قلعة المرسومة فى خريطة مهندسى الحملة الفرنسية يكون ذلك تمام التسع عشرة قلعة بحسب احصاء المسيو جومار

وهذا العدد من القلاع يدلك على مبلغ المقاومة التى اتيها الفرنسيون من المصريين

فى عهد الاحتلال الفرنسى

صدى الثورة

في الأقاليم

ما فتئت القاهرة في خلال العصور مصدر كل حركة ومنبع كل تطور في الديار المصرية ، ولا غرو فهي بمثابة الرأس المفكر الذي يرسم الخطط ويدبر البرامج ويبتكر الأفكار ، أو هي بمثابة القلب يوزع دم الحياة في شرايين البلاد ، وهي أبداً حافظة لمنزلتها بين سائر البلدان التي تظلمها أسماء مصر ، تلك المنزلة التي جعلت لها الزعامة الفكرية والسياسية في البلاد بلا منازع ولا مزاحم ، وجعلتها دائماً مصدر كل تطور سياسي ، فلا تحدث فيها حركة الا ويتردد صداها في الأقاليم

فالثورة التي شبت في القاهرة خلال شهر اكتوبر سنة ١٧٩٨ كان لها صدى في سائر البلاد ، والمقدمات التي سبقت تلك الثورة والحالة الفكرية التي كانت عليها القاهرة من أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر عمت الأقاليم حتى اعتقد الفرنسيون أن هناك تدبيراً سابقاً لقيام ثورة عامة في كل أنحاء القطر ، والواقع أنك اذا تتبعته الحركات التي قامت هنا وهناك من أقصى البلاد الى أنصافها أخذتلك الدهشة من تقارب تلك الحركات وتشابهها ، على انه ليس ثمت تدبير ولا اتفاق ، بل هي القاهرة عاصمة القطر السياسية والفكرية تغذي البلاد بأفكارها وعواطفها ، وتفيض عليها من أمانيتها وآمالها ، وتشركها في أفراحها وأحزانها ، فكان البلاد مرآة تنعكس عليها صورة القاهرة ، أو كأنها الالفق يتردد فيه صدى نداء العاصمة

بهذا التفسير نفهم الحوادث التي وقعت في الوجه البحرى في شهر سبتمبر وشهر اكتوبر من تلك السنة ، ولا نريد أن نذكر تفاصيل تلك الحوادث في مختلف المديرية فقد أفردنا لها الفصول الخاصة بها

لكننا نكتفى في هذه النبة بذكر الحوادث التي ارتبطت بثورة القاهرة وكانت جزءاً منها ، فان البلاد الواقعة على مقربة من القاهرة أو على طريقها قد اشتركت فعلاً في الثورة وأمدتها بالرجال والعتاد ، وإنك لتقدر مبلغ اشتراكها في الثورة بما وقع

عليها من القصاص بعد إخمادها ، فقد أمرت القيادة العامة بعض كتائب من الجيش بالطواف في القرى التي اشتركت في الثورة للبحث عن الأعيان ومشايخ البلاد الذين كان لهم ضلع فيها (١) وعهدت إلى ضباط هذه الكتائب بمواجهة مشايخ البلاد (العمد) وتكليفهم تسليم الرسائل التي وردت عليهم ليلة الثورة تدعوهم إلى الانضمام لصفوف الثائرين بالقاهرة وشد أزرهم (٢)

وقد ألقت القوة الفرنسية في طوافها القبض على جماعة من الأعيان ومشايخ البلاد بتهمة الاشتراك في الثورة ، وعادت بهم إلى القاهرة فأعدم بعضهم واعتقل البعض الآخر ، ويدخل في هذا الصدد ما رواه الجبرتي عن حوادث شهر رجب سنة ١٢١٣ (نوفمبر — ديسمبر سنة ١٧٩٨) قال « أن كبير الفرنسيين الذي بناحية قليوب حضر وصحبته سليمان الشواربي شيخ الناحية وكبيرها ، فلما حضر حبسوه بالقلعة وقيل أنهم عثروا على مكتوب أرسله وقت الفتنة السابقة (ثورة القاهرة) إلى مرياقوس لينهض أهل ثلاث النواحي في القيم »

وقل نابليون في رسالته إلى الجنرال نكارث في ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٨ (٣) أنه اعتقل الشواربي لما تبينه من أنه كان يوم ثورة القاهرة بحرض أهالي البلاد المجاورة إلى الانضمام للثوار ، وذكر الجبرتي في حوادث شهر رجب « أنهم قتلوا الشيخ سليمان الشواربي ومعه ثلاثة من عرب الشرقية ، قطعوا رؤوسهم بالرميلة ونقلت رفات الشواربي إلى قليوب ودفن هناك مع أسلافه »

وفي أول نوفمبر أصدر نابليون أمره بقيام الجنرال لان Lannes على رأس كتيبة

(١) أصدر الجنرال برتويه أمراً إلى الجنرال داماس Damas في ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ بتجريد كتيبة من الفرسان وإنفاذها إلى القبة والمطرية والمرج وأصدر أمراً آخر في هذا اليوم لبرتوي برسالة كتيبة أخرى إلى الخانقاه (الخانكة)

(٢) لاجونكير الجزء الثالث

(٣) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٧٥٧

من الجنود الى القطا (١) واعتقال بعض الزعماء ليكونوا رهائن ، ثم أمره بالتوجه الى النجيلة وكفر غرين (٢) لمعاقبة أهلها ، وكانت تهمة هذه القرى الثلاث أنها أطلقت الرصاص على السفن الفرنسية الجارية في النيل وهددت الملاحة بين القاهرة والرحمانية ، ويقول القومندان دى لاجونكيير أن الجنرال (لان) اعتقل الرهائن من هذه القرى وأصدر الأوامر بأن إذا وقع أى اعتداء على أى من السفن الفرنسية تحرق القرية بالنار وتقطع رؤوس الرهائن ، وتقول جريدة (كورييه دليجيت) بعدد ٢٠ برومير (١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٨) ان الجنرال لان هاجم القطا في ١٣ برومير ومعه قوة من أربعائة جندي وأحرق القرية فعلا وان أهلها هاجروا منها قبل إحراقها

وقد أصدر نابليون أمره بتأليف كتيبة من الاروام المقيمين في ذلك العهد بالقاهرة ورشيد ودمياط وعهد اليها حراسة السفن الفرنسية أثناء مروها بالنيل ، وأراد نابليون من هذا الامر أن يوفر بعض الجنود الفرنسية وأن يستخدم في هذه المهمة الاروام الذين أظهروا ولاءهم للجيش الفرنسي ، لكن الاروام لم يتطوعوا لهذه المهمة بالعدد الذى كان ينتظره الفرنسيون ، وكانت المهمة في ذاتها خطيرة لكثرة حوادث مهاجمة السفن إذ كانت هذه الحوادث لا تفتأ تتكرر منذ انحدار أسطول السفن لفرنسية بقيادة الكونت راميرال بيرى Perrée من بوغاز رشيد الى القاهرة أى في أوائل عهد الاحتلال الفرنسي ، فكانت جموع الأهالي تعطل سيره وتطلق عليه الرصاص باستمرار من الشاطئين ، وقد شهد مدير مهمات الجيش الميسو سوسى Sucy إحدى هذه الحوادث فان السفينة التى كانت تقله مع بعض ضباط أركان الحرب جنحت بالقرب من كوم شريك فهجم عليهم الأهالي وقتلوا بعض ركاب السفينة

(١) من بلاد مركز امبابه الآن بالبر الغربى لفرع رشيد بين أم دينار ووردان

(٢) بلدتان واقعتان على البر الغربى للنيل من بلاد مركز كوم حماده الآن

وأصيب سوسى بنجرح بالغ فى ذراعه اليمنى (١) وجرح قبطان السفينة والضابط
لا كوى Lacué

وحدث للكابتن جوليان Julien (٢) ياور نابليون ما هو أشد وأدهى ، فقد
أوفده نابليون من القاهرة الى الاسكندرية برسالة منه الى الجنرال كليبر وأخرى الى
الاميرال برويس Brueys فى أبوقير ، فاستقل سفينة ومعه بعض الجنود وجنحت
به على الشاطئ الغربى لفرع رشيد ، ثم كاد ينزل هو وجنوده الى الشاطئ حتى هجم
عليهم اهالى « علقام » (٣) فقتلوه عن آخرهم ، فلما علم نابليون نبأ هذه الحادثة أمر
بأحراق القرية عقاباً لها على اعتدائها فأحرقها الجنود وخربوها ولم يبقوا منها بيتاً
قائماً (٤) ثم فكر نابليون فى اتخاذ طريقة فعلية لحماية المواصلات النيلية ، فشرع فى انشاء
أسطول نيلى مسلح ألفه من السفن الصغيرة الحربية التى نجت من كارثة أبوقير ومن
المراكب المصرية التى استولى عليها الفرنسيون وسلحوها بالمدافع وجعل قواعد هذا
الاسطول وسفنه فى موانئ بولاق ومصر القديمة ورشيد ودمياط والوجه القبلى

(١) لم يطل بقاء سوسى بمصر بعد هذه الاصابة وصرح له نابليون بمغادرتها
للاستشفاء باوروبا ، فسافر على ظهر سفينة افلتت من مراقبة الاسطول البريطانى
ولكنها اضطرت الى الرسو على شواطئ جزيرة صقلية فقتل أهل الجزيرة ركاب
السفينة ومنهم سوسى ، وقد عين نابليون بدله القومسير دور Daure مديراً
لمهمات الجيش

(٢) هو الذى أشرنا اليه فى الفصل الخامس ص ١٩٣

(٣) من بلاد مركز كوم حماده الآن

(٤) جاء فى جريدة (كوربيه دليجيت) بالعدد الصادر فى ٢٠ فركتيدور
(٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨) نبأ هذه الواقعة وقالت الجريدة ان الجنرال لانوس
Lanausse هو الذى تولى احراق علقام وان عدد الجنود الذين قتلوا مع الكابتن
جوليان خمسة عشر جندياً

وفي شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ أصدر أمره بتسيير دوريات من السفن الحربية في
فرع النيل تتولى كل منها حراسة الملاحة في قطاعات محدودة ، ففي فرع رشيد ثلاث
منهن جعلت الاولى بين رشيد والرحمانية والثانية بين الرحمانية والطرانة (١) والثالثة
بين الطرانة وبولاق

وفي فرع دمياط ثلاث أخرى ، الاولى من دمياط الى المنصورة ، والثانية من
المنصورة الى ميت غمر ، والثالثة من ميت غمر الى بولاق ، وكل دورية مؤلفة من ثلاث أو
أربع سفن مسلحة بقيادة ضابط بحري نيطة به حراسة المواصلات في القطاع الذي
هو فيه ، وعليه أن يطوف بسفنه وأن يرسل للقيادة البحرية في كل فرصة تقريباً عما
يحدث في قطاعه ، وهو مسؤول عن الحوادث التي تقع في ناحيته ، وخصص عدة
سفن مسلحة لتجوب النيل في الوجه القبلي وتحمي مواصلات الجنرال ديزيه Desaix
وتحرس قتل الغلال الى القاهرة

وقد لقي الفرنسيون أشد الجهد في استخدام النوتية المصريين في مراكبهم لامتناع
الكثير منهم واستعصائهم أن يخدموا المحتلين في نافعة أو ضارة

تدخل العلماء

وبياناتهم للشعب

في خلال المدة التي ساد فيها حكم الارهاب وأبطل الديوان تدخل كبار العلماء
(أعضاء الديوان) وتوسطوا لدى نابليون ليعيد الطمأنينة الى النفوس ، فطلب اليهم
نابليون كتابة بيان للأهالي ينكرون فيه الثورة وينذكرون عواقبها من قتل المصريين
ونهب بيوتهم وتدميرها وينصحون الاهالي بالاخلاد الى السكينة تفادياً من الهلاك

(١) من بلاد مركز كوم حماده الآن

البيان الاول

واليك نص هذا البيان كما ورد في الجبرتي :

« نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر المحروسة ، نعوذ بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، ونبرأ الى الله من الساعين في الارض بالفساد ، نعرف أهل مصر المحروسة ان طرف الجعيدية وأشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية ، بعد ما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية ، وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ، ولكن حصلت ألطاف الله الخفية ، وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابارته وارتفعت هذه البلية ، لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ، ومحبة الى الفقراء والمساكين ، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الاموال وقتلوا كامل أهل مصر ، فعليكم أن لا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ، ولا تسمعوا كلام المناققين ، ولا تتبعوا الاشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرؤن العواقب لأجل أن تحفظوا أوضاعكم وتطمئنوا على عيالكم وديانكم ، فإن الله سبحانه وتعالى يؤتي ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ، ونخبركم ان كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ، ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، واشتغلوا بسباب معاشكم وأمور دينكم ، وادفعوا الخراج الذي عليكم ، والدين النصيحة والسلام »

كتب هذا البيان بتاريخ ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ ، وهذا يوافق ٢٤ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ، لكن الجبرتي يقول ان تاريخه أول جمادى الثانية ، وهذا خطأ ، لأن أول جمادى الثانية يوافق ١٠ نوفمبر ، ولا يمكن أن يكون تاريخ المنشور ١٠ نوفمبر لأنه مطبوع في جريدة (كوريه دليجيت) بالعدد الصادر في ١٠ برومير من السنة السابعة (١٣١ اكتوبر سنة ١٧٩٨) أي قبل ١٠ نوفمبر بعشرة أيام

ومذكور في الصيغة الفرنسية للبيان المنشور في جريدة (كوريه دليجيت) ان تاريخه الهجري ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ وهذا يوافق ٢٤ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ،

فتاريخ المنشور هو إذن ١٤ جمادى الاولى لا أول جمادى الثانية كما يقول الجبرتي والظاهر أن هذا البيان لم يكن له الأثر المطلوب في تهدئة الخواطر وإقرار النفوس لأن فكرة الثورة والمقاومة كانت قد عمت الاقاليم وزادت الاشاعات وتواترت الانباء بأن سلطان تركيا قد جاهر الفرنسيين بالعداء وأعد جيشاً لاخراجهم من مصر، ووردت مكاتبات من احمد باشا الجزائر والى عكا وأبى بكر باشا الوالى وابراهيم بك تؤيد هذه الاشاعات وتحرض المصريين على الثورة فطلب نابليون من علماء القاهرة أن ينشروا بياناً ثانياً يوزع فى الاقاليم تهدئة الخواطر وتكذيب تلك الاشاعات (التي كانت فى الواقع صحيحة) فأذاع العلماء هذا البيان فى اليوم الثامن من شهر جمادى الثانية (الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٧٩٨) وأرسلت منه نسخ كثيرة للبلاد وألصقوا منها بالخطط والاسواق

وظاهر من البيان الثانى ان العلماء ينسبون هذه الاشاعات الى المالك الذين يذيعونها لاثارة القلاقل بعد ما طردوا من الديار المصرية ، وقد أطرى العلماء فى بيانهم نابليون وصفاته وصوره صديقاً لسلطان تركيا عدواً لخصومه ، ثم نصحوا للمصريين فى بيانهم بأن لا يقاوموا الجنود الفرنسية فيستهدفوا لأنواع الأذى والانتقام ، ورجبوا اليهم فى دفع الخراج وأعلنوا الناس انهم اتفقوا مع نابليون على أن لا ينازع أحداً فى دينه ولا يعارضهم فى شريعة الاسلام وأن يرفع المظالم والمغارم عن الناس ويقتصر على أخذ الخراج

البيان الثانى

وهذا نص البيان الثانى كما ورد فى الجبرتي :

« نصيحة من علماء الاسلام بمصر المحروسة ، نخبكم يا أهل المدائن والامصار من المؤمنين ، وياسكان الارياض من العربان والفلاحين ، ان ابراهيم بك ومراد بك ببقية دولة الممالك أرسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات ، الى سائر الاقاليم المصرية لاجل تحريك الفتنة بين المخلوقات ، وادعوا أنهم من حضرة مولانا السلطان ، ومن بعض وزرائه الكذب والبهتان ، وبسبب ذلك حصل لهم شدة الغم والكرب الزائد واعتاظوا

غيظا شديداً من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم ويتركوا عيالهم وأوطانهم، فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنسية، لاجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية ، وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ، ولو كانوا في هذه الاوراق صادقين، بأنها من حضرة سلطان السلاطين ، لارسلها جهازاً مع أغوات (رؤساء جند) معينين، ونخبركم ان الطائفة الفرنسية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائماً يحبون المسلمين وملتهم، ويبغضون المشركين وطبيعتهم، احباب لمولانا السلطان قائمين بنصرته، وأصدقاء له ، ملازمون لمودته، وعشرته ومعونته ، يحبون من والاه ، ويبغضون من عاداه ، ولذلك بين الفرنسية والمسكوف غاية العداوة الشديدة من أجل عداوة المسكوف القبيحة الرديئة ، والطائفة الفرنسية يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلادهم ان شاء الله تعالى ولا يبقون منهم بقية ، فننصحكم أيها الاقاليم المصرية ، انكم لا تحركوا القتن ولا الشرور بين البرية ، ولا تعارضوا العساكر الفرنسية ، بشيء من أنواع الاذية ، فيحصل لكم الضرر والهلاك ، ولا تسمعوا كلام المنفسدين ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل المتزمين ، لتكونوا بأوطانكم سالمين ، وعلى أموالكم وعيالكم آمنين مطمئنين ، لان حضرة صارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونا بارتة اتفق معنا على انه لا ينازع أحداً في دين الاسلام ، ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الاحكام ، ويرفع عن الرعية سائر المظالم ، ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم ، فلا تعلقوا آمالكم بابراهيم ومراد ، وارجعوا الى مالك الملك وخالق العباد ، فقد قتل نبيه ورسوله الاكرم الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الامم ، عليه أفضل الصلاة والسلام»

هذه بيانات كبار العلماء للشعب عقب إخماد ثورة القاهرة ، ولا حاجة بنا الى تبيان ما بها من الأغلاط والعبارات الركيكة ، والافكار السخيفة ، فن مجرد تلاوتها يغنى عن

البيان ، واذا كان المراد منها اسداء النصيح للشعب بالتزام السكينة لما نزل به من الالهوال في خلال الثورة وبعد اخادها فان للنصح والارشاد أساليب أرقى من تلك البيانات المملوكة نفاقا وسخفاً ، ولقد نشرناها بنصوصها لانها من الوثائق التاريخية لذلك العصر ، ولتعرف منها الفرق بين موقف كبار العلماء في بياناتهم للشعب وموقف أواسط العلماء في قيادتهم للثورة

ومن الواجب تقريراً لحقيقة واقعة أن تقول أن هذه البيانات وغيرها مما نشر خلال الحملة الفرنسية على لسان العلماء قد أملت تحت تأثير الضغط والارهاب ، وهذا ظاهر مما ذكره الجبرتي عن طريقة تحريرها ، فقد قال عن البيان الأول « واستهل شهر جمادى الثانية بيوم السبت (سنة ١٢١٣) وفيه كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها الى البلاد والصقوامنها نسخاً بالأسواق والشوارع » وظهر أنه يقصد الفرنسيين بكلمة « كتبوا » كما هو سياق العبارة في الكتاب ، وقال عن البيان الثاني « وفيه كتبوا عدة أوراق وأرسلوا منها نسخاً للبلاد والصقوامنها بالخطاط والأسواق وذلك على لسان المشايخ أيضاً »

وقال عن البيانات التي نشرت باسم الديوان أثناء الحملة على سوريا (١) لما وردت الاخبار باحتلال الفرنسيين يافا وجاءت رسالة نابليون بتفاصيل هذا الاحتلال « اجتمع أعضاء الديوان فقرأ عليهم تلك الرسالة بعد تعريبها وترصيفها على هذه الكيفية وهي عن لسان رؤساء الديوان الى الكافة وذلك بالزامهم وأمرهم بذلك » وعبارة الجبرتي هنا صريحة في الالتزام والأمر

ولا يفوتنا في هذا المقام ان نشير الى ماورد في المراجع الفرنسية من أن الشيخ محمد المهدي سكرتير الديوان كان يتولى صوغ المنشورات التي يريد نابليون اذاعتها على لسان الديوان في قالب عربي مسجع ، ولعل هذا هو السبب في امتداح نابليون للشيخ المهدي وتفضيله على باقي الاعضاء فقال عنه في مذكراته « انه أذكى علماء

(١) راجع الفصل الثاني من الجزء الثاني من كتابنا

الأزهر وأفصحهم لساناً وأكثرهم علماً وأصغرهم سناً^(١)» وقد ذكر الجبرتي عن المنشور الذي أذاعه نابليون على لسان الديوان عقب عودته من الحملة على سوريا « انه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء » والاشارة هنا الى الشيخ المهدي لاعمالة ، لأنه باتفاق المراجع الفرنسية هو الواضع المنشور نابليون في قوله العربي ، ولأن الثابت في رسالة نابليون التي بعث بها من يافا بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ الى المسيو بوسليج مدير الشؤون المالية بالقاهرة أثناء الحملة على سوريا قوله فيها « عليكم أن تأمروا بطبع كل المنشورات التي يبعث بها فانتور Venture الى الديوان وأن تضيفوا اليها المحسنات والتنميقات التي يرى الشيخ المهدي ادخالها عليها وأن تنشروها في أنحاء مصر^(٢) » فلم يبق شك في أن الشيخ المهدي هو الذي كان يتولى كتابة المنشورات التي كان يوعز بها الفرنسيون^(٣)

(١) مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٤٠٢٨

(٣) بسطنا الكلام في ترجمة الشيخ المهدي والافراد النابيهين من أعضاء الديوان

ودراسة شخصياتهم في الفصل الرابع عشر من الجزء الثاني

الفصل الرابع عشر

في المنوفية والغربية

عرفت مما كتبناه في الفصل الحادى عشر أن نابليون هين الجنرال زاينوشك Zayonchek قومنداناً للمنوفية والجنرال فوجيير Fugières قومنداناً للغربية ليتوليا إخضاع المديريتين ، فلننظر كيف أديا مهمتهما

سبق الجنرال زاينوشك زميله الى مقر وظيفته ، وكانت تعليمات نابليون تقضى بأن يسافر الجنرال فوجيير الى محل عمله من طريق قليب فمئوف فالمحلة الكبرى ، وأن يكون على اتصال مستمر بالجنرال زاينوشك بمئوف والجنرال فيال بالمنصورة والجنرال بيرب بالرحمانية ليتعاونوا على توطيد سلطة الجمهورية الفرنسية في هذه المديريات ، وأصدر تعليماته بأن يجردوا الاهالى من السلاح ويصادروا خيلهم ويعتقلوا أعيانهم رهائن ، كل ذلك لاختضاع البلاد والقاء الرهبة فيها ، واذا تأملت رسائل نابليون الى قواده رأيت فيها معنى الشدة والصرامة يأمر بهما فى إخضاع البلاد ، فلا يعسر علينا أن نفهم لماذا تأججت نار الكراهة فى نفوس الاهالى ، كتب نابليون الى الجنرال زاينوشك بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٧٩٨ ينبئه بسفر الجنرال فوجيير ويقره على إعدام خمسة من الاهالى فى كل قرية من القرى الشائرة ويقول فى رسالته « اصدروا أوامركم بأن تقدم لكم كل قرية جوادين من خير الجياد ، وأما قرية لم تفعل ومضت خمسة أيام من اعلانها بالامر ضربت عليها غرامة الف ريال ، وإن هذه هى الطريقة الفعالة للحصول على خمسمائة من الجياد تسد من حاجتكم ، وعليكم عند طلب الخيل أن تطلبوا كذلك عدتها من الركاب واللاجام لتتوافر لكم فى الحال فرقة من الخيالة ، فانها الوسيلة الوحيدة لاختضاع هذه البلاد (١) »

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٧١

المقاومة في غمرين وقتا

سار الجنرال فوجيبر من القاهرة مساء ٥ أغسطس ١٧٩٨ وقصد الى منوف ثم غادرها قاصداً الغربية يوم ١٣ أغسطس ، وبعد مسير ساعة اصطدم بقريتي غمرين وقتا (١) ثار أهل القريتين، وحملوا السلاح ، وأغلقوا الابواب في وجه الجنود ، فحاول الجنرال فوجيبر عبثاً أن يكره البلدين على فتح أبوابهما فلم يستطع ، ولما أعيته الحيل طلب المدد من الجنرال زاينوشك الذي كان مرابطاً بمنوف فأمدّه بقوة من جنوده وتعاونت القوتان على اخضاع القريتين بعد مادافع أهلها دفاعاً شديداً ، واشتد القتال بخاصة في غمرين واشتبك الاهالى والجنود في طرقاتها ، فانهمرت فيها الدماء وغطيت الارض بجثث القتلى ، قال الكاتبن فيروس Ferus (٢) يصف هذا الدفاع « جاءنا المدد ، وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين ، فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين ، وقتلنا من الاعداء (الاهالى) من أربعة الى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة واقدام ، أما خسائر الفرنسيين فكانت قتيلا واحداً واثنى عشر جريحاً ، ولم تكن عندنا قنوس ، فكان ذلك من الاسباب التي أخرتنا عن اقتحام أبواب القرية »

فانظر الى هذا الوصف ، وتأمل كيف كانت النساء يشاركن الرجل في مقاتلة الفرنسيين ودفاعهم ، وهذا العمرى من أبلغ ما يذكر عن استبسال شعب في الدفاع عن كيانه ، وأبلغ منه أن الشهادة به جاءت من عدو ، وسترى في خلال الوقائع التي تأتي عليها في

(١) بلدتان متجاورتان شمال منوف

(٢) من رسالة له الى الجنرال كافاريللى في ١٣ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقد ذكر

نابليون في رسالته الى الديركتوار بتاريخ ١٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨ واقعة (غمرين)

بايجاز ونشرت رسالته في مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٤٨٨

الفصول التالية ان النساء كن في بعض البلاد يشاركن الرجال في مقاومة الفرنسيين
استولى الفرنسيون أولا على غمرين ثم قصدوا الى تتافستولوا عليها وأضرموا
النار في القريتين عقابا لهما على الثورة

ونفذت ذخيرة الجنرال فوجيير في محاربته لبلدتي غمرين وتتا ، فعاد الى منوف
ينتظر المدد وبقي هناك ثمانية أيام ، ولما كان الفيضان قد بدأ يغرق الطرق فقد نزل
بجنوده في السفن ووصل الى المحلة الكبرى من طريق ترعة مليج ، واستقر بها

المحلة الكبرى

كانت المحلة الكبرى عاصمة الغربية ، وهي يومئذ أكبر بلاد الدلتا في اتساعها
ومركزها الصناعي ، واشتهرت في ذلك العصر (كشهرتها الآن) بنسيج الأقمشة
الحريرية والقطنية فكان الحرير الخام يرد اليها من سوريا عن طريق دمياط ثم يغزل
خيوطا وتنسج منه الأقمشة الحريرية المختلفة ألوانها ، كتب المسيو جالوا Jallois أحد
مهندسي الحملة الفرنسية رسالة عن رحلته في الدلتا وصف فيها المحلة الكبرى وذكر
صناعة الحرير بها فقال « ان معظم الحرير الذي يلبسه النساء في مصر ينسج في
مصانع المحلة الكبرى ، ويصنع فيها أيضا المناديل التي يغطي بها النساء رؤوسهن
والقمصان والبشاكير (١) » وقال المسيو جيرار Girard وكيل ادارة الري في عهد
الحملة الفرنسية ان منسوجات المحلة الكبرى يتخذ منها ستائر الشبايك وأغطية
المقاعد والأرائك والوسائد وأغطية الموائد الموشاة بأسلاك الذهب والفضة ، والاحزمة
الحريرية ، والملاءات المسماة (بالملس) وكانت هذه المنسوجات تصدر عن المحلة الى
سائر أنحاء القطر المصري وبلاد السلطنة العثمانية ، قال وكانت تنسج فيها الأقمشة
القطنية ، وكان عمال نسيج القطن قبل الحملة الفرنسية يبلغ عددهم فيها ألفي عامل فينزل .

(١) كتاب تخطيط مصر الجزء الخامس عشر

عدم مدة الحملة الى خمسمائة (١) وهذا يدل على تقهر البلاد من الوجهة الاقتصادية في عهد الحملة الفرنسية

وقد رابط الجنرال فوجيير في الحملة الكبرى ثم انتقل منها في خلال الحملة الى سمندود التي اتخذها الفرنسيون عاصمة لمديرية الغربية وفضلوها على الحملة لوقوعها على النيل وسهولة اتخاذها مركزاً للواصلات النيلية والحركات العسكرية

الثورة في طنطا

كانت طنطا كما هي الآن أكبر بلاد الدلتا من الوجهة التجارية ، بلغ عدد سكانها في ذلك العصر عشرة آلاف نسمة كما قدرهم المسيو جالوا (١) ، وترجع مكانتها الى مركزها التجاري والى ضريح السيد احمد البدوي ومواسمه المعروفة ، فكان يزورها سنوياً في أيام المولد الاحمدى نحو مائة ألف زائر من مختلف المدن والأقطار . ظهرت أعراض الهياج والثورة في طنطا أوائل اكتوبر سنة ١٧٩٨ وأجمع أهلها على الامتناع عن دفع أى ضريبة أو غرامة تفرض عليهم

فابلى الجنرال فوجيير الى نابليون حالة المدينة في رسالة له بتاريخ ١٦ اكتوبر وقال ان امتناعهم راجع الى نياتهم العدائية وكراهيتهم للحكومة وانهم يؤوون بعض المماليك فيسترون بينهم ويحرضونهم على التمرد والثورة

وكان الفرنسيون ينظرون الى طنطا كمدينة مقدسة عند المسلمين تلى مكة والمدينة في الاهمية ويستشعرون احترامها محافظة على إحساس الاهالى ، فتحاشوا أول أمرهم أن يرسلوا اليها قوة من الجنود كيلا يصطدموا بالاهالى أو يعتدوا على الشعائر الدينية فتثور ثائرتهم ، ولكن الجنرال فوجيير رأى روح الهياج والتمرد تقوى وتشتد ، فأرسل اليها كتيبة من الجنود بقيادة الكولونل لوفيفر وعهد اليها اعتقال زعماء المدينة وأخذهم رهائن ، وكلفها كذلك أن تخضع الاهالى فيما جاورها وفي البلاد الواقعة على طريق

(١) تخطيط مصر الجزء الخامس عشر

الجنود وأخذ الرهائن منها ، وكان دعاة الثورة في القرى يحرضون الأهالي على عصيان الفرنسيين

وصل الكولونل لوفيفر تجاه طنطا يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ورابط بجنوده وكلف حاكمها سليم الشوربجي أن ينفذ إليه أربعة من كهراء المدينة يكونون رهائن ، فجاء بأربعة من أئمة مسجد السيد أحمد البدوي ورفض أكابر المشايخ أن يحضروا معه ليعطوا القائد الفرنسي موثقاً بالمحافظة على السكينة في طنطا ، وكان المولد قائماً في ذلك اليوم ، وقد تجمع فيه خلق كثير من أرجاء البلاد ، فلم يكد «لوفيفر» ينزل الرهائن الأربعة إلى المراكب ليعث بهم إلى القاهرة ، حتى هرعت الجماهير مسلحين بالبنادق والحراش يصيحون صيحات الغضب والسخط رافعين الرايات والبيارق ، فلما رأوها أهالي البلاد المجاورة أقبلوا من كل حدب وانضموا إلى الثائرين وفيهم ١٥٠ من فرسان العرب فاندفعت هذه الجموع على كتيبة الجنرال لوفيفر ، وكادت تأخذ المراكب التي معها فقابلتها الكتيبة بنار شديدة من البنادق الحديثة فانهزمت الجموع إلى المدينة وعادت غير مرة تهاجمها ثم ترد إلى داخل البلد ، ورأى الكولونل لوفيفر أن لا سبيل إلى تعقب الثائرين في مدينة كبيرة كطنطا لقلة عدد جنوده وافتقاره إلى المدفعية ، فلزم خطة الدفاع واقتصر على منع الثائرين أن يحيطوا بجنوده وعلى الدفاع عن مراكبه ، وتمكن من انزال معظم قوته بالسفن ومعهم الرهائن ، ثم أقلمت سفنه وترك قوة من رجاله على شاطئ الترعة لمنع الثوار أن يلحقوا به ، فظلوا يدافعونهم حتى جن الليل فانسحب الثوار بعد معركة دامت أربع ساعات ، وقد قدر الجنرال فوجيير عدد الثوار بعدة آلاف وقد خسائرهم بنائمائة بين قتيل وجريح ، وطلب من نابليون معاقبة أهالي طنطا لأن معظم الثوار كانوا منهم وألح في طلب المدد من الرجال والمدافع لاختصاصهم

ولكن نابليون جنح إلى الحكمة وآثر أن يأخذ الثائرين بالحسنى لأنه كان يخشى عاقبة انفجار الهياج في مدينة لها حرمتها عند الأهالي فلم يوافق الجنرال فوجيير على عليه وأرسى إليه بتاريخ ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يقول :

« لقد علمت بمزيد الأسف ما حدث في طنطا ، على أنى راغب في احترام هذه المدينة ، وأعتبر تخريب هذا المكان المقدس في نظر الشرق كارثة كبرى ، على أنى سأكتب الى أهالى طنطا ، وسأطلب من الديوان العام أن يكتب اليهم ، وأنى راغب في أن تنتهى الحادثة بالمفاوضة على صلح ووثام »

وكان الجنرال فوجيير قد نبه نابليون إلى أن الثوار قد استعانوا بالعرب ، فكافه نابليون أن يأخذ الرهائن منهم لاختضاعهم ، وإن لم يدعنوا فليشكل بهم وقد عزم نابليون على تجريد الحملة عليهم بقيادة الجنرال لانوس Lanausse الذى عين قومنداناً لمديرية المنوفية ، خلفاً للجنرال زاينوشك (١) فناط به قيادة الحملة وفيها جنوده وجنود الجنرال فوجيير ، وأمره أن يسير الى العرب في سنباط ، حيث يرابطون بها ويحاربهم ، وينتزع منهم الرهائن والأسلحة

احتلال عشا

كان الجنرال لانوس يهجم حينئذ قرية عشا (٢) لاختضاع زعيمها المشهور في ذلك العهد بسطوته وشدة بأسه ، واسمه « أبو شعير » ، وقد أتممه الفرنسيون بعدائه لهم ، وممالاته على الجنود ، فجرد الجنرال لانوس حملة عليه ، وسار ليلة ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ قاصداً قرية عشا في كتيبة من الجنود ، فوصاها الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وفاجأ مخفرين من الخفافر التى وضعها أبو شعير حول القرية لحراستها ، فتخطاها حتى وصل الى مدخل البلد ، وهناك التقى بمخفر ثالث أطلق رجاله الرصاص على الفرنسيين ، لكن الجنرال لانوس تمكن من تطويق القرية بالجنود ، ومحاصرة منزل أبى شعير الذى وصفه لانوس بأنه قصر محصن تحصيناً تاماً بالنسبة لحالة البلاد ، وقد علم أبو شعير بوصول الفرنسيين ، فركب في رهط من رجاله استعداداً للقتال ،

(١) نقل زاينوشك قومنداناً لبني سويف

(٢) من بلاد مركز شبين الكوم

وسعى لانوس في أخذه بالحسنى ، ولكنه أجاب باطلاق الرصاص على الفرنسيين ، فأمر الجنرال لانوس رجاله باقتحام أسوار القصر ، وأدرك (أبو شعير) أنه واقع لا محالة في أسر الفرنسيين ، فأمر جنوده أن يطلقوا النار على الجنود ليشغلهم عن نفسه ويلوذ بالفرار ، وقد تمكن من تسلق الأسوار ، ثم ألقي بنفسه في التربة وقطعها سباحة ، ولكنه لم يكد يصل الى عدوتها الأخرى حتى أصابته رصاصة جندلته ، والظاهر أن الفرنسيين عدوا قتل أبي شعير انتصاراً كبيراً ، فقد ابتهج له الجنرال لانوس ، وأرسل الى نابليون بتاريخ ٢٣ أكتوبر ينبئه بمصرعه ، ويذكر عنه أنه لحق الجيش الفرنسى منه أذى كبير ، وأنهم وجدوا بمنزله بعض شارات للضباط الفرنسيين ، وأعل هذا هو سبب اتهام الفرنسيين إياه بالسطو ، وهى تهمة ينسبونها لمعظم من حاربهم أو قاومهم ، وقد ذكر لانوس عن أبي شعير أنه كان واسع الثروة ، وأن له مزارع واسعة ، وأنه يمتلك عشرين قرية ، وأنه كان فى سطوة ، وإذا مشى سار معه ألف ومائتا رجل فى سلاحهم ، واعترف لانوس فى رسالته لنابليون أنه لولا مفاجأته لأبى شعير فى قريته لما استطاع أن يظهر عليه ، ولو هو علم بمقدم الفرنسيين وأعدت لملقاتهم لأصابهم منه جهد وشدة وأذى ، وقد استولى لانوس على ما وجده فى القصر من الأسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع وعدد كبير من البنادق (١) وأحصى ممتلكاته فى عشا والقرى الأخرى ، ولكنه لقي مقاومة شديدة من الأهالى فى سلامون وسرسنا ، وكادوا يقتلون مترجم الجنرال والمباشر الذى كان يرافقه ، وألقى لانوس القبض على اثنين من إخوة أبى شعير وبعض حاشيته ، وأرسلهم الى نابليون ليقرروا عن المكان الذى خبأ فيه أبو شعير أمواله إذ لم يعثر عليها ، وأشار على نابليون فى رسالته بأن يقتلهم بعد ذلك لما ارتكبوه من الاعتداء ، وطلب منه أن يمدد بقوة من الفرسان ، وقد أشار الجيرتى الى واقعة احتلال عشا بقوله :

« وفى ١٨ جماد الاولى سنة ١٢١٣ (٢) ضربوا كافر عشا وقتلوا كبيرها المسمى

(١) رسالة لانوس الى نابليون فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٧٩٨

(٢) يوافق ٢٨ أكتوبر سنة ١٧٩٨

بابن شعير ، ونهبوا داره ومتاعه وبهائمه ، وكان شيئاً كثيراً جداً ، وأحضروا اخوته وأولاده وقتلوه ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه شيخاً عوضاً عن أبيهم (١) ، ويلاحظ على رواية الجبرتي أنه جعل تاريخ الواقعة ١٨ جمادى الاولى أى ١٢٨ أكتوبر والواقع أن مهاجمة كفر عشا كانت ليلة ٢٠ أكتوبر كما يؤخذ من رسالة الجنرال لانوس إلى نابليون

وكانت الملاحة في الترع بدأت تتعطل لنقص مياه النيل ، على حين أن المواصلات في البر متعذرة ، فتأخرت الحملة التي كلف بها الجنرال لانوس إلى أوائل نوفمبر حتى جاءه المدد من القاهرة بقيادة الجنرال فو Veaux

سار الجنرال فوومعه كتيبة من الجنود من القاهرة يوم ٧ نوفمبر فوصل إلى منوف من طريق قليوب وترعة الفرعونية ، وكان في أعمال حملة لانوس إخضاع مدينة طنطا ، وقد كرر نابليون لهذه المناسبة وصاياه باحترام مساجد هذه المدينة ، فأرسل الجنرال برتبيه رئيس أركان حربه الى الجنرال لانوس بتاريخ ٦ نوفمبر لمناسبة سفر الجنرال فو يقول « يجب المسير بقوات كبيرة الى طنط ونا كن هذه المدينة حرمة كبيرة عند المسلمين فمن الواجب أن لاتمس المساجد والمقامات التي بها »

ولما وصل المدد الى الجنرال لانوس سار بجنوده وأوقع بكثير من القرى المحاذية للنيل بحجة مهاجمتها للسفن الفرنسية على فرع رشيد ، وبلغ طنطا دون أن يلقى مقاومة وأمكنه أن يحصل بعض الضرائب وشتت قوات العرب التي كانت تشد أزر الثوار لكنه لم يستطع أن يقهرها أو يتغلب عابها ثم عد الى منوف

الفصل الخامس عشر

في الدقهلية (١) ودمياط

على أثر تعيين الجنرال فيال Vial قومنداناً لمديرتي المنصورة ودمياط في أوائل أغسطس سنة ١٧٩٨ (٢) مضى بفرقة الى المديرتين لاختضاعهما ، فقصده أولاً الى المنصورة ومكث بها قليلاً وترك بها حامية تحتلها ، ثم تابع سيره الى دمياط ليجعلها مقراً لفرقة ، فاحتلها واحتل عزبة البرج

واقعة المنصورة

اقتصروا أهالي المنصورة والبلاد المجاورة بجنود الحامية وانفقوا على الفتك بهم ، فبينما كان الجنود في معسكرهم يوم ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كثيرة من أهالي البلاد المجاورة وكان اليوم يوم السوق العامة ، فاختلطوا بأهل المدينة ، ووافقهم على الفتك بجنود الحامية فهاجموا الجند ، ونادت المدينة كلها بالثورة رجالاً ونساء ، وكان

(١) كانت مديرية الدقهلية تعرف بمديرية المنصورة ، ولم يكن اسم الدقهلية شائعاً في ذلك العصر ، ومع ذلك فهو الاسم الذي عرفت به قديماً ، فقد سميت باسم الدقهلية في خطط المقرئ (الجزء الأول) ، وذكرها بهذا الاسم القاضي يحيى بن الجيعان في كتابه (التحفة السنية باسماء الديار المصرية) الذي يتضمن تخطيط مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، وذكرها كذلك الرحالة فانسليب Vansleb الذي جاء مصر سنة ١٦٧٢ باسم كاشفية (مديرية) الدقهلية ، فيؤخذ من ذلك ان تسميتها باسم (مديرية المنصورة) لم يكن مألوفاً الا في القرن الثامن عشر ، ولم يذكرها الجبرني باسم الدقهلية الا مرة واحدة ، وقد جرينا في سياق الكلام على ما كان معروفاً في ذلك العصر وهو (مديرية المنصورة)

(٢) 'نظر ص ٢٥٨

النساء يحرضن أزواجهن على أن يشوروا بالفرنسيين (١) ، ولما شعر الجنود بالخطر امتنعوا في معسكرهم فحاصره الثائرون وشرعوا في دكّه وأشعلوا فيه النار ، فاضطر الجنود الى اخلائه هاربين وانحدروا الى السفن قاصدين الفرار ، ولكن الجموع تكاثرت عليهم وأبى رجال السفن أن يحملوهم ، فالتجأوا الى البر وقصدوا الى دمياط ولكن الثوار أخذوا عليهم الطريق ثم قتلوهم عن آخرهم (٢) وكان من الناجين امرأة أحد الضباط وابنتها فأبقى عليهما الثوار ولم يمسوها بسوء ، ويقول ريبو (٣) ان الفتاة قد اشتراها شيخ العرب (أبوقوره) وتزوج بها فلبثت عنده حتى مات عنها سنة ١٨٠٨ في عهد محمد علي باشا وبقيت حافظة عهده قائمة على تربية أولادها منه بعد وفاته ، وقد أيد كلوت بك هذه الرواية في كتابه (٤) مع اختلاف في بعض وقائعها ، وهو يقول إن هذه الواقعة حصلت عند ما شرع الفرنسيون في الجلاء عن مصر ، على أنه لم تحصل وقائع في المنصورة عند جلاء الفرنسيين ، وكلوت بك يرجع اليه فيما حققه وشاهده بنفسه ، ويقول أنه سمع بنياً هذه الواقعة حينما كان كبير أطباء الجيش المصري في عهد محمد علي

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية . ريبو . الجزء الثالث
(٢) جاء في يوميات الجنرال «لوجييه» Langier انه عثر على جندى جريح من جنود حامية المنصورة كان مختفياً في احدى القرى فقصر عليه الحادثة وكتب لوجييه بها تقريراً وهو لا يخرج في مجموعه عما ذكرناه ، ويقول المسيو « شابرول » Chabrol احد مهندسى الحملة الفرنسية في بحثه المنشور بكتاب تخطيط مصر الجزء الثانى عشر ان عدد جنود حامية المنصورة كان ١٢٠ مقاتلاً وان العرب أسروا اثنين منهم وفر ثالث وهؤلاء الثلاثة هم الذين نجوا من القتل ، ويقول الكاتبين ساباتيه Sabatier أحد ضباط فرقة الجنرال فيال التى زحفت على المنصورة ثم تابعت سيرها الى دمياط ان عدد جنود الحامية الذين تركهم الجنرال فيال بالمنصورة ١٦٠ مقاتلاً

(٣) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٤) كلوت بك . لمحة عامة الى مصر الجزء الثانى

باشا فزار دار أبي قورة بميت العامل (١) سنة ١٨٣٤ أى بعد أكثر من خمس وثلاثين سنة من الواقعة ونزل بها « وكان قصراً فسيحاً قائماً بالقرب من مساكن العرب » ، وقابل زوجة أبي قورة الفرنسية وابنها ، قال يصف هذه المقابلة « وقد أحسن ابنها لقائى وأكرم مشواى ، ولما عرف اننى فرنسى الجنس ذكر لى والدته وقال انها فرنسية ، فكاشفته رغبتى فى لقائها ، وكانت ذريعتى الى ذلك مهنة الطب التى أقوم بها ، فلما بلغت خدرها تلتقنى بحية باللغة الفرنسية ، وتبينت انها إيطالية الجنس ، وعلمت منها فعلا انها ولدت بمدينة البندقية ، وأن والدها كان تاجر قبعات اسمه بارتولى ، وأن والدتها كانت تسمى مرجريت ، وأن اسمها هى جوليا ، وأن العربان سبوا وهى خارجة من المنصورة إذ أركبوها جوادا وانطلقوا يطوون بها الفدافد والسباب حتى بلغوا بها فى المساء دارا كبيرة التقت فيها برجل يغطيه من الرأس الى القدمين حرام أبيض ، وأن هذا الرجل بذل لها من مظاهر العطف والميل ما لا يوصف ، وأنه جردها من ثيابها الأوروبية ليلبسها بدلا منها ثوبا شرقيا فضفاضا ، ثم سلمها من الحلى والجواهر ما قيمته ستمائة كيس ، أى ما يعادل مائة ألف فرنك تقريبا . وجعل فى خدمتها عددا كبيرا من العبيد والجواري ، وذلك الرجل هو الزعيم (أبوقوره) الذى كان مشهورا بالشوكة والجاء الطويل ، ولكن هذا الالتفات وهذا العطف كانا يضجرانها ، فكانت لاتكف عن البكاء وتعرب بالقول والأشارة والصياح عن رغبتها فى العودة الى ذويها ، ومع هذا فلم ينقض أحد عشر شهرا حتى رزقت غلاما ، فهذا شعور الأمومة نحو وليدها ناثرة التذمر والاستياء ولطف من أسرها فى هذا المكان فلم يسعها الا احتمال الرضاء به ، ولما مات زوجها ، وكانت توليه الحب الصادق وتعيش معه فى بحبوحة الهناء والنعيم ، أكرهت على التزوج بأخيه فلم تجد منه ما كانت تلقاه فى أخيه المرحوم من حسن الرعاية وجميل العطف » (٢)

(١) من بلاد مركز أجا الآن

(٢) كلوت بك . لمحة عامة الى مصر . الجزء الثانى

وذكر كلوت بك ما كان عليه (أبوقوره) من الجاه والثراء فقال إنه كان يقاوم سلطة المماليك مدة حكمهم وكانت له السيادة في إقليم المنصورة وقتئذ وكان يملك أربعاً وأربعين قرية وبضعة آلاف من الجمل وقطعانا لأعداد لها من الاغنام وأكثر من خمسمائة عبد وجارية من الارقاء

والآن نعود إلى الكلام عن واقعة المنصورة ونتائجها :

أشعلت هذه الواقعة نار الثورة والهياج في البلاد المجاورة ، وكادت الثورة تستفحل ويتسع مداها ، لولا وصول الجنرال دوجا Dugua الذي عينه نابليون قومنداناً لمديرية المنصورة (١)

وصل دوجا وجنوده جنوب المنصورة يومى ١٧ و ١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، فعلم عند وصوله بما حل بجنود الحامية ، وكان أهل المدينة يتوقعون انتقاماً شديداً ، فكتب الأعيان رسالة إلى ديوان القاهرة يبرؤن من الاعتداء على الجنود ، وينسبون ذلك إلى الفلاحين والعرب الذين فتحوا المدينة يوم الواقعة ، وذهب قاضي المنصورة حصيصاً إلى القاهرة ليدافع عن مسلك سكان المدينة ، وقد عهد نابليون بنياً بالحادثة وجاءته رسالة أعيان المنصورة التي كتبوها إلى الديون ، فبعث إلى الجنرال دوجا يطلب منه عقاب أهلى المنصورة عقاباً شديداً ، ويأمره أن يقتل تسعة أو عشرة من أعيانها (٢)

وكان الجنرال دوجا معروفاً بين قواد نابليون بالحكمة ولأناة وحسن السياسة ، فاستعمل الحكمة في توقيع العتاب وإعادة النظام في المدينة ، وراد أن يتحقق من المعتدين حتى لا يأخذ بريئاً بمذنب ، وقد تبين له من الفحص عن أمرهم أن معظم المعتدين من البلاد المجاورة ، وإن زعماء المحرضين على قتل الحامية قد غادروا المنصورة ومنهم رحلان كانت لهم شهرة في تلك الجهات بالسطوة والجاه وشدة البأس ، وهما

(١) راجع ص ٢٦٣ وهامشها.

(٢) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٣٠٧٢

الامير مصطفى وعلى العديسى ، فاكتفى الجنرال دوجا بالحكم على اثنين من أهالى المنصورة بالاعدام ، لثبوت اشتراكهما فى القتل ، وأنفذ الحكم فيهما وطاقوا برأسيهما فى شوارع المدينة عبرة وإرهاباً ، وأخذ الجنرال دوجا يتأهب لتعقب المعتدين فى بلاد البحر الصغير والقبض على الأمير مصطفى ، وعلى العديسى ، وتجرى حملة عسكرية لمعاقة القرى التى اشتركت فى الاعتداء على الجنود

وكان الذعر قد استولى على المنصورة وهاجر كثير من أهلها فراراً بأنفسهم من اتهامهم فى واقعة قتل الحامية ، وتعطلت التجارة ، وركبت أسواق المدينة ، فطلب الجنرال دوجا من نابليون أن يأذن له إذا لم يظفر بالمعتدين فى اعلان العفو ، ليعود الأهالى الى أعمالهم ، بشرط أن لا يتناول العفو أهل القرى المجاورة الذين اشتركوا فى الواقعة ، وكان غرض الجنرال دوجا أن يؤخر معاينة سكان هذه القرى الى أن تصل القوة الكافية ، وينحسر الفيضان الذى كان يتلف الطرق ، ويعطل المواصلات

أقر نابليون الجنرال دوجا على خطته وأرسل له فى ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨ يأذنه أن يمنح المدينة العفو ، وطلب اليه أن يستخدم ما يراه لإقرار الطمأنينة وإعادة الأعمال سيرتها الأولى ، وكلفه فى الوقت نفسه أن يكتب الى أعيان البلاد المجاورة التى اشترك أهلها فى قتل الحامية الفرنسية يطلب أن يسلموا المعتدين منهم والا استهدفوا لإحراق قراهم بالنار

وطلب اليه إخضاع بلاد مديرية المنصورة وأخذ رهائن من كل قرية اشترك أهلها فى الاعتداء على الجنود ثم إحراق القرى التى يرى أنها كانت أبلغ فى الاعتداء ، وأمر نابليون بفرض غرامة ثلاثة آلاف ريال على أعيان المنصورة عقاباً لهم على سوء صنيعهم ، وفرض ألفي ريال خاصة على السيد على الشناوى أحد أعيان المدينة ، ثم ألفي ريال على القرى التى اعتدت على الجنود (١)

وقد لقي الفرنسيون عناء كبيراً فى إخضاع مديرية المنصورة ، فقد اشتدت فيها

المقاومة وامتنع كثير من البلاد عن دفع الضرائب ، ويقول ريبو (١) أن محصلى الأموال الاميرية كانوا إذا ذهبوا الى القرى لجباية الضرائب أو مصادرة أملاك المالكين يقابلون بازصاص رمياً ، أو بالعصى ضرباً ، وفي بعض الأحيان كانوا يصحبون بعض الخفراء لحراستهم فلا يعصمهم ذلك أن يلقوا مثل هذه المقابلة ، وعطل الفيضان حركات نقل الجنود في البر فساعد هذا العامل على فيضان روح الثورة في القرى ، واضطر الجنرال دوجا الى تأخير ماعهد اليه من إخضاع ذلك الاقليم ومعاينة القرى التي ثارت في وجه الجيش أو التي اشتركت في قتل الحامية الفرنسية بالمنصورة

الحملة على سنباط وميت غمر

كانت مهمة الجنرال دوجا أن يكتشف الجهات التي عزم على تجريد الحملة عليها قبل أن يغامر فيها ، وكانت بلدة (سنباط) (٢) من القرى التي شاركت بلاد الدقهلية في الثورة فتخذها الجنرال دوجا أول هدف له ، وهي وإن كانت في مديرية الغربية إلا أنه رأى ان يبدأ بمهاجمتها لسهولة لوصول اليها بطريق النيل ، وكانت أوامر نابليون تقضى بحرق هذه البلدة ، وكان الجنرال مور Murat قومندان القليوبية مكلفاً معاونة الجنرال دوجا في إخضاع إقليم المنصورة ، فانتقل من بنها الى ميت غمر في أواخر أغسطس سنة ١٧٩٨ لمعاينة العرب النازلين في تلك الجهة وبخاصة في دنديط (٣) ممن توجهت عليهم تهمة الاشتراك في واقعة المنصورة ، وكان منوطاً به كذلك تجريد الأهالي من السلاح ، على أنه لم يستطع إنفاذ هذه المهمة وكتب الى نابليون في ٤ سبتمبر يسأله العدول عن هذه المهمة الشاقة ويقول في خطابه « انى أعتقد ان سياسة تجريد الاهالى من السلاح طريقة ضارة وغير حكيمة إذ أرى أن العرب المزارعين مسلحون وتسليحهم مفيد لانهم يحمون البلاد من سطوات البدو الرحل

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الرابع

(٢) مركز زفتى الآن

(٣) من بلاد مركز ميت غمر

ويحفظون الأمن في هذه الجهات ، وصعبٌ من الآن الى وقت لا يزال بعيداً أن نسلبهم السلاح دون أن نوقع الحرج في صدورهم وندفعهم الى الثورة كما حدث في مديريات أخرى ، لذلك أعتقد أنكم ترون ما أراه في الانتظار بهم حتى يستقر نظام الحكم الجديد ، وما هو الآن خطأ يكون يومئذ صواباً »

هاجم الجنرال مورا في شهر سبتمبر قوة من العرب في دنديط بالقرب من ميت غمر فهزمهم وشتت جمعهم بعد أن قتل بعضهم وجرح رئيسهم واستولى منهم على ٢٠٠٠ رأس من الغنم

أما في سنباط فقد أفند الجنرال دوجا لجنرال فردييه Verdier لمعاينة العرب النازلين بها فغادر فردييه المنصورة يوم ١٢ سبتمبر بطريق النيل في ٥٥٠ جندياً ، فالتقى على مقربة من سنباط بقوة من العرب فهزمهم واستولى على خيامهم وماشيتهم ومتاعهم (١) غير ان العرب تمكنوا من الافلات فلم يقعوا في أيدي الفرنسيين ولاذوا بالتملل القائمة حول سنباط وأرادوا ان يقاوموا القوة الفرنسية لكنهم نكصوا أمامها وألقوا بأنفسهم في النيل وذهبوا يسبحون ونجا منهم من نجا ، وعادت القوة الفرنسية الى المنصورة

ثم تجددت الاضطرابات في منطقة ميت غمر ودنديط وميت الفرماوى في شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ وبانت المواصلات النيلية في فرع دمياط مهددة ، فعهد نابليون الى الجنرال مورا والجنرال لانوس بالتعاون على إخماد حركة الثورة في تلك المنطقة التقي القائدان بالنيل عند بنها (٢) وسارت قواتهما من الجنود بالمرابق قاصدين الى ميت غمر فأرسوا على شاطئ النيل بالقرب منها ، وساروا قاصدين مهاجمة الثوار الذين احتشدوا في (دنديط) ، وكان الجنرال مورا يتولى قيادة الميمنة والجنرال لانوس

(١) كتبت جريدة (كورييه دليجيت) بالعدد الثامن ان معركة سنباط انتهت باحراق القرية وخسر العرب فيها خمسمائة قتيل عدا من غرق منهم واستولى الفرنسيون على ستة آلاف رأس من الغنم

(٢) يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩٨

بقود الميسرة فسار الجنود الفرنسية بنظامهم الحربى لمهاجمة الثوار فى معقلهم، وكان السير متعذرا لان الثوار قطعوا جسور الترع فغمرت المياه الاراضى ووحل الجنود فى الطرق والمستنقعات، ولما بلغت جموعهم دنديط انسحب منها الثوار الى (ميت الفرماوى) وهناك امتنعوا بها وكان معهم مدفعان فقاوموا هجوم الفرنسيين مقاومة شديدة ثم اضطروا الى الارتداد عن القرية فاستولى عليها الفرنسيون وعلى المدفعين اللذين كانا بها ، واعتصم الثوار بالتلال القريبة منها، فتعقبهم الفرنسيون وأجلوهم عنها ثم استمر الثوار فى انسحابهم حتى بلغوا (الهوابر) وعجز الفرنسيون عن متابعتهم لما لحقهم من الإعياء ولما غمر الارض من مياه الفيضان، فرجعوا أدراجهم إلى ميت غمر

فيضان الثورة

كان طائف الثورة يطوف فى مختلف البلاد بحيث كانت كلما أخذت فى جهة انبعثت فى جهة أخرى ، قال ريبو فى هذا الصدد « كن الجنود يعملون على إخماد الثورة باطلاق رصاص على الفلاحين وفرض الغرامات على البلاد ، لكن الثورة كانت كحبة ذات مائة رأس كلما أخذها السيف والذرة فى ناحية ظهرت فى ناحية أخرى أقوى وأشد مما كنت ، فكأنها كانت تعظم وينسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلى آخر »

وقال فى موضع آخر يصف حالة الشعب النفسية ومركز الفرنسيين : « إن مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية فأخذت تنتفض وتجاذب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية ، لقد كنا نرابط فى مصر ونحتلها احتلالا عسكريا ، وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محريه فقد بقيت سلطتنا قائمة على التوة لا على الاقتناع ، وكان اختلاف الدين واللغة والطباع والعادات مما يجعل الامتزاج بين الغالب والمغلوب عسرا بعيد الاحتمال ، فكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الاذعان بالحزم مرة وبالقوة مرة وقع كل ثورة ومكافأة من يخدم السلطة الفرنسية، ولا يدرك هذه الغاية وزع بونا برت الجيش على مختلف انحاء القطر لا إخضاعها وجعلها موضع مراقبة دقيقة ، وكان

قواد الفرق فضلا عن اختصاصاتهم الحربية ، يتولون الاشراف على الأعمال الادارية والمالية في مديرياتهم ويراقبون جباية الاموال والغرامات ويشرفون على مجالس الدواوين في الاقاليم حتى لا تتعدى اختصاصها » (١)

الحملة على البحر الصغير

اهتم نابليون باخضاع بلاد البحر الصغير ، الكائنة بين المنصورة وبحيرة المنزلة وارتياح الجهات الموصلة الى البحيرة ، وكان يرمى من جهة الى اخضاع تلك البلاد ، ومن جهة أخرى الى تأمين المواصلات بين دمياط والمنصورة والصالحية وبلبيس حتى يطمئن على حدود مصر الشرقية ، وقد بعث الى الجنرال دوجا في هذا الصدد بعدة رسائل تظهر مبلغ اهتمامه بهذا القطاع (٢)

جرد الجنرال دوجا حملة عسكرية لاخضاع البحر الصغير ومعاينة القرى الشائرة في هذا الاقليم ، وأنفذ لهذا الغرض الجنرال داماس Damas والجنرال دستنج Destaing في قوة من الجنود الفرنسية ورسم لها الخطة التي يتبعانها ، فكان أمره للجنرال داماس أن يمضي رأساً الى بحيرة المنزلة لارتياحها وإخضاعها ، وعهد الى الجنرال دستنج معاينة بلدتي « منية محلة دمنة » و« القباب الكبرى » الواقعتين على بحر اشمون (٣) إذ جاهر أهلها بالعصيان والامتناع عن دفع الضرائب والغرامات التي فرضت عليهم

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) كتب نابليون في ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ الى الجنرال دوجا يقول « أرجوك يا مواطنى الجرال أن تخبرنى بالطريق الذى أزمعت السير فيه للوصول من المنصورة الى بلبيس ومن المنصورة الى الصالحية وباية طريقة يمكن نقل المدفعية والفرسان فى هذه الجهة ، وما هى أسماء القرى الواقعة على النيل فى إقليم المنصورة وما هى نتيجة اكتشافكم للترع الثلاث التى تأخذ من النيل وتصب فى بحيرة المنزلة »

(٣) هو الاسم الذى كان يطلق على الترعة الكبيرة المعروفة الآن بالبحر الصغير

حسن طوبار

وكان لهذه المهمة شأن وخطر في تلك الجهات ، لما امتد في أنحائها من أسباب الثورة والهياج ، ولظهور جماعة من زعماء الاهالي يحرضون الناس على مقاومة الفرنسيين ، وقد تكرّر في كثير من رسائل وقطارير القواد الفرنسيين في مديرتي المنصورة ودمياط اسم « حسن طوبار » شيخ بلد المنزلة في ذلك الحين كزعيم للمحرضين ، وخصم عنيد لا يستهان به ، ومدير لحركات المقاومة في هذه الجهات ، كما تردد اسم الأمير مصطفى وعلى العديسي كمحرضين في واقعة الاعتداء على حامية المنصورة .

كان حسن طوبار زعيماً لاقليم المنزلة ، وكان هذا الاقليم جيّاشاً بمتاعب كثيرة للفرنسيين ، كتب ريبو في كتابه يصف سكان هذه الجهات بقوله : « إن مديرية المنصورة التي كانت مسرحاً للاضطرابات ، تتصل ببحيرة المنزلة ، وهي بحيرة كبيرة تقع بين دمياط وبيلاوز القديمة (الطينة) . والجهات المجاورة لهذه البحيرة ، وكذلك الجزر التي بها ، يسكنها قوم اعتداء ذوو نخوة ولهم جلد وصبر ، وهم أشد بأساً وقوة من سائر المصريين ، ثم هم أغنياء بما ينالون من الصيد ، ولهم في البحيرة خمسمائة أوسمئة مركب (١) تجعل لهم السيادة في البحيرة ، ولهؤلاء الجزائريين أربعون رئيساً منهم ، وكل هؤلاء الرؤساء يتبعون حسن طوبار شيخ بلد المنزلة ، وهو الزعيم الأكبر لهذه المنطقة » (٢)

ويقول الجنرال أندريوسي Andreossi (٣) الذي ارتاد بحيرة المنزلة وقدم عنها تقريراً الى المجمع العلمي بمصر (٤) « إن لسكان هذه الشواطئ أربعين رئيساً يتبعون الشيخ

(١) يقول الجنرال لوجييه Langier في يومياته ان عدد المراكب التي ببحيرة المنزلة في ذلك العصر بلغ الألف

(٢) التريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الرابع

(٣) احد قواد الحملة الفرنسية انظر ما كتبناه عنه بالفصل الرابع ص ١٣٦

(٤) كتاب تخطيط مصر الجزء الحادي عشر

حسن طوبار الذى احتكر الصيد فى البحيرة لقاء جعل للحكومة ، وحسن طوبار من أكبر أغنياء القطر المصرى ، وربما كان أغناهم ، وهو من المنزلة ، وفى أسرته مشيخة البلد يتوارثونها من أربعة أو خمسة أجيال ، وله سلطة واسعة تقوم على مكانته فى النفوس ، وثروته وعصبيته ، من ذوى قرباه ، وأتباعه ، وعلى مؤازرة العرب الذين يقطعهم الاراضى ليزرعوها ويغدق على رؤسائهم بالهدايا والتحف »

سير الحملة على البحر الصغير

بدأت تتحرك الحملة على البحر الصغير من المنصورة يوم ١٦ من سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، ويهمنى قبل أن نصف خط سيرها أن ننقل هنا بعض التعليمات التى أصدرها الجنرال دوجا لكل من الجنرالين داماس ودستنج ليتبعها ، فإن فى هذه التعليمات صورة حية لحالة البلاد فى ذلك العصر ورحلة الشعب النفسية ، قال دوجا فيما عهد به :

« منية محلة دمنة والقباب الكبرى — هاتان القريتان واقعتان تحت تأثير رجلين يجب أسرهما ، وهما على العديسى من المنية والامير مصطفى من القباب ، وقد وصلتني رسالة من الجنرال فيال Vial (قومندان مديرية دمياط) ينسب اليهما تهمة الاتصال بالشيخ حسن طوبار شيخ بلد المنزلة وانتظارهما النجدة منه ، فيجب أن لا يترك له الوقت لامدادهما ، ومن ثم يجب مهاجمة المنية والقباب أسرع ما تمكن السرعة ، ثم احتلال موقع عسكري بين القباب ودموه السباخ ^(١) يحول بين الرجلين وبين كل مدد يأتيهما ، وإذا قاوم الاهالى وجب سحقهم وسحق قراهم ، وإذا سلموا بدون إطلاق النار فيجب عليهم أن يسلموا فى الحال عشرين رهينة منهم ، وأن يسلموا على العديسى والامير مصطفى ، ويسلموا كذلك جميع أسلحتهم وعشرين جواداً وثلاثين من الماشية ، ويفرموا ثلاثة أمثال الضريبة المفروضة عليهم ، وإذا رأيتهم بعض القرى تتخذ السلاح لمؤازرة المنية والقباب ، فاضربوا فى أهلها وخذوهم

(١) منية محلة دمنة ، والقباب الكبرى ، ودموه السباخ من بلاد مركز دكرنس وهى واقعة على البحر الصغير (بحر أشمون)

أخذ الأعداء أعداءهم ، وإذا انتهت الحملة على المنية والقباب باعادة السكنة والخضوع ، فعلى الجنرال دستنج أن يعود الى المنصورة فيمن معه من الجنود ، أما إذا ظهرت الثورة في بلاد أخرى فعليكم أن تتابعوا سيركم لاختضاعها .

« تعليمات خاصة للجنرال داماس — إن مهمة الجنرال داماس هي أولا مساعدة الجنرال دستنج في معاقبة منية محلة دمنة والقباب الكبرى ، وعلى ذلك يتبع التعليمات السابقة فهي لها جميعاً ، وثانياً عليه أن يمر في بحر أشمون (البحر الصغير) الى بحيرة المنزلة ويقيس عمقه على طول البحر ، وينخفض البلاد الواقعة على شاطئيه ، وينزع رهائن من كل البلاد التي لم تدفع الضرائب المفروضة عليها ، أو تسلم الخيل المطلوبة منها

« ان الجنرال فيال منزعج من مقاصد الشيخ حسن طوبار شيخ بلد المنزلة ، ومن حشده عدداً كبيراً من المراكب في المطرية ، فادا كان هذا صحيحاً فمن الواجب أسر الشيخ حسن طوبار وتحطيم أسطوله ، وعلى الجنرال داماس أن يجمع كل ما يمكن العلم به من غور بحيرة المنزلة والترع التي تصب فيها ، والبلاد الدانية من مصبها ، والفتحات التي تصل البحيرة بالبحر الأبيض ، وعمقها وعرضها ، وطبيعة الجزر الكائنة بالبحيرة وسكانها ، ثم يعود الى المنصورة في طريق أشمون (البحر الصغير) ، وعليه أن يتبين طريق الصالحية (جنوب بحيرة المنزلة) والطريقة التي يمكن بها جمع السفن في بحيرة المنزلة لنقل فرقة عسكرية الى صان »

تنفيذاً لهذه التعليمات تحرك الجنرال ان داماس ودستنج على رأس الجنود الفرنسية من المنصورة يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ الساعة السادسة مساءً ، وساروا بالبحر الصغير على ظهر السفن ، فأرسوا ليلاً على مقربة من منية محلة دمنة ، وشعر أهالي المنية باقتراب الحملة فأخلوا بلدتهم ، وفي فجر اليوم التالي أنزل القائدان الجنود الى البر وزحفوا على المنية فكانت خالية من السكان ، فتابعوا السير الى القباب الكبرى ، فاذا هي كذلك خالية من أهلها ، وقد كلف الجنرال داماس مشايخ بعض القرى المجاورة أن يبلغوا أهالي القريتين أن يعودوا فان القوة لا تنالهم بشر إذا دفعوا الضرائب المفروضة عليهم ، وهناك

اقترب القائدان الفرنسيان ، فرجع الجنرال دستنج الى المنصورة من طريق بحر أشمون ، ومضى الجنرال داماس الى المتزلة تنفيذاً للهمة التي كلف القيام بها ومعه من الجنود نحو ثلثمائة جندي بأسلحتهم وذخيرتهم ، ولما بدأ الجنرال داماس سيره جاءت رسالة من الجنرال دوجا أنه موافق بمقدار من الجنود ، فانتظر داماس في المرساة (١) حتى جاءه المدد ليلاً ، وفي اليوم التالي سار بجنوده وواصل السير وانتظر غير قليل في ميت السودان (٢) فالدراكسة (٣) لتموين جنوده ، ثم وصل مساء الى برنبال الجديدة (٤) وكان الجنرال دستنج قد وصل في صباح هذا اليوم الى المنصورة

معركة الجمالية (٤)

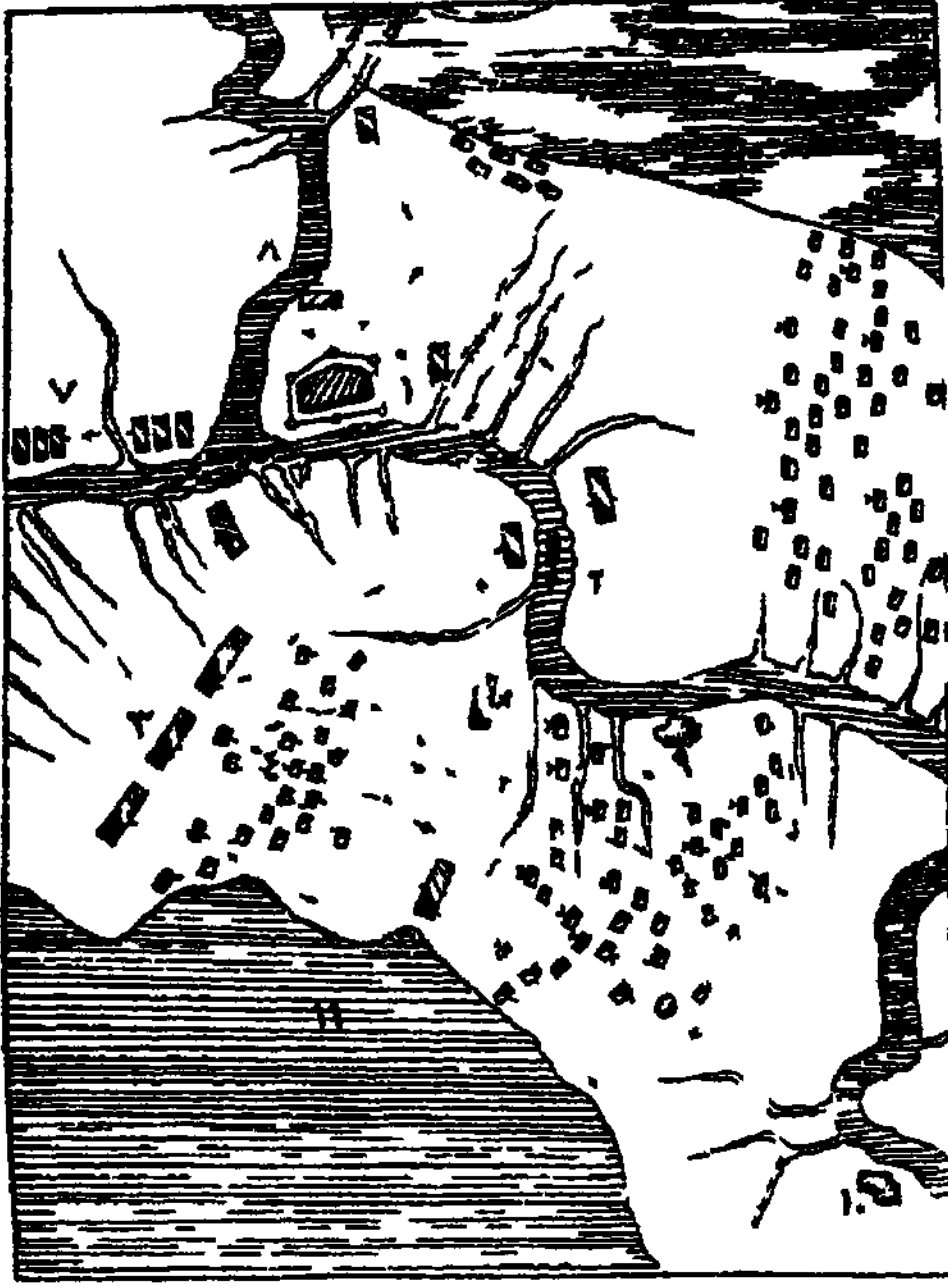
عسكر الجنود ليلاً في برنبال الجديدة ، وغادروها قبل شروق الشمس فوصلوا بحراً تجاه (الجمالية) في نحو الساعة العاشرة صباحاً ، فوَحلت سفنهم في بحر أشمون من قلة المياه ، وانتهزها الأتالي فهاجموا السفن الفرنسية وكانوا يتبعونها من بعيد ، واشترك في هذا الهجوم أتالي الجمالية ، فأطلقوا النار على السفن وأمطروها وابلاً من الحجارة من أعلى سور بلدتهم ، فأمر الجنرال داماس بانزال الجنود الى البر لرد هجوم الأتالي ، وأمكنه أن يفرق الجمع التي أحْدقت بالقوة الفرنسية ، ولكنه بعد قتال أربع ساعات انسحب من الموقع الذي نزل به ورأى أنه لا يستطيع الثبات به ولا متابعة السير في بحر أشمون ، فأضرم النار في الجمالية وعاد أدراجه الى المنصورة ومعه حرقاه وقتلاه

سلك الجنرال داماس في عودته الى المنصورة طريق البحر الصغير ومر في طريقه بميت سلسيل (٥) فأمر باحراقها وكان أهلها قد تمردوا وأخلوا بلدتهم وأوغلوا بعيداً عنها بحيث كانت تفصلهم مياه الفيضان والمستنقعات عن خط سير الحملة فلم يستطع داماس اللحاق بهم

(١) و (٢) و (٣) من بلاد مركز دكرس على البحر الصغير

(٤) و (٥) من بلاد مركز دكرس على البحر الصغير

خريطة معركة الجمالية



- ١ — الجمالية والسور الذي كان يحيط بها
- ٢ — بحر أشمون (البحر الصغير)
وفيه السفن المقلدة للحنود
- ٣ — المواقع الاولى التي نزل بها
الحود الفرنسية لمقاومة هجمات
الاهالي
- ٤ — جموع الاهالي الذين هاجموا
الحود الفرنسية
- ٥ — انسحاب الاهالي بعد كسر
هممهم الاولى
- ٦ — انسحاب التوار من الجمالية
والتحاورهم الى استنقعات
- ٧ — انسحاب الفرنسيين الى المصورة
بعد انتهاء المعركة
- ٨ — رعة اجالية
- ٩ — ميب شريف
- ١٠ — ابو احد
- ١١ — بركة مياه

عن خريطة مودعة في محفوظات وزارة الحربية الفرنسية سنة ١٠٠٠ نشرها
القومندان دي لاجون كير سنة ١٨٩٩

كانت معركة الجمالية ذات شأن وخطر ، وصفها الصابط حرلاس GAZIIS من
ضباط كتيبة الجنرال داماس في تقريره عنها قل :

« لما وصل بحراً تجاه الجمية ، وهي قرية كبيرة قوية على الشاطئ الغربي من بحر
أشمون ، فوحشت السفن التي كانت تقل الجنود بعاصفة من الأحجار وارضاص انبثات
من أسوار المدة وبيوتها ، وفي الوقت نفسه ركب جموع كبيرة من العرب والمماليك

والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والعصي (الشباريخ) تهرع من الجهات المجاورة مسرعة إلى مهاجمتنا ، وكان بعضهم را كين الخيل ، وأكثرهم مشاة ، فدهشنا لهذه الهجمة العنيفة ، ولكننا لم تؤخذ على غرة ، ونزلت الجنود حاملة سلاحها إلى البر الشرقي المقابل للقرية وتأهبوا للقتال منتظرين قدوم الاعداء (الأهالي) ، فرأينا أكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم ويهجمون إلى أن يصبحوا في وسط جنودنا ، لكن الجنود حاربوهم ببسالة ، وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصي يهاجموننا بحماسة فيستشهدون بين أسنة رماحنا ، وصدر لى الأمر باطلاق النار على الأعداء المهاجمين ، فأطلقنا النار عليهم وفرقنا هذه الجموع بعد أن تركت الميدان مغطى بجثث القتلى ، ولقد تمكن بعضهم أن يعبروا التربة ثانية ويمتنعوا فى الجمالية ، وهى قرية محاطة بالأسوار تحميها تربة أشمون (البحر الصغير) من جهة والمستنقعات التى تغمرها المياه من جهة أخرى ، فأمرنى الجنرال داماس أن آخذ القوة الكافية وأستولى عنوة على القرية ، فعبرنا التربة بجسر أقمناه على عجل ، ووزعت جنودى ، فعمدت إلى جزء منهم رد الهجمات الآتية من خارج القرية ، وهجمت بقوتى على القرية ، واقتحمنا الباب الكبير رغم مقاومة أهلها الذين دافعوا عنها دفاعاً قويا ، فاستولينا على جزء من القرية ، ولكن الأهالى ظلوا يدافعون عن الجزء الآخر ممتنعين فى البيوت والشوارع ، وهجم الثوار على القوة التى دخلت القرية ولكن صدهم البنادق والحرا ب ، وحصر جزء منهم فى القرية وتمكن جماعة آخرون أن يتسللوا منها فقتلتهم القوة المراقبة حولها ونجا منهم من ألقوا بأنفسهم فى المستنقعات وذهبوا سباحة يحمون أسلحتهم »

وقدر جازلاس خسائر الفرنسيين فى هذه المعركة بخمسة قتلى وخمسة عشر جريحاً

وقدر خسائر الأهالى بخمسمائة (١)

(١) أشار نابليون الى واقعة الجمالية فى رسالته الى الديركتوار بتاريخ ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ بقوله « بلغ الجنرال داماس الجمالية فهجمت قوة من العرب منضمين إلى الفلاحين على جنودنا ، فأتخذت التدابير الحربية التى انتهت بر د هذا الهجوم ، وامتاز الضابط جازلاس فى هذه الواقعة »

انتهت معركة الجمالية باحراق البلدة وانسحاب الفرنسيين ، وعادت قوة الجنرال داماس الى المنصورة يوم ٢١ سبتمبر بعد أن مرت وهي راجعة بالكردى ومنية محلة دمنة ، وكان الاهالى فى معظم القرى التى مر بها الجيش يخلون بلادهم خوفاً من انتقام الفرنسيين بحيث كان الجيش يصلها فلا يجدها إلا خالية

عود الى حسن طوبار

لم توفق الحملة الاولى على البحر الصغير فى إتمام مهمتها ، وبقي حسن طوبار قوياً يثير البلاد ويستفز الناس للمقاومة ، وكان الفرنسيون يحسبون له حساباً كبيراً ويسعون بمختلف الوسائل أن يخضعوه أو يجتذبه إلى صفوفهم ، وقد اتصل به الجنرال فيال Vial فى دمياط وأظهر له حسن طوبار استياءه مما بلغه من إحراق الفرنسيين للجمالية وقال إن هذا العمل سبب عليه فى هذه الجهات لأن أهالى الجمالية يعتبرون أنفسهم فى حمايته ، وقد أبلغ حسن طوبار الجنرال فيال أن ما أحدثه فى نفسه إحراق الجمالية من القلق والهم يمنعه من مقابلته ، وأرسل نابليون من القاهرة بعض الهدايا إلى الجنرال فيال ليقدمها باسمه إلى حسن طوبار يستميله بها ، فكتب فيال الى الشيخ حسن يدعوه إلى الحضور لتسلم هذه الهدايا فأبى حذراً من أن تكون الهدايا وسيلة للقبض عليه

وكان حسن طوبار يخادع الفرنسيين عن خطته ومقاصده ، فقد أرسل له الجنرال داماس أثناء حملته بالبحر الصغير يدعوه إليه ، فجنب الرسول انه لا يأتى دفع الضرائب العادية على أن يتركه الفرنسيون حراً ولا يعرضوا له بسوء ، وفى الوقت نفسه كان حسن طوبار يستعد للقتال ويرسل عياله وأمواله الى غزة (١) ، ومما زاد الفرنسيين ريبة فى مقاصده أنهم علموا نبأ حركة يقوم بها الأتراك فى عكا بسواحل سوريا إذ يجمعون هناك السفن بقصد الاغارة على بحيرة المنزلة من طريق فم الديبة (٢) ، وأن هذا هو السبب فى حشد الشيخ حسن طوبار كل مائاته يده من

(١) يوميات الجنرال داماس بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(٢) من فتحات بحيرة المنزلة على البحر الأبيض المتوسط

السفن فى بحيرة المنزلة ليسترك فى تلك الحملة البحرية ، وتواترت الأخبار فى ذلك الحين بأنه متفق مع ابراهيم بك زعيم المالك الذى كان مرابطاً بفلول جيشه فى جنوب سوريا ، وأنها على اتصال مستمر لمقاومة الفرنسيين ، فحسن طوبار كان يشعل نار الثورة فى مختلف البلاد الواقعة بين دمياط والمنزلة والمنصورة ، وبينما كان يثير الأهالى فى بلاد البحر الصغير ، كان فى الوقت نفسه يجمع مراكبه فى بحيرة المنزلة لمهاجمة دمياط ، وكان الرجل فى نظر الفرنسيين عنواناً للمقاومة والعصيان

جاء فى يوميات الجنرال لوجييه « لقد تأكدنا أن حسن طوبار كان يجوب بنفسه البلاد الواقعة على بحر أشمون يحرص الأهالى على الثورة ، وكان يرسل إلى بعض البلاد الأخرى رساله وأتباعه لتنظيم المقاومة ضد الفرنسيين ، وأنه هو الذى دبر واقعة الجمالية ، غير أنه من الصعب أن نلقى يدنا على هذا الرجل مع نفوذه العظيم بين الأهالى ، وان فى استطاعته أن يحشد علينا قوات كبيرة جداً ، وقد جاءتنا الأخبار أن أهالى بعض القرى الواقعة على النيل أطلقت النار على السفن المقلّة للجنود الفرنسية ، وأن الدلائل تدل على أن الثورة عامة ، ومن المحقق أننا كنا نستهدف لأخطار بالغة لو تشجع الثوار بالتصاريض فى قلوبهم نار الحماسة »

فى دمياط

كانت دمياط (كما هى الآن) من أهم بلاد القطر المصرى من الوجهتين الاقتصادية والحربية ، وكانت مركزاً تجارياً وصناعياً كبيراً ، تصدر منها متاجر البلاد ونزد إليها وارداتها القادمة من سوريا وقبرص والأناضول وتركيا واليونان وفرنسا ، وبها كثير من الوكائل والخانات القائمة آثارها الى اليوم ، واشتهرت بتجارة الأرز والأقمشة والمنسوجات والخشب ، وكانت تزاحم الاسكندرية فى مركزها التجارى ، واشتهرت هى والقرى المحيطة بها بصناعة الأقمشة إذ تنسج بها أحسن منسوجات القماش والخير والتيل بالقطر المصرى

قدر « ريبو » عدد سكان دمياط في ذلك العصر بستين ألف نسمة (١) ، ويلوح لنا أن هذا التقدير فيه شيء من المبالغة ، لأن المسيو جومار أحد مهندسي الحملة الفرنسية يقدّرهم بعشرين ألفاً (٢) ، وإحصاء أقرب إلى الثقة لأنه جاب أنحاء مصر ودرس أحوالها عن كتب بخلاف المسيو « ريبو » ، ويقول كلوت بك في كتابه (٣) أن عدد سكان دمياط في عصر محمد علي كان يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ ألفاً في الوقت الذي وضع فيه كلوت بك كتابه ، أي حوالي سنة ١٨٤٠ ، ومن المحقق أن دمياط كانت إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ثاني بلد في القطر المصري بعد القاهرة في عدد السكان ، ويقول الدكتور ديجنت كبير أطباء الحملة الفرنسية في كتابه (٤) إن عدد سكان دمياط كان وقتئذ يزيد عن ضعف سكان المنصورة .

امتدت شعلة الثورة الى دمياط وظهرت علائم الاضطراب والهياج حولها من أوائل سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فرسل الجنرال فيل إلى الجنرال دوج ينذره بقرب هجوم الثوار على المدينة ويطلب امدد ، وينبئ بأن حسن طوبار يحشد أسطولاً كبيراً في بحيرة المنزلة لمهاجمة المدينة

وقع الهجوم المنتظر ليلة ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ واشترك فيه أهالي البلاد المجاورة لدمياط ، واشترك فيه أيضاً أسطول حسن طوبار الذي تحرك في بحيرة المنزلة قصداً شطوط دمياط ، فوصل إلى (غيط النصاري) شرق المدينة ، والتقى الأهالي القادمون من القرى بالنازلين من السفن ، وكانوا مسلحين بالبنادق والرماح ، وساروا قصدين دمياط لمهاجمة قوة الجنرال فيل ، فقتلوا الحراس الفرنسيين المرابطين في الخفر

(١) التاريخ العلمى والحربى لحملة افرنسية الجزء الرابع

(٢) تخطيط مصر الجزء التاسع

(٣) لمحة عامة الى مصر الجزء الاول

(٤) التاريخ الطبى لجيش الشرق

الأمامية للمدينة ، وظل القتال متواصلاً ليلة ١٦ سبتمبر إلى أن رقب الجنرال قواته فتحول موقفه من الدفاع إلى الهجوم ، وتمكن من التغلب على الثوار وردم على أعقابهم بعد ما كبدهم خسائر جسيمة ، وانسحب معظمهم إلى شاطئ البحيرة ، فركبوا السفن التي كانت تنتظرهم ، وانجبت فرقة منهم إلى قرية (الشعراء)^(١) فتحصنوا بها وهذه القرية من دمياط على مرمى المدفع ، فاتخذها الثوار معسكراً لهم وجاءهم المدد من بحيرة المنزلة ، وفي خلال ثورة دمياط قام أهالي عزبة البرج وثاروا بالحامية الفرنسية قتلوا من أدركوهم من رجالها ، ولما علموا في اليوم التالي أن ثورة دمياط أخذت وأن الفرنسيين لابد آتون للاقتصاص منهم أدخلوا البلدة بعيالهم ونسائهم وانحدروا في المراكب قاصدين إلى سواحل سوريا ، وقد أنفذ الجنرال فيال حملة على تلك البلدة فوجدتها خالية من السكان فنهبتها وأحرقها وعادت إلى دمياط

واقعة الشعراء

تشجع الجنرال فيال بالمدد الذي جاءه من المنصورة ، وبحضور الجنرال اندريوسى الذى أوفده نابليون ليوطد سلطة الجمهورية في تلك الأصقاع ، فتقدم الفرنسيون يوم ٢٠ سبتمبر للاستيلاء على الشعراء ، وكان يدافع عنها نحو ١٥٠٠ من الثوار تحميهم البحيرة من جانب والنيل من جانب آخر ، فافتحم الجنود القرية واستولوا عليها عنوة ، ونهبوها وأضرموا فيها النار ، واستولوا على مدفعين للأهالي وعلى السفن التي كانت على مقربة من الشعراء ، ويقول الجنرال لوجييه في يومياته إن الثوار خسروا في هذه المعركة نحو خمسين قتيلاً ، ويقول ريبو إن الفرنسيين خسروا اثني عشر قتيلاً وثلاثين جريحاً^(٢)

(١) جنوب دمياط على مقربة من البحيرة والا ن على ترعة الشرقاوية
(٢) ذكر نابليون في منشور من منشوراته العسكرية (بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨) واقعة الشعراء ولكنه بالغ في وصفها إذ ذكر أن عدد الثوار فيها كان عشرة آلاف وأن خسائرهم بلغت ١٥٠٠ قتيل وغريق ، وهذا المنشور

تفانم الثورة وفضائع الجنرال فيال

تفانمت الثورة في البلاد الواقعة بين المنصورة ودمياط، وتعددت حوادث مهاجمة الثوار للسفن الفرنسية المقلدة للجنود في النيل ، وقتل في خلال هذه الحوادث بعض الجنود والبحارة ، وكانت قرية ميت الخولى الواقعة على النيل أكثر القرى اعتداء على السفن ، فقام الجنرال فيال من دمياط في خلال شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ ونزل بطريق النيل ومعه القوة الكافية من الجنود لمعاينة البلاد التي هاجمت السفن ، لكنه أسرف في التنكيل ولم يفرق بين القرى النائرة والقرى الآمنة الهادئة ، وأوقع بها كلها نهباً وإحراقاً ، مر أولاً بالظاهرية (١) فوجدتها خالية من السكان لأن أهلها أدخلوها قبل أن تصل إليهم الجنود الفرنسية كي لا يستهدفوا للانتقام ، ثم بلغ كفر المياسرة فوجدتها كذلك خالية من سكانها ، ومر بالزرقا فوجد مشايخ البلد قد لاذوا

وارد في مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٨٠ ، وليس من المعقول أن يحتشد في (الشعراء) عشرة آلاف ثائر مهما كان عدد المدد الذي جاء من البلاد المجاورة أو من بحيرة المنزلة ، وبالتالي لا يمكن أن تبلغ خسائر الأهالي ١٥٠٠ قتيل ، والظاهر أن هذه المبالغة راجعة إلى الإحصاء المكذوب الذي أورده الجنرال فيال في رسالته إلى نابليون عن المعركة لينتحل لنفسه فخراً لا يستحقه ولتمظيم منزلته عند نابليون ، على أن فيال هذا ذكر في رسالة له إلى الجنرال دوجا عن هذه الواقعة أن عدد قتلى الثوار فيها لم يزد عن ثلثمائة ، وفي هذا أيضاً مبالغة ، والواقع أن الجنرال فيال كان معروفاً عنه المبالغة والاغراق في رسائله وتقاريره ، وقد أشار الجنرال (لوييه) في يومياته إلى مبالغاته وذكر بالذات أرقامه عن واقعة الشعراء فقال في هذا الصدد « ان الجنرال فيال بالغ في تقريره مبالغة مدهشة فجعل خسائر الأعداء (الأهالي) ١٥٠٠ قتيل في حين أن خسارتهم لم تبلغ خمسين قتيلاً » وهذا الإحصاء هو الذي اعتمدنا عليه (١) مديرية الغربية على الشاطئ الغربي لقرع دمياط شمال شربين وتسمى الضهرية

بالفرار ، ووصل إلى ميت الخولى التى كان أهلها أكثر اشتراكاً فى الاعتداء على الجنود فآذاهم قد أدخلوا بلادهم وكانت قرية كبيرة محصنة محاطة بسور يحيط به خندق ، فاستولى الجنرال فيال على المدينة وعلى ما وجد فيها من الأسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع قديمة وأمر جنوده بنهب البلدة وإحراقها

واستمر فى طريقه بالنيل وأراد أن يفاجئ بقرية الأحمدية الواقعة بالبر الغربى ولكن أهلها أدخلوها قبل مجيئه ، ثم اتجه إلى شرمساح بالبر الشرقى وعاد منها إلى كفر الزعاتره وهى آخر بلدة حط بها أثقاله فى هذه الرحلة ، فوجد فيها بعض الأهالى الآمنين بعد أن هجرها معظمهم ، ثم عاد إلى دمياط فوصلها ليلة ١٤ أكتوبر ومعه بعض الرهائن من أعيان البلاد ، فأرسلهم مخفون إلى القاهرة

اعترف الجنرال فيال فى رسالته إلى الجنرال دوجا بأنه الأمر بنهب ميت الخولى انتقاماً من الأهالى لاعتدائهم على الجنود الفرنسيين ، وقد لأمه نابليون على هذا الأمر وأرسل له يقول « لقد استأثرت من نهب قرية ميت الخولى وكان يكفى تجريدتها من السلاح » (١)

وكتب الجنرال لوجييه فى يومياته يصف المساوىء التى ارتكبها الجنرال فيال فى اقتصاصه من ميت الخولى والقرى المجاورة :

« فى اليوم الذى عاد فيه الجنود إلى دمياط بعد هذا النهب كانت مدينة دمياط أشبه بسوق أو مواد باع فيه الجنود الفرنسية إلى الأروام ما نالته أيديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشى والطيور والثيران والبقر والخيل والحمر والغنم والدجاج والأوز . . . وكثيراً من قطع الذهب والفضة التى كانت حلياً للنساء »

وقد أمر نابليون الجنرال دوجا بالانتقال إلى دمياط لمواجهة الحالة الثورية فيها وكانت فظائع الجنرال فيال وجنوده قد أوجعت فى النفوس نار الكراهية واستفرت الأهالى الأخذ بالثأر ، والاستماتة فى مقاومة الفرنسيين

وأرسل نابليون إلى دمياط بعض السفن المسلحة لتكون عند أمر الجنرال دوجا

(١) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٤٧٦

في بحيرة المنزلة ، ولتضمن بسط سيادة الفرنسيين فيها ، على أن مركز الفرنسيين في جهات دمياط والمنزلة ظل مزعزعا وسلطتهم مردودة في معظم البلاد ، كتب الجنرال لوجييه في يومياته يقول .

« لم تتحسن الحالة كثيراً عما كانت عليه حينما جاء الجنرال دوجا لأول مرة إلى دمياط ، والسلطة الفرنسية مازالت منكورة في معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية ، وفي دمياط نفسها التي تعتبر من أعظم بلاد القطر المصري لا يأمن الجندي الفرنسي على حياته إذا هو ذهب إلى حي الوطنيين ، والحامية الفرنسية مقصورة في حي الأروام » .

الحملة الثانية على البحر الصغير

رأى نابليون أن نفوذ حسن طوبار يخلق للفرنسيين كثيراً من المصاعب ويزعزع سلطتهم في جهات البحر الصغير والمنزلة ويتبر في نفوس الأهالي روح الثورة ، فعزم أن يجرد عليه حملة ثانية لاحتصائه والاستيلاء على المنزلة ، وكان لا يفتأ يهتم بتوطيد سلطه فرنسا في البلاد الواقعة بين النيل (فرع دمياط) وبرزخ السويس لأنها الجبهة الشرقية للقطر المصري ، لذلك كان يفكر في تحصين بعض المواقع في تلك الجهات لحماية حدود مصر وتأمين مواصلات الجيش ، وإيكن حوادث الثورة التي سببت في تلك البلاد عطلت وقتاً ما تنفيذ مشروعه

على أن نابليون أدرك عواقب هذا التأخير فوفد الجنرال اندريوسي Audreossi ليقيم بترميم مصب النيل واتخاذ دمياط موقعا حربيا منيعا ودراسة بحيرة المنزلة ليتعرف إلى أي حد يمكن استخدامها في حدة الهجوم على مصر من جهة سوريا أو الهجوم على سوريا من مصر ، وطلب منه أن يعضي في اكتشافه لبحيرة المنزلة حتى آثار مدينة بيلوز القديمة الواقعة في نهاية البحيرة شرقا ودراسة فتحاتها على البحر الأبيض المتوسط والتحقق مما إذا كانت السفن الأنجليزية أو العثمانية تستطيع الدخول إلى بحيرة المنزلة وإنزال الجنود على شواطئها وتقدير المسافة بين بيلوز والصالحية ، وأصبحه ببعض المهندسين

في مهمته بدمياط وبحيرة المنزلة ، ثم أرسل إلى الجنرال رينييه قومندان الشرقية بأن يعاون الجنرال أندريوسى في مهمته .

وصل الجنرال أندريوسى الى دمياط فالتقى مركز الفرنسيين مزعزعا وتعذر عليه أن يرتاد بحيرة المنزلة لأن الثورة التى شبت فى القرى المجاورة لها كان من نتائجها أن أوغل أصحاب المراكب فى عرض البحيرة بحيث لم يجد مركبا منها ، وكتب إلى نابليون يخبره أن لاسبيل إلى تسلط الفرنسيين على بحيرة المنزلة إلا بعد سحق حسن طوبار والقضاء على قوته الكبيرة ، فبالاستيلاء على مدينة المنزلة التى يسكنها تصبح مركزاً حرياً للحركات العسكرية فى البحيرة وتكون ملتقى المواصلات الحربية بين المنصورة ودمياط وميت غمر والصالحية وبيلاوز

أرسل نابليون المدد إلى الجنرال دوجا وكلفه بتجريد حملة عسكرية على مدينة المنزلة للاستيلاء عليها وإرسال كتيبة أخرى الى الجنرال اندريوسى للاستيلاء على جميع الجزائر الواقعة فى بحيرة المنزلة ، وشدد عليه فى هذه الرسالة أن يأخذ حسن طوبار ولو بالخدعة (١) وأن يرسله الى القاهرة ، وأوصاه كذلك بالقسوة على الثائرين وإخضاع البلاد الكائنة بين المنصورة ودمياط إخضاعاً تاماً وأوصاه « بتجريد القرى من السلاح وقطع الرؤوس وأخذ الرهائن (٢) »

التقى الجنرال اندريوسى فى دمياط بالجنرال دوجا الذى جاءها من المنصورة بعد ما نصبه نابليون قومنداناً للمديريتين ، فتبين له أن مركز الفرنسيين مضطرب وأن سوء إدارة الجنرال فيال وقسوته كان لها أثر فى اضطراب الحالة واختلالها ، فقد ثبت أنه كان يهاجم القرى الآمنة وهى مطمئنة لم ترفع السلاح فى وجه الفرنسيين ولا يفرق

(١) رسالة نابليون إلى الجنرال دوجا فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ . مراسلات

نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٧٤

(٢) مراسلات نابليون الجزء الخامس وثيقة رقم ٣٣٧٤

بينها وبين القرى الشائرة ، وكان يصادر الأهالى وبرهقهم بالاتاوات والغرامات ، ونسب إليه بعض زملائه أنه احتكر تجارة الخمر في دمياط

سير الحملة والاستيلاء على المنزلة

وضع الجنرال دوجا أثناء تعهده لدمياط خطة الحملة التى أمر قابليون بتجريدها على جهات المنزلة لإخضاع حسن طوبار ، فاتفق مع الجنرال أندريومى على أن يقصد هذا الأخير إلى مدينة المنزلة بطريق البحيرة على ظهر المراكب التى جمعها لهذا الغرض ، وأن تسير إليها قوة أخرى بقيادة الجنرال داماس Damas بطريق البر من المنصورة فتطبق القوتان على المدينة من البر والبحر وبذلك يقضى على مقاومة حسن طوبار ، وكانت الخطة المرسومة تقضى بأن يبدأ الجنرال أندريومى بالاقلاع بسفنه وجنوده قبل أن تتحرك القوة الأخرى من المنصورة بأربع وعشرين ساعة

تحركت قوة الجنرال داماس من المنصورة يوم ٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ الساعة السادسة صباحاً ، فقلت السفن قسماً من الجنود وسار القسم الآخر براً محاذياً المراكب ثم عرجت على بحر أشمون (البحر الصغير) الذى كان يتفرع من النيل على مقربة من المنصورة (١)

وصف الجنرال لوجييه Laugier أحد قواد هذه النجريدة في يومياته تفاصيل هذه الحملة ، قال يصف البلاد التى مر بها :

« دخلت السفن ترعة أشمون ، وهذه الترعة واسعة وعميقة جداً ، على أنها تضيق كلما اقتربت من مصبها ببحيرة المنزلة ، وهى تخترق بلاداً غنية فى الخصوبة ، وعلى شاطئها غرست أشجار الجيز الباسقة وأشجار أخرى تدانىها فى العلو ، ولم نجد فى القطر المصرى جهة كثيرة الشبه بفرنسا مثل هذه الجبة ، فبعثت فىنا هذه المشابهة الشجور والحنين إلى الوطن ، والمسافة بين المنصورة والمنزلة تبلغ عشرين فرسخاً عددنا بها خمسا وأربعين قرية كلها آهلة بالسكان »

(١) الآن يتفرع من ترعة المنصورة

سارت الكتيبة حتى وصلت الى منية محلة دمنة ولم تلق في طريقها مقاومة تذكر لأن القسوة التي استعملها الجنرال داماس في حملته الاولى وما أصاب أهالي الجالية من الخسائر قد أضعف روح المقاومة ومال بهم إلى الاخلاص ودفع الضرائب المطلوبة منهم ، فكانت كل قرية دفعت ما عليها من الضريبة ترسل من أهلها رجلاً يحمل الوصل بالدفع فينتظر مرور الحملة فإذا أقبلت رأت هذا الرجل واقفاً لا يتحرك وقد جعل الوصل في رأس « نبوت » رفعه لهم يروه ، والقرية التي لم تدفع ما عليها تبادر إلى الدفع ثم وصلت الحملة الى أشمون^(١) في منتصف الساعة السابعة مساءً فسكرت ليلاً ، وفي اليوم التالي (٥ أكتوبر سنة ١٩١٨) قبل شروق الشمس تابعت سيرها بعد أن أرجع الجنرال داماس الى المنصورة تسعة من مرافقه الكبيرة التي لم تستطع مواصلة السير لان التربة بدأت من هذه النقطة تضيق ويقل عمقها ويتعذر سير المراكب فيها ، ثم وصلت الى (الكردى) ، وهناك جاء وفد من المنزلة يقصد مقابلة قائد الحملة للمفاوضة مع الفرنسيين ويطلب ضماناً بأن لا يعاملهم الجيش الفرنسي معاملة الأعداء ، ويظهر أن هذا الوفد جاء بإيعاز من الشيخ حسن طوبار لما استيقن بأنه هو المقصود بهذه الحملة العسكرية ، وبالرغم من أن الوفد يعلم مبلغ كراهية الفرنسيين لحسن طوبار فإنه لما سئل عن مقاصده أثنوا عليه أحسن الثناء ، وقد كتب لهم الجنرال داماس تصريحاً بضمانه أرواح الأهالي اذا سلكوا مع الجيش مسلك الولاء قال الجنرال لوجييه في يومياته « في كل جهة مررنا بها من المنصورة الى المنزلة كنا نسمع ثناء الأهالي على حسن طوبار وهو محبوب منهم حباً شديداً وهو غني تقدر ثروته بالملايين (من الفرنكات) يملك الأراضي الواسعة ومصانع نسج القطن ومصانع الصباغة والمتاجر الكثيرة »

احتلال المنزلة

وفي يوم ١٦ أكتوبر سمع جنود الحملة قبيل الفجر أصوات طلقات البنادق آتية

(١) من بلاد مركز دكرنس ومعروفة الآن بأشمون الزمان

من مدى بعيد ، وتبين لهم من اتجاه الصوت أن معركة نشبت على مقربة من دمياط ، فسارعت الحملة إلى المنزل^(١) فوصلت تجاهها الساعة العاشرة صباحاً ، وكان الأهالي ومعهم حسن طوبار قد اخلوها ولم يبق بها إلا الشيوخ الذين لا يقدرّون على السير والمعجّاز من النساء فدخل الجنود المدينة دون مقاومة وجابوا طرقها وأزقتها ، واستوقف نظرهم منازل حسن طوبار التي كانت تسترعى النظر لسمتها وجمال منظرها وبنائها على الطراز الشرقي وكانت مقفلة الأبواب خالية من السكان ، وقد أراد بعض الضباط ومنهم الجنرال لوجييه أن يدخلوها فقبل لهم من الأهالي إن مفاتيح الأبواب غير موجودة ففتحوا مدخل أحدها ولكنهم لاحظوا أن انتهاك حرمة مساكن حسن طوبار يشير غضب الأهالي فانسحبوا منها^(٢) واحتلوا داراً جعلوها المعسكر العام للحملة ، وبالرغم من الضمانة التي كتبها الجنرال داماس لوفد المنزل فإن الجنود قد نهبوا البيوت واشتد الصخب وعلت الشكوى ، فاضطر الجنرال داماس إلى إصدار أوامره المشددة لمنع النهب ورد الجنود إلى النظام ، وبذلك تم للجنرال داماس احتلال المنزل أما أسطول الجنرال أندريوسى فقد خفق في مهمته إخفاقا شديداً ، ذلك أن مراكبه أقلعت من دمياط يوم ١٣ أكتوبر قبيل الفجر تقل جنوده المجهزين بالأسلحة والمدافع وكان عدد هذه المراكب ١٦ سفينة منها ثلاث سفن حربية

خرجت السفن من بوغاز دمياط ثم عرجت على فم الديبة فمرت منه إلى بحيرة المنزل وقطعت هذه المرحلة في ثمانى ساعات ، ثم اتجه الجنرال أندريوسى بقوة صوب المطرية ، ولكنهم شاهدوا في نحو الساعة الثالثة مساءً أسطولاً من المراكب الشراعية منعها نحو الشرق تحجبه عن القوة الفرنسية الجزائر التي في البحيرة ، فواصلت سفن الجنرال أندريوسى المسير حتى قربت من المطرية ، وقبل

(١) يبلغ عدد سكان المنزل في ذلك العصر نحو ألفي نسمة كما قدرهم الجنرال أندريوسى في تقريره الذى قدمه إلى المجمع العلمى وذكر عنها أن بها مصانع لنسيج الحرير والكريشة والملايات وبها بعض مصانع الأقمشة

(٢) يوميات الجنرال لوجييه

أن تصل إليها خرجت مراكب الأهالي فجأة من خلف الجزر التي تحجبها وأقبلت على السفن الفرنسية قاصدة الاصطدام بها وإغراقها ، فأدرك الجنرال اندريوسى خطورة الموقف وخشى عواقب الاصطدام لأن المراكب المصرية كانت تبلغ مائة مركب ، فنكص راجعاً الى دمياط وأطلقت المراكب المصرية النار على السفن الفرنسية ، فأجابت هذه باطلاق الرصاص من البنادق والمدافع التي بها ، وأخذت في الوقت نفسه تتراجع تفادياً من الاصطدام بمراكب الأهالي ، وكانت هذه تتعقب السفن الفرنسية قاصدة احتلال دمياط ودرست باقرب من « المنية » (١) ، لكن القوة الفرنسية أطلقت النار عليها فنهت العوريات الفرنسية التي كانت تتولى حراسة ضواحي دمياط ، فأقبلت لنجدة الجنرال اندريوسى وظل بحارة المراكب الأهلية يناوشون السفن الفرنسية إلى أن انسحبوا في نصف الليل وتركوا سفينة تراقب حركات الفرنسيين ، وظلت هذه السفينة على مرأى من سكان دمياط طول يوم ١٤ أكتوبر ، وفي يوم ١٨ أكتوبر أعادت المراكب الأهلية كرة الهجوم على دمياط ولكن نار المدفعية الفرنسية والسفن الحربية ردتها عن المدينة

كانت حركة المراكب المصرية خطيرة واسعة المدى وكادت تكون وخيمة العواقب على الفرنسيين لو لم يحبطها احتلال الجنرال داماس لمدينة المنزلة ، فقد كانت الخطة الموضوعة بالاتفاق بين أهالي المطرية والمنزلة أن يحتلوا دمياط بحرا بطريق بحيرة المنزلة ، والظاهر أن المائة سفينة التي شاهدها الجنرال اندريوسى في البحيرة كانت تحمل المتطوعين من الأهالي لهذا الغرض ، لكن القوة الفرنسية ردتهم عن دمياط ثم جاء احتلال الفرنسيين للمنزلة فأحبط خطة الحملة البحرية التي نظمها أهالي المنزلة والمطرية ، وقد كان الفرنسيون جادين في احتلال هاتين المدينتين لأنهما يضمنان لمن يستولى عليهما السيادة في البحيرة ، فالمطرية بأسطولها المؤلف من المراكب الشراعية والمنزلة بقوة حسن طوبار ونفوذه كانتا مفتاح هذه السيادة ، فسقوط المنزلة في يد الفرنسيين شل خطة المقاومة التي وضعها حسن طوبار وأشياعه ، على أن هذه الخطة

(١) حبوب دمياط بغرب

كانت محكمة التدبير للدرجة أن الجنرال أندريوسى كتب عنها كثيراً في رسائله لنابليون وبما قاله في هذا الصدد : « إن استبسال العدو في الهجوم على دمياط يثبت أهمية هذا الموقع ، ويظهر أن الأنباء التي كانت وصلتنا عن قرب هجوم أهل المطرية والمنزلة على دمياط وانتظار حسن طوبار المدد من سوريا لم تكن بعيدة عن الحقيقة لأنى لا أعتقد أن الهجوم الذى فوجئنا به فى البحيرة يستطيع أن يقوم به جماعة من الصيادين فلا يمكن لمثل هؤلاء أن ينظموا مثل هذا الهجوم ويحكموه بمثل الحالة التى شاهدناها^(١) »

احتلال المطرية

وبعد أن تم للفرنسيين احتلال المنزلة سقطت المطرية فى أيديهم واحتلتها قوة الكولونل جازلاس Gazlas ، ثم وصلت إليها السفن الفرنسية من طريق بحيرة المنزلة بعد أن أخلاها أهلها وغادروها على ظهر مراكبهم

قضى احتلال المنزلة والمطرية على قوة المقاومة التى كان يديرها حسن طوبار ، فلم يجد أمامه سوى الهجرة الى غزة ، وبذلك انتهت تلك الحركة الواسعة المدى ، التى أقلقّت بال الفرنسيين زمناً ، وطويت صحيفة مقاومة ذلك الرجل الذى أزعج قواد الجيش الفرنسى وتردد اسمه فى تقاريرهم ورسائلهم ، وورد اسمه غير مرة فى رسائل نابليون الخالدة كعنوان للمقاومة الأهلية القوية ، وقد ظل بعد هجرته الى غزة مصدر قلق للفرنسيين ، وخشوا أن يفكر فى الرجوع الى شواطئ دمياط وبحيرة المنزلة ويستأنف مقاومته ، وجاءتهم أنباء بأنه يعد فعلاً قوة من المشاة فى غزة عزم على قلبها فى خمسين سفينة يحتل بها دمياط ، ولكن لم يتحقق شئ من هذا العزم ، كتب الجنرال دوجا الى نابليون فى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ ينقل اليه هذه الأخبار ، ولكن نابليون لم يعرها اهتماماً وكتب الى الجنرال دوجا يقول له :

« أما عن مشروع حسن طوبار فى الاقلاع بسفنه لاحتلال دمياط فمن المستبعد أن يفكر فى إنفاذ هذا المشروع بسفنه ورجاله المشاة دون فرسان ولا مدفعية ، وإذا

(١) رسالة الجنرال اندريوسى الى نابليون و ١٦ أكتوبر سنة ١٧٩٨

أقدم على ذلك فهذا هو الطيش بعينه »

وقد عاد حسن طوبار الى مصر بعد انتهاء الحملة الفرنسية على سوريا ، وتعهد بالانزام السكينة والهدوء في منطقته (١) ، ولكن يؤخذ من رسائل الجنرال كليبر أن السلطات الفرنسية لم تكن تثق به ولا تطمئن اليه ، وكان كليبر في عهد قيادته العامة يوصى الجنرال فردييه Verdier بمداراته ومراقبة حركاته (٢) إلى أن مات سنة ١٨٠٠ ونشرت جريدة (كوريه دليجبت) نبأ وفاته في العدد ٧٥ الصادر في ٩ تميدور من السنة الثامنة (٢٨ يوليه سنة ١٨٠٠) وقالت عنه ما خلاصته « في ١٠ مسيدور (٢٩ يونيه) مات فجأة حسن طوبار كبير مشايخ اقليم المنزلة مصاباً بالسكتة القلبية ، وكان هذا الرجل عظيم المكانة لأصله العريق وغناه الواسع ، وقد هاجر من بلاده في الأشهر الاولى من الحملة وعاد إليها بعد الزحف على سوريا ، وأذن له الجنرال بوناپرت في الرجوع الى مصر ، فأذعن من يومئذ وأخلد للسكون ، وقد خلفه في شياخة اقليم المنزلة أخوه شلبي طوبار »

هذا ولا يزال حسن طوبار يذكره كبار السن الى الآن في جهات البحر الصغير والمنزلة ويسمونه « حسن طوبار الكبير الذي حارب الفرنسيين »

(١) جاء في جريدة (كوريه دليجبت) وهي الجريدة شبه الرسمية للحملة الفرنسية بالعدد الصادر في ٢٦ مسيدور من السنة السابعة للجمهورية (يوليه سنة ١٧٩٩) ان حسن طوبار قدم خضوعه في أوائل شهر مسيدور (يونيه) وأبقى ابنه رهينة لدى الفرنسيين ليضمن إذعانه ، وجاء في رسالة نابليون الى الجنرال كليبر (حاكم منطقة دسباط وقتئذ) بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٧٩٩ ان حسن طوبار ترك ابنه بالقاهرة في مساء ذلك اليوم رهينة على أن يسافر هو الى دسباط

(٢) رسائل كليبر الى الجنرال فردييه بتاريخ ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٩ و ٢٢

مايو سنة ١٨٠٠

تحصين منطقة دمياط

عنى الفرنسيون بتحسين منطقة دمياط فانشأوا قلعة بعزبة البرج (١) ، وقلعتين على مدخل البوغاز شرقا وغربا ، وأقاموا كذلك طابية بالديبة على مدخل بحيرة المنزلة غربى اشتوم الجميل ، وأخرى على فتحة ام مفرج من فتحات البحيرة ، وطابية ببوغاز البرلس

ويظهر لنا أن قلاع عزبة البرج والبوغاز أقامها الفرنسيون على أنقاض القلاع القديمة التى كانت بها ، فقد ذكر ارحالة فانسليب Vansleb أنه لما جاء إلى مصر ونزل بدمياط سنة ١٦٧٢ شاهد عند مدخل البوغاز قلعة قديمة مقامة بالبر الشرقى للنيل كانت فى حالة تهدم وأبراجها متخربة وفيها بعض المدافع لحماية البوغاز وأن هذه القلعة على بضع خطوات من بلدة سماها فانسليب قرية البوغاز ، وحقيقة اسمها قرية (عزبة البرج) لأنه يقول إن هذه البلدة يسكنها قباطين السفن والبحارة الذين يصحبون المراكب فى دخولها النيل أو خروجها منه ، والمعروف أن هذه البلدة هى عزبة البرج ، ويقول فانسليب أيضاً إنه شاهد فى هذه القرية أساس قلعة لم تدم ، وشاهد بالبر الغربى قلعة أخرى لحماية البوغاز (٢) ، وفى خريطة المسيوبول لوكاس Paul Lucas التى خطتها سنة ١٧١٧ رسم حصنين قديمين على جانبي بوغاز دمياط شرقا وغربا (٣) ، وقال السائح الفرنسى جرانجيه Granger الذى جاء مصر سنة ١٧٣٠ إنه شاهد هذين الحصنين فى تلك السنة (٤) ، وتكلم عنهما 'مسيو تيبودو Thibaudet' فى كتابه فقال إنهما كانا موجودين قبل الحملة الفرنسية ورمهم الفرنسيون ونصبوا

(١) الواقعة بالبر الشرقى للنيل تجاه رأس البر الآن

(٢) رحلة فى مصر لارحالة فانسليب

(٣) رحلات المسيو بول لوكاس فى مصر

(٤) رحلة فى مصر للمسيو جرانجيه

ففيها المدافع (١) وكذلك يقول الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية (٢) إنهما كانا قائمين قبل الحملة ويقول عنهما « إن هذين الحصنين أعدا للحماية مدخل البوغاز وإن الغرض من قلعة عزبة البرج منع السفن من دخول النيل ومنع العدو من التقدم الى دمياط براً إذا رسي على البر الشرقي »
واليك ما ذكره العلامة علي باشا مبارك عن هذه الحصون والاستحكامات وما زاد عليها في عهد محمد علي باشا وعباس باشا الأول واسماعيل باشا :
« قد أنشأ المرحوم عباس باشا سكة عسكرية من المدينة (دمياط) إلى البوغاز عرضها اثنا عشر متراً في طول ستة عشر ألف متر تمر في وسط المزارع على جملة قرى منها عزبة الخياطة وعزبة اللحم والحملة وعزبة الشيخ ضرغام حتى تصل الى قلعة البوغاز الكبرى التي أنشئت زمن دخول الفرنسيات أرض مصر في القرية القديمة المسماة بقرية البرج التي هدمها بنوبارت سر عسكر الفرنسيات لقيام أهلها ليلاً على عساكره وذبحوا منهم جملة ، وبنى بأنقاضها تلك القلعة ، ولم يبق من آثارها الا الجامع الذي بوسطها ومنزل صغير به الآن حكم دارها ، ومن إنشاء المرحوم عباس باشا أيضاً القشلاق الكبير الذي هناك على شاطئ النيل وجملة مخازن للبارود والمهمات العسكرية وصهريج كاف لشرب العساكر المراكبيين بتلك القلعة مع أهل عزبة البرج الجديدة التي في شمال القلعة ، ومن انشائه أيضاً عمارة السكرتينة ومحل الجمر في جنوب القلعة على شاطئ النيل ، وفي جهتي البوغاز شرقاً وغرباً قلعتان أنشئت في زمن الفرنسيات بصورة الاستحكامات الدائمة الموافقة لأسلحة ذلك الوقت القريبة المرمى الضعيفة التأثير ، وكانت قلعة الغرب مبنية بشكل سور مستدير محيط بالبرج القديم للمستدير الذي به مقام الشيخ يوسف في محل يعرف برأس البر ، ثم ان ساحل البر من بوغاز دمياط الى نورت سعيد لم يكن به قلاع سوى قلعة (الديبة) القديمة التي بنيت في

(١) تاريخ نابليون بونابرت ، حملة مصر الجزء الثاني طبع سنة ١٨٢٨

(٢) في كته به (مصر بعد معركة عين شمس)

زمن الفرنساوية بشكل بلائقة مربعة وفي وسطها برج مربع شاهق يرى من مسافة بعيدة ، وبينها وبين بوغاز دمياط اثنان وثلاثون الف متر ، وكانت على شريط الساحل القليل العرض الفاصل بين المالح وبحيرة المنزلة للحماية من دخول المراكب من أشتوم الديبة القديم ، وكذا الساحل الغربي من بوغاز دمياط لبوغاز بحيرة البرلس لم يكن به قلاع سوى قلعة بوغاز البرلس الغريسة المحاذية لسراية طبوزاغلي حاكم البرلس سابقاً ، وهي أيضاً أنشئت في زمن الفرنساوية بشكل بلائقة مربعة ذات أبراج مستديرة ، وكان إنشاؤها بمعرفة الامير (الجنرال) مينو الذي تقلد إمارة مصر بعد موت الامير (الجنرال) كليبر كما دلت عليه النقوش التي وجدت على بابها ، وقد حفظ مع أنقاضها التي وضعت في بناء القلعة الجديدة ، وكانت أماكن تلك القلاع قبل دخول الفرنساوية مراكز المرابطين للمدافعة ، فلما رأوا أن مواقعها هي أعظم النقط اللاتئة للاستحكامات بنوا فيها تلك القلاع فمحييت معالمها القديمة ما عدا برج ولي الله الشيخ يوسف الم رابط فانه لم يزل الى الآن ، وفي زمن المرحوم محمد علي باشا قد رمت تلك القلاع وأجري فيها بعض عمارات ، وكذلك في زمن المرحوم عباس باشا فانه أنشأ أربعة أبراج في غربي بوغاز دمياط بينه وبين أشتوم الجمعة وهو مصب فرع بحر شبين ، وأنشأ أيضاً برجاً فوق أشتوم الجليل في شرقي قلعة الديبة ، وجميع ذلك كان بمعرفة جليس بك مدير عموم الاستحكامات المصرية ، وفي زمن الأخديوى اسماعيل باشا قد أوصلت اسكة الحديد والتغرافيت إلى السنانية وأنشئ بها جهة بيان عسكرية ، منها قشلاق الفوريقة الجديدة المنشأة مع جملة فوريقات في زمن العزيز محمد علي باشا جعل لاقمة الألى بيده بعد ما أضاف اليه جملة مبن كفية للإيازه ، ثم أنشأ قشلاقاً آخر بجهة السنانية قريباً من محطة السكة الحديد ، وأنشئ في غربيه اسبتالية للعسكر تسع خمسمائة سرير ، وأوصل خط التغراف إلى قلعة العزبة الكبرى وإلى قلاع البوغاز ، وأجرى بقلعة العزبة الكبرى جملة عمارات وترميمات بداخلها وخارجها مع تجديد استرات خنادقها وبناء خطوط نيرانها القديمة وتسميك درواتها

حسب أصلها حتى صارت تقاوم مقذوفات العدو ، وعمر الجامع القديم الذى فى وسطها والمتزل الذى هناك ، وأنشأ حول كل من القلاع القديمة والأبراج قلاعاً حصينة أقوى من تلك القلاع القديمة بأوضاع مغايرة لها كما أنشأ جملة قلاع من هذا القبيل على عموم السواحل وجعلها من أعظم القلاع الحصينة لأجل مقاومة الأسلحة الجديدة البعيدة المرمى الشديدة التأثير ، وجعل لها قشلاقات لاقامة العساكر المرابطين بها ، ومخازن عظيمة للبارود والجلل والمهمات ، ولزيادة تحصينها جعلها فى أسفل الدراوى السميكة بحيث تأمن من تأثير مقذوفات العدو ، كما أنه وضع فى جميع هذه القلاع المدافع العظيمة الكافية ذات العيار الكبير والمرمى البعيد المعروفة باسم مخترعها (ارمسترنج) الانكليزى ، وجميع هذه الاستحكامات والمأثر جار على حسب التصميمات المعمولة بمعرفة أمير اللواء محمد باشا المرعشلى باشمهندس عموم الاستحكامات وقتئذ « (١)

(١) الخطة التوقيفية للعلامة على باشا مبارك الجزء الحادى عشر

الفصل السادس عشر

المقاومة في الوجه القبلى

فر مراد بك من معركة الاهرام منهزماً أمام الجيش الفرنسى ، وكان نابليون يحسب لقوته حساباً كبيراً ، فعهد بعد انتهاء المعركة وقبل أن يدخل القاهرة الى الجنرال ديزيه Desaix احتلال المنطقة الواقعة جنوبى الجزيرة وإقامة الاستحكامات والمواقع اقتفاء لهجوم مراد بك ، ولكن مراد بك لم يفكر فى الهجوم بل اتجه بقول جيشه إلى الصعيد ليكون بعيداً عن هجمات نابليون ، وقصد الى الفيوم واستقر عند ناحية البهنسا ، ولحق به المماليك الذين لم يرضوا أن يتبعوا ابراهيم بك فى فراره الى سوريا .

لم يفكر مراد بك فى مقاومة الجيش الفرنسى مقاومة جديده ، بل معظم ما لقي الفرنسيون فى الصعيد إنما نالهم من الاهالى الذين شدوا أزر المماليك فى مقاومة الجيش الفرنسى ، ولولا هذا التأييد وتلك المؤازرة لما سمع للمماليك صوت ولا انبعثت لهم حركة بعد هزيمة امبابه .

اعتزم نابليون إخضاع الوجه القبلى إذ رأى أن بقاء قوة معادية فى الصعيد يهدد سلطة الحكومه المركزية ويكون مثابة المقومة الأهلية ويعطل الملاحة فى النيل ويحبس الفلال عن الوجه البحرى فيستهدف سكان القاهرة والمدن وجنود الحملة للمجاعة ، وقد تعطلت الملاحة فى النيل فعلا فى اشهر الاوّل من حتلان القاهرة ، وحبس مراد بك فى الوجه القبلى السفن الحملة غلالا الى القاهرة ، فعزم نابليون احتلال الصعيد ، على أنه أراد قبل تجريد جيشه أن يسعى الى الاتفاق مع مراد بك على أن يترك له مديرية جرجا وما يليها الى الشلال ، ويكون تابعا للحكومة الفرنسية فيؤدى الخراج الذى كان يخرج من هذه الجهات ، وكان الميسوروسى Rosetti قنصل

النمسا في مصر رسول المفاوضة بينهما، فبعث اليه نابليون بتعليماته في الرسالة الآتية :
« المسكر العام بالقاهرة في ١٤ ترميدور من السنة السادسة (أول اغسطس
سنة ١٧٩٨)

« إلى المواطن روسي ، عليك أن تذهب سرّاً الى مراد بك ، ونخبره بأنك
قدّمت لي الرسول الذي أوفده اليّ ، وأن هذا الرسول قد ترك في نفسي أثراً سيئاً
بثورته وأقواله الطائشة ، على أنني أدركت أنه قد يجيء الوقت الذي أرى فيه من
مصلحتي أن أتنفع بخدمات مراد بك ، وأن أأخذ عضداً أميناً لي ، فلتخبره أنني
أقبل اذا تم الاتفاق بيننا أن تبقى مديرية جرجا في حيازته على أن ينسحب اليها في
مدى خمسة أيام وأن لا أرسل اليها من ناحيتي أيّاً من الجنود ، وعليك أن تبلغه كذلك
أنه اذا تم الاتفاق مبدئياً على هذه الشروط فمن المحتمل اذا ازدادت معرفة به وثقة
بمقاصده أن أعاهده على مزايا أكبر ، وعليك أن توقع وياه على معاهدة اتفاق تكتب
باللغتين الفرنسية والعربية وتكون مؤلفة على وجه التقريب من الشروط الآتية

المادة الاولى — يستبقى مراد بك معه خمسمائة أو ستمائة من الفرسان تكون
عدته في حكم مديرية جرجا من سلال اسوان الى ما يلي جرجا شمالاً ونصف فرسخ
وعليه أن يجعلها في مأمن من هجمات العرب

المادة الثانية — يعترف مراد بك بأن يكون في حكم المديرية المذكورة تابعا
لفرنسا وأن يدفع لخزانة الجيش الخراج الذي كان يجبي منها

المادة الثالثة — يتعهد القائد العام من ناحيته بأن لا تحتل جنوده أي جهة من
مديرية جرجا وأن يترك ادارتها لمراد بك

المادة الرابعة — على مراد بك أن يمضي برجاله الى ما وراء حدود مديرية
جرجا في مدى خمسة أيام ، ولا يسوغ لأحد من أتباعه أن يتخطى هذه الحدود الى
مديرية أخرى الا باذن من القائد العام (١) »

تلك هي التعليمات التي عهد بها نابليون الى القنصل روسي ، ومنها يتبين أن نابليون كان راغباً في الاتفاق مع مراد بك ، وهذا يناق ما أعلنه في منشوراته وبياناته للمصريين من أنه إنما جاء مصر لمحاربة المماليك وثل عرشهم وأنه لا يستريح ولا يهدأ له بال إلا اذا قضى على دولتهم ومحامهم من الوجود ، ولنا أن نستنتج من ذلك أنه كان يخاطب المصريين بلغة ، والمماليك بلغة أخرى ، ولعمري ان اللغتين مشتقتان من نبعة واحدة ، هي نبعة الفتح ولغة الاستعمار ، تلك اللغة التي مهما اختلفت أساليبها فنما تؤدي معنى واحداً لا يتغير وهو إخضاع مصر وجعلها مطية للمطامع الاستعمارية

وقد زود نابليون القنصل روسي بتفويض كتابي بخوله حق توقيع المعاهدة مع مراد بك ، واليك نص التفويض :

« إن القائد العام مدفوعاً بمواطف الانسانية التي كانت على الدوام رائده في أعماله يخول للمواطن روسي سلطة المفاوضة مع مراد بك والاتفاق معه على شروط معاهدة تنهى حالة الحرب بينهما والتوقيع على هذه المعاهدة (١) »

والظاهر أن مراد بك كان معتزلاً بقوة معتقداً أنه باعتصامه في الوجه القبلي لا يستطيع الفرنسيون أن ينالوا منه مالا وبخاصة اذا وثق من معاضدة الاهالي وتأيدهم ، فرفض شروط الصلح أو بعبارة أخرى رفض التسليم ، فعزم نابليون على تجريد الجيش للقضاء على قوته من جهة وإخضاع سكن الوجه القبلي من جهة أخرى ، واذا تتبعنا خطوات الجيش الفرنسي في الحملة على الصعيد وجدت أنه أفلح في القضاء على قوة مراد بك ، ولكنه أخفق في الغرض الثاني وهو إخضاع الاهالي

جعل نابليون اجترار ديزيه قائداً للحملة على الوجه القبلي ، وكانت الحملة مؤلفة من نحو خمسة آلاف (٢) من المشاة والفرسان والمدفعية والمهندسين مزودين بالأسلحة

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٩٢٢

(٢) هذا الاحصاء مأخوذ من مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال

برتران في سانت هيلين

والذخائر والمدافع الحديثة والسفن الحربية ، وقد ظل الجنرال ديزيه مرابطاً في الجزيرة يترقب الفرصة للبدء في القتال ، فلما بلغ الفيضان حداً مناسباً صدرت له الاوامر بالزحف ، وكانت مهمته عسرة شاقة ، فقد دلت وقائع الوجه القبلى على أن المقاومة التى لقيها الجيش الفرنسى فى أنحائه كانت أشد ما أصاب الفرنسيين فى مصر ، لان طبيعة البلاد فى الصعيد ، وبعد المسافات ، وصعوبة المواصلات ، وأخلاق السكان ، جعلت الجيش الفرنسى يقابل حركات ثورية ذات صبغة حربية منظمة ، قال القومندان دى لاجونكير فى هذا الصدد : « إن المقاومة التى لقيتها الجنود الفرنسية فى الوجه البحرى كانت فى الغالب ذات صبغة محلية ، ولكن فرقة الجنرال ديزيه هى التى اضطرت أن تواجه حركات حربية حقيقية (١) »

تحرك الحملة — احتلال بنى سويف

أقلعت السفن بالحملة من مصر القديمة والجزيرة فى أواخر اغسطس سنة ١٧٩٨ نحرسها بعض السفن المسلحة ، وسار جزء من الحملة على شاطئ النيل ، فوصلت الى (اطفيح) واستراحت قليلا وهناك انضممت اليها كتيبة الجنرال رامبون Rampon الذى كان يرباط باطفيح من قبل ، ثم أقلعت السفن من اطفيح ووصلت يوم ٣١ غسطس الى بنى سويف واحتلتها بدون مقاومة ، وبقي بها الجنرال ديزيه عدة أيام يستطلع أخبار الممالك وينتظر وصول الذخائر والمؤونة من القاهرة ، وهناك علم أن مراد بك مرابط فى ناحية البهنسا بين بحر يوسف والجبل وأنه جمع أسطوله فى هذا لبحر يحمل زاده ومؤوته وذخيرته

وكان لابد للوصول إلى موقع مراد بك على بحر يوسف والاستيلاء على أسطوله أن مضى الحملة فى النيل إلى ديروط ، وهى مأخذ بحر يوسف (٢) ومن ثم تنحدر فيه إلى ن تلتقى بقوة الممالك ، فتحركت من بنى سويف يوم ٤ سبتمبر صباحاً ووصلت فى

(١) تاريخ حملة مصر الجزء الثالث

(٢) يتفرع الآن بحر يوسف من التربة الابراهيمية عند ديروط

مساء يوم ٥ تجاه (أبو جرج) ، وكانت أهم مدينة في المديرية بعد بني سويف (١)

احتلال البهنسا

عزم ديزيه على أن يكشف مواقع مراد بك وأن يفاجئه برأ في البهنسا ، فنزل إلى البرتجاه (أبو جرج) ومعه جزء من الجيش ، وسارت القرة برأ حتى وصلت إلى البهنسا الواقعة على بحر يوسف ، وقبل أن تصل إليها شعر مراد بك باقترابها ، فأمر بانسحاب أسطوله إلى أسيوط حتى لا يقع في أيدي الفرنسيين ، وأخلى البهنسا ، فاحتلها ديزيه واستولى فيها على عدة مراكب للماليك لم تستطع اللحاق بالأسطول ، وأخذ ما بها من الذخيرة والغلال ، وعلم أن مراد بك انسحب إلى اللاهون (٢) ورابط بها ، وأن محمد بك الألفي برابط في منتصف الطريق بين البهنسا واللاهون ، وأن أسطول مراد بك سار إلى أسيوط

عادت فرقة الاستطلاع إلى (أبو جرج) يوم ٧ سبتمبر ، ثم تحركت الحملة كلها صاعدة في النيل ، ووصلت إلى المنيا في مساء ٩ سبتمبر ، وفي يوم ١٠ منه وصلت تجاه ملوى وتابعت طريقها حتى وصلت يوم ١٢ سبتمبر تجاه ديروط ، حيث يتفرع بحر يوسف .

تعقب أسطول الماليك إلى أسيوط

عزم ديزيه أن يستمر جنوباً حتى أسيوط ليستولى على أسطول مراد بك ، وقد علم أن معظم تجارتها من الأروام الذين يمكنه استماتتهم إليه ، فدرس اليهم رساله لهذا الغرض (٣)

(١) كانت (أبو جرج) تتبع مديرية بني سويف، وهي الآن من بلاد مركز بني

مزار بمديرية المنيا

(٢) عند مدخل مديرية الفيوم حيث القناطر المنشأة باسمها عند فتحة الجبل

التي يمر منها بحر يوسف

(٣) رسالة ديزيه إلى نابليون في ١٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

ترك الجنرال ديزيه قسماً من قوته في ديروط على مدخل بحر يوسف لاحتلال هذا الموقع ومراقبة الملاحة في النيل وانتظار الكتيبة التي استولت على مراكب الممالك في بحر يوسف ، ومضى الى الجنوب و معه جزء من جيشه في السفن قاصداً الى أسبوط فوصل اليها يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فلم يجد أسطول الممالك ، ولم يوفق الى الاستيلاء عليه ، إذ تمكن قبل وصول ديزيه من الافلات قاصداً جرجا ، ولم ير ديزيه من الصواب أن يمضى في زحفه ، مخافة أن يبتعد عن بقية جنوده الذين كانوا يرابطون على مدخل بحر يوسف .

رجوع ديزيه إلى الفيوم

عزم ديزيه على أن يرجع الى ديروط ، فكانت رحلته الأسبوطية عقيمة لأنه لم يظفر بأسطول الممالك ولا واجه قوتهم ، وأضاعت عليه هذه الرحلة ثمانية أيام اغتنمها مراد بك ليقوى صفوفه في الفيوم ، واتحاز اليه عدد كبير من الأهالي وحالفوه على الفرنسيين ، واتخذ هو وحلفاؤه مسكرهم في اللاهون

ثم وصل ديزيه الى ديروط يوم ٢١ سبتمبر وبقي بها ثلاثة أيام ينظم الحملة على الفيوم ، وألقت السفن الفرنسية مراسيها في النيل ولم تستطع السير في بحر يوسف ، وأخذت سفينتان منها تتبعان في النيل عن بعد سير الحملة الفرنسية في بحر يوسف الى بنى سويف ، وبقيت السفن الأخرى تجوب النيل ما بين منفوط وهاوى والمنيا لترقب تصدير الغلال من هذه البلاد الى القاهرة

لم تكن الحملة على الفيوم سهلة التنفيذ ، فان الملاحة في بحر يوسف كانت شاقة لضيق البحر ، فضلا عن استهداف المراكب الفرنسية من الجانبين لهجمات الأهالي والممالك

وقد بدأت المراكب الفرنسية تسير في بحر يوسف يوم ٢٤ سبتمبر قبيل شروق الشمس ، وكان سيرها محفوفاً بالمصاعب لكثرة تعاريج بحر يوسف ، ولهبوب الرياح من الصحراء ، وقلة غور المياه فيه ، فكان الجنود يضطرون الى جر المراكب بالحبال

وصلت فرقة الجنرال ديزيه الى البهنسا يوم أول أكتوبر، وهناك علموا أن مراد بك مرابط بجهة اللاهون، فتابعت السفن سيرها حتى اشتبكت بطلائع المماليك والأهالي في ١٣ أكتوبر بناحية (القايت)، وكانت هذه الطلائع مكونة من ١٥٠ من العرب و ١٥٠ من المماليك، فاضطر الجنرال ديزيه إلى إنزال كتيبة من جنوده إلى الشاطئ، ونزل هو بنفسه لمحاربة المهاجمين وتشتيتهم، ثم أخذت الكتيبة تسير على الشاطئ حذاء السفن لحراستها

وفي اليوم التالي كانت قوة من الأهالي والمماليك تترقب السفن على شاطئ البحر لتطلق عليها النار، ولم يستطع الجنرال ديزيه إنزال جنوده إلى الشاطئ لأن مياه الفيضان كانت تغمر الأرض هناك، فاضطر إلى التراجع على مسافة نصف فرسخ، ليتمكن من اختيار مكان ينزل به جنود الفرقة جميعها، وسارت الفرقة بطريق البر بعيداً عن الشاطئ، واتجهت صوب المماليك والأهالي، فانسحب هؤلاء وكانوا تحت قيادة محمد بك الألفي

واقعة سدمنت

١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ .

واصلت الفرقة سيرها براً في اليوم التالي — ١٥ أكتوبر — فشهد الجنرال ديزيه عن بعد جيش مراد بك مرابطاً في المرتفعات المشرفة على بحر يوسف، فأراد أن يهاجمه، لكن مراد بك تفهقر شمالاً، وتعبه ديزيه طول النهار فلم يستطع اللحاق به إذ كان جنوده قد نهبهم النعب من سيرهم في رمال الصحراء

وفي يوم ١٦ أكتوبر بدأ الأهالي ونماليك ينوشون طلائع الجيش الفرنسي، فقبل الجيش بهجم عليهم واكنهم انسحبوا ليرابطوا في مواقع حصينة، وفي صباح اليوم التالي (١٧ أكتوبر) أخذت الفرقة تتابع سيرها حتى اقتربت من «سدمنت» وهي بلدة صغيرة واقعة غربى بحر يوسف (١) وهناك التقى الجمعان على مقربة من هذا البعد

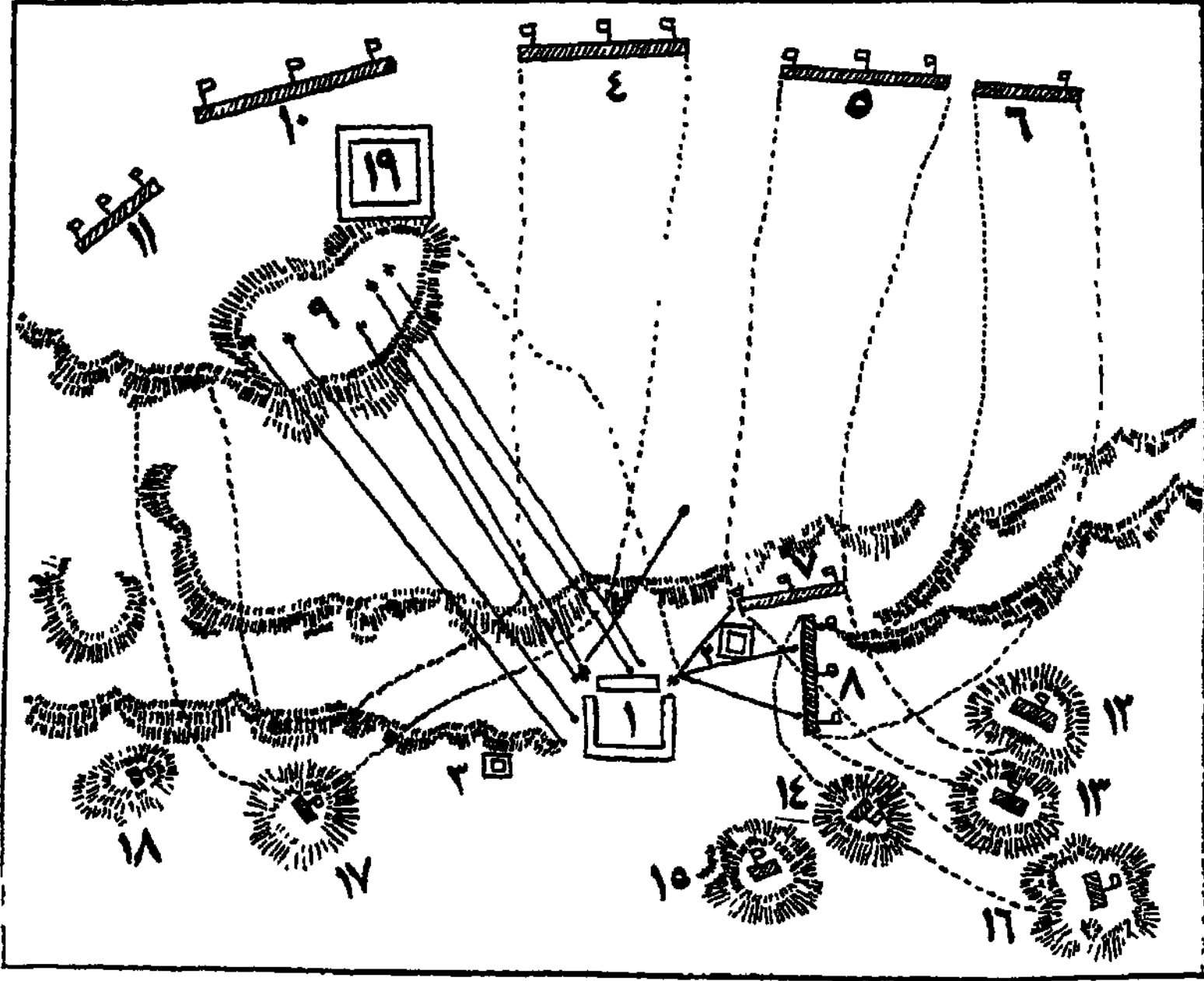
(١) في الجنوب الغربى للاهون وهي متصلة بالجبل الغربى وتابعة الآن لمركز بنى سويف وتسمى (سدمنت الجبل)

ودارت معركة من أشد المعارك هولا كادت تسحق فيها قوات ديزيه لولا قوة المدفعية الفرنسية

كان مراد بك قد جمع قوة كبيرة من أهالى الفيوم فرساناً ومشاة وتحصن فى آكام سدمنت ، وكان هو وحلفاؤه المصريون قد أعدوا معدات الهجوم وقوى أملهم فى سحق الجيش الفرنسى لقلة عدد جنوده بالنسبة اليهم ولغامرته فى الصحراء وفى بلاد معادية بعيداً عن قواعد الحربية

كان عدد المماليك والمصريين فى هذه الموقعة يزيد عن ضعف الجيش الفرنسى، وكانوا يحتلون مرتفعات حصينة، ولكن فرقة ديزيه امتازت بالنظام الحربى وكفاية القيادة وقوة المدفعية وكثرة الذخيرة، فلما اقتربت الفرقة هجم عليها الاهالى والمماليك منحدرين من المرتفعات التى كانوا يعتصمون بها، وكان عدد الفرسان من أربعة آلاف الى خمسة آلاف فارس هجموا على قرع الطبول بحماسة عظيمة وأحاطوا بجيش الجنرال ديزيه من كل صوب وكانوا أكثر عدداً وأشد حماسة من الاعداء، لكن نار المدافع الفرنسية فتكت بهم فتكا ذريعاً وكسرت هجمتهم، فأعادوا الكرة ثانية وثالثة بمثل الحمية التى هجموا بها أول مرة، ودامت الموقعة عدة ساعات لا تخمد حماسة المهاجمين ولا يضعف أملهم فى النصر، وكان مراد بك قد نصب على أكمة تشرف على ميدان القتال ثمانية مدافع أخذت تطلق النار على الجنود الفرنسية فأوقعت بهم خسائر جسيمة، وكادت تدور الدائرة على الجيش الفرنسى لولا أن أمر ديزيه بالهجوم العام على مصدر الخطر فهجم جنوده على موقع المدافع واقتضوا على رجالها وقتلوا بعضهم وأجلوا البعض الآخر، وهجمت جموع الاهالى والمماليك مرة أخرى على الجيش الفرنسى وأنزلوا بالفرنسيين خسائر فادحة، لكنهم اضطروا الى التقهقر بعد ما أفنت نيران المدافع والبنادق عدداً كبيراً منهم وتركوا فى الميدان أربعة مدافع غنمها الفرنسيون، وانتهت الواقعة بانتصار الجنرال ديزيه، وبلغت خسائر الفرنسيين كما قدرهم الجنرال برتنيه Berthier ٣٤٠ قتيلاً و ١٥٠ جريحاً ويقدر الجنرال ديزيه خسائر المصريين بأربعمائة قتيل

خريطة معركة سدمنت



تقلا عن خريطة قديمة مودعة في محفوظات وزارة الحربية الفرنسية منذ سنة ١٨٠٠
نشرها القومندان دي لا جونكير سنة ١٨٩٩

(١) موقف جيش الجنرال ديزيه عند التأهب للقتال

(٢ و ٣) طلائع جيش ديزيه

(٤ و ٥ و ٦) موقف جيش مراد بك عند تأهبه للهجوم

(٧ و ٨) هجوم جيش مراد بك على طلائع الميمنة

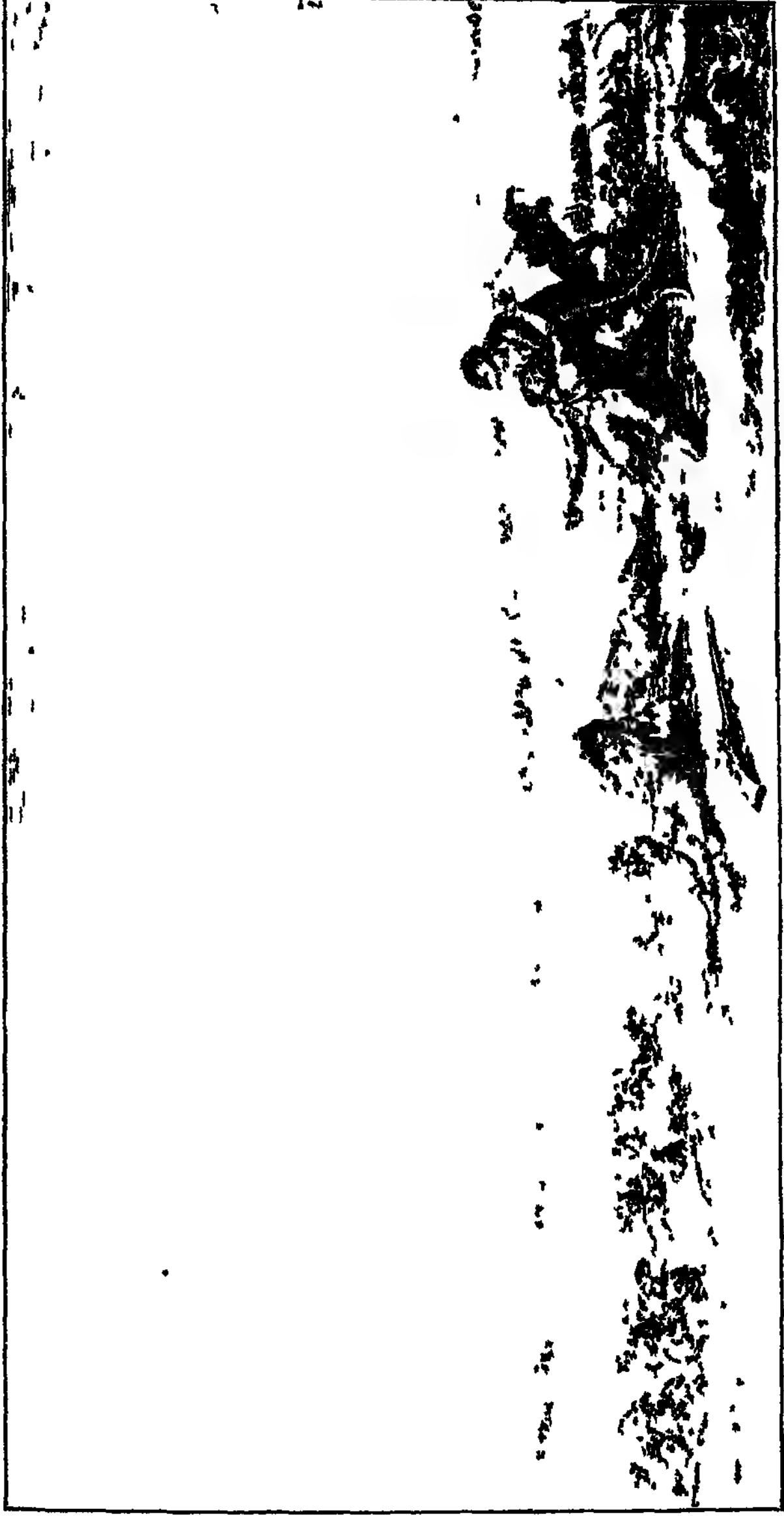
(٩) مدافع مراد بك

(١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ و ١٨) هجوم جيش مراد بك

على الجيش الفرنسي

(١٩) موقف جيش ديزيه بعد استيلائه على مدافع المالك وانسحاب قوات

مراد بك .



معركة سدمنت — ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ — كما رسمها المسيو فيفان دينون في حينها ، وهذه الصورة تمثل هجوم الفرسيين على الكفة التي هدامدافع مراد بك واختراقهم الوادي الذي يفصل بين الجيشين وتركهم جرحا هاما على الكفة التي كانوا اباطون بها ، وهجوم المصريين على تلك الكفة ، وتري في الصورة جرحى الفرسيين وقد توالاهم الرعب لاقتراب الفرسان المصريين من الكفة ، وأحد الجرحى يحاول عبثا أن يحمل زميلا جرحا ، وآخر يغطي وجهه بسترته حتى لا يشهد هجوم الفرسان المصريين ولا يرى الموت بعينه

سميت هذه المعركة واقعة « سدمنت » وهي تعد في تاريخ الحملة الفرنسية من المعارك الهامة التي كان لها أثر كبير في سير القتال وتطور الاحوال ، وهي تلي واقعة الاهرام في الاهمية ، لانهما قضت على آمال مراد بك في أن ينتصر في معركة منظمة وفتحت أمام ديزيه اقلية الفيوم الغني بمزروعاته .

تغير وجه القتال بعد هذه المعركة فصارت الحرب مقاومات محلية تتجدد تبعاً للاحوال والمفاجئات ، وكان هذا النوع من المقاومة أشد خطراً على الجيش الفرنسي من المعارك المنظمة

قال ريبو يصف هذا التطور « إن مراد بك قد أخذ عن العرب حرب المناوشات والمعارك المتفرقة ، فلم يهدأ للفرنسيين بال ولم يستقر لهم قرار خلال الحملة على الصعيد بل كانوا هدفاً للمفاجئات والمعارك غير المنتظرة

وكان هذا النوع من الحرب أشد خطراً على الفرنسيين من المعارك المنظمة لانهم فقدوا اراحة والطمأنينة ، واضطرتهم هذه المقاومة إلى مداومة الحملات وازحالات المنهكة للقوى ، دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا ينال »

انسحب مراد بك وحلفاؤه غرباً ، وأوغلوا في الصحراء حتى استنفروا وراء بركة « الفرق » وهي بركة كبيرة واقعة جنوب الفيوم بغرب (١) ، واحتل ديزيه في اليوم نفسه قرية سدمنت ، وتكبد الفرنسيون متاعب شاقة في هذه المعركة ، وضاع منهم السير في الرمال ، وعلى التلال والآكام القائمة بتلك الجهات ، فم يفكر ديزيه في اللحاق بمراد بك ، وعزم على إراحة جنوده من الأهوال التي كابسوها . وسار معه في الاشهر وقرى هناك ينتظر الفرصة ليعاود الكرة لمحوه على الأهالي والبلدات

وعسكر هو وحنوده في اللاهون من ٩ إلى ١٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، واستراحوا في خلالها ، وأرسل الجرحى منهم الى القاهرة ، ثم سار قصداً مدينة الفيوم عاصمة المديرية ، فوصلها يوم رحيله ولم يبق بها إلا بضعة أيام ، ثم أخلاه خوفاً على

(١) في الجنوب الغربي لقرية (الفرق الساطاني) بمركز اضا الآن



منظر آخر لممر كه سدمنت — ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ (قلا عن مجموعة رسوم المسيو فيفان ديون)
 منظر الاكمة التي اضطر الفرنسيون أن يخلوها ويتركوا بها حراحم ليهجموا على مواقع مراد بك، وترى في الصورة أحد الجيود
 الفرنسيين يترك زميله جرياً وقد تعلق بسترته فخلعها لينحو بنفسه من الموت، وترى عن بعد موقع الاكمة التي بها مراد بك

مواصلات جيشه أن تنقطع إذا ابتعد كثيراً عن النيل ، ولأنه علم أن المماليك والعرب لما تحققوا وجوده في مدينة الفيوم ، عزموا على الرجوع الى معقلهم الأول في سدمنت على بحر يوسف و بذلك يتهددون مواصلات الجيش الفرنسي ، فعاد ديزيه الى اللاهون يوم ١٦ أكتوبر ، واعتزم أن يعاود تعقب المماليك والأهالي ، لكنه وجد صعوبة كبرى في تعقبهم لأن ماء الفيضان كان في ذلك الحين يغمر البلاد فيحول دون تقدم الجيش واتصاله بالقرى ، وكانت المؤن والزاد قد قصت والأمراض فتكت بالجنود ولا سيما الرمد

فتك الرمد بالجنود

فتك الرمد بعدد كبير من الجنود ، وكانت مياه بحر يوسف ورداءة الطاقس والمتاعب التي فيها الجنود من السير في الرمال أهم الأسباب في انتشار هذا المرض بينهم ، وقد فتك بهم فتكاً ذريعاً ، وأصيب به لأول مرة ثمانمائة جندي ضربة واحدة ، وأخذ يستفحل حتى أصبح خطراً على الجيش الفرنسي أعظم من خطر المعارك والحروب ، كتب الجرال ديزيه الى نابليون في رسالته له من اللاهون بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ يقول .

« إن أمراض العيون هنا كارثة فظيعة حلت بالجيش ، فقد حرمتني الانتفاع بألف وأربعمائة من رحالي ، واضطرت أن أسحب منهم وراء الجيش مائة فقدوا بصرهم تماماً ، ولا يمكنني أن أتعقب مراد بك إلا إذا سد النقص في صفوف جيشي وبلغ عدد الفرقة ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد أشتت هنا مستشفى لثلاثمائة مريض ، وأرسلت الى النيل أربعمائة مريض آخرين ، ومن الواجب الإسراع في سد النقص كما أستطيع تعقب مراد بك ، ون بحر يوسف بعد قليل من الأيام لا يعود صالحاً للملاحة إذ تجف المياه فيه ، وإن مركزنا هنا محفوف بالمتاعب ، ولو كانت الحملة التي أقودها على ضفاف النيل لكان الامر ، ولكن أحارب في الصحراء حيث لا توجد طرق للمواصلات ، ولا وسائل للنقل حتى ولا للجنود المرضى » ، وفي ديرييه في اللاهون ينتظر تعليمات نابليون

الموقف الحربى فى بنى سويف والفيوم والمنيا

لم يكن انتصار الفرنسيين فى واقعة سدمنت ليوطد مركزهم فى الوجه القبلى ، وبالرغم من أن الجيش الفرنسى قد فتح فى طريقه ثلاث مديريات ، وهى بنى سويف والمنيا والفيوم ، وهزم مراد بك هزيمة كبرى ، فإن الحالة ظلت مضطربة فى تلك المديريات وسلطة الفرنسيين تكاد تكون مجهولة عند الأهالى ، ولم يستطع الفرنسيون لاضطراب الاحوال أن يحصلوا من تلك المديريات على ما يلزمهم من الغلال والجياد ، فقد حدث أن الجنرال ديزيه ترك بعض رجاله فى بنى سويف للقيام على شحن الغلال ، وفى أثناء حملته النيلية الى أسبوط هجم الثوار على بنى سويف وأسروا هؤلاء الرجال واستولوا على الغلال التى وجدوها ، وعين نابليون الجنرال (زاينوشك) قومنداناً لمديرية بنى سويف فى أوائل اكتوبر ، وأرسل معه كتيبة من الجنود وكلفه تنظيم هذه المديرية ، وكلف الجنرال ديزيه تنظيم مديرتى المنيا والفيوم أما فى المنيا فكانت الحالة أكثر اضطراباً وأقل استقراراً ، وكانت سفينة فرنسية حربية تجوب هذه الجهات وتحمل القوة التى بالشاطئ من هجمات الاهالى ، ونزلت بالمنيا فصيلة من الجنود ليتزودوا منها وأبوا أن يدفعوا ثمن ما اشتروه ، فثار الفلاحون الذين كانوا بالسوق وقتلوا من الجنود خمسة وجرحوا منهم ثمانية ، وكاد يستشرى الهياج لولا الحكمة من سكان البندر ، وأصدر الجنرال ديزيه لمناسبة هذه الحادثة أمراً مشدداً بقمع كل نهب يقع من الجنود ، وإحالة كل من يثبت عليه أنه اغتصب شيئاً من الأهالى على مجلس عسكرى لمحاكمته طبقاً للقوانين العسكرية ولم تكن حملة الجنرال ديزيه فى بحر يوسف على اتصال بالسفن الفرنسية التى بقيت فى النيل ، فقد انقطعت المواصلات بينهما منذ نزل الفرنسيون بسفنهم من ديروط ، ولم تتصل إلا بعد أن استقرت الحملة فى اللاهون حيث شرع الجنرال ديزيه فى إيجاد الصلة بالنيل ليتمكن من إرسال الجرحى والمرضى إلى القاهرة ، ومن تلقى المدد والمؤن والذخائر ، وليستطع الاتصال بالقوات الفرنسية فى بنى سويف والمنيا

وكان نابليون شديد الرغبة في أن يتعقب ديزيه قوات الأهالي والمماليك للقضاء عليها ، وقد حمل ياوره ديروك Duroc أمره الى ديزيه بأن يهاجم مراد بك ويقضى على جيشه قبل نهاية الفيضان ، لكن ثورة القاهرة التي نشبت في ٢١ أكتوبر حالت دون سفر ديروك ، وفي خلال ذلك وصلت رسالة ديزيه المؤرخة ٢٠ أكتوبر ، فأدرك نابليون مبلغ ما عاناه الجنود الفرنسيون من المتاعب والمشايق وحاجتهم الى الراحة ، فأرسل اليه يطلب منه اختيار موقع صالح ليعسكر فيه الجنود ، وكلفه إخضاع مديريات بنى سويف والمنيا والفيوم

وكانت مهمة الجنرال ديزيه شاقة ، لأن المماليك والأهالي قد رابطوا في الصحراء فلا تستطيع القوات الفرنسية أن تحيط بهم ، وكان الأهالي لا ينفكون يناوشون هذه القوات في اللاهون

فتكت المعارك والأمراض بالجنود الفرنسية فتكا ذريعاً ، قتل عديم الى الألفين ، ولم يكن في استطاعة ديزيه أن يخضع بنى سويف والمنيا والفيوم بهذا العدد لبعد المسافات بين البلاد ، وما غمر الأرض من الفيضان ، فلا يسهل أن ينتقل الجنود من بلد الى بلد ، ولأن الجنود قد أنهكهم التعب ، فاختر مدينة الفيوم ليستقر فيها مع فرقته

احتلال مدينة الفيوم

وإخماد الثورة في القرى المجاورة

انتقلت فرقة الجنرال ديزيه الى مدينة الفيوم في أواخر أكتوبر سنة ١٧٩٨ طلباً للراحة من عناء المعارك والمناوشات (١) وعسكر الجنود في حديقة كبيرة شمال

(١) كانت مدينة الفيوم كما هي الآن من أمهات مدن القطر ، بلغ عند سكانها في ذلك العصر خمسة آلاف نسمة ، ويقول كلوت بك إن عدد سكانها في عصر محمد علي بلغ ١٢٠٠٠ واشتهرت بنسج الصوف والقطر والكتان ،

المدينة ، وأقاموا على بحر يوسف جسراً من المراكب المتلاصقة لا تتقال الجنود بين الشاطئين

وأخذ الجنرال ديزيه ينتظر المدد من نابليون ويستعد لاستئناف الهجوم على مراد بك ، وشرع يُنظَّم الادارة في مديرية الفيوم ويجمع الخيول من القرى ، لان الحملة كانت تنقصها قوة الفرسان ، لكن مياه الفيضان كانت تعطل حركات الجنود في هذه المديرية فلقى ديزيه عنتاً شديداً في تحصيل الضرائب ومصادرة الغلال وجمع الخيول من القرى ، وزاد في متاعبه أن معظم القرى قد أمسك أهلها فلم يبذلوا شيئاً مما كان يطلب منهم ، وأحس ديزيه روح التمرد والعصيان ، فعزم على تجريد حملة عسكرية لاختضاع القرى وإكراهها على تسليم ما يفرض عليها ، وقد عزا الفرنسيون هذه الحالة الثورية الى تحريض مراد بك ، وقال الجنرال دونزلو Donzelot في رسالته الى الجنرال برتبيه (١) إنه تحقق أن مراد بك أوفد على كاشف ومعه ١٥٠ من المماليك لتحريض البلاد على الثورة وتنظيم المقاومة ، وسواء أصحت رواية دنزلو وكان التحريض أو كانت البلاد مستعدة للمقاومة من تلقاء نفسها فما لا جدال فيه أن روح الثورة قد سرت في القرى ، والأقرب الى الواقع أن هذه الروح طبيعية ولولاها لما وجد المماليك ذلك العدد الجم من الاهالى يدأبون على مناوشة الحملة الفرنسية والكيد لها ولما بدأت مياه الفيضان تنحسر عن البلاد وأرخت عن حركات الجنود اعترم ديزيه أن مجرد حملة على القرى الشائرة قترك في مدينة الفيوم كتيبة من الجنود تقوم على حراسة معسكر الفرقة وسار بباقي العسكر يوم ٦ نوفمبر لاختاد حركات الهياج

وامتازت بمجودة صوفها الابيض وتفوقت به في صناعة شيلان الصوف البيضاء التي كانت ترسل منها كميات كبيرة الى القاهرة والوجه البحرى ، ويقول المسيو جومار Jomard أحد مهندسى الحملة الفرنسية إن القوافل التي كانت تدير من الفيوم الى القاهرة كانت تحمل معها كل اسبوع ألفى شال مما يصنع في مدينة الفيوم .

(١) رسالة دنزلو الى برتبيه في ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨

والثورة ، فأخضع في طريقه (مطرطاس) (١) و(سيله) (٢) و(سرسنا) (٣) ، ولقى الفرنسيون مقاومة شديدة من أهالي سرسنا فقد تأهبوا للقتال وعلى رأسهم على كاشف ولكنهم لم يجدوا القوة على مقاومة نيران الفرنسيين فانسحبوا من القرية واستولى الفرنسيون عليها وتجمع الأهالي بعيداً عنها على مرمى المدفع وانضم اليهم جماعة من العرب ، فأمر الجنرال ديزيه بإطلاق النار عليهم فشنت جمعهم وتبادل الفريقان الضرب وأطلق الأهالي بنادقهم فجوابهم الفرنسيون بضرب المدافع فانسحبوا وأوغلوا في الصحراء ونهب الفرنسيون القرية وأضرموا فيها النار (٤) ثم تابعت الحملة سيرها فوصلت تجاه قرية الروضة (٥) وكان الليل قد أقبل فعسكرت الحملة بالقرب من الروبيات (٦)

أذعنت هذه القرى وسلمت الاتاوات المطلوبة منها ولكن الأهالي والماليك رأوا انشغال الفرنسيين باخضاع هذه القرى فهاجموا مدينة الفيوم يوم ٨ نوفمبر سنة ١٧٩٨ مهاجمة شديدة فاضطرت الحملة أن ترجع الى عاصمة المديرية

هجوم الثوار على مدينة الفيوم

وتفصيل هذا الهجوم أن الأهالي من الفلاحين والعرب ثاروا في القرى وعزموا أن يستولوا على مدينة الفيوم ، ففي ٨ نوفمبر الساعة الثامنة صباحاً ظهرت أمام المدينة طلائع الثوار وفي نحو الساعة الحادية عشرة أقبلت جموعهم وهجموا على معسكر الجنود فتأهبت القوة الفرنسية للقتال ، وكان قائدها الجنرال روبان Robin مصاباً بالرمد فأناوب عنه الكولونل هبلر Happler وفي منتصف الساعة الثانية عشرة هجم الثوار على أسوار المدينة تتقدمهم طبول الحرب وعلى رأسهم قواد من المايك ، وكانت الدوريت الفرنسية تحرس بعض مداخل المدينة فدافعت عنها دفعاً شديداً ، لكنها انثنت على أعقابها الى الداخل واقتحم الثوار الشوارع يريدون منزل على كاشف وفيه الجنود

(١) و (٣) من بلاد مركز سنورس

(٢) بمركز الفيوم

(٤) رسالة دنزولو الى الجنرال برتويه في ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٥) و (٦) بمركز سنورس

الفرنسيون ، وكان عدد المهاجمين كثيراً قدرهم الجنرال ديزيه في تقريره بثلاثة آلاف مقاتل ، ويقول ريبو (١) « إنهم خمسمائة من المماليك ومعهم فصيلة من فرسان العرب وألفان من الفلاحين » فلما وصلوا الى المنزل تقاذف الرصاص بين الفريقين وكانت موقع الفرنسيين منيعاً لان هذا المنزل كان محكم التحصين ، فكان الجنود يطلقون النار من النوافذ ومن فوق الأسطحة وبذلك أصابوا المهاجمين نارا شديدة ردتهم على أعقابهم فانسحبوا تاركين عدداً كبيراً من القتلى ثم جاءهم المدد فاستأنفوا الهجوم في الساعة الرابعة بعد الظهر ولكنهم ارتدوا ثانية أمام نار الجنود الفرنسية وأخفق الهجوم وغطيت الشوارع بجثث القتلى والجرحى ، وبلغ عدد القتلى من الأهالي نحو مائتين وكان عدد الجرحى كبيراً ، أما المماليك فاتهم لم يخسروا غير أربعة قتلى وعشرة جرحى ، وكانت خسائر الفرنسيين قليلة فاتهم لزموا خطة الدفاع وكانوا متحصنين لامكشوفين فخسروا أربعة قتلى و١٦ جريحاً

يتبين من هذه المقابلة أن الأهالي هم الذين تحملوا معظم الخسائر وكانت منهم أكثر الضحايا ، في حين أن المماليك لم يخسروا إلا عدداً ضئيلاً جداً ، وقد ثبت من هذه الواقعة وغيرها أن هؤلاء المماليك كانوا يضمنون بأنفسهم ويحرصون على أرواحهم في ميدان الحرب والقتال (٢)

ولم تكن هذه المقاصد لتخفى على الأهالي فانهم أدركوا أن القوم لا يريدون إلا أن يتخذوهم مطية لقضاء لباناتهم فأسقطوا الثقة فيهم ، وكانت هذه الحالة النفسية من أهم الأسباب التي قضت على نفوذ المماليك وسلطتهم في البلاد فلم تقم لهم بعد الحملة الفرنسية قائمة

موقف ديزيه في الوجه القبلي

رجع ديزيه الى مدينة الفيوم بعد أن أخفق هجوم الثوار عليها ، على أن هذا

(١) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية الجزء الثالث

(٢) جاء في تقرير الجنرال ديزيه عن هذه الواقعة « ان المماليك على جانب

عظيم من الحذر والحرص فهم لا يستهدفون للقتل بل يعرضون غيرهم للخطر »

المهجوم كان دليلاً على استهانة الثوار بالقوة الفرنسية ونجرتهم عليها ، فأدرك ديزيه أن قلة جنوده كانت من أهم أسباب الحالة الثورية التي ذاعت في البلاد ، ورأى أن لا سبيل إلى المغامرة في فتح الوجه القبلي إلا إذا جاءه المدد الكافي للقيام بهذه الحملة الطويلة المدى ، فأثر الانتظار ووضع الحاميات الكافية في البلاد التي يحتلها لاختضاع وقع الثورات التي عسى أن تشب فيها ، وكانت المعارك والأمراض قد أفرغت من صفوفه فكان لا بد له من سد هذا النقص الكبير

كان ديزيه يلح قبل هجوم الثوار على الفيوم في طلب المدد من نابليون، فكلف نابليون الجنرال بليار الذي كان في ذلك الحين قومنداناً للجيزة أن يسير بقوة إلى الفيوم وكان الجنرال أندريوسى قد عاد من مهمته بالمنزلة فجعله قومنداناً للجيزة وسار بليار من الجيزة بالقوة التي كانت معه فوصل يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٧٩٨ إلى (الزاوية)^(١) وهناك وصلته أنباء انتصار فرقة الجنرال ديزيه على القرى الشاذلة فستراح في الزاوية ينتظر تعليمات الجنرال ديزيه، فأمره أن يبقى في بني سويف ليعاون الجنرال زاينوشك في مهمته ، ذلك أن ديزيه قد تلقى من بني سويف أنباء تدل على أن فيها استعداداً لثورة كالتورة التي ثبتت في الفيوم، فرأى من الحكمة أن يبنى الجنرال بليار في بني سويف لتوطيد سلطة الفرنسيين بها ، على أن مركزهم في بني سويف كان أقوى منه في الفيوم لوجود السفن الفرنسية الحربية في النيل

وكان ديزيه لا يفتأ يطلب المدد والمدفعية والدخائر والمهمات من نابليون ، وقد ألح في طلب قوة كبيرة من الفرسان ، لأنها الوسيلة الوحيدة للتغلب على قوات المقاومة في الوجه القبلي ، وبدونهم لا يزال يستطيع الأهل والمهايك يقتلون من الجيش الفرنسي ، فلا يستطيع اللحاق بهم ولا تعقبهم في الصحراء ، وتبقى قوتهم تتعدين الفرص لمناوئة الفرنسيين وإرهاقهم وتكبيدهم ما يستطيعون من الخسائر، وكانت إخضاع الصعيد من أهم المقاصد التي وجه إليها نابليون اهتمامه ، وبخاصة بعد أن شحت

(١) شمال بني سويف

الغلال في القاهرة والوجه البحرى ، فإن اقطاع المواصلات مع الصعيد منع ورود الغلال وكان سبباً في ارتفاع أسعارها ارتفاعاً أدى الى تدمير الناس وهياج الخواطر في مصر

كتب المسيو (بوسليج) مدير الشؤون المالية في ١١ نوفمبر سنة ١٧٩٨ الى نابليون رسالة عن أزمة القمح في القاهرة قال فيها : « من الضروري إرسال المراكب إلى الصعيد لجلب القمح ، وأقل ما في هذه الطريقة من الفوائد أنها تهدىء خواطر الجمهور ، لأن من الواجب أن لا تستهدف مدينة كبيرة مثل القاهرة لأزمة الأقوات وأن لا ترتفع فيها أسعار القمح ليستطيع الفقراء أن يعيشوا ويجدوا قوتهم » ، وكتب اليه المسيو (موسى) مدير مهمات الجيش في ١٤ نوفمبر يقترح جلب الغلال من مديرية بنى سويف الى أن يصل القمح من المديرية الأخرى في الصعيد لأن حالة الهياج فيها قد تؤخر كثيراً ورود الغلال منها ، من أجل ذلك عنى نابليون بإرسال المدد الى الجنرال ديزيه ، وعين الجنرال بليار قومنداناً لمديرية بنى سويف بدلا من الجنرال زاينشك الذى مرض وعاد الى القاهرة ، وأمر باتخاذ نقطة بنى سويف نقطة ارتكاز للجيش الفرنسى ، وأنشأ مستشفى للجنود بها وتحصينها لتكون بمنجاة من هجمات الاهالى والعرب (١)

اعتزم الجنرال ديزيه بعد إخماد ثورة الفيوم أن يعود الى بنى سويف والمنيا لقمع حركات الهياج فيها وجباية الضرائب من البلاد ، فانتقل بفرقة الى بنى سويف ووصل اليها في ٢٢ نوفمبر ، حيث ضم اليه قوة الجنرال بليار ، وغادر مديرية الفيوم دون أن يصنع شيئاً فيها من جهة إدارتها أو تنظيمها ، واعترف في رسالته لنابليون قبل أن يغادر الفيوم أنه لم يفشى فيها « ديوانا » طبقا للتعليمات التى أصدرها نابليون لقواد المديرية لانه لم يترك فيها القوة الفرنسية الكافية لمراقبة هذا الديوان ، وأنه

(١) أمر نابليون في ١٦ نوفمبر سنة ١٧٩٨

ترك الحالة فيها كما كانت^(١) وأنفذ اليها نابليون الادمجودان جنرال بوييه Boyer ومعه
كتيبة من الجنود لمراقبة الاحوال في مديرية الفيوم وتنظيمها ، وجباية الخراج فيها

تلقى المدد واستئناف الحملة على الوجه القبلي

بقيت الفرقة في بنى سويف نحو أربعة أسابيع في انتظار المدد وإتمام الاستعداد
لاستئناف الحملة على الصعيد ، وقد اضطر الجنرال ديزيه أن يقوم في خلال هذه
المدة^(٢) إلى القاهرة ليتعجل النجدة ، وكان نابليون في ذلك الحين منهمكا في إعداد
المعدات للحملة على سوريا^(٣) ، على أنه قد أمده بقوة من ١٢٠٠ من الفرسان بقيادة
الجنرال دافو Davout^(٤) وبضع مئات من المشاة وزوده بالمدافع والذخائر وست
سفن حربية منها السفينة (إيتاليا) سفينة نابليون الخاصة التي كان يركبها في النيل
عاد الجنرال ديزيه من القاهرة مزوداً بهذا المدد وعازماً على أن يكتسح الصعيد
بقوته ، فوصل الى بنى سويف يوم ٩ ديسمبر على ظهر السفينة « ايتاليا » ، وفي اليوم
التالى وصلت قوة الفرسان بطريق البر ثم وصلت السفن التي تحمل مهمات الحملة
وذخائرها ، وفي يوم ١٥ ديسمبر كانت الحملة على تمام الاستعداد للزحف ، فكان
عدها أربعة آلاف مقاتل مزودين بالمدافع والذخائر ومعهم أسطول من السفن الحربية
المسلحة بالمدافع الحديثة الطراز ، وكان القائد العام لهذه الحملة الجنرال ديزيه ، ومن خبرة
قوادها الجنرال فريان Friant والجنرال بليار Belliard والجنرال دافو Davout
قائد الفرسان والكولونل لا تورنرى Latournerie قومندان المدفعية والادمجودان
جنرال دنزلو Donzelot والكولونل راباس Rahasse

(١) رسالة ديزيه الى نابليون في ١٩ نوفمبر سنة ١٧٩٨

(٢) كان سفره يوم أول ديسمبر سنة ١٧٩٨ وقد أتاب عنه في قيادة الفرقة

الجنرال بليار

(٣) انظر الفصل الثاني من الجزء الثاني

(٤) الذي صار فيما بعد مارشالا واشتهر في حروب الامبراطورية النابليونية

سير الحملة من بنى سويف الى جرجا

تحركت الحملة من بنى سويف براً على الشاطئ الأيسر للنيل واتخذت المراكب سبيلها في النهر حذاء الحملة تحمل الاقوات والتخاثر والمهمات وقد كان توغل الجنود في الوحه القبلى محفوا بالمتاعب والاحطار لأن الجيش كلما سار حوياً ابتعد عن القاهرة التى كانت مركز القوة الفرنسيه وتغلغل في بلاد مجهولة منه وبين أقوام يكرهونه ويتربصون به ريب المسون قال الجنرال دافوفى مذكراته عن الحملة على الصعيد « اننا نستهدف لأحطار كثيرة كلما أوغلنا في بلاد يحمل جميع أهلها السلاح » سارت الحملة من بنى سويف يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٧٩٨ بعد أن تركت فيها قوة من مائتى حدى ، بعض السفن المسلحة لحراسة المواصلات مع القاهرة ووصلت ليلاً الى (البراقه) على البر الغربى لليل وفى الصباح استأنفت السير فبلغت (بنا) وسارت منها فاصدة (الفشن) وقبل أن تصل اليها استراحت لتتظر قدوم المدفعية وكانت طلائع الفرقة ترابط على مقره من قرية (الفقاعى) (١)

حادثة (الفقاعى)

وقد حدث بقرب (الفقاعى) حادث دهش له الجنرال ديرييه وككار الصباط الفرنسيين ، ذلك أنه بينما كان الجند ينتظرون وصول بقيه الجيش تقدم أحد غلمان القرية وتغل بعض جنود الدراحون فاستولى على سادقهم ، فرآه حدى آخر وتلقه وهو يعدو حاملاً بندقية الى أن أدركه وصربه بالسيف على ذراعه وساقه حريماً الى الجنرال ديرييه للاقتصاص منه ، فدأله الجنرال عما دعاه الى ارتكاب هذا العمل ، فجاب الغلام رابط الجأش ناظراً الى السماء : ان الله القادر على كل شئ . قد أمره

(١) من بلاد مركز بنا بالبر الغربى لليل



حدثه المقاعى (كما رسمها فى حينها المسيو فيمان ديون)
ونرى الجنرال ديزيه جالسا تحت الشجرة يستجوب غلام القرية لمحاكمته
والغلام يجيبه شحاعة ورباطة جأش

بذلك ، فسأله الجنرال عن حرصه على فعلته ، فقال لم يحرصنى أحد وانما ألهمنى الله أن أفعل ما فعلت ، ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال له فى هدوء وثبات: دونك رأسى فاقطعوه ، فدهش الجنرال من شجاعته واكتفى بأن يجلد بالسوط ثلاثين جلدة ، فجلد الغلام لا يتأوه ولا يتململ حتى استوفى الثلاثين سوطاً ، ولم تكن سنه تتجاوز الثانية عشرة ، وقد قص الجنرال بليار حكايته فى يومياته قائلاً إن هذا الغلام إذا عنى بتربيته كان ذا شخصية نادرة المثال ، وروى المسيو فيفان دينون حكاية هذا الغلام فى رحلته ، وهى تتفق فى جوهرها مع رواية الجنرال بليار وإن اختلفت فى بعض التفاصيل ، غير أنه قال إن الجنرال ديزيه عفى عن الغلام ولم يأمر بعقابه ، ورواية الجنرال بليار فى يومياته أدعى إلى الثقة لأنها قاصرة على سرد الواقعة وخالية من عبارات التصور والتخيل التى وردت فى رواية المسيو دينون ، وقد رسم هذه الحادثة فى كتابه (١) وقلنا عنه هذا الرسم (ص ٣٨٧)

وصل الجيش الى (الفشن) يوم ١٧ ديسمبر ثم ابتعد عن النيل وقصد شاطئ بحر يوسف يتعقب المماليك وحلفاءهم الاهالى ، لكن مراد بك استطاع أن يتراجع قبل أن يدركه الجيش الفرنسى ، وظل الجيش يتعقبه ثلاثة أيام يتنقل من قرية الى قرية دون أن يفوز منه بطائل ، فعاد الى شاطئ النيل ووصل الى المنيا يوم ٢٠ ديسمبر وكان المماليك قد غادروها قبل قدومهم ببضع ساعات تاركين بها سقتهم وكانت واحدة منها مسلحة بثلاثة من المدافع ، والمراكب الاخرى بها بعض المدافع القديمة وبعض الاقوات والذخائر فقتلها الفرنسيون

ثم سار الجيش من المنيا مبتعداً قليلاً عن النيل فربنى أحمد ، فريدة ، فكموم الزهير ، ثم عرج على النيل ووصل الى (ساقية موسى) ثم الى (ملوى) وكانت كماهى الآن من أهم مدن الوجه القلى وصفها الجرال بليار فى يومياته بأنها مدينة كبيرة وأنها أجمل ما رآه من المدن فى رحلته ، ذات شوارع واسعة مستقيمة وبيوت منتظمة

(١) رحلة فى الوجه البحرى ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بوناپارت

للمسيو فيفان دينون

وقد وجد الفرنسيون فيها ثمانية مدافع كان الأهالي يقذفون منها الجبل على المراكب الفرنسية حيث شرعوا في تحصين المدينة وإقامة سور لحمايتها ، فاستولى الفرنسيون على تلك المدافع واستمر الجيش في زحفه فمر بطوخ ، فتانوف ، فديروط ، فاقوصية

احتلال أسيوط

وفي صباح يوم ٢٤ ديسمبر قام الجيش من القوصية يريد أسيوط فاحتلها يوم

٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨

كانت أسيوط ، ولم تزل ، أهم مدن الوجه القبلي ، بها القصور المشيدة ، والأبنية الجميلة والقيساريات والمتاجر الواسعة ، وهي عاصمة مديرية أسيوط التي كان عدد سكانها في ذلك الحين نحو مائتي ألف نسمة (١) ، وكانت تبعد عن شاطئ النيل بنحو ١٢٠٠ متر ومينائها (الحمراء) متصلة بها بجسر يعلو مياه الفيضان ، وكن في غريبها تلول عالية تقع بينها وبين الجبل وهي آثار مبان قديمة وعليها بيوت المالك ، فكانت تلك البيوت مرتفعة عن المدينة تشرف عليها ، لذلك اختارها الفرنسيون لاقمة جنودهم واتخذها الجنرال ديزيه معسكراً للجيش ، وكان في الجهة البحرية للمدينة حدائق ذات بهجة ، وقد اشتهرت أسيوط بنسيج أقمشة الكتان ومصنوعات الخشب والعاج والأبنوس والخرتيت والفخار وصناعة الجلد وعصير السبرج وتصدير النظرون ، وكانت مركزاً لتجارة السودان والواحات وبلاد المغرب ، يرد إليها التبر وريش النعام وسن الفيل وانتمر الهندي والجلود وملح الصودا ، وتصل إليها في كل سنة قافلة من دارفور على مسيرة أربعين يوماً تشتمل على نحو ألف وخمسمائة من الابل بأحماها من بضائع تلك الجهات فيبيعونها ويستبدلون بها من البضائع المصرية فيحصل بذلك رواج عظيم لأسيوط ، هذه نظرة عامة إلى المدينة وقت أن احتلها الجيش الفرنسي . انسحب المالك من أسيوط بعد أن أغرقوا سفينة مسلحة من أسطولهم وتركوا

(١) الآن ٩٨١٠٠٠ نسمة.

ست سفن أعجلهم عنها ما كانوا فيه فلم يأخذوها ولم يفرقوها فاستولى الفرنسيون عليها وعلى ما فيها من الأقوات والذخائر، ثم سار الجيش من أسيوط يوم ٢٦ ديسمبر واتقسم إلى فرقتين، فرقة بقيادة الجنرال فريان أخذت طريق سفح الجبل، والفرقة الأخرى المؤلفة من الفرسان ومن كتيبة الجنرال بليار أوغلت في السهل ثم التقتا في (الغنائم) فاحتلها ونهبها الجنود (١)

غادر الجيش (الغنائم) ووصل في زحفه إلى (فزاره) وعسكر في غابة على مقربة منها، وفي يوم ٢٨ ديسمبر وصل إلى (بلصفورة) وفي ٢٩ غادرها وحاذى النيل عند (المنشأة) ثم مر بالخرافة، قالنويرات، فطوخ العسيرات، فأولاد حمزة إلى أن وصل إلى جرجا في اليوم نفسه فعسكر حول المدينة وكان أسطول مراد بك قد غادرها قبل أن يصل الفرنسيون وهكذا قطع جيش الجنرال ديزيه المسافة من نبي سويف إلى جرجا في ثلاثة عشر يوماً (من ١٦ إلى ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨) كان في خلالها يطارد جيش مراد بك من بلد إلى بلد دون أن ينال منه منالا

حط الجيش الفرنسي أثقاله بجرجا ليستريح الجنود من عناء تلك الرحلة التي

(١) قال الجنرال بليار في يومياته عن الغنائم

« إنها قرية كبيرة جداً تحيط بها غابة من النخيل وهي على مسيرة خمس دقائق من التربة السوهاجية، وقد نهبها الجنود نهباً تاماً ودافعهم الأهالي عن أنفسهم وقتلوا بعض الجنود، وقد أرسلت قوة لإطاعة النظام في القرية فأطبق عليها الفلاحون واشتبك الفريقان فقتل واحد من الأهالي وجرح اثنان من الجنود »

وقال بليار عن قرى الوجه القبلي بمقارنتها بالوجه البحري
« يظهر أن بلاد الوجه القبلي أكثر تنظيماً من بلاد الوجه البحري فالطرق معتمى بها وكذلك الترع، وفي مفاوز الطرق أسبله على مسافات معينة يقوم عليها بعض الأهالي يسقون الناس من مائها، والقرى من المياه إلى ما بعد ملوى لا تكتنفها المزال والقاذورات بمقدار ما رأينا حول غيرها »

أنهكت قوامه ولينتظر وصول المراكب التي بها ذخائره ومهمات ومؤوته ، وقد تعطل سيرها وتأخرت عن متابعة الجيش لهبوط المياه واختلاف الريح ، ومرض من الجنود نحو ٢٠٠ جندي وأمر الجنرال ديزيه بترحيل من لا يرجي شفاؤهم إلى القاهرة لكيلا يكونوا عالة على الجيش

ورأى ديزيه أن لا يغامر بجيشه فيما وراء جرجا لأنه أصبح بعيداً عن القاهرة ووجد في جرجا مدينة كبيرة في وسط مديرية خصبة تصلح لتكوين الجيش فرأى من الحكمة أن يستقر بها حتى يصل أسطوله ويتأهب لاستئناف الإيفال في الصعيد^(١)

الثورة فيما بين

أسيوط وجرجا

كان ديزيه يتوقع قدوم أسطوله إلى جرجا بعد أيام معدودات ، ولكنه تأخر في الوصول ، فاضطر أن يبقى بها مدة ثلاثة أسابيع دون أن يزحف أو يعمل عملاً ، وكان تأخره مدعاة لتنظيم قوة المقاومة في البلاد التي لم يفتحها ، وسريان روح الثورة في المدن التي فتحها ، فصارت البلاد فيما بين أسيوط وجرجا شعلة من الهياج والثورة شبت الثورة في نحو أربعين بلداً وانضوى إلى علمها نحو سبعة آلاف من الأهالي ، فانهزمراد بك هذه الفرصة ليلم شعثه ويضم إليه الأعوان والأنصار من أهل البلاد ، وأرسل يستنجد بأشراف مكة وعرب ينبع وجده وأنفذ رسلاً إلى النوبة يستنفرون الناس لمقاومة الفرنسيين ، وأرسل إلى حسن بك الجداوى الذي كان مقبلاً في أسنا وكان بينهما من قبل عداوة قديمة يعرض عليه الصلح ليتحدا على محاربة الفرنسيين ،

(١) كانت جرجا مع أنها أصغر من أسيوط تعتبر في ذلك العصر عاصمة الصعيد لأنها قاعدة مديرية جرجا أكبر مديريات الوجه القبلي وكانت الغلال فيها وافرة والأسعار منخفضة وموقعها في منتصف المسافة بين القاهرة واسوان يجعلها مركزاً تجارياً على جانب كبير من الأهمية

قلبي الجداوى دعوة الصلح وانضم الى خصمه القديم لمحاربة العدو الجديد
واجه الفرنسيون فى الصعيد فيما بين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق بعيدة
المدى ، ولكنهم عاجلوا قسلا أن تجتمع قواها وتتحد عناصرها وغلبوا قواتها
المبعثرة معتمدين على قظامهم الحربى ومدافعهم القوية وبنادقهم الحديثة ، فكانت
المعارك التى نشبت بينهم وبين الاهالى أشبه بمذابح فتكت فيها نيران المدافع
والبنادق بمجموع من الاهالى محرومين من النظام غير مزودين الا بأسلحة قديمة

معركة سوهاج

٣ يناير سنة ١٧٩٩

كلف ديزيه الجنرال دافوقم هذه الثورة ، فقام من جرجا على رأس فرسانه
ووصل الى سوهاج يوم ٣ يناير سنة ١٧٩٩ حيث كانت تحتشد قوة من الثائرين
قدرهم الجنرال دافو بأربعة آلاف من الفلاحين مسلحين بالبنادق والحرا ب يشد
أزرهم سبعة من الفرسان ، ونشب القتال بين الفريقين ولكن الاهالى على كثرة
عددهم لم يكونوا معتادين خوض المعارك الحديثة فأصلتهم فرقة الفرسان نارا حامية
تراجعوا أمامها تاركين ثمانمائة من القتلى كما يقدرهم الجنرال ديزيه ، وعاد الجنرال دافو
الى جرجا

كانت هذه الواقعة كارثة أصابت الاهالى ، وكان طبيعيا أن تفضى الى إرهاب
البلاد الأخرى وإخماد الثورة فيها ، لكنها على العكس لم تكسر شوكة الثائرين ، ولم
تنهم عن عزمهم ، واحتشدت جموعهم المسلحة على مقربة من أسيوط قادمين
رجالا وركبانا من مديريات المنيا وبنى سويف والفيوم ، فكلف ديزيه الجنرال
دافو التوجه ليهاجم هذه الجموع وليطمئن على الأسطول الفرنسى الذى انقطعت أخباره
وتأخر وصوله الى جرجا ، وكان مركز هذا الأسطول محفوقا بالمخاطر لأنه كان يتسحب
فى النيل بين بلاد نائرة وجموع هائلة

معركة طهطا

٨ يناير سنة ١٧٩٩

سار (دافو) على رأس فرقة الفرسان فوصل تجاه طهطا يوم ٨ يناير ، فوجد عدداً من الاهالى يبلغون نحو ثمانمائة فارس يقصدون مهاجمة الفرنسيين فاقرب منهم جيش الجنرال دافو يتحداهم للقتال ، فتقهقروا وأخلوا له الطريق ، فترجل الجنود الفرنسيون تجاه طهطا واستراحوا ساعتين ثم استأنفوا سيرهم فتبعهم فرسان الاهالى عن بعد ، وأخذت جموع الثوار تخرج من القرى مشاة وركبانا وتنضم اليهم فازداد عددهم حتى بلغ عدد الفرسان منهم ألفي فارس كما يقدرهم الجنرال دافو ، وهجم الثوار على مؤخرة الجيش الفرنسى ، فامر الجنرال دافو باطلاق النار عليهم ففتكت بهم فتكا ذريعاً وخسر الاهالى عدداً كبيراً من القتلى قدرهم الضابط راباس Rabasse (١) ١٥٠ قتيلاً من الفرسان وثمانمائة من المشاة (٢) واسحبوا من ميدان القتال وانتقم الفرنسيون انتقاماً فظيماً من القرى التى أطلقت عليهم النار فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل وأحرقوها (٣)

تابع الجنرال دافو سيره فوصل بفرسانه الى أسيوط يوم ١١ يناير ووجد السفن الفرنسية راسية تجاه المدينة ولم تكن وصلت إلا صباح ذلك اليوم ثم قفل راجعاً إلى جرح

وصل الاسطول إلى جرحا يوم ١٨ يناير حاملاً الذخائر والاقوات لفرقة الجنرال

(١) رئيس أركان حرب الجنرال دافو

(٢) قدر نابليون في رسالته الى الديركتوار خسائر المصريين في معركة

سوهاج وضبطا بـ ٢٢٠٠ قتلى

(٣) رسالة دافو الى الديركتوار في ١٢ يناير سنة ١٧٩٩

ديزيه ومدداً من ١٥٠ جندي فاعتزم ديزيه أن يسير بجنوده جنوباً ليشتبك مع مراد بك في معركة فاصلة

معركة سمهود

٢٢ يناير سنة ١٧٩٩

زادت قوة مرآد بك بانضمام الاهالى الثأثرين اليه وقدم عرب جدة وينبع الذين أتو من سواحل البحر الاحمر لنجدته ، وانضم اليه كذلك عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى من السكوات المالك ذوى النفوذ والعصبية كان مع مراد بك من المقاتلة ١٥٠٠ مملوك والباقون من الاهالى الذين انضموا اليه من جميع البلاد ، ويقدر نابليون عددهم فى مذكراته سبعة آلاف من الفرسان المصريين وثلاثة آلاف من المشاة، وألفين من عرب ينزع وجده بقيادة الشريف حسن، فجيش مراد بك كان اذن مؤلفاً من نحو ١٢٠٠٠ مقاتل ، وهى قوة لا يستهان بها لوكان لها قيادة صالحة مدبرة

علم ديزيه أن هذه القوة مرابطة فى سمهود^(١) الواقعة على ترعة مهجورة فانتقل اليها بجيشه وكان عدده نحو خمسة آلاف مزودين بالمدافع والبنادق الحديثة ، وهناك التقى بجيش مراد بك فى صبيحه يوم ٢٢ يناير ونشبت معركة حامية الوطيس بين الفريقين استعداد لها الجنرال ديزيه استعداداً عظيماً ليضمن لجيشه الفوز فيها ، فرتب المشاة وجعل منهم مربعين تحميها المدافع وتتألف منهما ميمنة الجيش وميسرته ، فكانت الميمنة بقيادة الجنرال فريان والميسرة بقيادة الجنرال بليار^(٢) وفرقة الفرسان فى القلب

(١) بلدة بمركز فرشوط بمديرية قنا واقعه بقرب الجبل الغربى

(٢) احصلت رواية المراجع الفرنسية فى قائدى الميمنة والميسرة ، على اننا اعتمدنا على التقرير الذى كتبه الجنرال ديزيه عن المعركة وبعث به الى نابليون وفيه يقول انه جعل على الميمنة الجنرال فريان وعلى الميسرة الجنرال بليار ، وكذلك يقول نابليون فى رسالته الى الديركتوار عن واقعة سمهود



معركة سمهود (٢٢ يناير سنة ١٧٩٩) كارسما المسيو فيمان دينون وكان من سهودها

وترى في الصورة الكتائب الثلاث التي يدلف منها الجيش الفرنسي تهاجم القرية على تشكل مربعات تحميها المدافع من زواياها، فليجتاح
الايمن بقيادة الجنرال فريان والجنح الايسر بقيادة الجنرال ليمار و بينهما كتيبة الفرسان بقيادة الجنرال دافو، وحنود مراد بك يحاولون
الاحاطة بالربعات فتصدهم نيران المدافع الفرنسية

على شكل مربع بقيادة الجنرال دافو، فهجمت المربعات الثلاثة تحميها المدافع من زواياها

بهذا الترتيب قابل الجيش الفرنسى قوات مراد بك التى كانت أكثر عدداً ولكن ينقصها النظام والمدفعية ومقدرة القيادة ، فلا غرو أن انتهت الواقعة بهزيمة مراد بك وانسحابه بقلول جيشه جنوباً قاصداً فرشوط ، وترى فى الرسم ص ٢٩٥ صورة معركة سمهود كما رسمها المسيو فيفان دينون الذى شاهدها وتجد فى الصورة المربعات الثلاثة التى تتألف منها القوات الفرنسية تهاجم قرية سمهود حيث كان يربط جيش مراد بك ، وهذه الصورة تمثل نظام جيش نابليون وطريقة هجومه فى معارك مصر

الوصول إلى أسوان

أول فبراير سنة ١٧٩٩

لا تقل واقعة سمهود شأنها عن معركة سدمنت ومعركة الاهرام فى كونها أكسبت الجيش الفرنسى النصر فى ميدان القتال وفتحت أمامه الطريق لاحتلال البلاد ، فاستطاع الجيش الفرنسى بعد هذه المعركة أن يستأنف زحفه جنوباً ، وأخذ يطارد جيش مراد بك حتى وصل الى فرشوط ، وهناك اضطر الى الوقوف قليلاً حتى يستريح الجنود الذين أجهدهم السير ثم غادر (فرشوط) متابعاً سيره حتى وصل إلى (هو) ثم إلى (الوقف) وبلغ (دندره) فى ٢٤ يناير ومر قريباً من أطلالها وكان المسيو فيفان دينون (الذى نقلنا عنه بعض رسومه) يرافق الحملة فشاهد مع لفيف من ضباط الجيش آثار دندره القديمة، فبهرتهم عظمتها ووقفوا مبهورين أمام جمالها وجلالها ، وفى ذلك يقول الكولونل لا تورنرى Latournerie قومندان المدفعية فى تلك الحملة بعد أن شاهد معبد دندره « من يوم ان قدمت الى مصر وأنا أعيش مريضاً حزينا ، ولكن دندره قد شفتنى من سقامى ، والآن لا آسف على شىء وأنا فى مصر ، ومهما لقيت فيها منذ اليوم فلن هذه المشاهد ترد إلى الحياة والسرور »

واصلت الفرقة سيرها مارة بالقري الواقعة على البر الغربى للنيل فلم تلق بها مقاومة

وعسكرت من ٢٥ إلى ٢٦ يناير في (دنفيق) ثم وصلت إلى (طيبة) ذات الآثار الخالدة، التي أشاد بذكرها هوميروس وهيرودوت، وحدث عن جلالها سترابون Strabon وديودور الصقلي، وتفتى بعظمتها الشعراء والمؤرخون على تعاقب الأجيال والعصور، فشاهد ديزيه وأركان حرب والمسيو فيفان دينون آثار الفراعنة ومقابر الملوك المائلة فيها دلائل عزم وعظمتهم والنيل ينساب وسط تلك الآثار الناطقة بما كان لبلادنا في الزمن السالف من مدنية عظيمة ومجد أثيل

غادر الجيش طيبة وأسرع يتعقب المماليك، فوصل إلى (أرمنت) يوم ٢٦ يناير وغادرها في اليوم التالي محاذيا النيل ووصل يوم ٢٧ يناير إلى إسنا (١) وكان مراد بك قد غادرها قبل وصول الجيش الفرنسي قرك فيها ديزيه الجنرال فريان وكتيبة من الجنود لاختضاع البلاد وسار جنوبا حتى وصل إلى (ادفو) يوم ٢٩ يناير ثم وصل يوم أول فبراير (٢) تجاه اسوان، فاجتاز الفرنسيون النيل ووصلوا إلى البر الشرقي حيث توجد اسوان فاحتلوها واستولوا فيها على مراكز المماليك، وذلك تم للجيش الفرنسي احتلال الصعيد بأكمله

لكن فلول جيش مراد بك أفلتت من تطويق الجيش وانسحبت إلى ما وراء

(١) كانت اسنا من أهم مدن الصعيد تقصد إليها القوافل القادمة من السودان ودارفور وسنار وتتخذها سوقا لها ومحطة تنزل بها فاكستبت بذلك مكانة كبيرة، وكان بها أكبر سوق للجمال، وكانت (ولم تزل) مركزا صناعيا لنسيج الصوف والقطن وصنع المملات وعصير الزيت وسمل الفخار، وكانت بسبب بعدها عن العاصمة كالملاجأ للمماليك المغضوب عليهم من ولاية الأمور بالقاهرة وسكن بها وقتئذ حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن وصالح بك خصوم مراد بك القدماء، وكان بأقصى المدينة حديقة جميلة حسن بك الجداوى اتخذهم انفرنسيون مقراً لاجتماعاتهم كما اتخذوا منزل حسن بك الجداوى مقر لاقمتهم

(٢) اعتمدت في بيان هذا الترخ على تقرير الجنرال ديزيه عن حركات الجيش

الفرنسي في الصعيد

الشلال وعسكرت طلائعه على مسيرة أربعة فراسخ من اسوان ، فكان وجودهم من بواعث قلق الفرنسيين على سلطاتهم في الوجه القبلي فاعتزم الجنرال بليار مطاردتهم في بلاد النوبة واقامة الحصون في اسوان

لم يطل ديزيه مكثه في اسوان أكثر من يومين ، ثم غادرها تاركاً بها الجنرال بليار ووصل الى اسنا يوم ٩ فبراير وعزم على اتخاذها مؤقتاً معسكراً لجيشه ليرقب حالة الوجه القبلي

لم يكد الجنرال ديزيه يستقر في اسنا حتى عاد جماعة من الممالك بقيادة عثمان بك حسن واستقروا على شاطئ النيل الشرقي في منتصف المسافة بين اسوان واسنا ، وكاد وجودهم يهدد مواصلات الجيش الفرنسي ، فأرسل الجنرال بليار كتيبة من جنوده لمطاردتهم ، فاستقرت هذه الكتيبة في (دراو (١)) بالبر الشرقي للنيل شمال اسوان ثم عادت الى اسوان بعد أن ابتعد رجال عثمان بك عن شاطئ النيل

كانت مهمة الجنرال بليار في اسوان أن يمنع عودة الممالك من وراء الشلال ويضطرمهم إلى النقاء في بلاد النوبة حيث يتسرب اليأس إلى نفوسهم في تلك البلاد النائية ، فظل بليار يرقب حركاتهم ، وبقيت فلول الممالك في حالة ضنك شديد مشتتين بالقرب من النيل قريباً من الدر وابريم (٢) وعلى بعد نحو مائتي كيلومتر من جنوب اسوان

على أن طلائع الممالك أخذت تناوش المخافر الفرنسية على مقربة من اسوان فذهب بليار لمطاردتهم مع كتيبة من جنوده وتعقبهم حتى انسحبوا جنوب دهميت (٣) وأوغلوا ثانية في بلاد النوبة ، ورأى الجنرال بليار أن يحول دون رجوعهم بتخريب تلك المنطقة لكيلا يستطيع الممالك أن يقيموا بها ويتخذوها مركزاً للمناوشة الفرنسيين ،

(١) من بلاد مركز اسوان

(٢) من بلاد مركز الدر الآن بمديرية اسوان

(٣) بمركز اسوان

فاقتلع مزروعاتها ونهب مافيها من الماشية، واعتزم أيضاً احتلال جزيرة (أنس الوجود)
والجزر الواقعة في شلال اسوان ليأمن على سلامة الجيش الفرنسى

المقاومة في جزيرة فيله

في ٦ فبراير سنة ١٧٩٩ قصد بليار الى جزيرة فيله (أنس الوجود) في كتيبة من مائتى
جندى ، فرست عند الشلال وسارت على الشاطىء الايمن للنيل ، ولما صارت تجاه
جزيرة فيله أراد الفرنسيون أن يعبروا النيل إليها على مراكب الاهالى فلم يقبل
أحد منهم أن يسلم فى مركبه ، وعاد بليار أدراجه الى اسوان ، وبعد بضعة أيام
استأنف تحقيق عزمه فلقى مقاومة شديدة من النوبيين فى جزيرة فيله (أنس الوجود)
وجزيرة الحساء ، قال الجنرال بليار فى يومياته يصف هذه المقاومة :

« حمل الاهالى أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال، ورأينا النساء ينشدن أناشيد
الحرب والهيجاء ويحثون التراب فى وجوهنا، أما الرجل فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين
ركبوا البحر وكنت قد أحضرت معى مدفعاً لا خضاعهم فدعوتهم الى الصلح والسلام،
فكان جوابهم أنهم لا يقبلون منا كلاماً وأنهم لا يفرون من أمامنا كما يفر اليالك ،
واستأنفوا اطلاق الرصاص ، فخرج ثلاثة من رجالنا ، ولم يكن لدينا مراكب نصل
بها الى الجزيرة وحاولنا أن نتخذ من جذوع النخل طوقاً ينقل الجنود ولكن المياه
غمرته ، فاضطررنا أن نرجىء احتلال الجزيرة و بقيت الجنود ترابط يوم ١٩ فبراير على
شاطىء النيل تجاه الجزيرة ، واستعجلت من اسوان بعض ألواح الخشب للعبور عليها
« وفى اليوم التالى وصلنا الى الجزيرة ، فطلق علينا الفلاحون الرصاص ولكن لم

يصب أحد من الجنود ثم فروا تاركين مواشيهم ومؤوتهم واحتلنا الجزيرة
« وفى ٢١ فبراير احتلنا الجزر الاخرى المجاورة لجزيرة فيله ولتى اشترك أهلها
فى الثورة ، ثم عدد الجنود و بقيت فصيلة منهم لتستولى على مؤونة الاهالى من اتمر، وكانت
نتيجة هذين اليومين أن قتل من الاعداء ثلاثون رجلاً واستولينا على ٢٠٠ بندقية
و ٢٠٠ طبنجة وسيف ، وشىء كثير من اتمر واللحم والمؤونة »

ثم للفرنسيين احتلال الجزر الواقعة في شلال اسوان واطمأنوا على حدود مصر ،
وأخذ الجنرال بليار يحصن اسوان وعزم على اقامة قلعة فيها

تجدد القتال بين جرجا واسوان

كانت خطة الفرنسيين الحربية اتخاذ اسوان موقعا حصينا لقطع الطريق على
الماليك اذا هموا بالخروج من مكنهم في بلاد النوبة ومعاودة الهجوم على الجيش
الفرنسي ، لكن الماليك أحبطوا هذه الخطة باجتيازهم الصحراء غربا ومواصلة السير
شمالا الى أن صاروا حذاء جرجا وأسيوط، واعتزموا الهجوم على الجيش الفرنسي هناك
وتهديد المواصلات بين كتائب الجيش فيما بين أسيوط واسوان ، كما أن بعض قلوب
الماليك بقيادة حسن بك الجداوى ومحمد بك الأتقى بعد أن فروا أمام جيش ديزيه
لم يواصلوا السير الى ما وراء الشلال وانفصلوا في الطريق ضاربين في الصحراء
يتربصون الفرص ليعودوا الى شاطئ النيل

علم الجنرال بليار بهذه الحركة فاعتزم أن يتعقب الماليك في البر الغربي ، فأخلى
اسوان ليلة ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ وسار بجنوده بالبر الغربي للنيل يتعقب مراد بك
ولكنه لم يدركه لان الماليك كانوا أسرع منه في السير

وصل بليار الى اسنا يوم ٢٨ فبراير ، وهناك تلقى تعليمات ديزيه لمواجهة هذه
الحركة الهجومية التي قام بها الماليك ، وفيما كان ديزيه في اسنا علم ان جماعات من
عرب الحجاز جاؤا لنجدة المصريين وأنهم يهزمون احتلال قنا لقطع مواصلات
الجيش الفرنسي ، وأن عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى ورحالهما تحركوا بالبر
الشرقي قبالة (ادفو) ، فعهد الى الجنرال فريان احتلال قنا للامتناع بها ومنع اتصال العرب
بالنيل وجعله قومسدا لنا لمديرية جرجا ، وأنفذ كذلك الجنرال دافو لمطاردة قوات
حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن قبالة ادفو

معركة الرديسية

١١ فبراير سنة ١٧٩٩

عبر الجنرال دافو النيل وسار بإبر الشرقي قاصداً مهاجمة جموع الاهالى والماليك الذين يقودهم حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن فالتقى بهم يوم ١١ فبراير بالرديسية (١) واصطدم الفريقان وكلاهما من الفرسان فى معركة شديدة دامت ثلاث ساعات اشتبك فيها المقاتلون وجها لوجه ، فكانت هذه المعركة قريبة الشبه بمعركة الصالحية استعمل فيها السلاح الأبيض فحسر الفرنسيون خسارة جسيمة وبلغ عدد قتلاهم ٣٧ قتيلا من بينهم الضابط فونتت Fontette وبلغ عدد جرحاهم ٤٤ كما قدرهم الادجودان جنرال دنزلو ، وكانت خسائر الماليك والاهالى لا تقل عن خسارة الفرنسيين وكان من جرحاهم عثمان بك حسن ، وانتهت المعركة بانسحاب الماليك الى الصحراء فى طريق القصير واستطاع حسن بك الجداوى أن ينقذ رجاله ومؤوته من الوقوع فى قبضة الفرنسيين فلم يكن الفوز لاحد الفريقين على الآخر و بقيت قوة 'الماليك' و لاهى سليمة تترقب الفرصة لمعاودة الكرة (٢)

معركة قنا

١٢ فبراير سنة ١٧٩٩

أما فى جهة قنا فقد سار إليها الجنرال فرنان قصاداً الامتنع عنها لأن موقعه على جانب

(١) بلدة واقعة بإبر الشرقي لميل جنوب ادو الواقعة على الر الغربي

(٢) يقول ريجو ان هذه المعركة وقعت باقرب من الاقصر يوم ١٢ فبراير

ويسمىها معركة الاقصر ، ويسمى ديزيه معركة ضيعة ، ويقول أيضا انها وقعت يوم

١٢ فبراير وكذلك المسيو (شوفى) فى خريطة مهندسى الحملة الفرنسية ، على انه يرحو عنا

الى بيانات الجنرال دافو الذى قد 'نمركه' وبيانات الكولونل لاسال Lassale

الذى اشترك فيها تبين لنا حلي 'ان المعركة وقعت بالرديسية يوم ١١ فبراير

عظيم من الأهمية ، وإليها يفضى الوادى المعروف بوادى القصير ، وهى ممر القوافل
الذاهبة من القطر المصرى إلى الحجاز أو التى ترد منه عن طريق القصير ، وقد سبقته
إليها طلائع جنوده بقيادة الضابط كونرو Conroux وعدد منهم نحو خمسمائة مقاتل ، ولم يكده
يعلم عرب الحجاز والاهالى باحتلال الفرنسيين لها حتى هجموا عليها قبيل منتصف
ليلة ١٣ فبراير ولكن الفرنسيين ردوا هجومهم على المدينة وأوقعوا بهم خسارة جسيمة
وجرح الضابط كونرو فى هذا القتال جرحاً بليغاً فتنحى عن قيادة الجنود للضابط
دورسن Drösen فنال ما نال صاحبه

وصل الجنرال فريان بعد انتهاء المعركة فأقام المخافر حول المدينة وعلى مداخل الطرق
الموصلة الى النيل لمنع الثوار من استئناف هجومهم واستطاع الشريف حسن الذى
كان يقود عرب الحجاز ان يلجأه وانضم اليه الاهالى المسلحون من سكان البر
الشرقى للنيل فربطوا بالقرب من (أبو مناع) (١)

معركة (أبو مناع)

١٧ فبراير سنة ١٧٩٩

ولم تنهم هزيمة ١٢ - ١٣ فبراير عن عزمهم على مواصلة القتال فسار اليهم الجنرال
فريان بجنوده فأدركهم فى قرية (أبو مناع) وهناك دارت معركة أخرى تغلبت فيها
المدفعية على البنادق والاسلحة القديمة التى كان يستعملها الاهالى وعرب الحجاز ،
فقتل عدد كبير منهم واستولى الفرنسيون على (أبو مناع) وأضرموا النار فيها وفى
القرى المجاورة لها ونهبوها

وقصد الجنرال فريان بعد هذه المعركة الى جرجا تنفيذاً لتعليمات الجنرال ديزيه

فوصلها يوم ٢١ فبراير سنة ١٧٩٩

(١) شمال دشنا بغرب بالقرب من الجبل الشرقى تبعد عن النيل مسيرة ساعة

• معركة إسمنا

٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩

وفي غضون ذلك أخذ مراد بك يتأهب للحملة على مواقع الفرنسيين على النيل
ففي ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ أقبل ومعه قوة من سبعمائة من الفرسان وعدد حاشد من
النوبيين قاصدين مهاجمة الحامية الفرنسية في اسنا، فاشتبك الفريقان في معركة دامت
ساعة من الزمن وانتهت بتقهقر مراد بك ورجاله الى (أرمنت)

الفصل السابع عشر

استمرار المقاومة

في الوجه القبلى

لم يتم للفرنسيين إخضاع الوجه القبلى على الرغم من انتصاراتهم العسكرية واحتلالهم معظم بلدانه ، بل ظل مركزهم مضطرباً ونفوذهم مزعزعا ، وتخرج موقفهم من الوجهة الحربية لأنهم بعد أن احتلوا مدن الصعيد أصبح جيشهم مبعثراً على طول النيل ولم يكن سلطانهم يتعدى المدن التى لهم بها حاميات ، ولم يكن من السهل على الجيش الفرنسى إخضاع بلاد متباعدة تفصلها المسافات المترامية كبلاد الوجه القبلى ، كانت روح المقاومة تسود سكان القرى والمدن ، فلم يكن الأهالى يدعون فرصة تمردون أن يثوروا فى وجه السلطة الفرنسية ، وكانوا من هذه الوجهة متصلين بالبقية الباقية من جيش المماليك تعاونهم طوائف العرب القادمين من القصير ، فاجتمعت هذه القوى الثلاث واتحدت على مهاجمة الحاميات الفرنسية فى المدن وقطع مواصلات الجيش الفرنسى فى النيل بمهاجمة السفن التى تحمل الجنود والذخائر والاقوات ، ولذلك تخرج مركز الجيش الفرنسى وتعددت المناوشات والمعارك والمفاجآت ، وبكل ذلك لم يستقر له قرار فى تلك الجهات

كان الجنرال ديزيه مقبلاً فى اسنا التى اتخذها معسكره العام من اليوم التاسع من شهر فبراير سنة ١٧٩٩ (١) وظل بها يرقب الحال ويتتبع حركات الاضطرابات فى الصعيد ، ثم غادرها قاصداً الى (قوص) ، وقد شعر بمخرج الموقف وأفضى الى نابليون قبل ارتحاله الى سوريا بالمصاعب التى تكتنفه وطلب منه المدد ليتمكن من إخضاع الوجه القبلى ، قال فى رسالة له كتبها فى قوص يصف دقة موقفه

(١) انظر ص ٣٩٨ الفصل السابق

« اننا نسير بلا انقطاع ، ونحارب على حالة الجنود في ملابسهم وأحذيتهم ولم نستطع للآن أن نجمع إلا النذر اليسير من أموال الميرى على الرغم من الجهود التي بذلناها ، وان دعاة الثورة يشارون على نشر دعايتهم ، وان علينا أن نحارب ثلاث قوات مجتمعة وهم العرب القادمون من القصير ، والماليك ، والاهالى ، فليس من السهل إخضاع هذه البلاد ، ومن الضروري لنجاح الحملة على الوجه القبلى أن ترسلوا لنا أولاً ذخيرة كبيرة من الرصاص وكثيراً من الاحذية وأرجو أن تنفذوا الى أسبوط القوات التى فى الفيوم وبنى سويف (١) مع ايجاد حامية مستديمة فى المنيا وبذلك يتم لنا احتلال أهم المواقع على النيل فلا يستطيع أعداؤنا ان يصلوا اليها ، ويضطرون الى الشرود فى الصحراء حيث لا يستطيعون العيش ، إننا هنا كأنا فى أقصى الدنيا ، وان حالتنا محزنة ، والملاحه فى النيل نكتنفها الاخطار ، وهاءنذا فى قوص أنتظر مراكب قامت من اسنا منذ ستة أيام ولم تستطع الوصول الى هنا ، ولو كان لدينا من السفن الحربية والذخائر أكثر مما عندنا لتحسنت حالتنا »

هذا ما كتبه ديزيه الى نابليون ، ومن قبل كتب اليه غير مرة يطلب المدد، ولكن نابليون كان مشغولاً بالحملة على سوريا فخذ معه ما استطاع أخذه من القوات والذخائر ولم يرسل لديزيه الا النذر اليسير منها ، فاضطر ديزيه أن يكتفى بقواته لاستمرار الحملة على الوجه القبلى ومواجهة الاضطرابات فيها ولم يجد ما يسد به النقص الذى وقع فى صفوفه من المعارك والأمراض

موقف الماليك

بقى الجنرال ديزيه عدة أيام فى قوص يرسم الخطط التى تقتضيها ضرورات الموقف العسكرى ، وترك لكل من الجنرال بلبار والجنرال فرين حرية العمل كل فى حبه

(١) أرسل دنزلو الى الجنرال برتبيه فى ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٩ من قوص ينصح بإرسال حاميات جديدة الى الفيوم وبنى سويف لتحل محل الجنود التى ترسل الى أسبوط حتى لا تخلو هذه المواقع من جنود فيحتلها الماليك وحلفاؤه (الاهالى)

لمواجهة الهجمات التي استهدفت لها جبهة القتال الطويلة ثم اعتزم أن يواصل سيره شمالاً قاصداً إلى جهات جرجا وأسيوط ليقمع الثورات التي ظهرت فيها ، وكان يعتقد أنه سيواجه قوات كبيرة من ممالك مراد بك ومحمد بك الأتقي ، على أن الممالك كعادتهم لم يستهدفوا لمواجهة الجيش الفرنسي وتركوا عبء القتال على عاتق الأهالي ، فقد بقي مراد بك في الواحة بعيداً عن ضربات ديزيه وجنوده وانسحب محمد بك الأتقي إلى أخميم ولحق به عثمان بك حسن ، وأخذ الممالك من أتباعهم يبحثون عن ملجأ لهم في القرى والمدن ، وباع كثير منهم سلاحهم للأهالي ، وعرض بعضهم نفسه على الفرنسيين ليضموهم إليهم ، وقد ذكر ريبو (١) حوادث معينة لهذا التحول ، منها أن أحد ممالك عثمان بك حسن طلب من ضباط الجيش الفرنسي أن يأخذوه إليهم وحثه أنه قبل أن يكون مملوكاً كان مجرياً (من سكان المجر) ومن فرسان الجيش النمساوي فأسره الأتراك في بعض حروبهم مع النمسا وصار بعد ذلك مملوكاً ، فقبل الفرنسيون خدمته وانضم إلى صفوفهم ، ودخل آخرون في الجيش الفرنسي زاعمين أنهم كانوا جنوداً في الجيش النمساوي وأسروهم الأتراك وأرسلوا إلى الاستانة ثم نقلوا إلى مصر وصاروا في عداد الممالك ، ويقول « ريبو » إن الفرنسيين قد قبلوهم في صفوفهم وصاروا من رجالهم الأتقاء الشجعان !! ويدخل في هذا السياق أن نابليون جند في صفوف الجيش الفرنسي جميع الممالك القتيلين الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسادسة عشرة وألحقهم بالجيش ليتدربوا على القتال في صفوفه

فمقاومة الممالك قد تلاشت اذن أمام الجيش الفرنسي وتنفس الفرنسيون الصعداء للقضاء على خصم كان يخلق لهم المتاعب ، على أن مقاومة الأهالي كانت أشد وأنسكى وأعظم أثراً في إضعاف مركز الفرنسيين في الوجه القبلي

نحرك ديزيه من قوص يوم ٢ مارس سنة ١٧٩٩ وانتقل إلى الشاطئ الأيسر لنيل قاصداً أسيوط وضم إلى جيشه في الطريق الوحدات التي كانت موزعة على

(١) التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية الجزء الخامس

طول النهر وترك وراءه أسطول السفن الفرنسية بقيادة القومندان موراندى Morandi
تبعه عن بعد وتسير مبطئة لاختلاف الريح

ناط الجنرال ديزيه قبل سيره من قوص بالجنرال بليار مهمة إخضاع مصر العليا
من قنا الى اسوان ، وطلب منه ابقاء خمسمائة جندي فى اسنا واتخاذها مركزاً عسكرياً
حصيناً لمراقبة البلاد شمالاً وجنوباً وتوزيع الوحدات المتحركة على البلاد الواقعة على
النيل ، وكلفه التقدم الى قنا وجعلها مركزاً حصيناً لمراقبة طريق القصير وطريق النيل

معركة (الصوامعة)

٥ مارس سنة ١٧٩٩

علم ديزيه فى طريقه الى أسيوط أن الاهالى ثاروا بقيادة مشايخ البلاد بالقرب
من طهطا، فعهد الى الجنرال فريان مهاجمة الثائرين فالتقى بهم فى الصوامعة^(١) يوم ٥
مارس وألقى نار الثورة مشتعلة بها ووجد نحو ثلاثة آلاف من الفلاحين يحتلونها ،
فهجم على المدينة بجنوده واحتلها ودفع الثوار الى النيل فقتل منهم عدد كبير قدرهم
الجنرال ديزيه بألف قتيل وغريق

وصل ديزيه الى أسيوط يوم ٨ مارس بعد أن وزع قواته على طول النيل فى
اسنا وقنا وفرشوط وجرجا وطهطا وأسيوط فاتخذ من هذه المدن مراكز للحاميات
الفرنسية ورتب وحدات متحركة تجوب البلاد الواقعة بينها لإخضاعها وقمع حركات
الثورة التى تبدو فيها

كارثة السفن الفرنسية فى النيل

٣ مارس سنة ١٧٩٩

سقى الجنرال ديزيه عند سفره من قوص أسطوله الذى كان يسير ببطء فى النيل

(١) الصوامعة جنوب طهطا، وهى واردة بهذا الاسم فى تقرير الجنرال ديزيه
معارك الوجه القبلى

ليلحق بالجيش في أسبوط ، وبعدت الشقة بينهما ، فانهز الالهالى هذه الفرصة لمهاجمة الاسطول وكان عدده نحو ١٢ سفينة حربية تقل ذخائر الجيش ومؤونته تتقدمها السفينة الحربية « ايتاليا »

هاجم الالهالى هذه السفن يوم ٣ مارس سنة ١٧٩٩ على مقربة من قرية « بارود (١) » وأطلقوا عليها الرصاص فأجابت السفينة الحربية « ايتاليا » على هجمات الالهالى باطلاق المدافع فقتلت منهم عدداً كثيراً ، لكن الالهالى ومعهم العرب القادمون من القصير تجمعوا وازداد عددهم ونزلوا النيل سباحة وهجموا على السفن فاستولوا عليها عنوة وأفرغوا شحناتها من الذخائر على شاطئ النيل ، ثم ركبوها وقصدوا الى السفينة الحربية « ايتاليا » للاستيلاء عليها وكان يقودها القومندان موراندى Morandi فضاعف اطلاق الرصاص على المهاجمين ، ولكنه رأى رجال مدفعيته قد أثخنهم الجراح على ظهر السفينة ورأى من جهة أخرى جموع الالهالى من الشاطئ الايسر يتحفزون للهجوم عليه ، ففكر فى الانسحاب ولكن الريح عاكسته فجنحت سفينته ، واذ ذاك هرع اليها الالهالى والعرب من كل صوب وحذب وصعدوا على ظهرها ، فتحقق موراندى الخطر المحدث به ، ولكنه أبى التسليم ، فأشعل النار فى مستودع البارود والذى هو ورجاله بأنفسهم فى اليم قاصدين النجاة ، وانفجر مستودع البارود فنسف السفينة نسفاً وتفجرت تظايا القنابل على الشاطئ فقتلت عدداً كثيراً من الالهالى ولكن الباقين منهم قاتلوا موراندى ورجاله فى اليم فمات متخنا بجراحه وقتل جميع الفرنسيين الذين كانوا على ظهر السفينة « ايتاليا » وعلى ظهر السفن الأخرى ، وكانت خسارة الفرنسيين جسيمة فبلغ عدد قتلاهم من البحارة والجنود خمسمائة قتيل ، وهى أكبر خسارة منى بها الجيش الفرنسى فى الحملة على الوجه القبلى

كانت السفينة « ايتاليا » قبل ان تستخدم فى الحملة على الوجه القبلى سفينة نابليون الخاصة التى كان يركبها فى النيل بالقاهرة ، وقد وصلت اليه أنباء هذه الكارثة

(١) على الشاطئ الشرقى للنيل جنوب قنا بالقرب من قوص وتسمى (نجم البارود)

وهو في حملته على سوريا أثناء حصاره لكاف فزن حائلاً شديداً على ما أصاب الفرنسيين فيها ، ومما يؤثر عنه انه تشاءم من فقد السفينة « ايتاليا » وتوقع ان تكون هذه الكارثة نذيراً بتقلص ظل فرنسا عن البلاد الايتالية لتشابه الاسم فقال لمن حوله متأثراً « ان فرنسا قد فقدت ايتاليا ، ان شعورى لا يكذبني »

من اسوان الى قوص

كانت مهمة الجنرال بليار في القطاع الذي كاف حمايته شاقة مخوفة بالكاره ، فقد أخلى اسوان يوم ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٩ لاختضاع الحركات العدائية التي ظهرت على شاطئ النيل شمالاً فوصل الى اسنا يوم ٢٨ فبراير ، وبعد أن تلقى تعاليمات ديزيه سافر من اسنا يوم ٢ مارس بعد أن ترك بها قوة من أربعة جندى بقيادة الضابط فاليت Valette وكلفه تحصين منزل حسن بك الجداوى ليكون معقلاً للحامية الفرنسية وكان يرافق بليار في مسيره بعض السفن تحمل الأقوات والذخائر والجنود والجرحى والمرضى فوصل مساء ٢ مارس الى رزقيت (١) وعسكر تلك اليلة هناك ، وفي اليوم التالي وصل الى رزقيت (٢) وعسكر بها ، وفي اليوم السادس وفي هذا اليوم سار قاصداً الى قنا يدفعه من وقت لأخرى عن ضوايل الليل ، وقد وصله الانباء بانهم يتجمعون على مقربة من بارود وند وصل الى قرية « قولا » (٣) عبر النيل بجنوده وأخذ طريقه بابر الشرقى ووصل الى قوص (٤) يوم ٨ مارس وهناك تحقق من الكارثة التي حلت بسفينة اسنا وند وعلم ان الاهالي وعرب الحجاز (والميك) يستعدون لملاقته بعد أن تزودوا من الذخائر والمدفع التي استولوا عليها في معركة بارود نيليه.

(١) جنوب أرمنت بغرب مصر

معركة قفط

٨ مارس سنة ١٧٩٩

سار بليار قاصداً موقع الأهالى والعرب على مقربة من قفط وهناك التقى بجمعهم الذين كانوا يرابطون فى السهل وعددهم نحو ثلاثة آلاف من الاهالى وعرب الحجاز و٣٥٠ الى ٤٠٠ من المماليك ، والتقى الجمعان فى سهل قفط يوم ٨ مارس سنة ١٧٩٩ فكانت معركة حامية الوطيس اشتبك فيها المقاتلون وجها لوجه وانتهت بهزيمة الاهالى والعرب وانسحابهم الى أبنود

معركة أبنود

٨ - ٩ - ١٠ مارس سنة ١٧٩٩

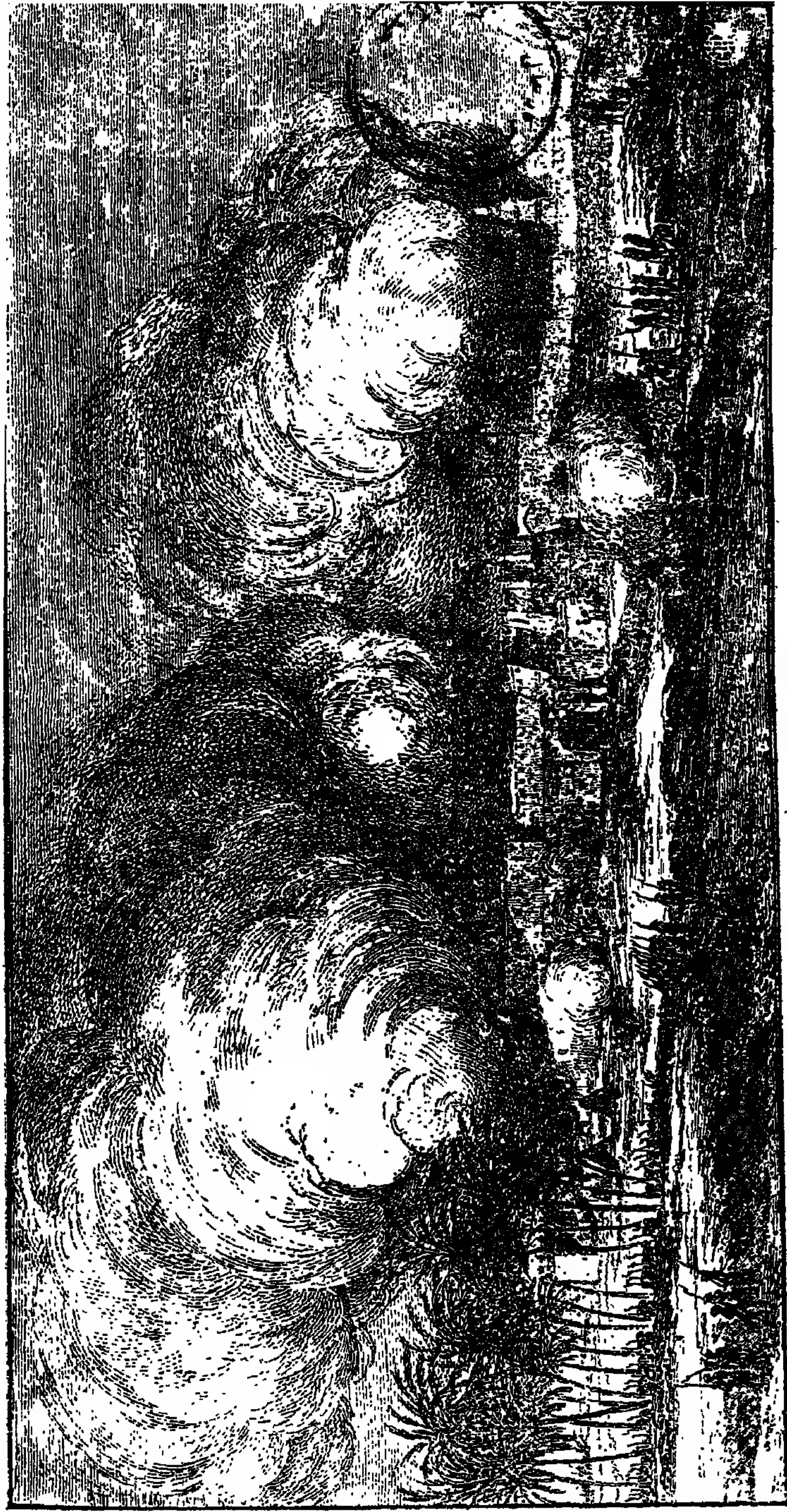
واصل الاهالى والعرب انسحابهم وهم يدافعون دفاعاً شديداً عن كل قرية وكل مكان ارتدوا اليه ، فلما وصلوا الى أبنود تحصنوا فيها ونصبوا بها المدافع الفرنسية التى غنموها فى واقعة بارود النيلية ، وأخذوا يطلقون النار منها ففتكت بالفرنسيين فتكا شديداً ، وكانت هذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة فى صفوف المصريين ، وقد أدرك الجنرال بليار لغوره ان موقفه أصبح محفوفاً بالخطر وأن منشأ الخطر وجود المدافع الفرنسية فى يد المصريين ، فوجه قوة جيشه كلها للاستيلاء على هذه المدافع ونجح فى خطته فاسترجع الفرنسيون مدافعهم وجردوا المصريين من أقوى سلاح كان فى يدهم

واشتد القتال بين الفريقين وانسحب الاهالى والعرب الى منازل القرية فتجدد القتال فى طرقها وبيوتها ولم يتمكن الفرنسيون من التغلب عليهم الا بعد ان أضرموا النار فى منازل القرية كلها ، فأصبحت البلدة شعلة من الجحيم ، وتصاعد الالهب الى عنان السماء واستحالت القرية الى أكوام من الخرائب ، وبالرغم مما حل بها من الحريق والدمار فقد امتنع الأهالى والعرب فى قصر حصين كان فيها مضى مقراً

لكشاف الماليك ، وفي مسجد يجاوره جمعوا فيه الذخيرة التي غنموها من الفرنسيين ، فاستد القتال حول هذا المنزل والمسجد المجاور له وتبادل الفريقان إطلاق النار الى أن جن الليل وتكبد الفرنسيون خسائر جسيمة فكفوا عن الضرب بعد أن أحرقوا المسجد وأخذوا يحاصرون المنزل طول الليل ويستعدون لاستئناف القتال في اليوم التالي ونصبوا المدافع بحيث تشرف عليه ، أما الماليك فقد لبثوا يشاهدون هذه المجزرة بعيداً لم يأتوا شيئاً ولم يعملوا عملاً ما وعسكروا في الصحراء ، ذلك كان شأنهم في كل المعارك التي اشتد فيها القتال فكانوا يضمنون بأرواحهم ويعرضون الاهالى فداءً وضحية استؤنف القتال في اليوم التالي (يوم ٩ مارس) ، فأعاد الفرنسيون ضرب القصر بالمدافع ، وهنا أقبل مدد من الاهالى والماليك لرفع الحصار عن هذا القصر ، فردم الفرنسيون على أعقابهم وشددوا الحصار والضرب الى أن تمكنوا من دخول إحدى ساحاته فضرمو النار في بنائه ليكرهوا من فيه على التسليم ، فاشتعلت النار في غرف القصر وأوشك لهيبها ودخانها أن يخنق المحصورين فنزلوا الى ساحته واستمروا يقاتلون الفرنسيين بشجاعة اعترف بها بليار في رسالته الى الجنرال ديزيه الى أن جن الليل وكان قد قتل كثير منهم ، وتمكن بعضهم أن ينسلوا تحت الظلام فقتلوا من الحصار ونجوا بأنفسهم من النار المشتعلة

وفي صباح اليوم الثالث للمعركة (يوم ١٠ مارس) اقتحم الفرنسيون القصر فوجدوا الباقين به نحو ثلاثين قد أقعدهم الاعياء وذلتهم الجراح ومع ما كانوا فيه من الهلاك فانهم استمروا على المقاومة الى أن قتل الفرنسيون معظمهم وبعدها انتهاء المعركة تظاهر ممالك عثمان بك حسن بارغبة في القتال كذباً ودعوى وكانوا أثناء القتال حامدين ، فسار اليهم الجنرال بيدرقة صديقاً بهم فاجتمعوا وما أسرع ما فروا في الصحراء وتركهم وعاد الى أبنود

وجد الفرنسيون في القصر جانباً من الذخائر التي فقدوها في معركة بارود النيلية وكان الاهالى والعرب قد استنفدوا جزءاً منها ، وكذلك استرد الفرنسيون المدافع التي



معركة أبود - ٨ - ٩ - ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ - (قلا عن مجموعة رسوم المسيو فيفاني دينون)
والصورة توضح اضرام القر نسيين النار في أبود أثناء المعركة ، وترى النار مشتعلة في القصر الحصين الذي كان الثوار ممتنعين فيه وفي المسجد
المجاور له بعد ان أحرق القر نسيون بيوت القرية

كان الأهالي قد انتزعوها من السفن الفرنسية واستولوا على ست رايات منها اثنتان للحجازيين

وقدر بليار خسائر الأهالي وحلفائهم الحجازيين بخمسمائة أو ستمائة قتيل وثمانية الى عشرة من المماليك وكثير من الجرحى ، وقدر خسائر الفرنسيين بنحو ٣٥ قتيلًا و ١٣٤ جريحاً ، وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولاً وأطولها مدة فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت ٧٢ ساعة ، وكان حريق أبنود وما أصابها من الدمار أفظع مأساة وقعت في معارك الحملة الفرنسية وتجد صورة حريق أبنود ص ١٢٤ كما رسمه المسيو دينون الذي شاهد المعركة

حالة الشعب النفسية

بالرغم من انتصار الفرنسيين في معركة أبنود فقد أنهمكهم القتال ونالتهم الخسائر الجسيمة ونفدت ذخائرهم وأصبح من المتعذر على الجنرال بليار متابعة القتال لفداحة الخسائر ، ومما زاد موقفه حرجاً الروح العدائية التي سادت الأهالي في تلك الجيئات بحيث كان الفرنسيون يشعرون أنهم محاطون بالاعداء من كل جانب وأن لا سبيل الى استبقاء سلطتهم إلا بقوة السيف والنار ، وقد شرع قواد الجيش بتلك الحالة النفسية وأفضوا بها الى القيادة العليا في رسائلهم وتقاريرهم ، ودونوها في مذكراتهم

قال الجنرال بليار في يومياته « ان كل القرى التي نجتازها نجدها خالية من السكان لانهم يخلون قراهم قبل أن نصل اليها »

وقال في رسالة الى الجنرال ديزيه عن معركة أبنود « اتنا نعيش هنا عيشة ضنكا فان جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها ولا نجد فيها شيئاً من القوات ولا نرى فلاحاً واحداً يد لنا أو يأتينا بالاخبار أو يحمل رسائلنا ، ولا أدري السبب في هذه الحالة ، على اتنا مع ذلك لا نعمل عملاً ضاراً في البلاد التي نجتازها »

وقال ديزيه في رسالة الى نابليون (١)

(١) رسالة ديزيه الى نابليون من أسيوط في ١٧ مارس سنة ١٧٩٩

« ليس لدى معلومات ولا أخبار عن الجنرال بليار ولكنهم يؤكّدون لى انه حارب الاهالى والمماليك وعرب مكة وهزمهم واسترد الذخائر والسفن التى اضطر جنودنا الى التخلي عنها ، ان البلاد فى ثورة ، وليس من السهل أن نتبادل الرسائل بسرعة ، وأنى أطلب الذخائر من القاهرة فقد نفدت ذخائرنا ، وسأزحف على شاطئ النيل الايمن لاكتساحه وطرد المماليك وحلفائهم ، على أنى لا أكتسك الحقيقة وهى أننا مع ذلك لا نكون سادة البلاد لانا اذا أخلىنا بلدة لحظة واحدة من الجنود عادت الى حالتها القديمة »

وكتب الادجودان جنرال دنزول الى الجنرال برتية من أسيوط فى ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة يستعجل بها المدد قال فيها

« اذا لم تتفضلوا بارسال الأدوية اليانا فان مرضانا الذين يزداد عددهم كل يوم سيموتون من البؤس والعذاب ، ويحق لى أن أتساءل هل نحن فى منفى سحيق بالصعيد فلا يذكركنا أحد ؟ انى أكرر لكم اننا فى بلاد أصعب مراساً من مديرية المنصورة واذا سرنا الى جهة من الجهات ظهرت الثورات فى الاماكن التى يخليها الجنود ، فعلىنا أن نكون دائماً على أهبة الزحف والتدمير ، فتى تنهى هذه الحالة ؟ »

ورجع بليار بعد معركة أبنود قاصداً الى قنا فوصلها يوم ١٢ مارس سنة ١٧٩٩ وأخذ فى تحصينها ، واختار منزلاً كبيراً لآحد المماليك فاتخذة حصناً يشرف على المدينة وعلى النيل وجعله معسكراً للجنود وأخذ يبعث بالرسائل الى الجنرال ديزيه لينبئه بموقفه ، ولكن رسله جميعاً قتلهم الاهالى فى الطريق ولم ينج منهم إلا واحد بلغ أسيوط برسائله

رجوع ديزيه الى قنا

أما الجنرال ديزيه فكان فى أسيوط يرقب الحالة وينتظر رسائل بليار التى أبطأت عليه كثيراً ، الى أن وصلته يوم ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة منه ينبئه فيها بكارثة السفن الفرنسية فى بارود ثم انتصار الفرنسيين فى معركة أبنود ، ولم يخفف هذا الانتصار

شيئا من عظم الكارثة النيلية فانها فضلا عما لحق الفرنسيين فيها من خسارة الأُفْس والارواح قد أفقدتهم أعظم مستودع للذخيرة التي كانت تحملها السفن ، فأرسل ديزيه يستعجل المدد والذخيرة من القاهرة واعتزم أن يسير جنوبا الى قنا ليشد أزر الجنرال بليار ويقمع حركات الثورة التي ظهرت في البلاد وبخاصة الواقعة على الجانب الأيمن للنيل

ترك ديزيه حامية في أسبوط وغادرها يوم ١٨ مارس بجنوده وجعل طريقه على البر الشرقي ، وحمل مؤوته وذخيرته في النيل وسارت الجنود على الشاطئ فوصل قبالة طهطا يوم ٢٠ مارس ، ثم الى اخميم يوم ٢١ ثم قبالة جرجا يوم ٢٣ مارس ، وبقي عدة أيام في بلاد احد المشايخ الذين اشتهروا بمقاومة الفرنسيين وهو الشيخ (عبد المنعم) للتنكيل به فأمر بقطع نخيله واضرام النار في القرى التابعة له ووصل يوم ٢٧ مارس الى قنا ولتقى فيها بالجنرال بليار وأخذوا يُعدان العدة لاستئناف القتال واخضاع البلاد

معركة (بئر عنبر)

٢ ابريل سنة ١٧٩٩

وصل ديزيه الى قنا فشدد وصوله عزائم الجنود وأخذ يتأهب سحق المقاومة التي كانت تقلق الفرنسيين .

ان انتصارات الفرنسيين ، تكسر شوكة البلاد وه تضع حداً لمقاومة الأهلية فان الأهالي وحلفاءهم من العرب وإماليك كانوا يجمعون فلولهم بعد المعارك التي هزمهم فيها الجيش الفرنسي ثم يعودون لا ترة المقاومة ويستهدف الهجوم ، وكل معركة تترك لهم ثارا على الفرنسيين ، وبذلك لا تنقضي معركة إلا ولدت معركة جديدة

كتب الجنرال ديزيه يصف هذا التصور « ان ضيعة الحرب في الوجه القبلي قد تغيرت ، فقد هزمنا الأعداء (الأهالي وحلفاءهم) في كل مكان ، ولكننا لم نسحقهم ، ومن الواجب أن نصل الى هذا الغرض ، ولوصول اليه سأُنظم وحدات متحركة

لأن كره الأعداء على أن يظلوا منقطعين في الصحراء المقفرة أو على الأقل نضطربهم
لقطع مسافات شاسعة ليصلوا إلى المناطق المزروعة »

شرع ديزيه يوجه قواته لسحق رجال حسن بك الجداوى الذين انسحبوا بعد
معركة أبنود إلى جهة (الجطة) في طريق القصير ، فجمع في هذه الحملة كتيبة من ١٥٠٠ من
خبرة جنوده وأتجه جنوباً محاذياً للبر الشرقى لليل ضارباً في الصحراء فوصلت الفرقة
إلى (كفر اسما) وهي قرية صغيرة في سفح الجبل ثم وصلت إلى (ثر عنبر) وهي بلدة
واقعة على الطريق الداهب من قنا إلى القصير ثم وصلت إلى (المقرينة)^(١) وعسكرت
تجاهها ، وكان ديزيه يرمي إلى قطع الطريق على رجال حسن بك الجداوى حتى لا يصلوا
إلى النيل بأحد الطريقين الموصلين إليه من (الجطة) وهما طريق ثر عنبر وطريق
(حجازة)^(٢) الواقعة جنوب قوص بقرب الجبل الشرقى ، فاحتل ثر عنبر وعهد إلى بليار
باحتلال حجازة فاحتلها ، وبذلك تم للفرنسيين احتلال رأسى الطريقين الموصلين إلى
النيل ، وأخذ الجنرال بليار وهو في حماره يستطلع حركات المليك وحلفائهم الذين
كانوا في (الجطة) يتحفزون للتقدم يريدون النيل ، فلما علم ديزيه بمقصدهم سار بحوده
في صباح يوم ٢ إبريل لمباراتهم

فلما كن على مسيرة ساعه من (ثر عنبر) التقت طلائع حبشه من الفرسان بقوة
الماليك والأهالى يقودهم حسن بك الجداوى ويعاونه عمان بك حسن وكان عددهم
نحو خمسمائة من الماليك وألف من الأهالى كما يقدرهم الجنرال ديفيرنوا^(٣) Desvernois
في مذكراته

فدارت معركة شديدة بين الفريقين بالقرب من (ثر عنبر) تلت فيها كتيبة

(١) جنوب قفط

(٢) وهناك طرق ثلت يصل من الحطة إلى الرديسة ولكنه طريق بعيد
الشقة وعمر المسالك قليل الآبار

(٣) ن ضباط جيش ديزيه



مقتل الكولونيل دوبلسي في معركة بئر عنبر - ٢ أبريل سنة ١٧٩٩ - (نفلا عن مجموعة رسوم المسير فيمان ديون)
وترى في الصورة الكولونيل دوبلسي يهجم على عمان بك حسن وكلاهما راكبا حواده فعدله أحد فرسان عمان
بك بطمه رمح أودت بحياته

الفرسان صدمة الهجوم وتأخر المشاة عن المعركة لوعورة الطريق وصعوبة السير في الرمال، وكان يتولى قيادة الجيش الفرنسي الجنرال ديزيه يعاونه الجنرال دافو، وقتل في المعركة عدد من الضباط الفرنسيين منهم الكولونل دو بليسي Duplessis والضابط بوفاتييه Bouvatier وبلغت خسائر الفرنسيين ٤٤ قتيلا و ٢٠ جريحاً وهي خسارة كبيرة تدل على اشتداد القتال في تلك المعركة

ويقول الجنرال ديفرنوا في مذكراته ان ديزيه قد استهدف للخطر وكاد يقضى عليه لولا أن اقتداه الكولونل دو بليسي بحياته، وانتهت المعركة بانسحاب المماليك وحلفائهم الى (الجطة) في طريق القصير بقيادة حسن بك الجداوى لكن حسن بك لم يبق بالجطة طويلاً وارتدّ جنوباً قاصداً الى اسوان

وترى في ارسـم رقم ص ٤١٧ صورة معركة (بئر عنبر) ومقتل الكولونيل دو بليسي كما رسمها المسيو فيفان دينون وكن من شهودها
أما الجنرال بليار فقد كان مرابطاً في (حجازه) ليقطع طريق الانسحاب على المماليك وحلفائهم ولكن هؤلاء مضوا في طريق الردسية يقصدون الى النيل، فتبعهم بليار بجنوده ووصل الى الردسية يوم ٨ ابريل غير أنه لم يدركهم وكانوا غادروها قبل قدومه قاصدين الى اسوان، وهذه هي المرة الثانية التي انسحب فيها المماليك الى اسوان، وخشى بليار ان يفامر بمن معه من الجنود في متابعتهم في الصحراء فعدل عن اللاحاق بهم واستدعاه الجنرال ديزيه ليرابط في قنا التي كانت موقعاً عسكرياً على جانب عظيم من الأهمية

تجدد الثورة بين قنا وجرجا

عد بليار الى قنا بعد أن ترك حاميات من الجنود في قوص واسنا، وقبل أن يصل الى قنا غادرها الجنرال دافو الى جهات جرجا وأسيوط ليقمع الحركات الثورية التي تجددت فيها، ذلك ان الجنرال ديزيه قد وصلته الانباء أن الاهالى والمماليك قد انتهزوا فرصة خلو البلاد من القوات الكافية فاستأنفوا حركاتهم الثورية في مديرية جرجا، وأن جموع الثائرين من الاهالى وحلفائهم العرب والمماليك احتشدوا بالبر

الشرقي لقطع مواصلات الجيش الفرنسي فأنفذ الجنرال دافوا بفرسانه لاختضاع البلاد
الثائرة فيما بين قنا وجرجا، وعهد إلى الكولونل موراند Morand قومندان مديرية
جرجا باحتلال الأماكن المشرفة على النيل قبالة جرجا ليأخذ الطريق على الثائرين إذا
أرادوا عبور النيل

واقعة برديس

٦ إبريل سنة ١٧٩٩

تحرك الجنرال دافوا ووصل إلى دشنا، فشر الأهل بأن خطر الاحداق بهم
فعبروا النيل شمالى برديس وصاروا بالبر الغربى، فسار اليهم موراند والتقى بهم في
٦ إبريل على مقربة من برديس وكانوا جموعاً كثيرة من الأهل والعرب تجمعوا في
بردیس متأهبين للقتال، وانضم اليهم سكان القرى المجاورة، فتبادل الفريقان إطلاق
الرصاص بشدة وهجم الأهل والعرب على جنود موراند مرتين فمحز موراند عن اقتحام
هذه الجموع وتقهقر إلى جرجا ليحمى مواقع الفرنسيين بها

واقعة جرجا

٧ إبريل سنة ١٧٩٩

شجع تقهقر موراند الأهل والماليك فتابعوا هجومهم ومصوا قصد احتلال
جرجا، وتضاعف عددهم في الطريق بمن كن ينضم اليهم من سكان البلاد التي مروا
بها، فقدر الجنرال دافو عددهم بثلاثة آلاف من الفلاحين تجمعوا من القرى المجاورة
يعاونهم جماعة من الماليك وعرب الحجاز، وهجموا على جرجا يوم ٧ بريل وتمكن
فريق منهم من الدخول فيها، لكن الحامية الفرنسية بقيادة موراند صدتهم عنها
بعد قتال عنيف وخسراهم جرح عدد من ائقضى قدره جنرال دافو بمائة وخمسين
قتيلا كما قدر خسائر الفرنسيين ستة من ائمتى و١١ جريحاً

واقعة جهينة

١٠ ابريل سنة ١٧٩٩

امتدت الثورة إلى طهطا فاستولى الثوار عليها ، وسرت الى القرى المجاورة فاقبل الضابط لاسال Lassale بجنوده قادما من أسيوط والتقى بالثوار يوم ١٠ ابريل في جهينة (١) وحاصرها الفرنسيون وضربوها بالمدافع ، ودار قتال شديد داخل البلد وامتنع الثائرون في دار حصينة بها اتخذوها معقلا وقاوموا بها عدة ساعات ، ثم اقتحم الفرنسيون تلك الدار واستولوا عليها وقتلوا من صادفهم بها من الاهالى والعرب وقدر دافو عددهم بثلاثمائة من القتلى

الثورة في بنى عدى

وصل الجنرال دافو الى جرجا ثم إلى طهطا وعلم بنبا هاتين المراكزتين فتابع سيره إلى أسيوط ووصلها يوم ١٦ ابريل ، وهناك رأى أن الثورة امتدت الى أسيوط وسرت اليها من فلول الاهالى والعرب الذين انهزموا في جرجا وجهينة وانسحبوا شمالا بحميهم أهالى القرى التى فى طريقهم حتى وصلوا قريبا من أسيوط ومعهم نحو مائتين من المماليك ، فأخذوا يحرضون الناس على الثورة ويستحثونهم لقتال الفرنسيين ، وكانت خطتهم محكمة التدبير واسعة المدى كما اعترف بذلك ديزيه فى تقريره الى نابليون واتخذ الثوار (بنى عدى) معسكرا للثورة ، وهى بلدة كبيرة واقعة على طرف الصحراء غرب منفوط وعلى طريق الواحة التى كان مراد بك لاجئا اليها ، وكان لهذه البلدة أهمية كبيرة بالنسبة لموقعها وعدد سكانها وثروتها (٢) واشتهر أهلها من قديم

(١) جنوب طهطا ، ذكر المرحوم على باشا مبارك فى خططه التوفيقية موقعها فى مديرية جرجا وقال عنها « ان أهلها أكثر من عشرة آلاف نفس من عرب حمية القبيلة المشهورة ولهم كرم زائد وشهامة وفصاحة لسان وذكاء وفطنة وثبات جنان » وهى واقعة على التربة السوهاجية

(٢) يقول دافو فى رسالته الى الجنرال دوجا عن (بنى عدى) « انها من

الزمن بالقوة وشدة البأس فكانوا في عهد الماليك يقاومون مظالمهم فأتخذها الثوار مركزاً لهم واجتمع بها ثلاثة آلاف من الأهالي المسلحين وانضم اليهم ٤٥٠ من العرب المصريين وثلثمائة من الماليك

كانت هذه القوة لا يستهان بها ، فسار دافو بجنوده قاصداً بني عدى للاستيلاء عليها وقع الثورة فيها ، فلما وصل اليها (يوم ١٨ ابريل سنة ١٧٩٩) ألقى أهلها جميعاً

أ كبر بلاد الوجه القبلي سكانا وأغناها وأعظمها مكانة، وإن الثورة عمت فيها من أقصاها الى أقصاها وإن أهلها كانوا يرسلون جماعات منهم الى شاطئ النيل لمهاجمة السفن الفرنسية « وذكر العلامة علي باشا مبارك بني عدى في الجزء السابع من خطته فقال عنها « أنها بلدة كبيرة من قسم (مركز) منفلوط بحافة بساط الجبل غربى منفلوط وهى ثلاث قرى القبليّة والوسطى والبحرية ، وأبنيتها بالأجر والطين وبها جوامع كثيرة عامرة ، وهى ضريق الواحات وعلى مسيرة ثلاثة أيام واليها ترد محصولاتها من التمر والارز والنبيلة ومم ترس فى اية هرة وهما تنسج أحزمة الصوف واللائشة الصوفية الجيدة « وهى مشهورة كل يوم بصناعة الاكامة المثينة والاحزمة الجيدة، وقد عرفت من شيوخهم عن شيوخهم قوم كرام ذوو همم عالية وذكاء وفطنة وفصاحة قيل منهم من قبيلة بني عدى المشهورة القرشية، وهى أيضاً مشهورة بالعلماء من قديم الزمان والاربع لا يخلو أبداً منهم ومنهم المدرسون والمؤلفون قديماً وحديثاً « رذك من بينهم شيخ على انعدوى المالكى وأورد ترجمته نقلاً عن الجبرتي في وفيت سنة ١١٨٩ هجرية قال عنه الجبرتي « انه كان شديد الحكمة يصنع باخق ويأمر بالمعروف ويحب الاجتهاد في طلب العلم ، وكان ينهى عن شرب الخان ويتبع من شره بحضرته ، وكان إذا دخل منزلاً من مدرك الامراء ورأى من يشرب الخان نهى عن شربه فينتهى في الخان. وشاع عنه ذلك حتى ترك الناس شربه بحضرته. ودخل يوماً على علي بك الكبير (وهو على متعرف من سيرة رشيد باشا) فدخل وقبيل وصول الشيخ الى مجلسه فرفع نسبت من يده ورحلته من وجهه ، وذا مات علي بك الكبير واستقل بامارة مصر محببتاً له من كان يعظمه ويحبه ولا يرد شفاعته «

يحملون السلاح ويتحفزون للوثبة والقتال ، وكان المماليك لم يزالوا في الصحراء بعيداً عن بني عدى ، فعهد دافو إلى الكولونل بينون Pinon باحتلال غابة تحصنت بها طلائع الأهالي ، فتمكن من إجلائهم عنها وارتدوا إلى المدينة ، فتعقبهم الكولونل بينون ولما اقترب من المدينة أطلق الأهالي الرصاص على الجنود من المنازل فاصيب بينون برصاصة أردته قتيلاً ، فعين دافو الضابط راباس Rabasse بدلا عنه ، فاستمر الجنود بقيادة راباس يقاتلون الاهالي ، وهنا حضر المماليك لنجدتهم ولكن لم يكدر راباس يتحول اليهم ليمنع اتصالهم بالاهالي حتى ارتدوا لاول صدمة وانسحبوا راجعين الى الواحة التي قدموا منها وتركوا الأهالي وحدهم يتلقون هجمات الجيش الفرنسي ، فاشتبك الفريقان في معركة حامية دارت رحاها في طرقات بني عدى وفي بيوتها التي حصنها الاهالي وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها على الجنود ، فلقى الجيش الفرنسي ببني عدى من المقاومة ما لم يلق مثله في كثير من البلاد

استمر القتال الى الليل وانتهت المعركة بغلبة المدافع والنييران الفرنسية على مقاومة الاهالي ، ذلك أن الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء على بني عدى لجأوا الى وسيلة الحريق التي اتبعوها في أبنود وغيرها ، فأضرموا النار فيها فامتدت الى بيوتها كافة ، وأصبحت البلدة كأتون من نار ، وبهذه الوسيلة غلب الجيش الفرنسي على مقاومة بني عدى واحتلها الجنود وأمعنوا في أهلها قتلاً ونهباً

قال الجنرال برقييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في مذكراته « أصبحت بني عدى أكواماً من الخرائب ، وتكدست القتلى في شوارعها ، ولم تقع مجزة أشد هولاً مما حل ببني عدى »

وقدر الجنرال دافو عدد القتلى من الاهالي بألفي قتيل ، ويقدرهم ديزيه في تقريره الى نابليون بنحو ثلاثة آلاف ، والواقع ان معظمهم مات من الحريق الذي أضرمه الفرنسيون في البلدة ، وقد احتل الجنود البيوت بحجة التفتيش عن الثائرين قهبوا ما تصل اليه أيدي الاصوص ، وكانت بني عدى مشهورة بما كان يأتيها من أموال القوافل القادمة اليها وما كان يحفظه فيها أعيان السلال المجاورة من الودائع ، فنهبها

الفرنسيون واستولوا على صناديق كاملة مملوءة بالذهب والمال
قال دافوعن النهب الذي وقع في بني عدى « ان الغنائم التي استولى عليها
الجنود قد عوضتهم ماقدوده ، وكثير منهم كان نصيبه ١٥ الف فرنك وبعضهم ٢٠ الف
فرنك ذهباً »

وقال ديزيه « ان غنيمة جنودنا كانت عظيمة وكثيرون استولى الواحد منهم
على عدة آلاف ريال »

رواية الجبرتي عن ثورة بني عدى

وصلت أخبار فظائع الفرنسيين في بني عدى الى القاهرة ، فكتب عنها الجبرتي
مايلي (في حوادث شهر ذى القعدة سنة ١٢١٣)

« حضر الى مصر الاكثر من عسكر الفرنسيين الذين كانوا بالجهة القبليّة ، وضربوا
في حال رجوعهم بني عدى بلدة من بلاد الصعيد مشهورة وكان أهلها ممتنعين عليهم
في دفع المال والكلف (الغرامات) ويرون في أنفسهم الكثرة والقوة والمنعة ، فخرجوا
عليهم وقاتلوهم ، فملك عليهم الفرنسيين تلاً عالياً وضربوا عليهم باندفاع فتلقوهم
وأحرقوا جرونها ، ثم كبسوا عليهم وأسرفوا في قتلهم ونهبهم ، وأخذوا شيئاً كثيراً وأموالاً
عظيمة وودائع جسيمة للفرز (المالك) وغيرهم من مساتير أهل البلاد القبليّة نظن
منعتهم » وكذلك فعلوا بالميمون »

ولهذه المناسبة نقول ان الجبرتي لم يعن كثيراً بحوادث المقاومة في الصعيد ولم يذكر
عنها الا نبذاً ضئيلة متقطعة حتى فيها ما كان يسمعه من أفواه بعض المسافرين وهي
ليست ذات قيمة وليس فيها الدقة والاستقراء اللذان امتاز بهما الجبرتي في سرد
حوادث القاهرة

على أنه لا يفوتنا التنويه بأن الجبرتي في إشارته الى موقف المليك في لوجه القبلي
وماهم بالجين وعدم الثبات في ميدان القتال ، فقد ذكر في حوادث شعبان سنة ١٢١٣
أن السفار (المسافرين) أخبروا « بأن مرد بك ومن معه ترفعوا (ابتعدوا) الى قبلي

ووصلوا الى عقبه الهواء ، وكما قرب منهم عسكر فرنساوية انتقلوا وقبلوا ، ولقد داخلهم من فرنساوية خوف شديد ، ولم يقع بينهم ملاقات ولا قتال » وذكر في موطن آخر في حوادث شعان أيضاً « وركب الغز وحاربوا الفرنسيين فلم يثبت الغز كعادتهم وانهزموا » وقال عن مراد بك « انه يغلب على طبعه الخوف والجلين مع التهور والطيش والتورط في الاقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه انه اقتصر في حرب باشرها أبداً على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور كما قل القائل أسد على وفي الحروب نعامه (١) »

في المنيا وبني سوف

امتدت الثورة إلى مديرتي المنيا وبني سوف فسار دافو إلى المنيا لاختادها ومر الجيش في طريقه ببعض القرى فكان الأهالي يمتنعون البتة عن مساعدته أو إمداده بالاقوات التي يطلبها ، فاحد ينكل بالقرى والبلاد بحجة أنها في حالة ثورة ، وكن أكرها استهدوا لانتقاء الفرنسيين في هذه الرحلة بلدة (أبوجرج) واقعة (أبوجرج)

وصل الجيش إلى (أبوجرج) فأرسل الجنرال دافو من قبله رسولا إلى أهلها ليقدّموا للمؤونة للجنود ، فرفض شيخ البلد (العمدة) أن يقدم شيئاً ، فأرسل دافو رسولا آخر فرده الأهالي خائباً ، فمر بمحاصرة البلدة وإضرار النار فيها انتقاماً من أهلها أقبل الأهالي من القرى المجاورة يحملون السلاح لمجدة أبوجرج ، فامتلات بهم لزراع وتبادل الفريقان إطلاق الرصاص ، واستمر القتال ساعتين وأضرمت الجنود ناراً في البلدة فانهبت مساكنها واحترق بها كثير من أهلها ، ويقدر الجنرال ديزيه مد القتلى من أهالي أبوجرج بالف قتيل

الثورة في المنيا

كان الجنرال ديتريس (٢) قائداً للحامية الفرنسية في المنيا ، وقبل أن يصل جنرال دافو إليه ، تمت الثورة في البلاد المجاورة لها فواجهها الجنرال ديتريس بالاقوات

١ حزن في آخره الثالث (٢) من فواد فرقة الجنرال ديزيه

التي تحت قيادته ونشبت معارك ثلاث في ثلاثة أيام متوالية تحت أسوار مدينة المنيا
اليوم الاول — ففي ٢٣ ابريل سنة ١٧٩٩ تجمهر نحو ٤٠٠ من الاهالى ومثلهم
من عرب الحجاز في قرية (طهنشا) (١) جنوب المنيا واستعدوا للهجوم على الحامية
الفرنسية في المنيا وأرسل زعيمهم الى شيخ بلد المنيا يطلب مظاهرتهم على عدوهم ،
فلما علم الجنرال ديتريس نبأ هذا الهجوم عزم على أخذهم قبل أن يهاجموه فترك في
المنيا فصيلة صغيرة من العسكر وخرج بباقي الجنود وقصد الى معسكر الثائرين باقرب
من (تله) (٢) التي تبعد عن المنيا غربا بنحو ثلاثة كيلو مترات ، فلما اقترب منهم
الجنرال ديتريس برزوا من معسكرهم لمقاتلته فدارت معركة بين الفريقين بدأت
بالاحداق بالجنود الفرنسية ولكن الجنرال ديتريس جعل من قوته مربعا على الطريقة
الفرنسية وساط مدافعه على جموع الثائرين واستمر القتال أربع ساعات ثم انسحب
الفرنسيون فتعقبهم الثائرون قاصدين المنيا ولكنهم لم يستطيعوا اقتحام أسوار المدينة
وكان الليل قد أقبل فارتدوا الى (تله) وانتهز الجنرال ديتريس فرصة الليل فرتب
مخافره واستعد لليوم الثاني

اليوم الثاني — وفي اليوم الثاني وقف الجنرال ديتريس بجنوده خارج المدينة
في موقع منيع تحميه المقابر والحدائق وأوقف الرماة خلف أكت عالية وأقبل الثائرون
يصيحون صيحات القتال ويتقدمون بشجاعة واقدام وكان عددهم قد زاد بمن انضم
اليهم من سكان القرى الواقعة على شاطئ النيل ومن رهط من انباليك قدموا من
الجنوب ، فامتلا السهل المجاور للمدينة على مسافة فرسخ بانبثاقين ودارت المعركة من
جديد وكان الفرنسيون متخذين خطة الدق فاستمروا يدفعون المحمات مدة ساعتين
ولكن الفصيلة التي كانت تدافع عن الباب الشمالى للمدينة اضطرت تحت ضغط
الثائرين الى الارتداد داخل البلد والاتجاء الى معسكر اخامية فاضطر الجنرال

(١) و(٢) من بلاد مركز المنيا

ديتريس الى اللحاق بهم وفي هذا الوقت تمكن الثائرون من اقتحام باب آخر من أبواب المدينة فدخلوها يتدققون من كل صوب وملأوا الشوارع ، لكن الجنرال ديتريس جمع رجاله وأمرهم بإطلاق النار وأرسل فصائله الى أهم شوارع المدينة لاحتلالها فتمكن بذلك من ردّ الثائرين بعد أن حلت بهم الخسائر الجسيمة ، وفي نحو الساعة الاولى بعد الظهر عادت السلطة الى قبضة الفرنسيين وانسحب الثائرون اليوم الثالث — ظن الفرنسيون أنهم أصبحوا في مأمن من هجومهم ولكن في صباح اليوم التالي (يوم ٢٥ ابريل) أقبل أربعائة فارس من العرب يظهرون جماعة من المالك وهاجموا الفرنسيين وكادت تدور الدائرة عليهم لولا وصول الجنرال دافو بقواته فهزم الثوار وعادت السكينة الى المدينة

ومما ساعد الجنرال ديتريس على رد هجمات الثائرين ان معظم أهالي البندر ومشايخه لم ينضموا اليهم ، ويقول ديتريس في رسالته الى الجنرال دوجا ان حامية المنيا سلمت من القتل بفضل مشايخ البلد في المنيا والفريق الا كبر من أهلها وانهم لو حملوا السلاح في وجه الفرنسيين لما بقي منهم أحد^(١) ويؤخذ من ذلك ان طائفة من أهالي المنيا قد انضموا الى الثائرين وبقى الفريق الا كبر منهم على الحياد ، وقد أعلن الجنرال ديتريس مكافأة أهل المنيا باقصاص المال المفروض عليهم في ذلك العام بمقدار الثلث وقرر حمل هذا الثلث على قرى ثلاث من البلاد التي اشتركت في الثورة

الثورة في اطفيح

وصل الجنرال دافو بفرسانه الى المنيا كما قلنا وتابع سيره الى بنى سويف ، ومن هناك عزم على عبور النيل لقمع الثورة التي ظهرت في مديرية اطفيح ، ولكن الجنرال دوجا أرسل يستدعيه على عجل الى القاهرة اذ بدأت الحالة تضطرب فيها من أجل حركات الهياج التي ظهرت في بعض أنحاء الوجه البحرى^(٢) وكانت القوات الفرنسية

(١) رسالة ديتريس الى الجنرال دوجا في ٢٧ ابريل سنة ١٧٩٩

(٢) انظر الفصل الثالث من الجزء الثاني

قد قصّ عددها في القاهرة والوجه البحرى عامة لما أخذه معه نابليون من الجنود في حملته على سوريا ، فاضطر دافو أن يعود من فوره الى القاهرة فأحدثت عودته قصصاً في صفوف الجنود الفرنسية في الصعيد

وأرسل الجنرال ديزيه الى الجنرال دوجا يشكو من عواقب استدعاء الجنرال دافو وفرسانه إذ كان أكثر اعتماده في قمع الحركات الثورية في الصعيد على فرقة الفرسان هذه ، وقد نبهه في رسالته الى الخطر الذى يهدد الفرنسيين في بنى سويف وان وجود الجنرال دافو ضرورى لهذه المديرية

حركات الجنرال ديزيه

كان ديزيه مقيماً في قنا حينما أنفذ الجنرال دافو لقمع الثورة في مديريات جرجا وأسيوط والمنيا ، فلما وصلته أنباء معركة بركتى برديس وجرجا ورأى فيها خطورة الثورة عزم على مغادرة قنا والحق بدافو ليساعده في مهمته ، فناط بالجنرال بليار قيادة الحركات العسكرية في قنا وإدارة مديرية طيبة (قنا) وغادر هو قنا يوم ١٣ ابريل سنة ١٧٩٩ فسار بجنوده براً ونقل المؤن والذخائر على السفن ومشت الفرقة متجهة لتراقب السفن ولا تبتعد عنها ، ويظهر أن الجنرال ديزيه قد اعتبر بما حال بالسفن الفرنسية من قبل اذا هي تخلفت عن جنود الرفاق ان يحاذيها بجنوده على الشاطئ ولم يصل جرجا الا يوم ١٧ ابريل مساء فرسل منها تعليماته الى الجنرال بليار كلفه فيها مواصلة العمل على سحق حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن ورجالهما ونصح اليه أن يجمع ثلثمائة هجين لنقل جنوده الى الجيات التى تظهر فيها الحركات الثورية وبذلك تطوى له المسافات طياً ، وأمره أن يحتل القصير ويوطد السلطة الفرنسية على سواحل البحر الاحمر وأن ينظم مديرية طيبة تنظيماً بالغاً ويجمع أموال الميرى وينظم الشرطة بها ، وأوصاه بالصرامة والقسوة في إخضاع الأهالى ، قال في رسالته في هذا الصدد « ان هذه هي الوسيلة التى نحصل بها على شىء من النفوذ والسلطة والطاعة ، وعليك أن تأمر بقطع رأس كل من لا يطيع أوامر من مشايخ البلاد (العمد)

وقطع النخيل وإحراق القرى الشائرة وأن تتحرى وتبحث لمعرفة القرى التي اشتركت في الهجوم على سفننا وفي المذبحة التي أودت برفاقنا التعساء (في بارود) وان تعاقبهم بأشد ما يمكن من القسوة ، وأن تفرضوا عليها غرامة لا تقل عن عشرة آلاف ريال ،

مشروع الحملة على القصير

وعنى ديزيه أشد العناية بالحملة على القصير فكتب عدة رسائل يستحث فيها الجنرال بليار لانفاذها اذ يرى فيها طريقة فعالة في إرساخ قدم الفرنسيين في الوجه القبلي ، فالقصير هو الثغر الوحيد الواقع على البحر الاحمر الذي يصل منه المدد الى بلاد الوجه القبلي فمنه جاء عرب الحجاز الذين شدوا أزر الأهالي في مقاومة الفرنسيين ، وكان الانجليز يترددون من آن لآخر على هذا الثغر فانهجج الفرنسيون من هذه الحركات وعزم ديزيه على احتلال هذا الموقع لسد المدخل الى الوجه القبلي

تنظيم البريد

ورأى ديزيه وهو في جرجا أن ينظم البريد بين الحاميات الفرنسية ليجعل بينها اتصالاً مستمراً يقيها المفاجآت وناط حمل البريد بفرسان مسلحين يقطعون مراحل محدودة ويتغيرون عند كل مرحلة الى أن تصل الرسائل الى الجهة المقصودة وأمر أن يسافر البريد كل يوم من جرجا حتى يصل الى قنا وقسم المسافة بين جرجا وقنا الى المراحل الآتية :

من جرجا الى برديس ، من برديس الى فرشوط ، من فرشوط الى هو ، من هو الى دشنا ، من دشنا الى السمطا ، من السمطا الى قنا ، وطلب ديزيه من بليار أن ينظم البريد على هذه الطريقة من قنا الى إسنا ، وكلفه أن يأمر (قائم مقام) كل بندر أن يكون معداً لنقل البريد يومياً في منطقته .

اعتقال الرهائن

سار ديزيه من جرجا يوم ١٨ ابريل قاصداً الى أسيوط فمر بالمنشاة فسوهاج

فطهطا فالغنائم وقضى أياماً يتفقد أحوال تلك البلاد ويدبر الوسائل لاختضاعها ثم وصل يوم ١٥ مايو الى أسيوط فالتجدها مركزاً لقيادته وقضى عدة أسابيع في إعداد الوسائل والتدابير لاختضاع البلاد وتنظيم قوات الشرطة ، وقد رأى في رحلته الأخيرة بمديرتي جرجا وأسيوط أن الحاميات الفرنسية لا قبل لها باختضاع الأهالي فلجأ الى اعتقال بعض الأعيان بصفة رهائن من كل بلد ليكونوا مسؤولين عن الحوادث والاضطرابات في بلادهم وبلغ عدد هؤلاء الرهائن الذين اعتقلهم من جرجا وما يليها الى أسيوط مائتي رجل من الأعيان أبقاهم أسرى في أسيوط وكتب الى الجنرال بليار يوصيه باعتقال الرهائن من منطقته وأن يكون عددهم أكثر ما يبلغه الامكان

وقد كان لدى ديزيه من التدابير الحربية الهامة احتلال القصير ونجريد حملة من المهجاة لمحاربة مراد بك وكان لا يزال مرابطاً في الصحراء ، ومطاردة مماليك حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن في جهات اسوان ، ومع أن مراد بك لم يكن معه من فلول المماليك سوى عدد يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة مملوك فإن ديزيه لم يجد لديه القوة الكافية لغزوه في معقله وكان استدعاء الجنرال دافو وفرسانه الى القاهرة قد أضعف قوة الجيش الفرنسي في الصعيد وآل بها الى النقص

واقعة اسوان

١٦ مايو سنة ١٧٩٩

السحبت فلول حسن بك الجداوى بعد معركة بئر عنبر (١) جنوباً الى ما وراء الشلال ولما آنتست من اجنود الفرنسية ضعفاً اقتربت من اسوان متوقفة الفرصة لاحتلالها ومناوشة الحاميات الفرنسية على النيل . وكان الضابط إبلر Epler مرابطاً في اسنا بكتيبة من خمسمائة جندي يراقب حركات حسن بك الجداوى ويمنع عديده من وراء الشلال على أن حسن بك تقدم برجاله واحتلوا اسوان وامتنعوا به وتقدمت ثلاثتهم شمالاً فوصلوا الى (دراو) فسار اليهم الكابتن رينو

Renard من ادفو بكتيبة من الجنود ولكنه لم يدركهم بدرا وفتعقبهم الى أن التقى بهم على بعد فرسخين الى جنوب اسوان فنشبت بين الفريقين يوم ١٦ مايو معركة شديدة جرح فيها حسن بك الجداوى جرحاً بالغا وأصيب عثمان بك حسن وانتهت المعركة بهزيمة المماليك بعد ان قتلوا خمسين قتيلاً وستين جريحاً وقازالفرنسيون عليهم فوزاً عظيماً وصفه نابليون في مذكراته التي أملاها على الجنرال برتران في سانت هيلين بأنه « أجل انتصار في حملة مصر » ويقول نابليون ان الفرنسيين قد حاربوا في هذه المعركة جمعاً مؤلفاً من ١٨٠ من المماليك و٢٠٠ من العرب و٣٠٠ من الاهالى ، ويقول الجنرال بليار في رسالة عن هذه المعركة ان الفرنسيين خسروا فيها ثلاثة قتلى و١٥ جريحاً

انسحبت قلوب المماليك بعد هذه المعركة الى ما وراء اسوان على مسيرة يومين مضضعة القوى ، وهذه هي المرة الثالثة التي انسحب فيها المماليك الى ما وراء الشلال منذ ابتداء الحملة على الوجه القبلى ، ولم يبق من رؤساء المماليك بعد هذه الهزيمة سوى مراد بك وحده بلا حول ولا قوة معتصماً بالواحة الخارجة التي تبعد عن أسبوط ثلاثة أيام .

احتلال القصير

٢٩ مايو سنة ١٧٩٩

اطمأن الفرنسيون بعد هذه المعركة على موقفهم الحربى فانهز الجنرال بليار هذه الفرصة لتجريد حملة على القصير بعد أن أعد لها المعدات الكافية ، فسار من قنا يوم ٢٦ مايو ومعه الجنود والمدافع والجمال لنقل الجنود والمؤونة والذخائر فوصلت الحملة الى القصير واحتلتها يوم ٢٩ مايو سنة ١٧٩٩ (٢٤ ذى الحجة سنة ١٢١٣) واحتلت قلعتها بدون مقاومة (١)

(١) كتب الجنرال بليار من القصير الى الجنرال ديزيه رسالة بتاريخ ٣٠ مايو

سنة ١٧٨٩ عن احتلال القصير قال فيها « ان القصير واقعة على البحر الاحمر وعلى

غادر الجنرال بليار القصير يوم أول يونية وترك بها الجنرال دنزلو Denzelot
ومعه قوة من الجنود في عتادهم من المدفعية والدخائر وعاد هو الى قنا
وقد طرب الفرنسيون لاحتلال ميناء القصير التي تعد مفتاح الوجه القبلى من
طريق البحر الاحمر واعتبروا احتلالها ختام الحركات الحربية التي تم بها فتح الصعيد،
وكافأ نابليون كلا من الجنرال ديزيه والجنرال بليار والجنرال فريان على حسن بلائهم
في الحملة على الصعيد فأهدى الجنرال ديزيه سيفاً جميلاً مكتوباً على صفحته « فتح
مصر العليا »

وأهدى الجنرال بليار سيفاً مكتوباً عليه « معركة أبنود - فتح القصير »
وأهدى الجنرال فريان سيفاً آخر، وعزم ديزيه أن يجرد حملة من أسبوط على
الواحة التي كان مراد بك مرابطاً بها لكن مراد بك غادرها محترقاً الصحراء شمالاً
عازماً على اللحاق بالمهدي في البحيرة لما علم بانتصاراته الاولى (١) فعدل ديزيه عن
تجريد حملة على الواحة واطمأن على سلطته في الصعيد

الحالة النفسية للشعب

على أن هذه السلطة كانت على الدوام مهددة وكان الاهالى متحفزين للانتفاض
على الحاميات الفرنسية كلما سنحت لهم الفرصة بحيث لم ترسخ دعائم السلطة الفرنسية

طرف الصحراء وهي قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها من اربعمائة الى خمسمائة نسمة،
وقد قابلنا بها مشايخ البلد وكان من بين سكانها من اشترك في واقعة ابنود ففروا
الى الصحراء، أما قلعة القصير فهي لا بأس بها وهي متسلطة على البلدة وبعيدة
عن البحر بحيث لاتصل اليها مدافع البوارج الانجليزية التي تستطيع أن ترسو
تجاهها والقلعة محتاجة إلى ما يصلحها وقد تكفل بذلك الجنرال دنزلو وسيبذل
في القصير غاية جهده لجعلها موقعا حصيناً في مأمن من الطوارئ »

(١) انظر الفصل الثالث من الجزء الثاني

في تلك الاصقاع بالرغم من انتصارات ديزيه وجنوده وبالرغم من وسائل القسوة
والارهاب التي اتبعوها في اخضاع البلاد

كتب نابليون الى حكومة الديركتوار تقريراً عن الحملة على الوجه القبلي أرسله من
القاهرة بتاريخ ٢٣ يونيه سنة ١٧٩٩ عقب عودته من سوريا قال فيه :

« ان احتلال القصير والسويس والعريش قد أقفل طريق الوصول الى مصر من
جهة البحر الاحمر وسوريا اقفالا محكما ، كما أن تحصين الاسكندرية ورشيد ودمياط
يحبط كل هجوم من البحر الابيض ويضمن الى ما شاء الله للجمهورية الفرنسية امتلاك
مصر تلك البقعة الجميلة في العالم التي سيكون للحضارة أكبر أثر في انهاضها واحياء
عظمتها القومية ، ولاغرو فهي أقدم بلاد عرفها التاريخ ، لقد انسحب مراد بك مع
البقية الباقية من رجاله الى الواحة ، وسنطرده من هناك ، وحسن بك الجداوى هو
الآن على مسيرة ١٥ يوماً جنوب الشلال ، وقد أخضعنا معظم القبائل وأخذنا منها
الرهائن وبدأ الفلاحون يدركون الحقائق ولا يستمعون لتحريض أعدائنا ، على أن
القلاع العديدة التي أنشأناها ما بين مرحلة وأخرى كفيلة باخضاعهم اذا تنكرت منهم
النية أو ساءت مقاصدهم »

فنا بليون يعترف في تقريره بأن القوة المسلحة هي الأداة التي يعتمد عليها في
توطيد السلطة الفرنسية في تلك الاصقاع ، وهذا ينطبق تماماً على رأى الجنرال ديزيه
في رسائله الى نابليون والى الجنرال دوجا فقد كتب الى نابليون يقول « انا دائماً
مخاطون بالاعداء ، وان صعوبة المواصلات المهددة غالباً بالاقطاع وبعد المسافات تمنعني
من أن أكتب لك عن أخبارنا بمقدار ما أرغب ، اتنا في حاجة الى الجنود لأن فرقي
قد أنهكها التعب واجتاحتها الامراض وبخاصة الرمد الذي انتشر بين الجنود انتشاراً
فظيحاً ، وان من الخطر أن نترك جهة واحدة في مصر العليا دون أن نحتلها بجنودنا ،
واننا لم نستطع أن نشقت أعداءنا الا بمتاعب وحملات شاقة لاهوادة فيها ، والبلاد
مع ذلك مستعدة للثورة اذا بدر منا ضعف أو تراجع ، واني مضطر الى إرهاب الجنود
وجعلهم دائماً على سفر لانهم الوسيلة التي نستطيع بها تحصيل الضرائب »

وكتب الى الجنرال دوجا (١) يقول « ان الحالة لم تتغير ، والبلاد من اسنا الى أسيوط هي في الوقت الحاضر هادئة ، ولكني لم أبلغ هذا الهدوء الامن وسائل القسوة ومتابعة الحملات المستمرة المنهكة للقوى ، وسأجوب البلاد من أسيوط الى المنيا وأجمع ما انكسر من الضرائب ، وأنتزع الرهائن من جميع القرى كما فعلت في مديرتي أسيوط وجرجا ، ولا يدخلني الشك في أن هذه الطريقة والقوة المسلحة هما الدعامتان اللتان قامتا بالهدوء الحالي »

فالقوة المسلحة ، والقسوة ، والارهاب ، والفظائع ، هي الوسائل التي تدرع بها الفرنسيون لمكافحة قوات المقاومة في الصعيد ، وهكذا ظل جيش الجنرال ديزيه يطارد قوات شتى لاعداد لها ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع وتعود ثانية للقتال ، وصار ديزيه يحارب حربا لانهاية لها في ميدان واسع مترامي الاطراف يمتد من الجيزة شمالا الى اسوان جنوبا ومن القصير شرقا الى واحات الصحراء الكبرى غربا دون أن يصل الى إخضاع البلاد إخضاعا تاما أو إقرار السلطة الفرنسية فيها

والآن ، وقد انتهينا من الكلام على المقاومة في الوجه القبلي ، فننتقل الى القاهرة والوجه البحري لنتبين الحوادث التي وقعت بعد اخراج ثورة القاهرة الاولى (٢) ، وموعدا الجزء الثاني من الكتاب

(١) رسالة ديزيه الى دوجا من أسيوط في ١٩ مايو سنة ١٧٩٩

(٢) عبرنا عنها بالاولى تميزا لها عن ثورة القاهرة الثانية التي شبت في مارس

سنة ١٨٠٠ والتي بسطنا الكلام عنها في الفصل التاسع من الجزء الثاني

الفصل الثامن عشر

وثائق تاريخية

وثيقة رقم ١

أعضاء لجنة العلوم والفنون

الذين استصحبهم نابليون في مصر

احصاؤهم وبيان أسماؤهم (أنظر ص ٧٩)

علماء الرياضيات

المسيو مونج Monge ، فورييه Fourier ، كوستاز Costaz ، مالوس Malus ،

ساي Say ، شاربو Charbaud ، موري Moret ، كورانسر Corancez ، فوزو

Fuzeau ، برنجيه Bringuet ، بوشار Bouchard

الفلك

نوي Nouet ، بوشان Beauchamp ، كينو Quesnot ، ميشين الصغير

Mechain fils

الميكانيكا والطيران

كونتي Conté ، کوتل Coutelle ، هاسنفرتز Hassenfratz ، لومون L'Homont ،

أدنييس الكبير Adnès père ، أدنييس الصغير Adnès fils ، سيرو Sirop ، كوفور

Couvreur ، أيي Aimé ، كولان Collin ، هيرو Hérault ، بلازانيه Plazanet

الكيمياء

برتولييه Berthollet ، ديكوتيل Descotils ، شامي الكبير Champy père ،

صامويل برنار Samuel Bernard ، بوتيه Potier ، شامبي الصغير Champy fils
رينو Regnault .

طبقات الارض والمعادن

دولوميو Dolomieu ، كورديه Cordier ، روزير Rozières ، فكتور ديوي
Victor Dupuy

النباتات

نكتو Necloux ، دليل Delile ، كوكبير Coquebert

حياة الحيوان

جوفروا سانت هيلير Geoffroy Saint Hilaire ، سافيني Savigny ،
جيرار Gérard .

الطب والجراحة

ديبوا Dubois ، بوكفيل Pouqueville ، لابات Labate ، لاسيبير
Lacipière ، ديبوا الصغير Dubois fils ، بسير Bessièrès ، دايرون Daburon
دويفر Dewèvre (١)

الصيدلة

روييه Royer ، بوديه Boudet ، روجن Roguin

(١) لم يرد في هذا البيان بعض الاطباء الذين ذكرهم الدكتور دينيت كبير
اطباء الحملة في كتبه (التاريخ الطبي لجيش الشرق) وهم برويان Bruant ، سيريزول
Ceresole . باريس Barbès ، رناتي Renati ، سافاريزي Savaresi ،
فوتيه Vautier ، فرنك Frank ، سالز Salze ، بونيه Pugnet

الاقتصاد السياسي

بورين Bouienne ، دأنجلي D'angely جلوتيه Gloutier ، تاليان Tallien

العاديات والآثار

بورليه Pourlier ، ريبول Ripault ، بانورن Panuzen

هندسة المعمار

بروتان Protain ، نوري Nory ، بالزاك Balzac ، لوپير Le Pere ،

ديمولان Demoulin

التصوير

ريجو Rigo ، ردوتيه Redoute ، حولي Joly



سراي قاسم بك بالناصرية

حيث كان يسكن أعضاء لجنة العلوم والفنون

الرسم

فيغان دينون Vivant Denon ، دوترتر Dutertre ، بورتال Portal ، كاكي

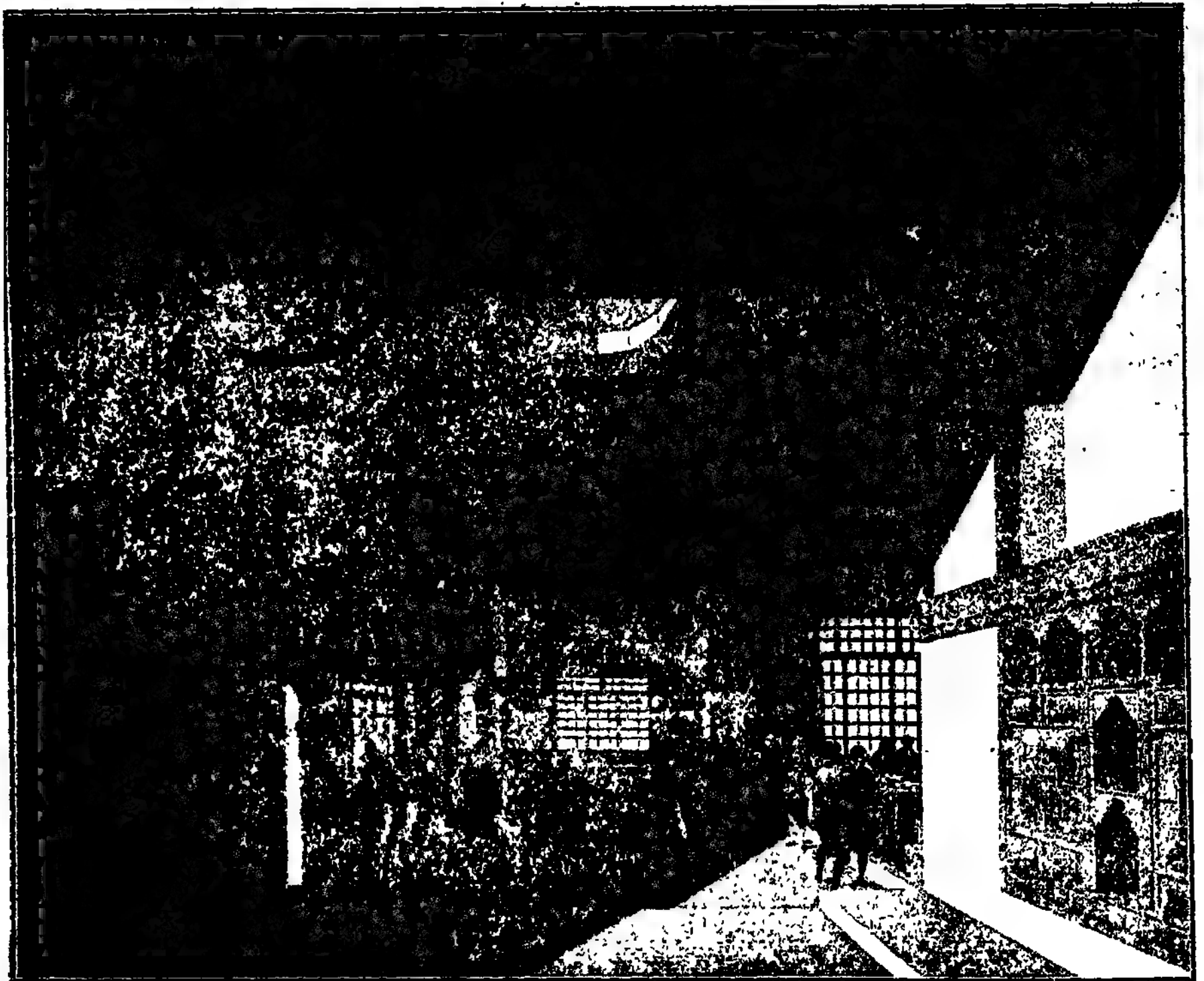
Peré بيرى Caquet

هندسة الري والقناطر والطرق

لويس الكبير Le Père aîné ، جيرارد Girard (والاثنان كبير المهندسين)

فاي Faye ، جالوا Jallois ، جراتيان لويس Gratien Le Père ، سان جنيس

Saint Genis ، لانكري Lancrét ، فيفر Fèvre ، شابرول Chabrol ، رافينو دليل



المجمع العلمي بالقاهرة سنة ١٧٩٨

(سراي حسن كاشف شركس بالناصرية حيث المدرسة السنية الآن)

وترى نابليون واقفاً في قاعة الجلسات يحيط به لعيف من أعضاء المجمع

Raffeneau Delile ، ارنولييه Arnolet ، فافيه Favier ، دييوا ايمى
Dubois - Aymé ، ديفيليه Devilliers ، مولين Moline ، مارتان Martin ،
بودار Bodard ، ديفال Duval ، تيفينو Thevenot

الهندسة الجغرافية

تستفيد Testevuide (كبير المهندسين الجغرافيين) ، جاكوتان Jacotin ، سيمونل
Simonel ، شواني Schouani ، لاتويل Lathuille ، لفياد Lefeullade ، برتر Bertre
لسين Lecesne ، بورجوا Bourgeois ، لدوك Le Duc ، دليون Dulion ، فوري
Faurie ، ليفيك L'Evêque ، لاروش Laroche ، جومارد Jomard ، كورابوف
Coraboeuf

الهندسة البحرية

بوشيه Boucher ، شومون Chaumont ، جرسليه Greslé ، فانسان Vincent ،
بونجان Bonjean

الهندسة الميكانيكية البحرية

سيسيل Cecile

هندسة الآلات الرياضية

لنوار الصغير Lenoir fils

صناعة الساعات

لومتر Lemaître

النقش

كاستي Casteix

الحفر

فوكيه Fouquet

الآداب

برسقال دجرايمزون Parseval De Grandmaison عضواً أكاديمية الفرنسية،
أرنو Arnault عضواً أكاديمية الفرنسية (١)، لروج Lerouge، بنابن Bénaben

الموسيقى

فيلوتو Villoteau، ريجيل Rigel

طالبة مدرسة الهندسة (٢)

كارستي Caristie، دشانوا Duchanoy، بوتيه Pottier، جومار الصغير

Jomard jeune، فانسان Vincent، فيار Viard، أليبير Alibert

الترجمة

فاتور Venture، ماجالون Magallon، لوماكا L'Homaca، أميدي جوير

A medée Jaubert، دلابورت De Laporte (والاثنان من تلاميذ مدرسة

العلوم الشرقية بباريس) ريج Raige، برامرفيتش Bracervich، بلتيت Belleteste

الطباعة العربية والفرنسية

مارسل Marcel مدير المطبعة، بونتيس Puntis. جالان Galland. بودوان

Bonduin، بسون Besson من موظفي المطبعة (٣)

وقد اعتمدنا في هذا البيان على إحصاء المسيو (ريبو) في كتابه التاريخ العلمي
والحربي للحملة الفرنسية بعد أن أضفنا اليها اسم (لومتر) في صناعة الساعات، فصار
عدد الأعضاء ١٤٦ عضواً، ولم يدخل في هذا البيان بعض رجُل العلوم ممن شغلوا

(١) تخلف في الطريق ولم يحضر الى مصر

(٢) انتظم بعض طلبة مدرسة الهندسة في سلك لجنة العلوم والفنون ونال
بعضهم الاجرة النهائية للمدرسة وهم في مصر بعد أن أدوا الامتحان أمام لجنة ألقها
نابيلون في القاهرة لهذا الغرض من العلماء مونيخ، وبرتوليه، وفورييه

(٣) عدداً نحو ١٨ عاملاً من جامعي الحروف

مناصب في جيش الحملة كالمسيو بوسليج مدير الشؤون المالية ، والمسيو استيف مدير الخزائن ثم مدير الشؤون المالية في أواخر عهد الحملة الفرنسية والدكتور دينيت كبير أطباء الحملة ، والدكتور لاري كبير الجراحين ، وقد أوردنا ترجمة طائفة من هؤلاء الاعضاء بالفصل الرابع (١)

وتم احصاء آخر يزيد عن الاحصاء المتقدم ورد في « يوميات » المسيو دفيليه أحد مهندسي الحملة (٢) ، ذلك انه أضاف الى الاعضاء المتقدم ذكرهم نحو ثلاثين من القواد والضباط الذين اشتركوا في العمل مع أعضاء لجنة العلوم والفنون وكان بعضهم أعضاء في المجمع العلمي ، وبحسب احصاء المسيو دفيليه يبلغ عدد الاعضاء ١٧٥ عضواً وذلك عدا العمال الفنيين

وثيقة رقم ٢

شكر (الديوان) للمسيو (لوبيز) كبير المهندسين

على تعمير مقياس الروضة

(انظر ص ١٢٥)

« من محفل الديوان العالي بمصر المحروسة »

« خطاباً الى حضرة الستويان (٣) الخواجا لوبيز رئيس المهندسين وفقه الله تعالى

الى الخير آمين

« أما بعد الدعاء لكم بخير انه بلغ الناس حسن صنيعكم وصواب تدبيركم واتقان

هندستكم في تشييد وتعمير مقياس النيل السعيد الذي يعم نفعه ويشمل خيره في

(١) ص ١٢٣ وما بعدها

(٢) انظر ما كتباه عنه ص ١٢٨

(٣) مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Citoyen ومعناها « مواطن » كما بينا ذلك

بهامش ص ١٠٢

القريب والبعيد ، فان اقليم مصر أجل الاقاليم وأبهج الاراضى أجمعين ، وخيره وزروعه تم سائر الاقطار وينتفع بها الآدميون والماشى والطيور والوحوش فى القفار ، ومعين خبره وأساس نعمته هذا النيل المبارك الذى هو أفضل البحار والانهار ، فقد هندستم وأتقنتم محل رحاله وأساس قياسه وبنياته ، فكانت هذه مزية منكم وثمرة ونتيجة من نتائج أفكاركم الغزيرة فرحت بها الناس أجمعين ، وشكروا احسان حضرة سر العسكر الكبير ^(١) ، وعلموا كمال عقلكم بسبب ما اتقنتموه وأحكمتموه فى هذا المحل الشامل نفعه والمشهور فى سائر الاقطار ، شكر الله معروفكم والسلام ختام

مسجل بالديوان	الفقير	الفقير
فى ٧ شعبان	محمد المهدى	عبد الله الشرقاوى
سنة ١٢١٥ (٢)	كاتم سر الديوان	رئيس الديوان (٣)

وثيقة رقم ٣

رسالة نابليون الى أبى بكر باش والى مصر

قبل رسو العمارة الفرنسية لاسكندرية

(أنظر ص ١٧٨)

« على ظهر البارجة (أورين) فى ١٢ مسيدور من السنة السادسة (٣٠ يونيه سنة ١٧٩٨)

« إن حكومة الجمهورية الفرنسية قد ضمت غير مرة من المذبذبة عقب

(١) الجرال منو

(٢) يوافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٠ وهذا التاريخ يقع فى عهد قيادة الجرال منو

(٣) نقلا هذا الخطاب بنصه العربى عن كتاب (تخطيط مصر) الجزء

الخامس عشر

بكوات مصر الذين كانوا يرهقون التجار الفرنسيين بمختلف أنواع الايذاء والاعتداء،
وصرح الباب العالي بأن أولئك البكوات قد تمادوا في أطماعهم وأهوائهم ، وتنكبوا
سبيل العدالة والاستقامة ، وأنه لا يقرهم على اساءة معاملة أصدقائه الفرنسيين الأوفياء ،
ولا يراهم جديرين بعطفه وحمايته ، وعلى ذلك قد اعتزمت الجمهورية تجريد جيش
جرّار للقضاء على مظالم البكوات المماليك ، كما اضطرت ان تجرد حملات في خلال
القرن الحالى على بكوات تونس والجزائر ، ويقينى أنك وأنت الذى يجب أن يكون
حاكم البلاد ومع ذلك قد سلب منك البكوات كل حول ونفوذ وجعلوك فى القاهرة
رهن إرادتهم لا بد أن تقابل حضورى الى هنا بالسرور والارتياح ، ولعله قد وصل
الى علمك أنى ما حضرت بنيات عدائية نحو القرآن أو نحو السلطان وانك تعلم ان
الأمة الفرنسية هى الحليفة الوحيدة للسلطان فى أوروبا ، فادر الى مقابلتى واشترك
معى فى استئزال اللعنات على طائفة المماليك الممقوتة بونا بارت (١) »

وثيقة رقم ٤

رسالة نابليون

الى ادريس بك قومندان السفينة التركية فى الاسكندرية

(أنظر ص ١٧٨)

« على ظهر البارجة (أوريان) فى ١٣ مسدور من السنة السادسة (أول يولييه
سنة ١٧٩٨)

« إن البكوات قد أرهقوا تجارنا بمختلف أنواع الايذاء والتعدي ، وقد جئت
لاطلب منهم حسابا عما فعلوا

« وسأكون غداً فى الاسكندرية ، ولا يساورك أى قلق من حضورى فانك

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧١٩

تابع لصديقنا الكبير السلطان ، فليكن أن تسلك الخطة التي تتفق مع هذه الصداقة ،
أما إذا أتيت عملاً عدائياً ضد الجيش الفرنسي فسأعاملك معاملة الأعداء أعداءهم ،
وهناك تقع التبعة عليك وحدك لأن ذلك أبعد ما يكون عن رغبتى وعواطفى
بوناپارت (١) »

وثيقة رقم ٥

منشور نابليون إلى الجنود

قبل رسو العمارة الفرنسية

(أنظر ص ١٨١)

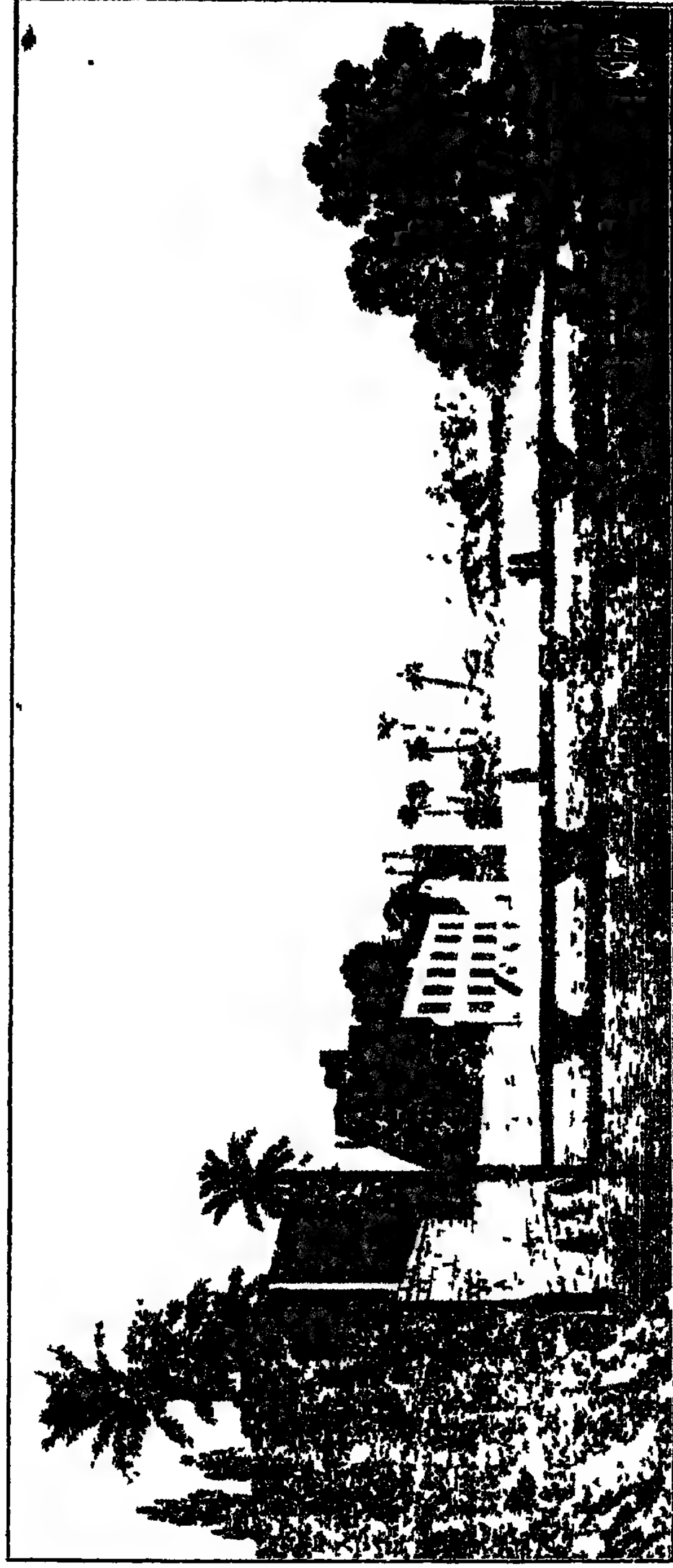
« المعسكر العام على ظهر البارجة (أورين) فى ٤ مسيدور من السنة السادسة
(٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨) (٢)
« أبها الجنود

« إنكم ستخوضون غمار حملة لها آثار لا تحصى فى حضارة العالم وتجارته ،
وستنالون من انجلترا بضربة هى أشد ما يصيبها فى الصبر إلى أن تتمكنوا من
ضربها الضربة القاتلة

« سنجتاز فى هذه البلاد رحلات متعبة ، وسنخوض فيها معارك عدة ، على أن
النصر سيكون حليفنا فى كل خطواتنا لأن العناية تلحظنا
« ولا تنقضى أيام معدودات على نزولنا الى البر حتى نمحق الممالك الذين
يناصرون التجارة الانجليزية وبمخصونها بالمساعدة وبرهقون تجارنا بمختلف الاتاوات
والاهانات ويسومون سكان وادى النيل الظلم والاضطهاد
« إن الشعب الذى سنتصل به يدين بدين الاسلام وأول أركانه شهادة أن لا إله إلا الله

(١) مراسلات بوناپارت الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧٢١

(٢) أذيع على الجنود يوم ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨



جسر المراكب (الكوبري) الذي أنشأه الفرنسيون بين القصر العيني والروضة (انظر ص ١٤٩)

وأن محمداً رسول الله ، فلا تعارضهم في دينهم وعاملهم كما عاملتم اليهود وكما عاملتم
الاطاليين ، واحترموا مشايخهم ومفتيهم وأئمتهم كما احترمت الربايين والأخبار
والقساوسة ، وليكن شعاركم في معاملة المساجد والشعائر الدينية التي يأمر بها القرآن
ذلك التسامح الذي كان رائدكم حيال الكنائس والصوامع والبيع والتعاليم الموسوية
والمسيحية ، فإن الجيوش الرومانية كانت تحمي الأديان كلها على السواء
« وستجدون هنا عادات تختلف عن عادات أوروبا ، فليكن أن تألفوها ، وإن
الشعب الذي سنقيم بينه يعامل النساء على غير عاداتنا ، ولكن الاعتداء على أعراض
النساء في كل بلد جريمة لا يقدم عليها إلا الوحوش
« واعلموا أن النهب لا يعود بالنفع إلا على طائفة قليلة من الناس ولكنه يندس
شرفنا ويقضي على مواردنا ويجلب علينا كراهية الشعوب التي تقضي مصاحتنا بأن
نكسب ودها
« وإن أول بلدة نزل بها قد بناها الاسكندر ، وسنجد عند كل خطوة نخطوها بها
آثاراً مجيدة جدرة بأن تثير إعجاب الفرنسيين وغيرهم بونا بارت (١) »

وثيقة رقم ٦

خطبة نابليون بالازبكية

في الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية

يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨

(انظر ص ٢٧٢)

أيها الجنود

نحتفل اليوم بتسنتل السنة السابعة للجمهورية

منذ خمس سنوات خلت كان استقلال الشعب الفرنسي مهدداً ، ولكنكم

(١) مراسلات نابليون الجزء الرابع وثيقة رقم ٢٧١٠



ميدان الأوبك في أواخر القرن الثامن عشر، وكانت مياه النيل تغمره في أيام الفيضان فيصير لجة
يتنزه فيها الناس بالزوارق في السهار والليل (انظر ص ٦٠)

جاهدتم فاحتلتم (طولون) ، فكان هذا الاحتلال فاتحة انهيار صرح الاعداء
ولم ينقض عام حتى هزتم النمساويين في (ديجو)
وفي السنة الثالثة رفعت علم النصر فوق قمم جبال الالب
ومنذ عامين كنتم تهاجمون (مانتو) وحزتم ذلك النصر الباهر في (سان جورج)
وفي العام الماضي بلغتم منابع نهري (الدراف) و (الايسونزو) بعد أن اتصرتهم في المانيا ،
فمن كان يظن يومئذ أنكم ستكونون اليوم على ضفاف النيل في بطن القارة القديمة
إن الشعوب متاخصة اليكم بتمتكم بأبصارها على اختلاف أجناسها ، يستوى في
ذلك الانجليزى الذى ثقفته التجارة والفنون والبدوى الذى يعيش عيشة الغلظة
والوحشية

أيها الجنود

إن مستقبلكم مجيد لانكم جديرون بما قتم به من جلائل الاعمال وبما حزنتم من
الثناء ، ولئن كتب عليكم الموت فستنالون موتاً شريفاً كدأب أولئك الابطال الذين
نقشت أسماءهم على هذا الهرم ، وإذا عدتم الى اوطنكم ستعودون مكملين نتاج
الفخار حائرين إعجاب الشعوب جميعاً

مضى علينا ستة أشهر منذ رحنا القارة الأوروبية ومن يومئذ ونحن مغمورون
على الدوام بسيل لا ينقطع من عواطف مواطنينا الذين ترمق أبصارهم فى كل آن ،
فالיום يشاركون فى هذا الاحتفال أربعون مليوناً من المواطنين يحتفلون باقامة الحكم
الاستورى ويتجهون إليكم بأفكارهم وعواطفهم ، ويدكرون فى احتفالهم أنهم مدينون
لجهادكم ودمائكم بما يتمنون به من السلام ، والطمأنينة ، والرخاء ، والحرية الوطنية
بونابارت (١)

وثيقة رقم ٧
واقعة المنصورة
(انظر ص ٣٣٦)

تنشر هنا نص الأمر الذى أصدره نابليون بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨
بفرض الغرامات على بعض البلاد وبخاصة المنصورة وأهلها
أمر

المعسكر العام بالقاهرة فى ١٤ فركتيدور من السنة السادسة (٣١ أغسطس
سنة ١٧٩٨)

بونابارت القائد العام يأمر بما هوآت

المادة الأولى — توقف الغرامات التى ضربت على بلاد مديرية المنصورة
المادة الثانية — تدفع مدينة المنصورة غرامة قدرها ثلاثة آلاف ريال تفرض
على الأغنياء من أهلها عقابا لهم على سوء صنيعهم نحو جنودنا
المادة الثالثة — يدفع السيد على الشناوى أحد أهالى المنصورة غرامة قدرها
٢٠٠٠ ريال ، وفى مقابل ذلك يُعطى أمانا على نفسه وعلى أملاكه وأمواله
المادة الرابعة — تفرض غرامة قدرها ٢٠٠٠ ريال على أسوأ البلاد سلوكا فى
مديرية المنصورة

المادة الخامسة — تفرض غرامة ٤٠٠٠ ريال بشكل سلفة على أغنياء التجار
والأعيان فى المحلة الكبرى

المادة السادسة — تدفع هذه المبالغ الى أمين خزانة فرقة الجنرال دوجا وتكون
تحت تصرف مدير مهمات الجيش وعليه أن يخصصها لبناء أفران الجيش وإدارتها
واستئجار المراكب والنفقات المطلوبة للفرقة

المادة السابعة — على كبير المباشرين تنفيذ هذا الامر بونابارت (١)

هذا وقد بحثنا عن اسم (السيد علي الشناوي) الوارد في أمر نابليون وعن أسرته فتحققنا بعد الاطلاع على مستندات ووثائق خطية وحجج قديمة أنه الجدل الثاني لعل افندي حسن الشناوي أحد أعيان المنصورة الحاليين ، وقد أطلعنا حضرة علي (فرمان أمان) صادر لجده المذكور في أوائل عهد محمد علي باشا وممهور بختم محمد علي (والي مصر) ومؤرخ ١٧ صفر سنة ١٢٢١ هجرية ، وهذا التاريخ يوافق ٧ مايو سنة ١٨٠٦ ، أي ان السيد علي الشناوي المذكور نال (عهد الامان) من نابليون ثم من محمد علي والمدة بين العهدين لا تتجاوز ثمانى سنوات ، وقد آثرنا أن ننقل هنا عهد الأمان الصادر له من محمد علي لأنه من مقارنة تاريخ الوثيقتين يتبين أنه هو المقصود بأمر نابليون المؤرخ سنة ١٧٩٨ ، واليك نصه بالفاظه وعباراته القديمة المألوفة في ذلك العصر

« إعلاماً بها بالامان الكافي الى السيد علي الشناوي بالمنصورة تحيطون علماً اننا قد عفونا عنكم وأعطيناكم الامان الكافي أمان الله تعالى وأمان رسوله الكريم ثم أماننا السعيد ولم نخش من شيء جملة كافية وتكون مشغول بسبابك وأحوالك ولم لك من طرفنا ومن طرف خلافنا الاكل الحماية والصيانة ولم أحد يتعرض لك ولا يعارضك وتكون مطمئن القلب وال خاطر اعلم واعتمده غايت الاعتماد

١٧ ص سنة ٢٢١ محمد علي والي مصر (ختم) «

واطلعنا على حجج أوقاف قديمة ترجع الى عهد يقرب من تاريخ أمر نابليون ورد فيها اسم السيد علي الشناوي المذكور موصوفة « بفخر الأشراف المعظمين السيد الحاج علي الشناوي من أعيان التجار بالمنصورة »

الفصل التاسع عشر

مراجع البحث

وصلنا الى فصل من أهم فصول الكتاب وهو بيان مراجع البحث ، وتقصد منها المصادر الأصلية التي رجعنا إليها ، ونريد بالمصادر الأصلية الكتب والرسائل التي وضعها شهود العيان المعاصرون للحوادث التي أثبتناها ، وكذلك الوثائق التاريخية الخاصة بهذه الحوادث ، وسندكر هذه المصادر مرتبة بحسب ترتيب الحوادث والفصول في الجزءين الأول والثاني من الكتاب لأن هذين الجزءين يؤلفان حلقة واحدة ولها مصادر واحدة

عن نظام الحكم في عهد المماليك

— تاريخ ابن إياس المعروف « ببدائع الزهور ووقائع الدهور » الجزء الثالث ، وابن إيس قد شهد الفتح العثماني والسنوات الاولى من حكم الأتراك
— « الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة » لمحمد بن أبي سرور البكري الصديقي ويحتوى أخبار ولاية مصر في عهد الحكم العثماني الى سنة ١٠٥٤ هجرية ومن ولها من قضاة العسكر ، وقد أدرك المؤلف القرن السابع عشر وشهد الحكم التركي وكتب عنه لغاية سنة ١٠٥٥ هجرية (١٦٤٥ ميلادية)

— « عيون الاخبار ونزهة الابصار » له ، ويحتوى تاريخ مصر مع فذلكة من تاريخ الخليفة ، ونبذة من تاريخ الفرس والروم والخلفاء فالدول التي تعاقبت في مصر الى انتهاء الدولة الجركسية

— « المنح الرحمانية في الدولة العثمانية » له في تاريخ سلاطين آل عثمان الى غاية

سنة ١٠٢٩ هجرية

رحلات الافرنج

كذلك رجعنا الى رحلات الافرنج في عهد الحكم العثماني وما كتبوه في وصف مصر ومعظمهم قد تكلم عما شهدوه من نظام الحكم فيها ، واليك أهم الرحلات التي رجعنا اليها وبيان تواريجها

— رحلة بيير بيلون Pierre Belon وهو طبيب فرنسي ساح في مصر والشرق من سنة ١٥٤٦ الى ١٥٤٩ وهي أول رحلة بعد الفتح العثماني طبعت سنة ١٥٥٣

Singularité et choses memorables trouvés en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie et autres pays etrangers

— رحلة سيزار لامبرت Cesar Lambert وهو تاجر فرنسي هبط الى مصر سنة ١٦٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ١٦٣٢ وقد وصف في رحلته ما شهدته في الاسكندرية والقاهرة وبعض البلاد الاخرى وتكلم عن تجارة مصر ومالية الحكومة المصرية

— رحلة جاك البرت Jacques Albert سنة ١٦٣٤ ، نشرت في كتابه (رحلة مصر والحكومات التابعة لها)

Etat L'Egypte et des Gouvernements qui en dependent

— رحلة سانتوسي جيوزي Sants Seguezzi سنة ١٦٣٥ وهو سائح ايطالي كتب

عن (حالة مصر المالية وايراداتها) Etat des revenus De' L'Egypte

— رحلة تيفنو Thevenot في الشرق

• Relation d'un voyage fait au Levant p. Thevenot

تتضمن مشاهداته في الاسكندرية وبعض بلاد السلطنة العثمانية والدير المصرية وكانت زيارته لمصر سنة ١٦٥٧ ، ورحلته من أهم الرحلات وأدقها

— رحلة بروتوت وشارل فرانسوا دورليان Protais et Charles-François d'Orléans في الصعيد سنة ١٦٦٨

— رحلة نيبور Niebhur وهو رحلة دانمركي جاء مصر سنة ١٦٧١ — ١٦٧٢

بأمر ملك الدانمرك وطبعت رحلته بعنوان — رحلة في بلاد العرب وبعض البلاد المجاورة
— رحلة فانسليب Vansleb وهو سائح ألماني المولد فرنسي التبعة زار مصر مرتين
أهمها سنة ١٦٧٢—١٦٧٣ Nouvelle relation d'un voyage fait en Egypte
— وصف مصر للسيودي ماييه De Maillet قنصل فرنسا في مصر، وهذا الكتاب
ليس برحلة وإنما هو مجموع رسائل كتبها السيودي ماييه في وصف مصر حينما كان قنصلاً
لفرنسا بها سنة ١٦٩٢ وبقى متولياً هذا المنصب ست عشرة سنة تعلم في خلالها العربية ودرس
أحوال البلاد واتصل بعلمائها وأعيانها وكتب رسائل عنها نشرها القس لوماسكرييه
Le Mascrier طبعت سنة ١٧٣٥

— رحلات المسيو پول لوكاس Paul Lucas وهو رحالة فرنسي زار مصر ثلاث
مرات وله فيها ثلاث رحلات وله خريطة دقيقة عن مصر رسمها سنة ١٧١٧ ، واثنان
من هذه الرحلات بأمر الملك لويس الرابع عشر
— رحلة السائح الفرنسي جرانجيه Granger في مصر سنة ١٧٣٠

Relation d'un Voyage fait en Egypte

— رسائل الاب سيكار Père Sicard الجزء الثاني وهو قسيس أقام بمصر عدة
سنين عضواً في إحدى البعثات الدينية ومات بها سنة ١٧٢٦ وله خريطة عن مصر
رسمها بالقاهرة سنة ١٧٢٢

— رحلة نوردن Norden في مصر والنوبة Voyage d'Egypte et de Nubie
وهو قبطان في البحرية الدانمركية ساح في مصر من سنة ١٧٣٧ — ١٧٣٨ بأمر ملك
الدانمرك وكتب عنها ثلاثة أجزاء ، وتعد رحلته من أهم الرحلات وأدقها وأوفها ولها
مصور ملحق بها فيه رسوم مدينة الاسكندرية والميناء الشرقية وقلعة قايتباي وقلعة
(أبو قير) ورشيد والبحيرة ومصر القديمة وغيرها من مواقع مصر المهمة

— رحلة ريشار بوكوك Richard Pococke وهو رحالة انجليزي جاء مصر سنة ١٧٣٧

أثناء سياحة نوردن

— الجزء الرابع من (مذكرات البارون دي توت عن الترك والتتار)

Memoires du baron de Tott sur les Tuics et les Tartares

وقد زار مصر موفدا من الحكومة الفرنسية لدرس أحوالها ، ووصفها في الجزء الرابع من كتابه المذكور وفي هذا الجزء بيان رحلته الى مصر في أوائل عهد مراد بك وابراهيم بك — رحلة المسيو سونيني Sonnini سنة ١٧٧٧ وهو مهندس بالبحرية الفرنسية جاء

مصر بأمر حكومة الملك لويس السادس عشر وطبعت رحلته بعنوان (رحلة في مصر

العليا والوجه البحري) Voyage dans la Haute et Basse Egypte

— رحلة المسيو سافاري المطبوعة باسم (رسائل عن مصر)

Lettres sur L'Egypte par Savary في ثلاثة أجزاء وهو سائح فرنسي زار مصر

سنة ١٧٧٧ وقضي بها ثلاث سنوات

— رحلة فولتي الكاتب الفرنسي الشهير ساح في مصر وسورياس سنوات ١٧٨٣ و١٧٨٤

١٧٨٥ في جزئين Voyage en Syrie et en Egypte par Volney

— كتاب تخطيط مصر — شهد علماء الحملة الفرنسية نظم الحكم في عهد

المماليك وأدركوا بعضها وهو قائم وبعضها في دور الاحتضار وأمكنهم أن يحققوا هذه النظم بما درسوه من وثائقها ، وما تلقوه من أفواه الذين عرفوها ومارسوها ، ودونوا نتائج تحقيقهم ومباحثهم في كتاب تخطيط مصر (وسنعود الى الكلام عنه فيما يلي) واليك مواضع هذه المباحث من أجزاء الكتاب المذكور

١ — نظام الضرائب العقارية في أواخر عهد حكومة «مليك» مسيولانكري

Lancet أحد مهندسي الحملة (الجزء الحادي عشر)

٢ — خلاصة تاريخ المماليك في مصر من عهد ظهورهم في الحملة الفرنسية لمسيو

دلابورت D'Alaparte أحد أعضاء لجنة العموم واقتصادون (الجزء الخامس عشر)

٣ — مائة مصر من عهد اسطبان سليم الى الحملة الفرنسية لمسيو استيف

Estève مدير الخزانة ثم مدير الشؤون المالية في عهد الحملة الفرنسية (الجزء الثاني عشر)

٤ — عادات سكان مصر الحاليين للمسيو شابرول Chabrol وفيه بحث عن نظام الحكومة (الجزء الثاني عشر)

— تاريخ مصر من الفتح العربي الى الحملة الفرنسية للمسيو مارسيل احد علماء الحملة الفرنسية
عهد الحملة الفرنسية

أول مرجع اعتمدنا عليه هو كتاب الجبرتي مؤرخ مصر في ذلك العهد وهو الكتاب الفذ المسمى (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) في أربعة أجزاء، ولا يسعنا إلا أن نفرد للجبرتي وكتابه كلمة تني بأهمية هذا الكتاب

الجبرتي وتاريخه

هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي بن الشيخ حسن الجبرتي ، وكلاهما من نوابغ علماء الازهر ، والشيخ حسن الجبرتي والد المترجم كان عالما بالعلوم الرياضية وما إليها فوق تبخره في علوم الازهر ، وكانت اليه الرحلة من الاقطار البعيدة في علم الفلك والعلوم الرياضية ، وقد كان لهذه العلوم أثر كبير في تثقيف عقل الجبرتي ، ولولاها لما وفق الى تأليف كتابه العظيم لان دراسة التاريخ وتدوين الحوادث من الامور التي لم تكن مألوفة في ذلك العصر ولا يتجه اليها إلا عقل راصد قد ألف أن يرصد ويدون والجبرتي من أسرة يرجع أصلها الى (جبرت) من بلاد زيلع بأراضي الحبشة ، ارتحل جده السابع « الشيخ عبد الرحمن » الى مصر أوائل القرن العاشر للهجرة وجاور بالازهر وتولى مشيخة رواق الجبرتية ، واستوطنت أسرة الجبرتي مصر من ذلك العهد واشتهرت بخدمة العلم فكان أبوه وأجداده من العلماء وتتابعوا على مشيخة رواق الجبرتية نحو ثلاثة قرون

ولد الجبرتي سنة ١١٦٨ هجرية (١٧٥٦ ميلادية) ، وهذا التاريخ مستفاد مما ذكره هو في ترجمة أبيه ، فقد روى انه كان لايه زوجة صالحة توفيت سنة ١١٨٢ هجرية وانه كان في وقت وفاتها ابن أربع عشرة سنة وعلى ذلك يكون مولده سنة ١١٦٨ وقد أخذ العلم عن أبيه وعن غيره من علماء عصره ، وحضر دروس السيد

مرتضى الزبيدي العالم اللغوي المشهور صاحب تاج العروس في شرح القاموس ، وكان الجبرتي على فطنة وذكاء وواعية كما يدل على ذلك تاريخه ويقول هو إنه وعى الحوادث في سن التمييز ، وأخذ يدون كتابه وهو في سن الأربعين ، وقد أدرك أواخر القرن الثاني عشر الهجري وأوائل الثالث عشر (النصف الثاني من القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر الميلادي) وهو العصر الذي روى وقائعه رواية معينة ونظر ، وإلى ذلك يشير بقوله في فاتحة كتابه « إني كنت سوّدت أوراقاً في حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه ، وأوائل الثالث عشر التي نحن فيه ، جمعت فيه بعض الوقائع اجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها نحن أدركناها ، وأمور شاهدناها »

وقد مهد لذلك بنظرة عامة إجمالية في تاريخ مصر بعد ضعف الخلافة العباسية وانفراد الحكم والولاية بنواحي المملكة (بعد قتل المتوكل) وألمع إلى عهد الطولونيين فلاخشيديين فالفاطميين فالأيوبيين فالمليك البحرية فالمليك الشراكسة ويسميه ملوك الشراكسة وبدأ بذكر حوادث مصر من ابتداء القرن الثاني عشر الهجري (حوالي ١٦٨٩ ميلادية) ، ولما كانت الحوادث التي وقعت في النصف الأول من القرن الثاني عشر لم يدركها بنفسه فقد رجع فيها إلى رواية من أدركهم ممن عاصروا تلك الحوادث ، وفي ذلك يقول « واستطردت في ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الاعيان المشهورين ، من العلماء والامراء المعبرين ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم »

وقد جمع مادونه من الحوادث مرتبة على السنين والشهور والايام ، وإلى ذلك يشير بقوله « فأحببت جمع شملها وتقييد شواردها في أوراق متسقة النظام ، مرتبة على السنين والاعوام ، ليسهل على الطالب النبيه المراجعة ، ويستفيد ما يرومه من المنفعة ، ويعتبر المطلع على الخطوب الماضية فيتمسك إذا لحقه مصاب ، ويتذكر بحوادث الدهر إنما يتذكر أولو الالاب ، فتها حوادث غريبة في بابها ، متنوعة في عجائبها ، وسميته « عجائب الآثار في التراجم والاخبار »

والحق أن الجبرتي عانى كثيراً في جمع الحوادث وبخاصة التي وقعت من أوائل

القرن الثاني عشر الى الزمن الذي وعى فيه الحوادث لقلة للراجع ، ولم يجد كما يقول لتاريخ هذه المدة الطويلة سوى كتاب واحد ل احمد بن جلي بن عبد الغنى ، يبتدىء من تاريخ الفتح العثماني الى سنة ١١٥٠ هجرية (١٧٣٧ ميلادية) ومع ذلك لم يستطع الرجوع اليه لضياغ هذا الكتاب ، فاضطر أن يرجع الى النقل من أفواه الشيوخ المتقدمين في السن وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين وما نقش على أحجار مقابر المتوفين من أول القرن الثاني عشر الى سنة ١١٧٠ (أي من سنة ١٦٨٩ الى سنة ١٧٥٦ ميلادية) ، وأما الحوادث التي وقعت من سنة ١١٧١ (١٧٥٧ ميلادية) الى سنة ١١٩٠ (١٧٧٦ ميلادية) فقد شهدنا الجبرتي ، ودون وقائعها بعد حدوثها بعدة سنين ، وفي كل ذلك يقول « فرحنا الى النقل من أفواه الشيخة المسنين ، وصكوك دفاتر الكتبة والمباشرين ، وما انتش على أحجار ترب المقبورين ، وذلك من أول القرن (الثاني عشر) إلى السبعين ، وما بعدها (أي بعد سنة ١١٧٠) الى التسعين أمور شاهدناها ، ثم نسيناها وتذكرناها ، ومنها الى وقتنا أمور تملقناها ، وقيدناها ووسطرناها » وكذلك شهد الحوادث التي وقعت من سنة ١١٩١ الى ١٢٣٦ هجرية (١٧٧٧ — ١٨٢١ ميلادية) ودونها في كتابه

فالجبرتي اذن شاهد عيان للحوادث التي وقعت بمصر من سنة ١٧٥٧ ميلادية الى سنة ١٨٢١ وهي السنة التي ختم بها كتابه ، أما الحوادث التي سبقت هذه المدة فقد اعتمد فيها على النقل من كبار السن والرجوع الى الوثائق المخطوطة وتاريخ الجبرتي هو التاريخ الوحيد الذي يعول عليه لمعرفة أخبار مصر في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ولا يوجد مؤرخ غير الجبرتي كتب عن هذه الحوادث بمثل إسهابه وتحقيقه ، أما رجال الحملة الفرنسية وعلماءها فقد دونوا ما شهدوه من الحوادث ، لكن مشاهداتهم واقعة على فترة وجيزة من الزمن لا تتجاوز في الأرجح سنة واحدة (وهي السنة التي قضوا نابليون في مصر) أو ثلاث سنوات على الأكثر ، ومع ذلك فكتاباتهم في الغالب مقتضبة يرى القارئ عليها مسحة العجلة بخلاف الجبرتي فإن كتابته تدل على الاستقرار والتمحيص ،

وقلما يوجد كتاب فرنسي في تاريخ الحملة الفرنسية لم يرجع الى الجبرتي ولم ينقل عنه، فهو مرجع متفق على أهميته إجماعاً ، وكتابه يسمى في معظم الكتب الفرنسية « يوميات عبد الرحمن »

وفضيلة الرجل في تدوينه للحوادث أنه كان يتحرى الدقة والصدق ويتوخى الحق، ولم يكن يتحيز لطائفة أو لدولة أو لأى إنسان مهما عظم نفوذه ، وإنك لتستطيع أن تتحقق نزاهة الجبرتي من مطالعة كتابه وإيمان النظر فيه وبخاصة في تراجمه فانك تراه يورد الحقائق غير متأثر بجاه من يكتب عنهم ذا كراً لكل منهم ماله وما عليه، وقد صدق في قوله عن كتابه « ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير، أو طاعة وزير أو أمير ، ولم أداهن فيه دولة بنفاق ، أو مدح أو ذم مبين للاخلاق ، لميل نفساني أو غرض جسماني »

ويعد الجبرتي من كبار علماء الازهر النابهين ، لذلك اختاره الجنرال (منو) لعضوية الديوان ضمن الاعضاء التسعة الذين عينهم في أواخر عهد الحملة الفرنسية كما بسطنا ذلك مفصلاً في الجزء الثاني ، وقد ورد اسمه صراحة ضمن هؤلاء الاعضاء التسعة في الوثائق الرسمية للحملة ، وذكر الجبرتي اسمه في كتابه مخطوطاً بالابهام ضمن هؤلاء التسعة ، لانه عبر عن نفسه بقوله (وكتبه) ، ومن هنا جاء الابهام ، ذلك أن عبارة (وكتبه) ، وردت محشورة ضمن أسماء أعضاء الديوان وجاءت بعد اسم الصاوى ، مما يدعو الى الظن بأن المقصود كتب الصاوى ، ولولا أننا رأينا اسم الجبرتي في الوثائق الفرنسية للحملة لفتنا أنه هو المقصود بكلمة (كاتبه) ، ولا ندرى هل اكتفى الجبرتي بالإشارة الى نفسه بقوله (وكتبه) تواضعاً أم إبهاماً ، ولو أراد الايضاح لقل (وكاتب هذه السطور) ، وقد رأينا توقيعاً ضمن أسماء أعضاء الديوان في عهد (منو) بذييل رسالة ودية بعثوا بها الى نابليون حينما كان قنصلاً أول ونشرتها جريدة (الكورييه دليجيت) في العدد ٩١ الصادر في ١٥ فبراير من السنة التاسعة (ديسمبر سنة ١٨٠٠) وهذه الرسالة أثراً في كتاب الجبرتي

والمعروف أن الفرنسيين كانوا يختارون لعضوية الديوان أشهر العلماء وأنبيهم في مصر ليحصلوا له شيئاً من المكانة ، ولم تمنع الجبرني عضويته للديوان أن يكتب باستقلال ونزاهة عن الفرنسيين وحكمهم ، ولو علموا أنه يقيد الحوادث والفظائع التي ارتكبها عمالهم ويدونها في مسودات كتابه وأن هذا الكتاب سيكون أعظم مرجع في وقائع الحملة الفرنسية لما فاتهم مصادرة هذه المسودات وإعدامها ، وظاهر من أسلوبه في الكتاب أنه كان يكتب حسبما يميل عليه اعتقاده ، ولم يفته أن يذكر للفرنسيين ما فعلوه من خير ، فقد مدح اعتدالهم وعدالتهم في محاكمة قتلة كليبر ، وذكر الإصلاحات التي أحدثوها في مصر ، وعدد مساوي الحكم التركي كما ذكر مساوي الحكم الفرنسي ولم يفته شيء من سيئات حكم الاتراك ، ويكفيك في بيانها ما ذكره عن مظالمهم بقوله انها جعلت المصريين وخصوصاً الفلاحين يتمنون أحكام الفرنسيين

على ان من يتأمل في كتاب الجبرني لا يفوته ملاحظة أنه مع عدم تحيزه في ذكر الحوادث يميل بعض الميل الى الامراء المماليك ، وهذه الميل تبدو من خلال بعض أقواله بالرغم من انه يحاول كتمانها ، ولعل هذه الميل البريئة ناشئة عن أنه كان على صلات من الود مع بعض البكوات المماليك ، وكان هو موضع احترامهم وإجلالهم ، وكان يسميهم «الامراء المصريين» وقد أدرك مذبحه المماليك في القلعة سنة ١٨١١ وكان له بين القنلى أصدقاء اتصل بهم بروابط الود ، فكان لهذه المذبحه أثر أليم في نفسه ، وكان من جهة أخرى صديقاً لمحمد بك الالفي أحد زعماء المماليك ومعجبا به ، وترى دلائل اعجابه في ترجمته له ، ومحمد بك الالفي هو خصم محمد علي الأول ، فكل هذه الاعتبارات كان لها أثرها في حكم الجبرني على أوائل عصر محمد علي باشا ، على أن حكمه هذا لا يمكن أن يؤخذ حجة في مجموعه ، لأن من شروط صحة الحكم على عصر من العصور أن يتناول المؤرخ بأكمله ، والجبرني لم يدرك إلا أوائل حكم محمد علي ورغم تلك الملاحظة فانه لا يسمع من يدرس كتاب الجبرني إلا الاعتقاد بنزاهته وبعده عن الحوى ، وتحريره الصدق فيما دونه ، وهذه الفضيلة هي أعظم مميزات الجبرني ،

وميزته الثانية هي كفايته في تدوين الحوادث وما بذله من الجهد والصبر في البحث والاستقراء

والجبرتي الفضل الاكبر في تدوين تاريخ مصر وحوادثها وتراجم رجالها في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ولولاه لغابت عنا حوادث مصر في تلك الحقبة الطويلة من الزمن ولصرنا منها في ظلمة وحريرة

وليس كتابه مرجعا للحوادث التاريخية وحسب ، بل تجدد في خلال عباراته ومشاهداته صورة حياة لحالة مصر الاجتماعية في ذلك العصر ، ولولاه لكان مرجعنا في ذلك أقوال الأفرنج الذين ساحوا في مصر في قترات مختلفة ، وهؤلاء لا يمكن التعويل على أقوالهم لانهم لم يدرسوا الوسط الذي كتبوا عنه ، وأغلب كتاباتهم مبنية على المشاهدات الفجة والآراء السطحية وأروايت التي يلتقطونها من أفواه التراجم ، ولذلك نرى كتبهم مملوءة بالاعلاط والسخافات ، ولا يصح أن يقام لها وزن بجانب كتاب الجبرتي الذي نشأ وقضى حياته في مصر ودرس أحوالها وعرف دقائق الأمور في حوادثها السياسية وأحوالها الاجتماعية ، وحسبك انه شاهد عيان لحوادث خمسين عاما أو نحوها ، وانه استقرأ حوادثها في نحو خمسين عاما أخرى ، ولم يتوفر مثل هذا الاستقراء وهذه المشاهدة لعالم آخر ، ويكفيك أيضا أنك تستطيع أن تجد تراجم رجال مصر في العصر الذي كتب عنه الجبرتي ، وقلما تستطيع أن تتف على تراجم الوفيات بعد انتهاء كتابه ، ولو أن مؤرخا قام بعد الجبرتي ودون حوادث مصر وترجم لرجالها من سنة ١٨٢٢ لما انقطعت سلسلة التاريخ بعد وفاته ولكل لدينا صورة حياة لحوادث مصر وأحوالها الاجتماعية وتاريخ رجالها من ذلك العهد الى نهضة الصحافة المصرية التي صارت بمثابة سجل لحوادث البلاد ، فهذا النقص الذي نشعر به هو من أعظم الأدلة على فضل الجبرتي على التاريخ المصري

أسلوب الجبرتي ولغته

يضر بون امثل على انمطاط الكتابة في ذلك العصر باسلوب الجبرتي ولغته ،

على ان الجبرتي لا يزعم انه كاتب اديب ، وقد كانت الكتابة صناعة ادية يقوم بها من توفروا على اسبابها من حفظ الرسائل والشعر وفنون الأدب المعروفة ، ومع ان الجبرتي من تلاميذ السيد مرتضى شارح القاموس فلم يفده السيد اكثر مما كان يفيد لواعطاه كتاباً من امهات كتب اللغة ، فوقعت في تاريخه الاغلاط الكثيرة في المفردات وفي العبارة وفي الاسلوب ، ويرجع كل ذلك الى انه لم يفرغ للادب ولا مهراً فيه ، بل درس العلوم الشرعية والفلك والرياضة ثم عمد الى التاريخ ، فسبيله الدقة والتحصيل ، والرصد والتوقيت ، والصبر والمعاينة ، والقيام أحسن اقيام على تدوين الوقائع ، وذلك كله قد وفي الرجل به ، أما اللغة ونراكيها وبعائنها فصناعة أخرى تحتاج الى مثل الوقت الذي ألف كتابه فيه ، وأكرالظن أنه مات عن مسودات كتاب لا عن كتاب ، فلو كان العمر قد امتد به لقح وهذب ، وبمّث وفتش ، وأضاف الى صناعة التاريخ صناعة الكتابة ، على أن الرجل لم يكر قایل الصعّة في الادب ، فان عباراته في بعض المواطن تدل على أنه ضرب سهم في اللغة وأوضاعها ، لكنه لم يعن بالانشاء والبلاغة ، فسلوب الجبرتي اسلوب تقريرى لا تأن له بصناعة الترسل ولا بفنون الأدب ، وما يتفق فيه من محاسن اللغة والتعبير فمرجه الى المصطلحات والالفاظ الشرعية الجارية في الفقه والحديث والتفسير والمعاملات ، والعبارات المحفوظة المتلقاة عن كتب الادب ، وهذه المراجع هي مادة العلم واللغة في ذلك العصر ، وظاهر لمن يحقق النظر في كتاب الجبرتي من الوجهة اللغوية أنه لولا العلوم الشرعية وما يجري فيها من اللغة وأوضاعها لبادت الكتابة العربية في ذلك العصر ولكان تاريخ الجبرتي قد جاءنا في لغة لبس فيها من العربية إلا حروفها .

ترجمة كتابه

وقد ترجم كتاب الجبرتي للفرنسية مرتين ، الاولى بقلم الماسيو كاردان Cardin مترجم القنصلية الفرنسية بمصر المتوفى سنة ١٨٣٨ ، وهذه الترجمة قاصرة على

الجزء الخاص بالحملة الفرنسية وهي تحوى اغلاطا كثيرة ، وقد طبعت سنة ١٨٣٨ ،
اما الترجمة الصحيحة الوافية فهي لنخبة من أدباء مصر برئاسة المرحوم شفيق بك
منصور يكن وقد ظهرت في تسعة أجزاء من سنة ١٨٨٨ الى سنة ١٨٩٦
وترجم الجزء الخاص بالحملة الفرنسية ايضا الى التركية

وفاة الجبرتي

اختلف الرواة في تاريخ وفاة الجبرتي، ففي بعض الروايات انه توفي سنة ١٢٤١
هجرية ، على أن رواية المرحوم شفيق بك منصور يكن أقرب الى الثقة لانه حقق
مسألة وفاته وتحرى عن ذريته لمناسبة ترجمة الكتاب الى اللغة الفرنسية ، فكتب
في مقدمة الترجمة أنه توفي يوم ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٧ هجرية (١٨ يونيو سنة ١٨٢٢)
وقال عن ذريته « انه توفي تاركا غلاما وبنتا وان الغلام مات عقب وفاة والده
بسنوات قليلة وأن البنت كانت لم تزل على قيد الحياة بإقاهرة حتى ظهور الترجمة
الفرنسية للكتاب لكنها كانت تعيش نسيا منسيا ، ولم يرو لنا أحد من
معاصريها ماذا صارت اليه ، وهكذا درست عائلة الجبرتي بعد ما أحياء عبيدها
تاريخ مصر.

ويستفاد من رواية شفيق بك منصور يكن أن كتاب الجبرتي ينتهى عند
حوادث سنة ١٨٢١ وأنه لا يوجد جزء خامس كما يروى البعض دون فيه حوادث
السنوات التى أعقبت سنة ١٨٢١ اذ أن تاريخ وفاته سنة ١٨٢٢ يقرب الى الدهن
أن ما دونه ينتهى بنهاية الجزء الرابع من الكتاب

— كتاب « ذكر تملك جمهور فرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية »

تأليف المعلم تقولا الترك من أدباء لبنان

ترجم المسيو ديجرانج Desgranges هذا الكتاب الى الفرنسية ونشر الاصل العربى
مع الترجمة فى كتاب واحد طبع فى باريس سنة ١٨٣٩ ، وذكر المسيو ديجرانج أنه

قابل المعلم نقولا الترك المذكور وتعرف به وذكر عنه انه ولد في دير القمر سنة ١٧٦٣ وتوفي بها سنة ١٨٢٨ وأبوه يوسف الترك وأصل عائلته من الاستانة وأنه كان في خدمة الامير بشير الشهابي الذي أوفده الى مصر على عهد الحملة الفرنسية وقضى بها ثلاث سنوات شهد في خلالها وقائع الحملة الى جلاء الفرنسيين وجمع مشاهداته التي ألف منها كتابه ، فروايته من هذه الناحية رواية شاهد عيان ، وقد نقلنا عنه بعض مشاهداته وملاحظاته

— (تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلطين)

هي رسالة صغيرة ليس لها قيمة من الوجهة التاريخية ، وضعها الشيخ عبد الله الشرقاوي رئيس الديوان في عهد الحملة الفرنسية ، ويقول في مقدمتها عن سبب وضعها أنه لما حضر يوسف باتا الصدر الاعظم الى بلبيس في شهر رمضان المعظم سنة ١٢١٤ بعد حصول الصلح بينه وبين طائفة الفرنساوية في قلعة العريش « وذهبت مع بعض علماء مصر لملاقاته طلب مني بعض الاخوان من أتباع ذلك الصدر الاعظم أن أجمع كتابا متضمنا لواقعة الحال المذكورة فأجبته الى ذلك » وليس في الرسالة عن واقعة الحال المذكورة سوى صحائف قليلة لا تغني شيئا ، وقد نقلنا عنها بعض فقرات مما شاهده الشيخ الشرقاوي بنفسه

الوثائق الفرنسية للحملة

— مراسلات نابليون Correspondances de Napoleon وهي مجموعة تحتوي جميع المراسلات والأوامر والقرارات والمنشورات والوثائق التي صدرت من نابليون في جميع أدوار حياته ، وهي مرجع على جانب عظيم من الأهمية طبعت بأمر الأمبراطور نابليون الثالث في اثنين وثلاثين مجلداً

— مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال برتران Bertrand في سانت

هيلين ، القسم الخاص بمصر عنوانه (حروب مصر وسوريا) في جزئين

Campagnes d'Egypte et de Syrie

طبعت هذه المذكرات سنة ١٨٤٧ ، وهي مصدر كبير القيمة يحتوي على معلومات

دقيقة عن حروب نابليون وسياسته ولكن فيها ملاحظة لا تفوت القارئ وهي انها
مذكرات المظاء ورجل السياسة لا تخلو من نقطة ضعف منشؤها أنهم في بعض المواطن
يكتبون ليدافعوا عن أنفسهم أمام التاريخ وأمام الأجيال المقبلة فيحرفون بعض الوقائع
في سبيل هذه الغاية ، فمذكراتهم من هذه الناحية يجب أن تقابل بالتحفظ وأن تكون
رواية الوقائع فيها محلاً للبحث والتحقيق

— مذكرات نابليون التي أملاها على الجنرال جورجو Gourgaud ، وهي
مذكرات أخرى أملاها على الجنرال المذكور أحد رفاقه في المنفى نشرت سنة ١٨٢٣
وفيه معلومات لم ترد في مذكرات برتران لكن هذه أوفى بيانا

— ذكر حروب الجنرال بوناپات في مصر وسوريا

Relation des campagnes du Général Bonaparte en Egypte et en Syrie

وهو كتاب للجنرال برتية Berthier رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية ، ضمنه
تاريخ المعارك والحوادث التي وقعت في مصر وسوريا من يوم وصول الحملة الفرنسية إلى
انتهاء معركة (أبوقير) البرية ، طبع قبل انتهاء الحملة الفرنسية ، والجنرال برتية هو من
رفاق نابليون في حياته الحربية والسياسية وكان رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في
إيطاليا ثم في مصر ، وقد عاد إلى فرنسا صحبة نابليون بعد واقعة أبوقير البرية قبل
انتهاء حوادث الحملة وتقلد وزارة الحربية عند ما صار نابليون قنصلاً أول ولازمه في
حروبه وكان موضع ثقته ورقاه مارشالاً ثم دوقاً ثم أميراً لكنه تخلى عنه سنة ١٨١٤
بعد أن أقل نجمه ومات سنة ١٨١٥ ويقال إنه مات منتحراً

— مذكرات المارشال برتية وهي مذكرات أكثر تفصيلاً من كتابه

— تاريخ الحملة الفرنسية في مصر للمسيو مارتان في جزئين طبع سنة ١٨١٥

Histoire de l'Expedition française en Egypte p. Martin

والمسيو مارتان هو أحد مهندسي الحملة الفرنسية وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون
ومن اشتركوا في وضع كتاب (تخطيط مصر)

— مذكرات بوريين

Memoires de Bourienne sur Napoleon, le Consulat, l'Empire et la Restauration

وبوريين هو سكرتير نابليون الخاص ، نشر مذكراته سنة ١٨٣١ في عشرة أجزاء (١) ، وبما يجدر ملاحظته أن هذه المذكرات مع أهميتها ودقة بياناتها يجب ان تقابل (في بعض المواطن) بالتحفظ لأن المعروف عن بوريين أنه تنكر لنابليون لما أقل نجمة في حروبه الأخيرة التي انتهت بأسره في واقعة واترلو وانضم في هذا العهد الى خصومه من الملكيين وكافأوه على تنكره لسيدته

— مذكرات الجنرال كليبر Carnet du general Kleber

— يوميات الجنرال كليبر Journal du general Kleber

— مذكرات الجنرال موران عن أعمال كليبر

Notes du general Morand sur les operation de general Kleber

— مذكرات (ميو) عن تاريخ حملة مصر وسوريا

Memoires pour servir à l'histoire des expeditions en Egypte et en Syrie p. J Miot

وميو هذا كان قوميسيراً في ادارة مهمات الحملة

— مصر بعد واقعة عين شمس

L'Egypte après la bataille d'Heliopolis

تأليف الجنرال رينييه Reynier أحد قواد الحملة الفرنسية ، طبع سنة ١٨٠٢ ، وهذا الكتاب يحتوي تاريخ حوادث مصر من نقض معاهدة العريش إلى جلاء الفرنسيين عن مصر ، وفيه فذلكة عن الحوادث التي وقعت في عهد قيادة الجنرال كليبر ، فهو من هذه الجهة يعتبر مكملاً لكتاب الجنرال برتويه ، لان كتاب برتويه ينتهى بآخر عهد نابليون في مصر ، وبدراسة الكتابين تتمثل لديك مجموعة

(١) أعيد طبعها في خمسة أجزاء كل جزء يتناول جزءين من الطبعة الأولى

حوادث الحملة الفرنسية كما يرويها قائدان من أهم قواد الحملة ، والمعروف عن الجنرال رينييه أنه كان خصماً لدوداً للجنرال منو Menon وكان بينهما خلاف شديد أشار إليه الجبرتي في كتابه ، وقد أمر منو بطرده من الاسكندرية في آخر عهد الحملة الفرنسية (وقد ذكرنا تفصيل ذلك في الجزء الثاني) فوضع رينييه كتابه ليدافع عن وجهة نظره وخططه الحربية التي عارض فيها منو ، على أن رينييه كان معتدلاً في شرح آرائه متحريراً الصديق في سرد الوقائع معتمداً في كتابه على الوثائق والبيانات الرسمية ، ويعتبر كتابه هذا من أهم وثائق الحملة الفرنسية ، وقد مات الجنرال رينييه سنة ١٨٠٤ وأعيد طبع الكتاب سنة ١٨٢٧ باسم مذكرات رينييه

Memoires de Reynier

— جريدة (كورييه دليجبت) Courier de l'Egypte وهي الجريدة شبه

الرسمية للحملة الفرنسية وقد تكلمنا عنها ص ١٤٥

— جريدة (لاديكاد اجيبسين) La Decade Egyptienne وقد

تكلمنا عنها ص ١٤٥

— رحلة في الوجه البحري ومصر العليا أثناء حروب الجنرال بوناپارت، للمسيو

فيفان دينون

Voyage dans La Basse et La Haute Egvpte pendant les campagnes
du general Bonaparte p. Vivant Denon

وقد تكلمنا عن هذا الكتاب ومؤلفه ص ١٣٩

— التاريخ الطبي لجيش الشرق للدكتور ديجنيت كبير أطباء الحملة الفرنسية

Histoire médicale de L'Armée d'Orient p. Desgenettes

— ذكريات ديجنيت Souvenirs de Desgenettes

— رسائل من مصر بقلم المسيو جوفروا سان هيلير أحد علماء الحملة وقد تكلمنا

عنه ص ١٣١

Lettres ecrites d'Egypte p. Geoffroy Saint Hilaire

— مذكرات دفيليه أحد مهندسى الحملة (يوميات وذكريات عن حملة مصر)

Journal et Souvenirs sur l'Expedition d'Egypte وقد تكلمنا عنها ص ٢٢٨

— مذكرات جالوا أحد مهندسى الحملة (أنظر ص ١٢٨)

Journal d'un ingénieur attaché à l'Expedition D'Egypte p. Jallois

— تاريخ حملة مصر Histoire de l'Expedition d'Egypte للمسيو نورى

Norry أحد مهندسى الحملة وقد تكلمنا عنه وعن كتابه ص ١٣٠

— يوميات مالوس Agenda de Malus (أنظر ص ١٣٧) وهو ضابط

كبير فى جيش الحملة وعضو بالمجمع العلمى، ومذكراته تتنازل الحوادث من فبراير سنة ١٧٩٨

الى يولييه سنة ١٨٠١ لكنها طبعت سنة ١٨٩٢

— والجنرال مارمون Marmont أحد قواد الحملة رحلة فى بعض بلاد أوروبا

والشرق، وكانت رحلته الى مصر فى عهد محمد على باشا وقد دون فيها مشاهداته

وذكرياته عن الحملة الفرنسية طبعت باسم (رحلة المارشال الدوق دى راجوز)

Voyage du Marechal duc de Raguse وهو بذاته الجنرال مارمون الذى رقه

نابليون الى لقب دوق فصار يعرف بالدوق دى راجوز ومنحه رتبة مارشال ثم غدر

بسيده لما أقل نجمه وانحاز الى أعدائه فعدّ عمله مضرب الأمثال فى الغدر وقض

العهد، وقد طبعت رحلته سنة ١٨٣٧

— مذكرات دى نيلو سارجى أحد ضباط الحملة، مات سنة ١٨٠٢ ونشرت

مذكراته سنة ١٨٢٥

Memoires secrets et inedits pour servir à l'histoire contemporaine
sur l'Expedition d'Egypte p. De Niello —Sargy

— صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى للمسيو جالان

Tableau de l'Egypte pendant la séjour de l'armee française p.
Galland

طبعت سنة ١٨٠٤ فى جزئين، والمسيو جالان هو أحد أعضاء لجنة العلوم

والفنون وكان أديباً وموظفاً فى جريدة (الكورىيه دليجيت)

١ — جيش بونابارت في مصر للقومندان جيتري

L'Armée de Bonaparte en Egypte p. Guitry

٢ — بونابارت في مصر للكابتن تورمان أحد ضباط الحملة

Bonaparte en Egypte p. Thurman

— يوميات الجنرال لوجيه Journal du Général Laugier

— يوميات الكونتر اميرال بلانكي دي شايلا أحد قواد العمارة الفرنسية

Journal du contre - Amiral Blanquet du Chayla

— يوميات الجنرال بليار

Journal du general Belliard

— مذكرات الجنرال ديفرنوا Memoires du general baron Desvernois

— مذكرات سلكوسكي Notes de Sulkowsky

— مذكرات حرية الكولونل فيجور روسيلون

Memoires militaires du colonel Vigo Roussillon

— مذكرات تاريخية عن حركات ومواقع فرقة الجنرال ديزيه للكابتن جاربيه

من ضباط فرقة الهندسة

Memoires historiques des marches et positions de la division de general Desaix p. le capitaine de genie Garbé

— ذكريات عن حملة مصر للفارس بييرميه

Souvenirs de la campagne d'Egypte p. le chasseur Pierre Millet

— يوميات فارس عن مصر، وهو أحد ضباط الحملة الفرنسية لم يذكر اسمه في كتابه

Journal d'un dragon d'Egypte

— تاريخ حملة مصر وسوريا للمسيو أدير، وهو ليس بشاهد عيان لكن كتابه

راجع الجنرال بوفيه Beauvais رئيس أركان حرب الجنرال رينييه

Histoire de l'Expedition d'Egypte et de Syrie p. Ader

— مذكرات جديدة عن الجيش الفرنسي في مصر وسوريا لريكاردو، نشرت

سنة ١٨٤٨ بعد عهد طويل من الحوادث التي دونت فيها

Nouveaux memoires sur l'armée française en Egypte et en Syrie
p. Richardo

— مجموعة ميادين الوقائع والهجمات والمعارك التي فاز فيها بونا بارت في إيطاليا ومصر

Recueil de plans de batailles, attaques et combats gagnés p.
Bonaparte en Italie et en Egypte

وهو كتاب لاثنتين من ضباط أركان حرب نابليون ممن شهدوا وقائعه ولم يذكر
اسميهما في الكتاب

— يوميات سافارى Carnet du chef d'escadron Savary أحد ضباط
الحملة الفرنسية (وهو غير المسيو سافارى صاحب كتاب رسائل عن مصر) ، والضابط
سافارى هو الذي صار في عهد الامبراطورية النابليونية الدوق روفيجو Duc de Rovigo
وله مذكرات طبعت باسم مذكرات الدوق روفيجو

Memoires du duc de Rovigo

— يوميات عن الحملة الانجليزية في مصر للكبتن ولش Walsh أحد ضباط
تلك الحملة

Journal of the late Campaign in Egypt

يتضمن حوادث الحملة الانجليزية التي اشتركت مع الحملة العثمانية لاجراج
الفرنسيين من مصر، ويبدأ بسرد وقائع الحملة من يوم احتشاد الجيش الانجليزي في
جبل طارق (نوفمبر سنة ١٨٠٠) الى جلاء الفرنسيين عن مصر وقد ترجم الكتاب
للفرنسية



ولعلك تشعر معي بأسف عظيم عند ما تقارن بين ما تركه رجال السيف والقلم في
أوروبا من المذكرات والوثائق في مختلف العصور وبين نقص تاريخنا من هذه الناحية ،
ويزيدنا أسفا أن هذا النقص يلقي ظلما حالكا على كثير من وقائع تاريخنا وبحول
دون تعرف الحقائق في كثير من أمهات الحوادث ، ولو غنى رجالا بتدوين مذكراتهم

وخواطرم ومشاهداتهم وجمع الوثائق والمخطوطات التي توفرها عليها وعينت سلاتهم بالمحافظة عليها ونشرها كعناية القوم في أوروبا بالسكان في ذلك أكبر خدمة لتاريخ مصر ولا كتسبت الآداب التاريخية في بلادنا مادة تعد من أصول الفقه التاريخي

كتاب تخطيط مصر

Description De l'Egypte

هو الكتاب الخالد الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية ، يحتوى مجموعة أبحاثهم ومذكراتهم وخرائطهم ورسومهم واكتشافاتهم في خلال السنوات الثلاث التي قضوها في مصر ، وهو أعظم كتاب ظهر في العصر الحديث عن تخطيط مصر أو هو دائرة معارف لمصر القديمة والحديثة الى انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، يتناول تخطيط آثارها وبلدانها القديمة والحديثة وثغورها وسواحلها ونيلها وترعها ونباتها وحيوانها وطيورها وأسماءها وحشراتهم ومعادنها وأحجارها وزراعتها وصناعاتها وتجارتها وعلومها وفنونها وأخلاقها وعاداتها ، وهو وإن لم يكن تاريخاً لوقائع الحملة الفرنسية لكن بعض حوادثها وردت فيه خلال أبحاثه العلمية ، على أن الكتاب لعظم قيمته لا يمكن أن يستغنى عن دراسته كل من يريد الكتابة في تاريخ مصر من أى ناحية من نواحيه بدأ علماء الحملة الفرنسية في وضع هذا الكتاب وتبويه من عهد رجوعهم الى فرنسا فأخذوا يجمعون المباحث التي أنموها أثناء إقامتهم بمصر وينقحونها ويبننون عليها ، فتقضا في تأليف الكتاب سبعة عشر عاماً ، ومات بعض مؤلفيه أثناء تأليفه وكان وضع الكتاب وطبعه بطلب من الحكومة الفرنسية ، فقد أمر نابليون بعد عودة الحملة الفرنسية من مصر أن تجمع الأبحاث والخرائط والرسوم وجميع المذكرات الخاصة بالعلوم والفنون مما انتهى اليه علماء الحملة في كتاب واحد يطبع بنفقة الحكومة ، وألفت لجنة من ثمانية من أكبر علماء الحملة اختارهم جماعة المؤلفين لتسيب الكتاب وجمع مواده وأخراجه ، وأعضاء هذه اللجنة هم برتوليه Berthollet ومونج

Monge وكونتى Conté وكوستاز Costaz وديجنيت Desgenettes وفورييه Fourier وجيرار Girard ولانكرى Lancret ، وضم اليهم فى خلال العمل دليل Delile وديفيليه Deviliers وجومار Jomard وجالو Jollais ، وتولى برتوليه رئاسة اللجنة، وتداول سكرتاريتها على التعاقب الميولانكرى ثم جومار ثم جالوا وكان للجنة قويسيرقى مندوب عن الحكومة يتولى تنظيم العمل وانفاذه وهو الميولانكرى Conté ، وبعد وفاته خلفه الميولانكرى ، وبعد وفاة الاخير خلفه الميولانكرى جومار الى أن تم ظهور الكتاب

وقد ظهرت الأجزاء الأولى من الكتاب سنة ١٨٠٩ واستمرت تظهر تباعاً إلى سنة ١٨٢٦ ، وأعيد طبع الكتاب من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٢٩ ، وهى الطبعة الثانية ، وقد درسنا الكتاب فى طبعته الثانية للميولانكرى وبلغ عدد ما بها من الخرائط والرسوم الكبيرة والصغيرة ثلاثة آلاف

والكتاب ينقسم الى وضعين ، قسم النصوص وقسم الخرائط والرسوم ، فالأول يحتوى مذكرات علماء الحملة وتقاريرهم ومشاهداتهم ويقع فى ستة وعشرين مجلداً ، والقسم الثانى فى أحد عشر مجلداً كبيراً تحتوى رسوم الآثار القديمة ورسوم مصر الحديثة ومدنها ومبانيها وصناعاتها وزراعتها وطبقات سكانها ، وكذلك رسوم حيوانها وطيورها وأسمائها وحشراتنا ونباتها ومعادنها وأحجارها ، والخرائط الجغرافية عن مصر ومديرياتها وسواحلها وترعيا وبحيراتها وصحاريها وجبالها ومدنها وثغورها وأسماء البلاد الكبيرة والصغيرة بالفرنسية والعربية

وينقسم من جهة الموضوعات الى ثلاثة أقسام

(١) وصف مصر القديمة الى عهد الفتح الاسلامى وفيه تخطيط دقيق مفصل لآثار مصر القديمة والبلاد القديمة بها تلك الآثار أو القرية منها وحالتها القديمة والحديثة

(٢) وصف مصر الحديثة من الفتح الاسلامى الى مشاهداتهم خلال الحملة الفرنسية

(٣) التاريخ الطبيعى لمصر

ولا يسع المطلع على هذا الكتاب العظيم الا أن يقر بمقدرة علماء الحملة الفرنسية فى استيعاب الحقائق العلمية واستقصاء المشاهدات والمعلومات والبيانات الدقيقة التى جمعوها فى الفترة القصيرة التى قضوها فى مصر ويعجب بما تذرعوا به من الصبر والجلد لاتمام عملهم الجليل

مؤلفات جامعة

مستندة الى الوثائق الرسمية وروايات شهود العيان

وتم كُتب لم يكن أصحابها ممن شهدوا الوقائع التى دونوها ، إلا أنها أهم من كثير من المراجع المتقدمة (عدا كتاب تخطيط مصر) إذ كانت مستندة إلى وثائق رسمية ذات قيمة كبيرة وإلى روايات شهود العيان وإليك بيان هذه الكتب

— التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية فى مصر (فى عشرة أجزاء)

Histoire scientifique et militaire de l'Expedition française en Egypte

طبع من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٣٦

وهو كتاب جامع اشترك فى وضعه جماعة من علماء فرنسا بإدارة المسيو مارسل Marcel أحد علماء الحملة الفرنسية والمسيو ريبو Reybaud أحد كتاب فرنسا السياسيين والمسيو سانتين Santine ، واستعانوا على وضعه بالوثائق والمستندات والمخطوطات والمذكرات التى جمعها لفيف من قواد الحملة الفرنسية وعلمائها (وبعضهم ممن بقى على قيد الحياة حين وضع الكتاب) كمذكرات الجنرال بليار ومراسلات الجنرال كليبر ، ووثائق المسيو دور D'Aure مدير مهمات الحملة ، ووثائق الطبيبين الشهيرين لاري Larrey وديجىنت ، ومذكرات العالم جوفروا سان هيلير عن تاريخ مصر الطبيعى ، ومذكرات بعض قواد الحملة ، والمخطوطات التى جمعها المسيو مارسل ، ووثائق المسيو بيروس Peyrusseسكرتير الجنرال كليبر الخاص ، ووثائق المسيو

بوسيلج Poussielgue مدير الشؤون المالية في عهد الحملة وغير ذلك، وكل هذه المصادر على جانب عظيم من الدقة والأهمية ، والكتاب في عشرة أجزاء الجزء الاول خاص بمصر القديمة وقد تولى تحريره ريبو ومارسل والمركز فورتيا دوربان ، والجزء الثاني خاص بتاريخ مصر من عهد الفتح الاسلامي الى الحملة الفرنسية وتولى تحريره ريبو ومارسل ، والاجزاء الستة التالية خاصة بالحملة الفرنسية وقد تولى تحريرها ريبو وحده ، ولذلك جعلنا الاشارة في كتابنا الى هذه الاجزاء بكلمة « ريبو » ، والجزءان التاسع والعاشر عن تاريخ مصر من جلاء الفرنسيين وتولى تحريرها فولابل

وقد وضع ريبو مقدمة الكتاب وهو صاحب القسط الاكبر فيه فيصح أن ينسب اليه

والكتاب فضلا عن مكاتبه باعتباره أول وأكبر كتاب جامع لوقائع الحملة الفرنسية فانه مستند الى وثائق شهود العيان ، والمسيو مارسل أحد الذين اشتركوا في تحريره كان فعلا شاهد عيان لحوادث الحملة، وقد قدم المسيو جوفروا سان هيلير الكتاب الى المجمع العلمي الفرنسي

— حملة مصر تأليف الكابتن (ثم القومندان) دي لاجونكيير

L'Expedition d'Egypte p. Le C. De La Jonquière

وهو في خمسة مجلدات كبيرة نشر فيها المؤلف الوثائق الرسمية للحملة الفرنسية المودعة في محفوظات وزارة الحربية الفرنسية ووزارات البحرية والخارجية ، وهو من أهم مراجع هذا العصر ، لكنه قاصر على مدة اقامة نابليون في مصر ، وينتهي الجزء الخامس منه برحيله الى فرنسا ، وقد ظهر الكتاب من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٠٧ ويوجد كتاب عن عهد الجنرال كليبر والجنرال منو الى نهاية الحملة الفرنسية يصح أن يكون تكملة لكتاب القومندان دي لاجونكيير وهو

— كتاب « الجنرال عبدالله منو والفترة الأخيرة لحملة مصر » (١٧٩٩ - ١٨٠١)

لمؤلفه المسيو جورج ريجو

Le general Abdallah Menou et la derniere phase de l'Expedition d'Egypte p. George Rigault

ظهر هذا الكتاب سنة ١٩١١ في جزء واحد واستند فيه مؤلفه إلى بعض الوثائق الرسمية وحاول أن يكون مكملًا لكتاب القومندان دي لاجونكيير ، لكنه ليس بالتعمق ولا بالاسهاب اللذين تراهما في كتاب دي لاجونكيير فضلا عن أنه ظاهر من أسلوب مؤلفه أنه كان يكتب مدفوعا بروح الانتصار لمنو والتعامل على كليبر فكتابه يعوزه الاعتدال الذي يكفل النصفَةَ عند تحرى الحقائق

— كتاب الكونت باجول عن كليبر واسمه (كليبر - حياته ومراسلاته)

Kleber, sa vie, sa correspondance p. le general comte Pajol

— كليبر ومنو في مصر للمسيور روسو

Kleber et Menou en Egypte p. Fr. Rousseau

وهو مجموعة من الوثائق الخاصة بعهد قيادة الجنرال كليبر والجنرال منو في مصر

عن المدة التي انقضت بعد جلاء الفرنسيين

الى إسناد ولاية مصر الى محمد علي باتا

(المراجع العربية)

— الجبرتي وهو أهم مرجع ويفوق في دقته جميع المراجع الفرنسية ، وقد

سبق الكلام عنه

(المراجع الاوربيه)

— تاريخ مصر في حكم محمد علي لهسيو فيلكس مانجان

Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly p. Felix Mengin

والمسيو فيلكس مانجان هو شاهد عيان للحوادث التي دونها في كتابه من جلاء

الفرنسيين الى سنة ١٨٣٨ وكان مقبلا بمصر موظفا سياسيا في الوكالة الفرنسية بالقاهرة ،

وكان صديقا لمحمد علي باشا واشترك في بعض الحوادث التي دونها في كتابه . وكتابه

من هذه الوجهة له قيمة كبيرة وهو من أهم مراجع تلك الحقبة من الزمن ويقع في

ثلاثة أجزاء سرد في الأول والثاني حوادث مصر من جلاء الفرنسيين الى سنة ١٨٢٣
وهما اللذان يعتبران من مراجع الفترة التي بسطناها في الجزء الثاني من كتابنا هذا ،
أما الثالث من كتابه فجاء خاصا بالحوادث التي وقعت من سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٣٨
— لمحة عامة الى مصر للدكتور كلوت بك

Aperçu general sur l'Eygple p. Clot bey

في جزئين وقد ترجم الكتاب الى اللغة العربية الاستاذ محمد مسعود بك
— ورجعنا كذلك في بعض المواطن الى (الخطط التوفيقية) للعلامة علي باشا
مبارك في عشرين جزءاً ، والى كتاب (التوفيقات الالهامية في مقارنة التواريخ
الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية) لمؤلفه اللواء المصري محمد مختار باشا طبع
سنة ١٣١١ هجرية



كلمة شكر

ولمناسبة مراجع البحث أرى واجباً عليّ أن أقدم جزيل شكرى لحضرات رجال
دار الكتب الملكية بمصر على جميل الحفاوة وعظيم المساعدة والمعاونة التي لقيتها
منهم في البحث والمراجعة ، وأخص بالذكر منهم الاستاذ أسعد بك براده مدير
دار الكتب ، والاستاذ توفيق بك اسكاروس رئيس القسم الافرنجي ، والأمين
الأول الأستاذ علي بك فكرى ، والاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبد الرسول رئيس
القسم العربي ، ومساعدى الأديب المهنّب محمد أفندى جبر ، والأمينين الفاضلين خليفه
أفندى قنديل وسيد أفندى عمر ، وأقدم مثل هذا الشكر الى الاستاذ الأسمى ،
الشيخ أحمد أبى على ، أمين مكتبة الاسكندرية ، فلهم جميعاً منى عظيم الشكر والثناء

تصحيح خطأ

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٩	٩	واحضاعهم	واخضاعهم
٢٦	٢٣	توره	تورده
٣٤	١٣	سواء	سوها
٦٤	٤	Buanaparte	Buonaparte
٧٨	٦	Desaix	Desaix
٨٥	١١	طرق	طرف
٨٧	١٢	Juoverneront	gouverneront
١٠٤	٧	تميز	تميزاً
١١٩	٥	والجنرالين	وكل من الجنرالين
١٣٢	٩	في عصر محمد علي	في عصر محمد علي وعصر اسماعيل
١٤٠	١	انقل	فقال
١٤٠	٢	فركية	التركية
٢٠٨	٢١	عَرَضِي	عَرَضِي
٢٢٧	٨	(١)	(٢)
٣٢٧	٢٢	(١) تخطيط مصر	(١) تخطيط مصر الجزء السابع عشر
		الجزء الخامس عشر	(٢) تخطيط مصر الجزء الخامس عشر
٣٦٩	٤	القرة	القوة

فهرست

صفحة

٣	مقدمة
٨	تهنئة الكتاب
	الفصل الأول
٩	نظام الحكم في عهد المماليك
٩	من هو الواضع لهذا النظام
١٢	نظام الحكم السياسي — السلطات الثلاث
١٢	الوالي
١٢	رؤساء الحد
١٣	الديوان الكبير والديوان الصغير
١٥	المماليك
١٨	تطور هذا النظام وانفراد المماليك بالحكم
٢٠	موظفو الحكومة في عهد المماليك
٢١	سياسة علي بك الكبير
٢٣	مظاهر الحكم في ذلك العصر كما وصفها شهودها
٢٣	كيف يعين الولاة
٢٤	وصف استقبال الوالى
٢٦	سلطة الوالى
٢٧	عزل الوالى
٢٧	انعقاد الديوان
٢٨	نظام الملكية والضرائب
٢٩	أنواع الملاك

صفحة

٢٩	نظام الالتزام
٣١	الضرائب وأنواعها
٣٢	الكشوفية والميرى
٣٤	الضرائب الأخرى ومقدار دخل الحكومة
٣٤	النظام القضائى
٤٢	نتائج نظام الحكم فى حالة مصر السياسية والعمرائية
٤٢	فى الحالة الاقتصادية
٤٣	فى الحالة الصحية
٤٤	فى العلوم والآداب
٤٨	الحالة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر عند مجيء الحملة الفرنسية
٤٩	طبقات الشعب
٤٩	العماء
٤٩	الملاك والتجار
٥٠	مركز مصر التجارى
٥٢	الحمارك
٥٢	طقة المزارعين أو الفلاحين
٥٤	الصنع والصناعات
٥٦	المسلمون والاقباط
٥٨	التقسيمات الادارية
٥٨	كلمة عن القاهرة وأمهاة مدن مصر

الفصل الثانى

٦٣	تطور نظام الحكم فى عهد الحملة الفرنسية
٦٣	أسباب الحملة الفرنسية

٦٤	نابليون بوتارت
٦٨	فكرة الحملة الفرنسية في خلال العصور
٦٩	في عهد لويس التاسع
٦٩	في عهد لويس الرابع عشر
٧٠	في عهد لويس الخامس عشر والسادس عشر
٧٤	نابليون وانتفاذ الحملة وموقف إنجلترا
٧٧	معدات الحملة ووقائعها الأولى
٨٣	سياسة نابليون ازاء الشعب وقاعدة الحكم التي وضعها في منشوره
٨٥	منشور نابليون الى المصريين
٩٠	لمفاوضات بين نابليون وزعماء الشعب غداة معركة الاهرام

الفصل الثالث

٩٥	نظم الحكم التي أسسها نابليون في مصر
٩٥	ديوان القاهرة
٩٥	تأليف الديوان
٩٩	اختصاص الديوان
١٠١	نظام الديوان
١٠٣	دواوين الاقاليم
١٠٤	الديوان العام
١٠٤	رسالة نابليون في الغرض من الديوان
١٠٦	اجتماع الديوان العام وقراراته
١٠٦	خطبة الافتتاح
١٠٨	رأس الديوان العام
١٠٩	قرارات الديوان

صحيفة

- المسألة الأولى - نظام مجالس الديوان ١٠٩
المسألة الثانية - النظام القضائي المدني والجنائي ١١١
المسألة الثالثة - التشريع الخاص بالمواريث ١١١
المسألة الرابعة - تسجيل عقود الملكية والضرائب العقارية ١١٢

الفصل الرابع

المجمع العلمي

- ١١٨
١١٨ تأسيس المجمع
١١٩ الفرض من المجمع - أقسام المجمع - اعتماد المجمع - مكتب المجمع
١٢٠ أعضاء المجمع العلمي
١٢١ دار المجمع العلمي
١٢٣ طائفة من أعضاء المجمع العلمي ولحمه العلوم والفنون
١٢٣ علماء الرياضيات والهندسون
١٢٣ مونج
١٢٤ كوستار - لوبير
١٢٥ حرايياز لوبير
١٢٦ حيرار - حومار
١٢٧ مورييه - لانكري
١٢٨ كورانسز - جالوا - دفييليه
١٢٨ الكولونيل جا كوتان وحرطة مصر
١٢٩ ديسوا إيمى - نوى
١٣٠ بوري - لوبير
١٣٠ علماء الطبيعيات
١٣٠ برتوليه
١٣١ جوفروا سان هيلير - سافيني - دولوميو

صحيفة

١٣٢	دليل - كوتنى
١٣٤	شامى - ديكوتيل - روزير
١٣٤	الاقتصاديون
١٣٤	بوسليج
١٣٥	استيف - تالين
١٣٥	القواد والضباط
١٣٥	الجنرال كافريللى
١٣٦	الجنرال اندريوسى - هوراسى ساي
١٣٧	مالوس
١٣٧	الاطباء والجرّاحون
١٣٧	ديجنيت
١٣٨	لارى - ديروا
١٣٩	الادباء والترجمون والفنانون
١٣٩	فيفان دينون
١٣٩	فاتور
١٤٠	مارسل - حوير - برسفال دهرميرون
١٤١	رفائيل - فيلوتو - ريجو - ردوتيه - دوترتر
١٤٢	اعمال المجمع العلمى
١٤٤	الطباعة
١٤٥	الصحافة
١٤٥	الاعمال الصحية
١٤٧	أعمال أخرى
١٥٢	زيارة الجبرنى للمجمع العلمى ومآقاله فى وصفه
١٥٢	مكتبة المجمع العلمى

١٥٠	قسم الفلك - قسم الرسم والتصوير
١٥٥	قسم الهندسة والطب والكيمياء
١٥٧	نظرة عامة في نظام الحكم الذي أسسه نابليون في مصر

الفصل الخامس

١٦١	المقاومة الاهلية في عهد الحملة الفرنسية
١٦١	كلمة عامة
١٦٣	في الاسكندرية
١٦٣	حالة الاسكندرية عند مجيء الحملة
١٦٥	حدود عمران المدينة
١٦٦	رسالة محمود باشا الفلكي عن الاسكندرية القديمة
١٦٨	حالة المدينة من الوجهة الحربية
١٧٠	ترعة الاسكندرية
١٧١	عدد سكان الاسكندرية
١٧٢	حضور الاميرال نلسن الى الاسكندرية ثم اقلاعه
١٧٣	رواية الجبرتي عن حضور نلسن
١٧٥	الحالة النفسية للشعب عند مجيء العمارة الفرنسية
١٧٦	دفاع أهالي الثغر واحتلال الاسكندرية
١٧٩	رواية الجبرتي عن احتلال الاسكندرية
١٨٠	سياسة نابليون في الاسكندرية
١٨٣	أوامر نابليون وتعليماته قبل مغادرته الاسكندرية
١٨٥	موقف الجنرال كلير في الاسكندرية
١٨٧	بين الاسكندرية ودمهور - هزيمة الجنرال ديموى
١٨٩	مسألة السيد محمد كريم والقبض عليه ومحاكمته

١٩٤	الحالة في الاسكندرية بعد اعتقال السيد كريم
١٩٥	اعدام السيد كريم

الفصل السادس

١٩٨	في البحيرة
١٩٩	معركة شبراخيت
٢٠٢	رواية الجبرتي عن معركة شبراخيت
٢٠٣	نهب القرى

الفصل السابع

٢٠٦	في القاهرة
٢٠٦	حالة الافكار في القاهرة عند مجيء الحملة الفرنسية
٢٠٧	التطوع العام في القاهرة
٢٠٩	سوء استعداد المماليك وضعف وسائل الدفاع
٢١٣	واقعة امبابه أو معركة الاهرام ونصيب المصريين فيها
٢١٣	الاستعداد للمعركة
٢١٤	سير القتال
٢١٦	رواية الجبرتي
٢٢٠	انسحاب ابراهيم بك
٢٢٢	نصيب المصريين في المعركة
٢٢٥	بعد الواقعة

صحيفة

الفصل الثامن

٢٢٧ عود إلى الاسكندرية

٢٢٧	واقعة (أبو قير) وتأثيرها في مركز الفرنسيين
٢٢٨	مقدمات الواقعة
٢٢٩	الموازنة بين الاسطولين
٢٣٠	بدء المعركة
٢٣١	بدء الضرب
٢٣٢	مقتل الاميرال برويس :
٢٣٤	خسائر الفرنسيين
٢٣٥	رواية الجبرتى عن الواقعة
٢٣٦	نتائج المعركة
٢٣٩	ديوان الاسكندرية
٢٣٩	الشيخ محمد المسيرى
٢٤٠	بين كليبر و نابليون
٢٤٢	الجنرال مارمون في الاسكندرية

الفصل التاسع

٢٤٤ في رشيد

٢٤٥	احتلال رشيد
٢٤٧	حادثة السالمية
٢٤٩	حادثة شباس عمير

الفصل العاشر

عودته إلى البحيرة ورشيد

صفحة

٢٥٢		الاضطرابات في البحيرة
٢٥٣		مهمة الجنرال مارمون
٢٥٥		تجدد الاضطرابات حول رشيد وفي دمهور

الفصل الحادي عشر

في القليوبية والشرقية

٢٥٧

٢٥٨		توزيع القوات الفرنسية في الوجه البحري
٢٥٨		المبارك بين الخانكة وأبي زعبل
٢٥٩		انسحاب الفرنسيين من الخانكة ثم احتلالها
٢٦٠		احتلال بلبيس
٢٦١		معركة الصالحية
٢٦٢		عودة نابليون إلى القاهرة
٢٦٣		الاضطرابات في الشرقية

الفصل الثاني عشر

عودته إلى القاهرة

٢٦٧

٢٦٧		سياسة الحفلات
٢٦٧		مهرجان وفاة النيل
٢٦٨		حفلة المولد النبوي
٢٧٠		تعيين أمير الحج

سجينة

٢٧١ عيد الجمهورية الفرنسية

الفصل الثالث عشر

٢٧٤ ثورة القاهرة

٢٧٥ لماذا ثارت القاهرة

٢٧٦ الاسباب المالية

٢٧٨ استطراد الى ترجمة (نفيسة المرادية)

٢٨٠ رجع ما انقطع

٢٨١ مصادرة الاملاك وهدم المباني

٢٨٢ هدم أبواب الحارات

٢٨٣ القتل والارهاب

٢٨٥ لجنة الثورة

٢٨٦ وقائع الثورة

٢٨٧ اليوم الاول للثورة

٢٨٨ مقتل الجنرال ديبوي

٢٩١ وصف الثورة بقلم شاهد عيان

٢٩٣ اليوم الثاني للثورة

٢٩٤ مقتل الكولونيل سلكوسكى

٢٩٥ وساطة أعضاء الديوان

٢٩٦ ضرب المدينة بالمدافع

٢٩٨ قمع الثورة — خسائر الفريقين

٢٩٩ مروءة سكان القاهرة

٣٠٠ فظائع الفرنسيين في اخماد الثورة

٣٠٨ ابطال الديوان وانشاء القلاع لاختضاع القاهرة

٣١١ كله عن ترسانة الجيزة

صفحة	
٣١٢	عدد القلاع التي انشأها الفرنسيون بالقاهرة
٣١٤	سدى الثورة في الاقاليم
٣١٨	تدخل العلماء ويأذونهم للشعب
٣١٩	البيان الاول
٣٢٠	البيان الثانى

الفصل الرابع عشر

٣٢٤	في المنوفية والغربية
٣٢٥	المقاومة في غمرين وتتا
٣٢٦	الحملة الكبرى
٣٢٧	الثورة في طنطا
٣٢٩	احتلال عسما

الفصل الخامس عشر

٣٣٢	في الدقهلية ودمياط
٣٣٢	واقعة المنصورة
٣٣٧	الحملة على سنباط وميت غمر
٣٣٩	فيضان الثورة
٣٤٠	الحملة على البحر الصغير
٣٤١	حسن طوبار
٣٤٢	سير الحملة على البحر الصغير
٣٤٤	معركة الجمالية
٣٤٧	عود الى حسن طوبار
٣٤٨	في دمياط

٣٥٠	واقعة الشعراء
٣٥١	تدافع الثورة وفظائع الجنرال فيال
٣٥٣	الحملة الثانية على البحر الصغير
٣٥٥	سير الحملة والاستيلاء على المنزلة
٣٥٦	احتلال المنزلة
٣٥٩	احتلال المطرية
٣٦١	تحصين منطقة دمياط

الفصل السادس عشر

٣٦٥	المقاومة في الوجه القبلي
٣٦٥	مقدمات الحملة
٣٦٨	تحرك الحملة - احتلال بني سويف
٣٦٩	احتلال البهنسا
٣٦٩	تعقب أسطول المماليك الى أسيوط
٣٧٠	رجوع ديزيه الى الفيوم
٣٧١	واقعة سدمنت
٣٧٧	فتك الرمد بالجو
٣٧٨	الموقف الحرجي في بني سويف والفيوم والمينا
٣٧٩	احتلال مدينة الفيوم واتحاد الثورة في القرى المجاورة
٣٨١	هجوم النوار على مدينة الفيوم
٣٨٢	موقف الجنرال ديزيه في الوجه القبلي
٣٨٥	تلقى المدد واستئناف الحملة على الوجه القبلي
٣٨٦	خبر الحملة من بني سويف الى ح. ح.
٣٨٦	ح. دثة النقامي

صحيحة	
٣٨٩	احتلال أسيوط
٣٩١	الثورة فيما بين أسيوط وجرجا
٣٩٢	معركة سوهاج
٣٩٣	معركة طهطا
٣٩٤	معركة سمهود
٣٩٦	وصول الفرنسيين الى اسوان
٣٩٩	المقاومة في جزيرة فيله
٤٠٠	تجدد القتال بين جرجا واسوان
٤٠١	معركة الردسيه
٤٠١	معركة قنا
٤٠٥	معركة (أبو م.اع)
٤٠٣	معركة اسنا

الفصل السابع عشر

٤٠٤	استمرار المقاومة في الوجه القبلي
٤٠٥	موقف المايك
٤٠٧	معركة الحوامه
٤٠٧	كارثة السفن الفرنسية في النيل
٤٠٩	من اسوان الى قوص
٤١٠	معركة ققط
٤١٠	معركة أبنود
٤١٣	حالة الشعب المصرية
٤١٤	رجوع ديزيه الى قنا
٤١٥	معركة بئر عنبر
٤١٨	تجدد الثورة بين قنا وجرجا

٤١٩		واقعة برديس
٤١٩		واقعة حرجا
٤٢٠		واقعة جهينة
٤٢٠		الثورة في بني عدى
٤٢٣		رواية الجبرتي عن ثورة بني عدى
٤٢٤		في المنيا وبني سويف
٤٢٤		واقعة (أبو حرج)
٤٢٤		الثورة في المنيا
٤٢٦		الثورة في اطفح
٤٢٧		حركات الجنرال ديزيه
٤٢٨		م شروع الحملة على القصير
٤٢٨		تنظيم البريد
٤٢٨		اعتقال الرهائن
٤٢٩		واقعة اسوان
٤٣٠		احتلال القصير
٤٣١		الحالة النفسية للشعب

الفصل الثامن عشر

وثائق تاريخية

٤٣٤		وثيقة رقم ١ - أعضاء لجنة المعلوم والفنون الذين استصحبهم نابليون في مصر - احصاؤهم وبيان أسمائهم
٤٣٤		وثيقة رقم ٢ - شكر (الديوان) للمسيو لوبير كبير المهندسين على تعمير مقياس الروضة
٤٤٠		وثيقة رقم ٣ - رسالة نابليون الى أبي بكر باشا والى مصر قبل رسو العمارة الفرنسية بالاسكندرية
٤٤١		وثيقة رقم ٤ - رسالة نابليون الى ادريس بك قومندان السفينة

- ٤٤٢ التركيبة في الاسكندرية
٤٤٣ وثيقة رقم ٥ - منشور نابليون الى الجمود قبل رسو الهامة الفرنسية
٤٤٥ وثيقة رقم ٦ - خطبة نابليون في الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية
٤٤٨ وثيقة رقم ٧ - واقعة المنصورة

الفصل التاسع عشر

٤٥٠ مراجع البحث

- ٤٥٠ عن نظام الحكم في عهد المماليك
٤٥١ رحلات الافرنج
٤٥٤ عهد الحملة الفرنسية
٤٥٤ الجبرتي ونارنجي
٤٥٩ اسلوب الجبرتي ولغته
٤٦٠ ترجمة كتابه
٤٦١ وفاة الجبرتي
٤٦٢ الوثائق الفرنسية للحملة
٤٦٩ كتاب تخطيط مصر
٤٧١ مؤلفات جامعة مستندة الى الوثائق الرسمية وروايات شهود العيان
عن المدة التي انقضت بعد حلاء الفرنسيين
الى اسناد ولايته مصر الى محمد علي باشا

- ٤٧٤ كلمة شكر
٤٧٥ تصحيح خطأ
٤٧٦ فهرس
٤٧٧ فهرست الخرائط ورسوم

فهرست الخرائط والرسوم

١٦٩	الاسكندرية - الميناء الشرقية سنة ١٧٩٨
١٧٦	خريطة الاسكندرية سنة ١٧٩٨
١٩٥	السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطني حين محيية الحملة الفرنسية
٢٠١	خريطة معركة شبراخيت
٢١٩	قصر مراد بك في الجزيرة
٢٣٣	خريطة واقعة (أبو قير) البحرية
٢٢١	خريطة واقعة امبابه او معركة الاهرام
٢٤٨	إضرار الفرنسيين النار في (السالمية) سنة ١٧٩٨
٣١٣	خريطة القاهرة سنة ١٧٩٨ — ١٨٠١ وفيها مواقع القلاع التي أتت بها الفرنسيون لاحتضار المدينة
٣٤٥	خريطة معركة الجماليه
٣٧٣	خريطة معركة سدمنت
٣٧٤	صورة معركة سدمنت
٣٧٦	منظر آخر لمعركة سدمنت
٣٨٧	حدثه الفقاعى
٣٩٥	صورة معركة محمود
٤١٢	» معركة أنود
٤١٧	» » بر عنبر
٤٣٦	سراى قائم بك بالناصرية حيث كان يسكن أعضاء لجنة العلوم والفنون
٤٣٧	دار اجمع العلمى بالماهرة سنة ١٧٩٨
٤٤٤	جسر امراكب (الكوبرى) الذى أشاءه الفرنسيون بين قصر العينى والروص
٤٤٦	ميدان الارميكه فى أواخر القرن الثامن عشر

حقوق الشعب

هو كتاب وضعناه سنة ١٩١٢ يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الانسان ، نخبرنا في وضعه أسلوب فريق من المؤلفين الغربيين الذين أفرغوا المبادئ السياسية والوطنية في قالب محاضرات ومحاورات لتعليم الشعب حقوقه وواجباته

نقابات التعاون الزراعية

نظامها وتاريخها وثمراتها في مصر وأوروبا

كتاب بسطنا فيه تاريخ التعاون الزراعي ومنشآته ونظمه في أوروبا والثمرات التي عادت منه على البلاد الأوروبية ، وبمبحثنا فيه عن نشأة التعاون في مصر وتاريخه ونظامه ونقاباته ومنشآته ومزاياه وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية

١٩١٤

كتاب الجمعيات الوطنية

صحيفة من تاريخ النهضات القومية

يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية في طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها طبع سنة ١٩٢٢

